عبد الكريم الخطيب

إعجاز القرآن

الإعجاز في دراسات السابقين

دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها

الطبعة الاولى ١٩٧٤

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« الحمدُ للهِ ربِّ العالمين . . الرحمنِ الرحيمِ . . مالكِ يومِ الدينِ . . إيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ . . إهدنَا الصراطَ المستقيمَ . . صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ . . غيرِ المغضوبِ عليهم ، ولا الضالّين . . »

* * *

أما بعد . . فإن للقرآن الكريم على المسلمين حقاً لم يرعوْه حق رعايته منذ عصور مضت ، وأمانة لم يؤدوها على وجهها منذ أزمنة خلت ، فلقد قصروا فى رعاية هذا الحق ، وفرطوا فى أداء هذه الأمانة . . ثم لقد كان حسابهم على هذا التقصير وهذا التفريط ، حسابا معجلا فى هذه الدنيا ، قبل حسابهم الطويل العسير المؤجل ليوم الحساب . . يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وإنه ما أخلى المسلمون مكانهم من قيادة ركب الحياة ، على طريق الحق ، والعزة — إلا بعد أن تراخت أيديهم عن التمسك بكتاب الله ، وإلا بعد أن عزلوا أنفسهم أو كادوا يعزلونها عن الحياة فى ظل من هدى هذا الكتاب .

وتاريخ المسلمين مع القرآن الكريم يشهد لذلك شهادة قائمة على هذا الحساب . . مقدرة بهذا التقدير ، جارية معه ، طرداً وعكساً .

فإنه على قدر ما كان يقترب المسلمون من كتابهم الكريم ، وبقدر ما كانوا

يرعون حقه ، ويؤدون أمانته — كان نصيبهم من الخير ، وكان حظهم من السلامة والأمن . . فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأوطانهم ، وكان مكانهم من العزة والسيادة فى المجتمع البشرى .

والعكس صحيح . . فإنه على قدر ما كان يبعد المسلمون عن كتابهم ، وبقدر ما يفرطون فى حقه ، ويستخفون بشأنه — كان بعدهم من الخير ، وكان ابتعادهم من السلامة والأمن ، وكان وضعهم الحرج المضطرب بين الأمم !

وليس هذا شأن المسلمين وحدهم . . بل هو شأن كل من يُدعى إلى الحق فيلقاه معرضاً ، أو يصحبه على دخَل وجفاء !

وفى واقع الحياة وعلى مسرح أحداثها كثير من المُثلاَت والعبر .

بنو إسرائيل مثلاً . . .

أطعمهم الله خير طعام ، تشتهيه النفس ، وتطيب معه الحياة . . فأنزل عليهم المنّ والسلوى . . يجدونه حيث يشاءون ، حاضراً عتيداً بين أيديهم ، لا يتكلفون له جهداً ، ولا يبذلون من أجله دانقاً ، أو درهما .

ومع هذا . . فقد عافت نفوسهم هذا الطعام الطيب الكريم ، المنزل من السماء ، المحفوف بالرحمات والبركات ، وأبت نفوسهم الملتوية الخبيثة إلا أن تضع فمها على التراب ، وأن ترعى مع الأنعام ، وتأكل مما يأكل الحيوان ! وقد كشف القرآن الكريم هذا الموقف اللئيم الذى وقفوه إزاء هذه النعمة الكريمة . . حيث يقول الله تعالى :

« وإذْ قلتمْ يا موسَى . . لنْ نصبرْ عَلَى طعامٍ واحدٍ . . فادعُ لنَا ربكَ يخرجْ لنَا ممَّا تنبتُ الأرضُ . . منْ بقلهَا وقثّائهَا

وفومها[1] ، وعدسها وبصلها . . قال : أتستبدلونَ الذي هوَ أدنى بالذي هوَ خيرٌ ؟ اهبطُوا مصراً فإنَّ لكمْ مَا سألتمْ ، وضربتْ عليهمُ الذلةُ والمسكنةُ وباءُوا بغضبٍ منَ اللهِ »[2] .

وقد هبطوا المصر — وهو المدينة — فهبطوا هبوطاً مادياً ومعنوياً معاً . . فضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله !

فهذه مائدة كانت ممدودة لهم من السماء . . وكان جديراً بالقوم أن يجتمعوا إليها ، وأن يشدوا أيديهم وقلوبهم عليها . . ولو أنهم فعلوا ما زايلهم هذا الخير أبداً ، ولعاشت فيه أجيالهم جيلا بعد جيل ، يطعمون من هذا الطعام الطيب ، الذى تصفو عليه النفوس ، كما تصح عليه الأبدان .

ومن يدرى ؟ . . فلعله لو ذهب بنو إسرائيل بالتجربة إلى غايتها لتغير وجه الحياة الإنسانية بهم ، ولظهرت فى الحياة سلالات بشرية لا تحمل «معدة» الحيوان ، ولا بهيمية البهائم . . ولكن الله بالغ أمره !

« قدْ جعلَ اللهُ لكلِّ شيءٍ قدْراً[3] » .

فبدل الله نعمة القوم نقمة ، وضربهم بالذلة والمسكنة ، فما استقام لهم وجه فى الحياة ، ولا كان لهم فيها من زاد إلا السحت الخبيث من الطعام . .

« واتلُ عليهمْ نبأَ الذى آتيناهُ آياتنا ، فانسلخَ منْها فأتْبعهُ الشيطانُ فكانَ منَ الغاوينَ . . . ولوْ شئْنا لرفعناهُ بها ، ولكنهُ أخلدَ إلى الأرْض ، واتبعَ هواهُ . . . فمثلهُ كمثلِ الكلبِ . . إنْ تحملْ عليهِ يلهثْ

---

(١) الفوم : الحنطة .

(٢) سوره البقرة : آية ٦١

(٣) سورة الطلاق : آية ٣

أوْ تتركهُ يلهث »[1] .

ونحن — المسلمين — ماذا كان منافى شأن القرآن الذى بين أيدينا ؟

لقد أنزله الله علينا مائدة من السماء . . مائدة حافلة بالطيبات من الرزق ، محملة بالكريم الغدق من النعم !

ذلكم هو « القرآن الكريم » الذى وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« وننزِّلُ منَ القرآنِ ماهوَ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ »[2] وقوله تبارك اسمه: « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً »[3] ، وقوله جلّ شأنه : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »[4] وقوله عزّ من قائل : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون »[5] .

والذى يقول فيه النبي ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إن هذا القرآن أنزل آمراً وزاجراً وسنة خالية ، ومثلاً مضروباً ، فيه نبأكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحُكمُ ما بينكم ، لا يُخلِقه طول الردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلَج ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أُجر ، ومن تمسك به هُدى إلى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين . . عصمة لمن تمسك به ، ونجاه لمن اتبعه . . . » . . ويقول فيه : « القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته » .

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٥ ، ١٧٦ . (٢) الإسراء : آية ٨٢ .
(٣) سورة الإسراء : آية ٩ (٤) سورة ص : آية ٢٩
(٥) سورة الزخرف : آية ٤٤

فالقرآن الكريم مأدبة الله ، ومأدبة الله هذه . . تحمل الشفاء والرحمة ، كما تحدّث الآية الكريمة بهذا ، عن القرآن الكريم .

وإن هذه المائدة التي أعدها الله للمسلمين ليست على شاكلة تلك المائدة التي أنزلها على بني إسرائيل ، طعاما يغذى الأجسام ، ويشبع البطون !

وإنما المائدة الممدودة للمسلمين ، مائدة يتغذى منها العقل والروح ، فتتخلّق منها ملكات علوية ، ووجدانات ربانية ، بها يسمو الإنسان ، ويعلو ، وبها يرتفع على هذا الضعف الإنساني الكامن فيه ، وينتصر على هذه النزعات الحيوانية المندسّة في كيانه .

ولهذا يقول الرسول الكريم عن تلك المائدة الكريمة : « فتعلموا من مأدبته » ولم يقل — صلوات الله وسلامه عليه — « فكلوا من مأدبته » . . ذلك لأن القرآن مأدبة علم وحكمة وخُلق . . وليس مأدبة معدة ، ولا طعام بطون ! !

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى قدْر هذه الأمة وأعلى شأنها ، وكيف جعل غذاءها السماوي الذي أنزله عليها ، غذاء يتصل بالعقل والروح ، ولم يجعله فيما يساق إلى البطن والمعدة ! وفي ذلك ما فيه من كرامة وتكريم لهذه الأمة ، التي تتلو القرآن وتدين بالإسلام ، وتأخذ بحظها من هذا المقام العظيم الذي أقامها الله تعالى فيه ، ويخاطبها الحق سبحانه بقوله :

« كنتُمْ خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ ، وتنهوْنَ عنِ المنكرِ ، وتؤمنونَ باللهِ »[1] .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠

فمن شأن القرآن الكريم أن يقيم المتصلين به على طريق الحق ، فيأمرون بالمعروف ، وينهوْن عن المنكر ، ويؤمنون بالله . . .

إن الذى يستقيم على دعوة القرآن ، لهو إنسان سليم ، مُعافًى فى نفسه ، ثم هو مع ذلك قادر على أن يحمل الهدى والخير إلى غيره ، فيأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويكون خليفة الله فى الأرض ، وخليفة الرسول فى الدعوة إلى الله !

ولكن صحبة المسلمين للقرآن ، لم تكن صحبة كريمة قائمة على العدل والإحسان فى جميع الأحوال . . فكثيرا ما أساء المسلمون هذه الصحبة ، وأوسعوها جفاء وعقوقا . . يعيش القرآن فيهم غريباً ، لا يقفون عنده ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يتلقوْن بعض ما فيه من خير وهدى ! وكأنهم لم يتلوا من آيات القرآن هذه الآية الزاجرة : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »[1] .

وليس حال المسلمين — مع القرآن — فى كثير من الأحوال — بأحسن من حال بنى إسرائيل مع ما أنزل الله عليهم من المنّ والسلوى ، ومع ما فَضَل به عليهم من نعم كانت تساق إليهم مع كل نبىّ !

* * *

وإذا كان بنو إسرائيل قد عافوا هذا الطعام السماوى الطيب ، واستبدلوا به ما تنبت الأرض ، فإن المسلمين قد زهدوا فيما حمل القرآن إليهم من رحمة وهدى ، ومن أحكام وتعاليم ، فعافوا هذا كله ، وولوا وجوههم إلى ما أخرجت الأرض من ضلالات وسفاهات ، فهاموا بها ، وعاشوا فيها ، وأبوْا أن يرتفعوا إلى المنزلة الكريمة التى دعاهم الله إليها . . وكانت عاقبة أمرهم أن جفتهم الحياة ، وأنزلتهم

(١) سورة محمد : آية ٢٤

منها هذا المنزل الدُّون . . وأخذتهم البأساء والضراء ، فأخلوْا مقامهم الذى كانوا قد رُفعوا إليه ، يوم تلقوْا القرآن من يدى الرسول الكريم ، وأُشربوا فى قلوبهم حُبَّه ، والاستظلال به .

وهكذا كان شأن المسلمين فى كل دور من أدوار حياتهم . . كلما عافوا هذا الطعام السماوى ، وهاموا على وجوههم ، يطعمون مما ترمى به الحياة إليهم من زَبدها وغُثائها — هانوا . وذلّوا . . وكلما نظروا فى كتاب الله واستقاموا على هديه ، رشدوا ، وعلوْا ، وكانوا خلفاء الله فى الأرض ، وعادوا إلى مقامهم الذى دعاهم الله تعالى إليه ، ووعدهم به ، فى قوله سبحانه :

« وعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا منكمْ وعمِلوا الصالحاتِ ليستخلفنّهمْ فى الأرْض كما استخلفَ الذينَ من قبلهمْ ، وليُمكّننَّ لهمْ دينهمُ الّذى ارتضَى لهمْ ، وليُبدلنّهمْ من بعدِ خوفهمْ أمناً ... »(١) .

والجفوة التى بين المسلمين وبين القرآن الكريم جفوة غليظة مستحكمة . . قد تظاهرت عليها دواع كثيرة أحكمت بنيانها ، وثبتت دعائمها ، فلم يَعُد بين المسلمين وبين القرآن طريق يصلهم به ، إلا تلك الطرق الدارسة الطامسة ، التى تتصاعد منها أتربة وأدخنة ، تعمّى على الناظر فى كتاب الله وجوهَ الحق والخير الذى فيه .

* * *

والجفوة القائمة بين المسلمين وبين كتاب الله الذى فى أيديهم ، قد تظاهرت عليها دواع كثيرة ـ كما أشرنا من قبل ـ منها هذا الضعف البادى فيهم منذ تركوا كتاب الله ، ونسوا اليوم الذى تركوه فيه ، أو تناسوه ، ثم نظروا فوجدوا أنهم ـ وهم محسوبون

---

(١) سورة النور : آية ٥٥

على القرآن — قد تخلفوا عن ركب الحياة ، وأن القرآن لم يَخِفّ للأخذ بيدهم ، ثم كان أن اتخذ أعداء الإسلام والمتربصون به — اتخذوا من هذه المشاعر مدخلا يدخلون به إلى ضعاف الإيمان ، فأكدوا عندهم هذه المشاعر الجافية للقرآن ، وصرخوا فى آذانهم أن التمسوا غير القرآن داعياً تدعونه لاستنقاذكم ! وإذ لم تجد هذه الصرخات آذاناً كثيرة تستمع إليها ، وتستجيب لها — جاءوا لحرب القرآن من جهة أخرى ، وهى اللغة العربية التى هى ترجمان آيات الله : يقطعون الصلة بينها وبين أهلها ، ومن ثَمّ يقطعون الطريق بين المؤمنين وبين كتاب الله بطمس معالم اللغة الناطقة به . . وقد وجدت تلك الدعوة كثيرين من المستجيبين لها فى غير تحرج أو تأثم ، إذ كان فى حساب هؤلاء المستجيبين أن اللغة لا صلة لها بالدين ، وأنه إذا صح أن يتحرج المرء فى أمور دينه ، فإنه لا يصح أن يتحرج فى أمور لغته ! وما درى هؤلاء الأغرار المخدوعون أنه لا طريق لهم إلى دين الله ، إلا عن كتاب الله ، وأنه لا سبيل للاتصال بكتاب الله إلا عن طريق اللغة التى نزل بها . . وما دَرَوْا أنهم وقد استخفوا باللغة العربية وتهاونوا فى شأنها ، قد استخفوا بدينهم ، واعتزلوا أو كادوا يعتزلون طريقه ! !

٭ ٭ ٭

إن كل حظ المسلمين من القرآن اليوم هو حظهم من مخلفات الآباء والأجداد مما تضمه المتاحف ودور الآثار . . يزورونها لماماً ، ويطرقونها حيناً بعد حين . . . قد تثير فيهم نشوة عارضة ، أو تبعث فيهم عزة كاذبة . . ينفضونها من نفوسهم قبل أن يزايلوا المزارة ، كما ينفضون ما قد يكون علق على ثيابهم من التراب وهم يجوسون خلال الديار ! . . هذا إذا كان معهم من المشاعر ما يدعوهم إلى لقاء كتاب الله ، ولو على أزمان متباعدة ! !

فنحن نُلِمّ بالقرآن إلماماً ، ونلقاه حيناً بعد حين . . وقد نذكر به ما نذكر من

مواعظَ وزواجر . . ثم لا نلبث حتى ننخلع عن ذلك قبل أن نضع المصحف من أيدينا ، لنلقى الحياة ، ونختلط بها ، كما نحن ، على الوجه الذى كنا نصحبها به ، ونعيش معها عليه !

فما يحدّث به القرآن شيء . . وحياتنا التى نحياها ونتقلب فيها شيء آخر . . بعيد كل البعد عن القرآن ، وما يتحدث به القرآن .

إن المسلم يعيش فى هذه الحياة بشخصية « مزدوجة » ويلقاها بنفس منقسمة على نفسها . . ! ولهذا كان مسيره فيها مختلجاً مضطرباً . . تتماوج أبعاضه بين مشرق ومغرب ، وشمال وجنوب . . فهو يتحرك فى مكانه حركة متماوجة . . فلا يتقدم خطوة إلى الأمام على كثرة هذا الضرب المضطرب فى الأرض !

فالمسلم حين يلتقى بكتاب الله يذكر الإسلام ، وشريعة الإسلام ، وتنتصب لعينيه مثل رفيعة كريمة للحياة الإنسانية الكريمة الرفيعة ، يهفو إليها قلبه ، وتتحرك لها نوازعه ، وتنطلق نحوها آماله . . ولكنه حين يزايل هذا الموقف ، ويدخل معترك الحياة مع الناس ، ويضطرب فيما يضطربون فيه ، لا يجد شيئاً مما كان فيه مع القرآن ؛ من مُثُل ، ونوازع ، وآمال . . وإذا هو إنسان غير هذا الإنسان الذى كان مع القرآن منذ قليل . . . إنسان كأن لم يعرف القرآن ولم يعرفه القرآن . . وهكذا يظل المسلم فى أحسن أحواله سائراً فى هذين الاتجاهين المتضادين . . بل المتنازعين المتخاصمين . . وهذه حال أشبه بحال « المنافقين » فى مقام الإيمان ! ! ليسوا مؤمنين وليسوا كافرين . . والنفاق شر من الكفر . . إذ لا يُرجى لصاحب النفاق استقامة على طريق ، ولا رجعة إلى حق . .

أما صاحب الكفر فإنه قد يتجه إلى الإيمان يوماً ، وقد يتفتح قلبه للخير

والهدى ، بعد أن يلجّ فى الغىّ والضلال .. ولهذا توعد الله المنافقين بما لم يتوعد به الكافرين ، فقال تعالى :

« إنَّ المنافقينَ فى الدركِ الأسفلِ منَ النَّارِ ولن تجدلهمْ نصيراً »(١) .

وقالَ : « وعدَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والكفارَ نارَ جهنمَ »(٢) .

فقدمهم فى هذا المقام الكريه على الكفار ، وجعلهم قادة هذا الركب الضالّ المساق إلى عذاب السعير !

وإن المسلم ليحيا فى هذه الحياة الدنيا على نفاق مع نفسه .. إذ يلقى كتابَ الله بوجه ، ثم يلقى الحياة والناس بوجه ، أو بوجوه ... ! فانظر أى حال تلك الحال . وقدّر أى مصير يصير إليه أهلها ! !

* * *

ولم يؤتَ المسلمون فى دينهم من نقص قد ظهر لهم فى هذا الدين ، أو عيب بدا لهم منه ، فخف ميزانه فى نفوسهم ، وضمر وجوده فى كيانهم .. ليس لشىء من هذا دخل على المسلمين ما دخل عليهم فيما بينهم وبين دينهم من نفور وجفاء .. فالمسلم — أى مسلم — أحرص ما يكون على دينه ، وأكثر ما يكون تعلقاً به ، وذكراً له ، وحديثاً عنه ، وغيْرةً عليه .. ولكنه مع هذا مغلوب على أمره فى الدفاع عن هذه المشاعر الضاغطة عليه ، وفى الاحتفاظ بتلك الأحاسيس ، التى يحملها فى كيانه من جهة الدين .. إنه لا يكاد يلقى الحياة حتى تغرب شخوص هذه المعالم الدينية من نفسه ، وتولّى الأدبار .. وهو يرقبها فى ألم وحسرة ، ويشيعها فى وجيعة وكمد ! !

والسبب فى هذا يرجع — فى تقديرنا — إلى تَميُّع العقيدة الدينية فى نفس

(١) سورة المائدة : آية ١٤٥ (٢) سورة التوبة آية : ٦٨

المسلم ، وإلى اختلاط كثير من مسائلها فى تفكيره ، وعدم وضوح المعالم والحدود لكثير من أمور الدين عنده ، وذلك لأمور كثيرة منها :

أولا : هذه الخلافات السياسية والمذهبية التى وقعت بين المسلمين منذ أعقاب الخلافة الراشدة فانعكست آثارها على المسائل الدينية التى تشكل منها الفقه الإسلامى ، فجاءت تلك المسائل على وجوه كثيرة متناقضة متضاربة ، يلطم بعضها وجه بعض ، بحجج تسندها آية أو آيات من كتاب الله ، متأولةٌ على غير وجهها ، أو حديث ضعيف ، أو أثر مكذوب . . فتجد كلّ هذه الأقوال منطقاً يقيمها ، وذكاءً يدارى عُوارها ، بما دخل على المسلمين من مذاهب الجدل والسفسطة منذ قيام الدولة العباسية . . وكان من هذا أن تشعبت مسائل الدين بين الطوائف المختلفة ، التى انقسمت كل طائفة منها على نفسها ، فكانت فرقاً تبلغ المئات عدَاً . . وقد ذهبت كل فرقة فى الدين مذهباً ، وأقامت لمذهبها حجته من كتاب الله وسنة رسوله ! ! . . وهذا هو أفدح مافى الأمر ، وأشنع مافى هذا الخلاف . . فالمسألة الواحدة من مسائل الدين تأخذ دورة طويلة لا تنتهى ، فلا يكاد المسلم يمسك منها بطرف حتى تجره جرّاً إلى مسائل كثيرة تتولد منها ، وتتفرع ، وإذا هو أمام صورة « مهزوزة » تتراقص أمام عينيه كما يتراقص الشبح فى ضوء مصباح ، عبثت بذبالته الريح فى يوم عاصف ! وإذا هو على مشاعر ومفاهيم مختلفة عن مشاعر الجماعة ، وإذا كل فرد فى المجتمع الإسلامى أمة وحده ، فى فهمه لدينه ، وفى إقامة سلوكه عليه . . وصدق الشاعر العربى ، الذى ساءته تلك الحال فقال واصفاً لها :

كنّا أناساً على دين ففرقنا … قرعُ الكلام وخلط الجدّ باللعب

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهمُ … عن الجدال وأغناهم عن الخطب

ثانيا : التعويل على هذا الفقه الذى تولد من تلك الخلافات المذهبية والسياسية ،

تعويلا تامًّا ، وربط المسلمين به ربطاً محكما ، حتى لقد أصبح عند كثير من علماء المسلمين وفقهائهم أنه هو دستور الشريعة الإسلامية وترجمان كتابها الكريم .
وكان من هذا أن أصبح أكثر العلماء والفقهاء متعلِّقاً بهذا الفقه، أكثر من التعلق بكتاب الله . . فهم يرجعون إلى مقولات المذهب أو المذاهب الفقهية ، فى كل أمر يعرض لهم ، وفى كل داعية من دواعى الحياة ، يُراد للدين أن يزنها بميزانه ، ويقيسها بأحكامه ! فإذا خرج رأى دينى من محصَّل هذا النظر فى أقوال المذاهب الفقهية خرج مذعوراً قلقاً ، يموج فى أخلاط من الآراء المتناقضة ، والأقوال المتخالفة . . لا يكاد المرء يعرف منها أين وجهه وأين ظهره !

من أجل هذا «تميعت» مسائل الدين ، وغامت فى أنظار المسلمين ، فهم يُطيفون بها فى إجلال وتقديس . . أشبه بإجلال المجهول وتقديسه . . لا يقوم فى النفس مقاما ثابتاً مطمئنا أبدا ، بل سرعان مايذهب ذلك الشبح الباهت ، إذا طلع عليه بصيص من نور ، أو لمعة من سراب !

والقرآن ، هو مصدر الشريعة الإسلامية ، وهو دستورها القائم أبدَ الدهر . .
وقد استغنى به المسلمون فى الصدر الأول للإسلام فأغناهم عن كل شىء ، لا يمدون أبصارهم إلى غيره ، ولا يأخذون لدينهم ودنياهم إلا بما توحى به إليهم كلماته ، وتومىء به إليهم آياته .

وطبيعى أن هذا القول الذى نقوله فى كتاب الله ، نقوله أيضاً فيما ثبت من سنة الرسول الكريم القولية والفعلية . . إذ كانت السنة المطهرة تطبيقا شارحا للكتاب الكريم :

«وَما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا» [1] .

* * *

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

ولا يستقيم هذا القول الذى نقوله : بأن القرآن هو مصدر التشريع الإسلامى إلا بفهم سليم صحيح لكتاب الله ، ولا يكون هذا الفهم السليم الصحيح إلا عن طول تأمل وتدبر لكتاب الله ، وتذوق لأساليب بيانه ، ووقوف على بعض أسراره . من طول المدارسة للغة العربية ، وفقه أساليبها ..

وبهذا الفهم لكتاب الله يتحقق لنا أمران :

أولها : تصوير مسائل الدين تصويرا واضحاً دقيقاً محدداً ، بلا ذيول ، ولا معلقات .. وبهذا يعرف المسلم الحكم قاطعاً فيما أحلّ الله وما حرّم .

وثانيهما : جعل مسائل الدين واقعة فى مفهوم المسلمين ، واضحة فى تصورهم ، إن لم يكن ذلك لهم جميعاً ، فالجمهرة العظمى فيهم ، حيث تُعرَض مسائل الدين فى كلمات يسيرة ، مفهومة ، لاتتجاوز آية كريمة من آيات الله ، فإن احتاجت إلى شرح ، فلا يتجاوز ذلك أكثر من بضع كلمات تزاد عليها ..

وبهذا يتصل المسلم اتصالا مباشراً بدينه ، وبهذا يرى الأمور ويقيسها بعينيه هو ، لا بعينى غيره ، ممن يذهب به كل مذهب ، ويسلك به كل طريق ، فلا يدرى أين مذهبه ، ولا أين طريقه ! .. إنه ــ حينئذ ــ يكون هو الذى يقيم الرأى لنفسه ، بما أراه الله فى كتابه .. وبهذا يعرف المسلم وجه طريقه فى الحياة ، ويستقيم عليه .

* * *

من أجل هذا ــ كان هذا البحث ، الذى لايعدو أن يكون نظرات فى كتاب الله ، تتمثل فيها مفاهيم المسلمين للقرآن الكريم ، على اختلاف وجهات نظرهم ،

وتغاير أزمانهم ، وثقافاتهم . . وقد استقبلنا هذه النظرات جميعها بنظر خاص لنا ، أجريناه معها ، وجعلناه فى حسابها ، راجين أن يزداد به العلم الذى تستبين به معالم الطريق إلى كتاب الله ، وإلى تدبر آياته ، وفهمها فهما يقيم فى كيان المسلم إيمانا راسخا بها ، ووازعا قويا ملهماً ، وإذا هو من كتاب الله ، فى حراسة أمينة ، وفى نهار مبصر .. فلا يضلّ ولا يشقى ..

* * *

وإذن ، فنحن الآن مقدمون على البحث فى كتاب الله ، متجهون إلى النظر فى أسراره وعجائبه .. فما طريقنا إليه ؟ وما وجهة نظرنا فيه ؟

والحق أن طريقنا هنا متشعب المسالك ، مختلف آفاق النظر .. وإن كان كل مسالك ، يسلك بنا إليه ، وكل أفق ، يصلنا به ، ويدنينا منه . . إذ القرآن بالمقام الذى يجمع المسالك كلها ، ويعلو على الآفاق جميعها .. وهذا من شأنه أن ييسر أمرنا وأن يعسّره معا .. فأمرنا مع القرآن سهل ميسور إذا نحن قصدنا قصداً واحداً منه ، وأخذنا سبيلا واحدة إليه .. ولكن هذا الأمر مرهق أشد الإرهاق عسير غاية العسر ، إذا نحن مددنا البصر إلى كل أفق من آفاق القرآن ، وأطمعنا النفس فى كل خير من خيره . . هنالك يكون الجرى اللاهث ، والعدو الذى تتقطع به الأنفاس على مدى العمر .. ثم لا يكون ذلك إلا خطوة قصيرة فى هذا الكون العظيم الذى لا حدود له :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا »[1] .

ولهذا فإنه من الحق أن نقرر هنا ــ أنه ربما كان من عيوب هذا البحث ،

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩

أو من حسناته ، لا أدرى — أنه لم يواجه الموضوع مواجهة مباشرة . . بل جعل يطوف حوله — مدانياً ومباعداً — تطوافا طويلا ، استنفد كثيراً من الوقت ، وكثيراً من الجهد ، الأمر الذى ربما يكون قد تحيف الموضوع الأصلى ، وأدخل الضيم عليه .. !

* * *

وأحسب أن الأمر يحتاج إلى إيضاح وتجلية .. إن الحقائق التى تضمها الفنون الجميلة — كفن القول ، والنحت ، والتمثيل ، والتصوير ، والموسيقى — هذه الحقائق لا تظهر على مسرح الحياة فى العمل الفنىّ واضحة المعالم والحدود ، كما هو الشأن فى الحقائق العلمية . . ولكنها أشبه بالأطياف ، تلوح وتختفى ، وتروح وتغدو ، وتقرب وتبعد . . لا يستطيع أحد أن يستولى عليها جملة ، ويضمها إليه جميعاً . . وإنما غاية ما ينال منها لمحات خاطفة ، وإشارات لامحة ، ومنطق هامس خافت ، لا يكاد يبين .

هكذا شأن الحقائق الفنية . . ليست حقائق خالصة ، وإنما هى حقائق وظلال . . أو هى ظلال تتحرك فى أحشائها حقائق ، كما تتحرك الأجِنَّة فى الأرحام ! ! .

فالذى يطلب الحقيقة الفنية لا يبلغ شيئاً منها، إلا إذا سار إليها من خلال هذه الظلال ، ببصيرة نافذة ، ووجدان يقظ ، وحس مرهف ... فتلك هى وسائله التى يتظنىّ بها مواقع الحقيقة ، وتلك هى الأصابع التى تشير له إلى مطلعها ، وترفع له بعض أستارها ، ليرى ما يستطيع أن يرى من مفاتنها وسحرها !

* * *

والإعجاز القرآنى حقيقة الحقائق ، ولبّ لبابها . .

قد أودعه الله سبحانه وتعالى فى كلمات نُظمت نظم الدر المكنون ، فكانت قلائد من البيان الربانى العربى !

فهل فى مقدور إنسان يطلب هذه الحقيقة الكبرى أن يلقاها لقاءاً مباشراً ، وأن يهجم عليها بلا استئذان أو استئناس ؟

إن ذلك مقام مهيب جليل كريم . . تقوم دونه حجب وأستار ، من الرهبة والروعة والجلال . . ! فإذا لم يكن الساعى إلى هذا المقام الكريم المهيب على شىء غير قليل من الكياسة والتلطف ، والتأدب — لم ير إلا أبواباً مغلقة دونه ، ولم يظفر بغير الرد والحرمان .

لهذا — ونحن نحرص على أن نطالع وجه الإعجاز ، وأن نملأ العين والقلب منه — فقد جئنا إليه مترفقين ، متلطفين ، نبسط يد الضراعة والرجاء ، عسى أن يُفتح لنا ، فنقف حيث نرى ونشهد ، أو يؤذَن لنا لندخل ، حيث نطعم ، ونتزود !

وندع هذا المجاز من القول ، إلى الحقيقة ، ونتجاوز هذا الضرب من التلميح إلى التصريح . . فنقول :

إن لقاءنا مع إعجاز القرآن لن يكون إلا بعد أن ننظر نظرات كثيرة هنا وهناك . . نظرات نَرُود بها الطريق ، ونستأنس بما يقع لنا فى طريقنا من معالم ومعارف . . حتى إذا دانينا الغاية لم نجد وحشة ، ولم تتقطع بنا السبل !

وقد كان من تدبيرنا فى هذا أن جعلنا طريقنا إلى الإعجاز مراحل . . كل مرحلة منها تعتبر مدخلا إلى الإعجاز ، وطريقاً قاصداً إليه ، يدنينا منه ، ويصلنا به !

وعلى هذا جاء الكتاب عدة مباحث . . لا مبحثاً واحداً . . وكان دخولنا إليه من أكثر من باب ! مع مدخل ندخل به إلى تلك الأبواب . .

فالباب الأول: كان : « نظرة فى كلام الله . . وكلام الناس » وكان غايتنا من هذه النظرة الكشف عن معدن الكلام القرآنى . . ولم انفرد عن سائر الكلام ، مع أنه لم يخرج عن أنه كلام مما يجرى على ألسنة العباد ؟

وقد جعلنا هذا الباب فى صدر الكتاب ، ليرى القارىء الذى يصحبنا فى هذا البحث ، أى كلام هذا الذى جعله الله قرآنا ، وليشهد مطالع من وجوه هذا الكلام ، يأنس إليها قبل أن يلتقى مع وجوه الإعجاز فى القرآن .

وأما الباب الثانى : فقد جعلناه : « المعجزة .. فى زمانها ومكانها » .. إذ كان لابد من الكشف عن وجه الحكمة فى اختيار الجزيرة العربية موطناً للرسالة الإسلامية ، وتخير العرب ولسان العرب لحمل هذه الرسالة . . ثم : هل هناك حكمة فى توقيت الرسالة بهذا الوقت الذى جاءت فيه ؟

كل هذا كان لابد من الإجابة عليه . . فإذا استبان ذلك كان فيه شاهد حق على أن الرسالة ليست من تدبير بشر ، ولا من تقدير إنسان . .

والباب الثالث : « آراء ومباحث .. فى الإعجاز » . . حيث عرضنا هنا وجوهاً من آراء الباحثين فى الإعجاز ، منذ بدأ التأليف فيه ، إلى اليوم ، وذلك لنتبين فى هذا العرض ، المفاهيم المختلفة التى وقعت فى قلوب الناس وعقولهم ، للقرآن الكريم ، وكيف كانت هذه المفاهيم خاضعة للمؤثرات الذاتية التى تقع للناس من أزمانهم ، وأحوالهم ، وثقافاتهم . . فنحن نلتقى فى هذا الباب بوجوه كثيرة من الناس ، كما نلتقى بوجوه كثيرة مختلفة من الآراء ، والمفاهيم ، ومن مختلف هذه الوجوه وتلك المفاهيم ترتسم لنا صورة للإعجاز القرآنى ، فى سيره مع الحياة ، خلال تلك القرون المتطاولة .

والباب الرابع : أخذ هذا العنوان : « شبهات ، ودعاوى ومفتريات » . . إذ كان لابد بعد أن ندفع تلك الشبهات ، وندمغ تلك الدعاوى والمفتريات التى أريدَ لها أن تغشى حِمَى القرآن ، وأن تثير غباراً فى سمائه الصافية ، لتحجب أضواءه ، وتعمّى الطريق على أتباعه والمتجهين إليه . (وهذا ما تضمنه الكتاب الأول من كتابى الإعجاز) .

أما الباب الخامس والسادس فقد جعلناها مجالا لنظرتنا الخاصة فى كتاب الله ، تلك النظرة التى نرود فيها الإعجاز ومواقعه ، على قدر طاقتنا ، وعلى ما يسمح به فهمنا ، وذلك بعد أن عرضنا وجوه الإعجاز عند السلف ، ونظرتهم إليها ، وبعد أن دفعنا تلك الشبهات والدعاوى والمفتريات التى أريد — عن قصد أو جهل — إلصاقها بكتاب الله . .

وكان أحد البابين (الباب الخامس) نظراً مقصوراً على الإعجاز كما يبدو من مطالعة الأحداث ، التى لابست الدعوة ، وصاحبت نزول القرآن ، واستدعى الحال والمقام نزول ما نزل من الآيات حسب كل حال ومقام . . فكان عنوان هذا الباب : « الإعجاز . . فى منطق الأحداث » .

أما الباب الآخر وهو : (الباب السادس) فقد كان نظراً مواجهاً لمواقع الإعجاز ، والاستدلال على تلك المواقع بما تحمل كلمات الكتاب الكريم وآياته ، من دلائل ناطقة ، وحجج دامغة ، على أن هذا الكلام ليس مما يستطيعه البشر ، ولو اجتمعوا له ، ولهذا كان عنوان هذا الباب : « مواقع الإعجاز . . فى القرآن » .

وأما الباب السابع والأخير فقد جعلناه استقبالا لما يتضوع من آيات الله من نفحات زكية ، وما يترقرق على محياها الكريم من نور وألَقَ . . فما كان فى وقوفنا فى هذا الباب معاناة تفكير ، وتحديق نظر ، وإنما كان وقوفا خاشعاً ،

متعبداً ، بين يدى آيات الـكتاب الـكريم ، وكان ما سطره القلم فى هذا الموقف كلمات مهزورة مترنحة ، أشبه بما يسجله قلم المرصد ، لهزة ؛ أو زلزلة ؛ تقع فى محيطه !!

ولهذا ، فإنك ترى فى هذا الباب : « مع مواقع الإعجاز فى القرآن » قمما شامخة ، ومنحدرات عميقة من مواقع الرأى والنظر . حيث كانت النفس فى نشوة غامرة ، أخرجتها عن التماسك والتوازن فى كثير من الأحوال . . فخذ لنفسك حذرها ، وأنت تدخل هذا الباب ، وتنظر فيما وراءه . .

هذا ، ولم أحدثك عن « المدخل » الذى تدخل به إلى أبواب الـكتاب . . فها هو ذا بين يديك ، وهو على ما به من طول ، فإنه لا يعدو أن يكون طَرَقات خفيفة ، تستفتح بهـا الباب الذى يصلك بكتاب الله ، ويهىء كيانك للوقوف على موارده . .

وأما الخاتمة فإنها مقطع الرأى عندنا فيما ينبغى أن يكون عليه متجه أنظار المسلمين من كتاب الله ، وكيف تقوم السبل التى تصلهم به ، وتدنيهم منه ، لينالوا من خيره ، وليَطْعَموا من ثمره . .

نسأل الله أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الـكريم ، وأن ينزلنا به منازل الرضى والقبول عنده ، فضلا منه ومثوبة ، « والله عنده حسن الثواب » .

* * *

ملحوظة : لم نشأ أن نضع مقدمة جديدة للطبعة الثانية من هذا الـكتاب ، اكتفاءً بمقدمة الطبعـة الأولى ، بعد أن أدخلنا عليها شيئاً يسيراً من التعديل . . سائلين الله تعالى عوناً وتوفيقاً ، وأن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الـكريم ، وأن ينزله منازل القبول .

المؤلف

عبد الـكريم الخطيب

القاهرة { المحرم سنه ١٣٩٣ هـ
فبراير سنة ١٩٧٣ م

مدخل إلى البحث

لأول مرة أمسك بالقلم ، فلا أجد شيئاً من تلك الخواطر المضطربة القلقة ، التى كانت تلقانى كلما هممت بالكتابة فى موضوع يصور فى كتاب ، ويعرض على الناس . . ذلك أن هذا الموقف للمؤلف — فيما يبدو لى — هو امتحان قاس ، يعرض فيه المرء عقله على عقول الناس جميعا ، وكأنه يدعوهم بهذا إلى أن يقولوا رأيهم فيه ، وأن يضعوه موضعه من العقول !

والناس هم الناس ! !

لا ينظرون إلى الحسنات بقدر ما ينظرون إلى السيئات !

ولا يلتمسون وجه العذر ، بقدر ما يقيمون أدلة الاتهام . . !

داء قديم . . !

ابتُلى به كلُّ من وقع بين أيدى الناس ، بشىء من قوله أو عمله . . !

وويل للشجىّ من الخلىّ . كما يقولون !

إن صاحب القول أو العمل ، يقول ما يقول ، وهو مكدود بما يقول ، معنًّى بما يعمل . . أما الذى ينظر فيما قيل أو عمل ، فإنما ينظر بقلب جميع ، ونفس جميم ، فيصرف ذلك كله فى ذوق ما على المائدة من طعام ! ثم لا يتكلف لذلك أكثر من أن يقول : هذا مُرٌّ ، وهذا حاذق ، وهذا حرّيف ، وهذا مُزٌّ . . إلى آخر ما يقع لمذاقه من طعوم ! وشتان بين من يعد المائدة ويجلب لها ما وسع جهده ، وبين من يجلس ليخضم ويقضم ، ويتنقل بين ألوان الطعام ، كلما فرغ من لون ، زوى وجهه عنه ، وودعه وداعاً غير كريم ! !

أقول : إن هذه لأول مرة أمسك فيها بالقلم لأكتب فى « إعجاز القرآن » ، ثم لا أحاسب نفسى هـذا الحساب العسيرولا آخذها بشىء من الحذر والتخوف، مما قد يقع من خطأ ، أويكون من زلل ، كما كان ذلك شأنى فيما كتبت من كتب ، وما أعددت من دراسات .

وكدت أنـكر نفسى ، وأنـكر عليها هذا الاطمئنان العجيب ، إزاء هذا الموقف الرهيب العظيم !!

« القرآن » و « إعجاز القرآن » ؟ . .

ثم يلقاها قلم كان يرجُف إذا هو وقف أمام موضوعات لا وزن لها ، إذا هى ووزنت بالـكتاب الـكريم ، ونظر إليها فى مجاله ! ؟

أهذا ! وتسكن النفس هذا السكون ، فلا يكون لها اضطراب ، ولا للقلب وجيف ؟

ما هذا ؟ أين نفسى ؟ بل أين حذرى وتخوفى ؟

إنه إن لم يصحبنى الحذر والإشفاق فى هذا الموقف العظيم الجليـل فأين يصحبانى ؟ وأين للإنسان ما يحذر ويخاف ؟

اطمئنان عجيب . . غير متوقع أبداً فى هذا الموقف الجليل المهيب . . !

ولـكن هذا سر من أسرار القرآن . . وكم فى القرآن من أسرار وأسرار ! !

القرآن الـكريم بحر لا ساحل له . . ولـكنه — مع ذلك — مأنوس أبداً بأنفاس الهدى وأضواء الحق ، ومعالم الخير . . فحيث كنتَ معه ، فأنت مع وجودك الحق . . مع فطرتك المندسة فى كيانك . . مع الوجود كله ، وما فيه من حق ، وخير ونور ! وهل يجد المرء أمام البحر المحيط ، وهو واقف على ساحله ، إلاّ جلالاً وروعة وأنساً ؟ وأين البحر المحيط من كلمة من كلمات الله ، أو آية من آياته ؟

فأينما تول فثَمّ النور والهدى ، وثَمّ البر والرحمة . فأين يكون خوف ؟ ومن أين يطلع ما يخيف ؟ وبين يدى الإنسان ومن خلفه وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وفى ظاهره وباطنه هذه المعالم المنصوبة ، وتلك المنارات المضيئة ، التى يجدها كل من يصحب القرآن الكريم إلى أى مدى . . بعيد أو قريب . . فأين يكون خوف ، ومن أين يطلع ما يخيف ؟ .

سئل بعض الأعراب عن النبىّ الكريم : بم عرفت أنه رسول الله ؟ فقال : « ما أَمرَ بشىء ، فقال العقل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شىء فقال العقل : ليته لم يَنْهَ عنه » . . فهذا التجاوب التام المطلق بين معانى القرآن والفطرة الإنسانية هو مدخل عتيد من مداخل القرآن إلى القلوب ، وسلطانه على النفوس ، وهو داعية من الدواعى الهاتفة إلى شغف النفوس به ، ومهوى الأفئدة إليه . . وهو ما دعا ذلك الأعرابى إلى الاطمئنان إلى الرسول ، وإلى الإيمان به ، وبكتابه الذى بين يديه ، إذ وجد صدق الرسول الكريم فى صدق هذا الكتاب ، وفى تطابقه مع الفطرة ، وتجاوبه مع الحياة ، فى أعدل صورها ، وأجمل وجوهها .

ولعلّ هذا الذى انكشف لى من القرآن ، فى كل مرة كنت أتلو فيها آياته ، أو أستمع إليها على مدى عشرات من السنين — لعل هذا هو الذى ملأ قلبى طمأنينة ، وأفاض على نفسى ثقة ورضى ، وأنا أُقدِم على هذه الدراسة التى أريد أن أطوف بها فى حمى القران ، وأجنى من قطوفه الدانية ، وثماره الطيبة المباركة . . ! فما أن دنوت منه حتى زالت من نفسى كل وحشة ، وزايلها كل خوف ، وبدا لى الطريق واضحاً ذلولا . . تحف بى فيه مجانى الخير من كل جهة ، وتشرق علىّ فيه أضواء الهدى من كل ناحية . . ولعل هذا مما تحمل الآية الكريمة :

« ولقدْ يسرنَا القرانَ للذ كرِ فهلْ منْ مد كرٍ[1] » .

لعل هذا بعض ما تحمل تلك الآية الكريمة من معنى يجده كل من يتصل بالقرآن ، أو يدنو منه . . فهذا اليسر الذى جعله الله سبحانه سمة من سمات القرآن ، وجعل اتصال الناس به من قريب . . بلا معاناة ، ولا مشقة — هذا التيسير هو الصفة البارزة فى أسلوب القرآن ، وفى معانيه ، وأحكامه ، التى حملها هذا الأسلوب السمح السهل الميسر ، الذى يخاطب فى الإنسان فطرته السليمة ، ووجدانه الصحيح ، المعافى من الأسقام والعلل .. فمن كان على السلامة فى فطرته ، وعلى الصفاء والنقاء فى وجدانه ، التقى مع كتاب الله ، لقاءه مع وجوده الحق ، وذاته الكاملة ..

فالقرآن الكريم كله يسر ، لا عسر فيه .. قريب من كل نفس ، دانٍ من كل قلب ، وعقل .. ليس فيه مافى العلوم والفنون من مستغلقات ، ومصطلحات، لا يعرفها إلا أربابها ، ولا يعلمها إلا من راض نفسه على تعلمها ، وتناولها من أهلها ، وأصحاب الرأى فيها .

ومع أن الناس فى القران على حظوظهم منه ، كلٌّ حسب ما عنده من استعداد عقلى وروحى ، للتلقى عنه ، والأخذ منه — مع هذا فإن كل إنسان له نصيبه منه ، قل أو كثر .. فما يرد على القرآن وارد، بقلب سليم ، ونية صادقة ، إلا أصاب منه خيرا ، وتزوّد منه بزاد ، طيب كريم ، عتيد .. وذلك شأن الخير العام الذى تتعلق به حياة الأحياء .. لا يُحجَب أحد عنه ، ولا يُحرَم حى منه ... وإن اختلفت حظوظهم منه وتباينت درجات انتفاعهم به .

تخير أية آية من آيات الكتاب الكريم ، أو أية سورة من سوره، واقرأها

---

(١) سورة القمر : آية ١٨

على عامة الناس ، ولكن هذه الآية أو تلك السورة ، مما يبدو فيها العلوّ عن الأفهام ، والبعد عن مدركات العامة — فإنك ستجد لكل إنسان فهماً لما تقرأ عليه من كتاب الله ، وهو فهم يقع فى قلوب المستمعين قبل أن يدور فى عقولهم ، وهو فهم متقارب متساوق ، لا يختلف فى المضمون والمحتوى ، وإن اختلف فى الصورة والشكل . .

هذا الشعور الذى وقع فى نفسى عندما صحت النية على أن ألتقى بالقرآن دارساً ، بعد أن التقيت به لقاءاً طويلا قارئاً ومستمعاً ، ومتدبراً — هذا الشعور من الرضى والاطمئنان ، يسنده شعور آخر ، هو شعور الإلف ، وطول الصحبة لكتاب الله ، أكثر من أربعين عاما — فهذه الصحبة الطويلة التى اتصلت بينى وبين القرآن وعلومه ، كان لها أثر كبير فى قيام هذا الإحساس الرضىّ المطمئن ، الذى أجده الآن وأنا بين يدى الكتاب الكريم ، أمد يداً قصيرة إلى قطوفه الدانية وثماره الكريمة الطيبة ، لعلى أصيب من خيره ، وأقطف من ثماره !

وإنها لصحبة طويلة ، لجناب خصب كريم ، ينفح من يدنو منه ، أو يتصل به ، نفحات طيبةً ، ينفذ شذاها إلى مسارب النفس ، وخلجات الضمير .

وعلى هذا ، فإنى لست أخشى شيئاً من أمر القرآن ، ولا أخاف العثار من جهته ، فأنا على ثقة من أنى فى ضمان يد قوية أمينة . . هى يد القرآن نفسه . . تمسك بى إن ضعفت ، وتُقيلنى إن عثرت ، وترُدنى إليها إن شردت . . !

« إنه لقرآن كريم . . » !

ولكن الذى أخشاه هو أن يقصُر قلمى عن تصوير تلك المشاعر التى أحملها من القرآن ، وتلك المشاهد التى تشيع فى النفس جلالاً وخشوعاً وإيمانا ، وتبعث فى كل خالجة منى رضى وروحا وتسليما . . ! والقلم أياًّ كانت براعته ،

لن يستطيع حمل هذه المشاعر ، ولا الوصول إليها ، على تلك الصورة التي أجدها وأشعر بها !

ذلك وحده هو ما أخشاه من أمر القرآن ، ومن تقصير في حقه ، ومن عجز عما يجب أن يؤدَّى له ، في هذا المقام .

وإذا كان الأمر كذلك - فإنني لن أقدم في هذه الدراسة للقرآن صورة كاشفة لبلاغته ، مصورة لجلاله وعظمته ، وإنما الذي يمكن أن أقوم به أو يقوم به غيري في هذا المقام — هو وضع ما يشبه « اللافتات » التي توضع على رؤوس الطرق ، ليكون منها معالم تدل على اتجاه الطريق القاصد القويم ، لمن يريد أن يتخذ له طريقاً إلى كتاب الله . وأن يطلب وجهاً للاتصال به . . وأما من أراد أن يكون له في القرآن نظر ، فليس تغنيه أية دراسة يقدمها له غيره ، وليس ينفعه أي نظر ينظر به أحد سواه ، وإنما سبيله — إن أراد الخير — أن يتجه إلى القرآن بنفسه ، وأن يعيش في ظلاله بوجوده ، وأن يفتح له عقله ، ويفرغ له قلبه ، فذلك هو الذي يدني الإنسان مما في القرآن من خير ، ويرزقه مما فيه من رزق .

أما الذي يجعل نظره وراء نظر غيره في كتاب الله ، فإنه قد يفتح له ذلك طريقاً أو طرقا إلى القرآن ، وقد يجد في ذلك رائداً يرود له معالم الخير منه ، ومشيراً يشير له إلى مواقع الهدى فيه .. ولكن كل ذلك لن يغني عناء النظر الذاتي في القرآن، نظراً مباشراً ، ولن ينتفع الإنسان منه بأكثر مما ينتفع بوصف الشمس دون أن يراها ، أو بالحديث عن البحر دون أن تكون له غَدوة أو رَوْحه إليه، أو بالإشارة إلى الروض دون أن يرتاده ، ويشمّ عبيره ، ويقطف من ثمره !

إن الذي ينظر في القرآن بنظر غيره أشبه بمن يعصب عينيه ، ثم يحيا في الحياة

بعيني من يقوده ، ويغدو به ويروح ، غير مبصر شيئاً مما يفيض به هذا الوجود من آيات مبصرات !

والاتصال بالقرآن سهل ميسور . . ليس من دونه حجاب ! فما على من يريد أن يكون مع القرآن إلا أن يحمل بين يديه كتاب الله ، وأن يفتح أية صفحة من المصحف الكريم ، فإذا هو مع كلام الله ، وبين يدى آياته المطهرة ! . . فإن كان قارئاً قرأ ماشاء الله أن يقرأ ، وإن لم يكن قارئاً أقرأ غيره . فسمع ما يقرأ ، وإذا لم يجد من يقرأ له حضر مجلساً من مجالس القرآن فكان من المستمعين الواعين.. إن الأمر سهل ميسور . .

« ولقدْ يسرنَا القرآنَ للذِكرِ فهلْ منْ مُدَّكِرٍ [(١)] » .

فالقرآن ليس كتاب العلماء وحدهم ، وليس كتاب الفقهاء ورجال الدين وحدهم ، وليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس دون الناس ، وإنما هو كتاب رب الناس للناس جميعا . . كلٌّ يأخذ منه على قدر ما يبلغ جهدُه ، ويتسع له عقله وقلبه : . ! « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور » .

ولكن القرآن مع هذا اليسر ومع هذه السماحة ــ لا يسمح بخيره إلا لمن كان له قلب حاضر معه . . يتدبر به آياته ، ويخشع لعظاته ، وكان من الذين قال الله فيهم :

« إذَا تتلَى عليهمْ آياتُ الرحمنِ خرُّوا سجداً وبُكيًّا [(٢)] » .

أما من يقرأ القرآن بلسان بينه وبين قلبه حجاب ، أو يستمع إليه بأذُن مضروب بينها وبين القلب بسور له باب ، فإنه لن ينتفع من القرآن بشيء ، ولن يبلغ من خيره إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه !

---

(١) سورة القمر : آية ٢٧ (٢) سورة مريم : آية ٥٨

إن القرآن مع علوه ذلك العلو السامق البعيد ، هو قريب المنال ، سهل المورد . . ولـكن لمن جاء إليه بأذن واعية ، وقلب سليم ، أشبه بالشمس تملأ العيون الناظرة إليها ضياء ، على حين تمتلىء العيون المغلقة دونها ظلاماً مطبقا !

يقول صاحب البرهان متحدثاً عن أسلوب القرآن :

« فأخرج الله تعالى مخاطباته فى محاجّة خلقه فى أجمل صورة ، تشتمل على أدق دقيق ، ليفهم العامة من جليله مايقنعهم و يُلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الدّهاء .

« وعلى هذا حُمل الحديث المروى : « إن لـكل آية ظهراً وبطناً ، ولـكل حرف حدًّا ومطلعا » .

« ومن هذا الوجه ، كل من كان حظه من العلوم أوفر ، كان نصيبه من علوم القرآن أكثر »[1] .

وإذن فقد وجب على المسلم بعد أن يوجه وجهه خالصاً لـكتاب الله ، أن يُعد نفسه للقاء القرآن إعداداً علمياً بكل ما يدخل تحت دائرة العلم ، حتى يجد العقل المدرك لآيات الله ، والقلب المستضىء بنور الحق الذى يهدى إلى مواقع الحق من كلمات الله .

« وتلكَ الأمْثَال نضْرِبُها للناسِ ، ومَا يَعْقِلُهَا إلاّ العَالِمُون »[2] .

* * *

وعصر العلم الذى نعيش فيه اليوم ، يهيىء لدارس القرآن سبلا كثيرة إلى اجتناء محصول وفير من هذا الخير الذى لا ينفد أبداً . .

---

(١) البرهان جزء ٢ ــ ص ٢٥ . (٢) سورة العنكبوت : ٤٣ .

إن العلم هو الذى يجعل لنا نظراً كاشفاً لبعض مافى آيات القرآن من روائع وعجائب . . والعلم هو الذى يعين على فهم بعض المستور من أسرار الكتاب التى لا تنفد أبداً . . وما أودع فيه من علم وحكمة سيظلان بكراً على مدى الأزمان إلى يوم الدين . .

فإننا على طول صحبتنا ـ نحن المسلمين ـ للقرآن الكريم هذه القرون الطويلة، لم نأخذ منه إلا كما يحسو الطير من ماء النيل . . والذى أخذناه من القرآن — على قلته — لم ننتفع به انتفاعا كاملا ، ولم نتمثله فى قلوبنا وعقولنا تمثلا تاما . كما كان سلفنا الأول ينتفع بما يأخذ منه ، من قليل أو كثير ، انتفاعا كاملا . .

فليس المهم هو الكم الذى نأخذ ، وإنما المهم هو أن نحسن الانتفاع بما نأخذ ، ولو كان قليلا ، بل وأقل من القليل !

والعلم هو الذى يمكّن لآيات القرآن فى قلوبنا ، ويفسح لها مكاناً مكيناً فى عقولنا ، فتخالط مشاعرنا ، وتمتزج بوجداننا ، وتقوم على ضبط نوازعنا ، واستقامة سلوكنا .

العلم هو الذى يخدم قضية الإسلام ، بما يكشف عن جوهر هذا الدين ، وما حمل كتابه الكريم من آيات بينات ، تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »(١) « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »(٢) . . حيث تشرق حقائق الوجود على ضوء القرآن ، وتزداد وضوحاً وبياناً .

إن العلم يلتقى مع القرآن لقاء الماء ، يدفع به السيل إلى صدر المحيط فيذوب

---

(١) سورة الإسراء : آية ٨٢ .   (٢) سورة الإسراء : آية ٩ .

فيه ويصبح بعض مائه ، إذ ليس العلم كله — ما عرف الناس منه وما سيعرفون — إلا قطرة أو قطرات من هذا البحر الزخار .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً »[1] .

فإذا انكشف للناس فى الحياة ضوءة من أضواء العلم ، فهى من بعض ما فى القرآن من علم ، إذ كان مجتمع آيات الله ومكنون علمه . .

« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ؛ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ؛ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[2] .

وإذا بدت للناس آية من آيات الوجود ، أو انكشف لهم سر من أسرار الكون كان ذلك عيناً جديدة من عيون الحق ، تُفتح على كتاب الله ، ويُرى مصداقها فيه . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن المعاندين المكذبين بهذا الكتاب الكريم :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم به . . مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . . سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . »[3] .

فالآيات التى تنكشف للناس فى هذا الوجود ، أو التى تبدو لهم ماثلة فى أنفسهم ، مما يطلعهم العلم عليها — هذه الآيات هى التى تفتح الطريق إلى قولة الحق فى كتاب الله ، وهى التى تقضى على هذا السفه والجهل الذى يحجب عن العيون ضوء هذا

---

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩
(٢) سورة الواقعة : ٧٨ — ٨٠
(٣) سورة فصلت : آية ٥٢ ، ٥٣

الصبح المبين ، وعندئذ يرى الناس أن هذا القرآن هو الحق من عند الله ، كما رأوا فيما رأوا من آيات الوجود وأسرار الكون . . فكشف لهم ذلك عن قدرة الله وعلمه وحكمته . . وهذا بعض ما تشير إليه الآية الكريمة فى وصفها للقرآن الكريم :

« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُون »[1] .

فالقرآن الكريم آيات بينات ، أى واضحات مشرقات ، فى صدور الذين أوتوا العلم . . أما من لم يكن له حظ من علم ، فلا تقع آيات القرآن الكريم من قلبه هذا الموقع الواضح البين . .

وفى آية أخرى يقول الله تعالى فى صفة القرآن أيضاً :

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ »[2] . ويقول الله سبحانه : « أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَاب »[3] .

فالذين أوتوا العلم ، والذين لهم قلوب وألباب ، هم الذين تنكشف لهم آيات الكتاب الكريم ، ويرون أنها الحق الذى ليس وراءه حق .

إن العلم — كما قلنا — هو الذى يخدم قضية القرآن . . إذ هو الذى يكثر من القوى المبصرة التى ترى ما فيه من حِكَم وأسرار ، وهو الذى يحشد له العقول

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٩ . (٢) سورة الحج : آية ٥٤ .
(٣) سورة الرعد : آية ١٩ .

المستنيرة التى ترى بعض جلاله ، وتشهد الروائع من آياته ، . وفى هذا يتجلى وجه جديد من وجوه الإعجاز فى القرآن ، وهو خلوده على الزمن ، مع احتفاظه بمكانه من السمو والهيمنة على كل ما تبلغه العقول من مدركات ، وما تلده الحياة من أسرار . . !

* * *

ولا نحسبنّ أننا نذهب بهذا مذهب الذين يتعسفون طريق الفهم لكتاب الله ، ويشطحون فى تأويل آياته ، ليأخذوا منها حجة للقرآن ، على أنه حوى كل شىء ، واشتمل على جميع المعارف والعلوم ، فهم لهذا يقتسرون المعانى اقتساراً ، ويخرجون بالألفاظ عن مدلولاتها ، بل ويحرفون الكلام عن مواضعه ، فى أكثر أحوالهم ومحاولاتهم ، وهذه بضاعة رخيصة لا يليق بجلال القرآن أن تستجلب له ، وتحسب عليه !

فنحن ـ وإن قلنا بأن القرآن قد حملت آياته الكريمة المطهرة أسرارا عجبا ، تنكشف حالا بعد حال ، كلما جاء إليها الناس بمزيد من العلم والمعرفة — نحن وإن قلنا هذا ، فإننا لا نفرض القرآن على المخترعات العلمية ولا الآيات الكونية ، التى تنكشف للناس زمنا بعد زمن ، ثم نجهد الجهد كله فى استجلابها للقرآن الكريم ، وضمها إليه ، وجعل مقرراتها وجها من وجوه تفسيره — لا ، إننا لن نسلك هذا الطريق أبداً ، فالقرآن فى غنىّ واسع عن كل هذه المعروضات ، وفى ثراء عريض يستغنى به عن تلك المدعيات والتخرصات ، فمن السفه والجهل أن يستجدى له هذا الزّبد الذى يذهب جُفاءً !

وإنما الذى يكون منا فى نظرتنا إلى القرآن الكريم من هذا الجانب ، هو أن ننظر فى كتاب الله بما أرانا العلم من آيات جديدة فى هذا الوجود ، وبما كشف

لنا من حقائق فى هذا الكون الرحيب ، فإذا انكشف لنا فهم جديد لآية من آيات الكتاب الكريم ، فى آفاق هذه النظرة وعلى ضوئها ، أخذنا به وجعلناه وجها من وجوه الفهم للكتاب المجيد . . وإلا أمسكنا عن أن نقول قولا . . فقد يجىء من هو أحدّ نظراً ، وأدق فهماً ، فيرى مالا نرى .. ويفهم عن الكتاب الكريم مالا نفهم . !

وشتان بين طريقنا هذا الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو أننا لا نفترض سلفا أن فى القرآن مفهوما أو منطوقا لكذا أو كذا من الحقائق العلمية أو النظريات المذهبية ، ثم نعرض آيات الكتاب الكريم عليها ، ونتأول لها ونشتطّ فى التأويل نحن لا نفعل هذا ، وشتان بين ذلك الذى نأخذ به موقفنا من آيات الله ،وبين أصحاب الطريق الآخر الذين يرصدون سير الحياة ، وكلما لاح لهم جديد ، فى أى جانب من جوانبها ، وعلى أى أفق من آفاقها ردّوه إلى القرآن ، وأقحموه عليه إقحاما ، سواء أكان هذا الجديد قد أصبح حقاً مسلّما به ، وواقعا من وقائع الحياة ، أم كان مجرد لمحة بارقة لا تلبث أن تزول ، أو فرضاً محتملا قد لا يقع أبدا . وسواء أكان هؤلاء القوم عندهم الاستعداد العقلى والنفسى للمقايسة والموازنة أم لم يكن ، لأن همهم كله هو أنه مادام القران قد حوى كل شىء فلابد أن يكون كل شىء تلده الحياة مضافا للقرآن ، فيحملونه إليه ، ويلحقونه به ، فى أى مكان تمتد إليه أيديهم ، من غير وزن له ، ومن غير بصر بالمكان الذى يردّ إليه . . شتان بين طريقنا وهذا الطريق !

* * *

هذا ، وقد يكون لقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد حوى أسرار هذا الوجود ، وضمّ على حقائق هذا الكون ؛ فكيف غاب ذلك كله أو بعضه عن

سلف هذه الأمة ؟ وكيف لم ينكشف لهم وجه هذه الحقائق وتلك الأسرار ؟ وهم الذين تلقوا القرآن غضاً ، تقطر آياته بأنوار السماء ، كيف ؟ وهم قد كانوا يأخذون هذه الكلمات المنزلة ، من أطهر فم ؟ كيف غاب عنهم ما فيه من هذه الحقائق والأسرار ؟ وإذا كانت تلك الحقائق والأسرار قد انكشفت لهم ، فلماذا لم ينتفعوا بها فى الحياة ؟ ولماذا لم يقيموا منها ما أقام العلم الحديث من معالم المدنيـة والحضارة ؟ وكيف لم يحطموا الذرة ، ولم يتخذوا المراكب إلى الكواكب ؟

وجوابنا على هذا من وجهين :

فأولا : أن القرآن الكريم لم يكن كتابا علمياً يكشف أسرار الطبيعة ، ويضع مفاتحها فى أيدى أتباعه . . وإنما هو كتاب عقيدة وشريعة ، يتجه أول ما يتجه إلى ضمير الإنسان ، ليصحح صلته بخالقه ، ثم يقيم لهذه الصلة من التشريع ما يمسك بها سليمة قوية فى كيانه . . فإذا كان ذلك صحّح صلةَ الإنسان ، بالله ، وبالإنسانية وبالكون ، ووضع لذلك من التشريعات ما يقيم هذه الصلة على أساس من الحق والعدل والإحسان . .

تلك هى المهمة الأولى للقرآن الكريم ، وقد انكشفت هذه الغاية من القرآن الكريم للمسلمين فى الصدر الأول للإسلام انكشافاً تاما ، فأخذوا حظهم كاملا منها على نحو لم يكن للخلف من بعدهم أن يستقيم فيه على خطاهم ، أو يبلغ منه بعض مبلغهم منه ، وعلى وجه لم تشهد الحياة مثيلا له ، فى سمو الإنسان ، وعظمته ، واستعلائه على كل ضعف بشرى ! فكان منه هذا المجتمع المثالى الذى صحب الرسول الكريم ، وصحب الصدر الأول من الخلافة الراشدة .

وثانيا : إذا كانت مهمة القرآن الأولى هى ما أشرنا إليه من قبل ، فإن

ذلك لا يمنع أن يكون وراء هذه المهمة غايات أخرى يمكن أن يجدها من يطلبها . .

فالشمس مثلا، هى آية هذا الضوء الذى يغمر الوجود، وغاية ما يرى عامة الناس منها أنها تكشف لهم معالم الطريق فى الحياة، وتجعل الليل نهارا . . فإذا جاء بعد هذا من الناس من يستولد من ضوئها طاقات حرارية تدار بها المعامل والمصانع، فإن ذلك لا ينقص من قيمتها فى أعين الناس، ولا يعطل وظيفتها التى صحبت الناس وصحبوها عليها . .

هذا، ويبدو هنا سؤال آخر هو :

إذا كانت الأسرار والحقائق التى يقال إن القرآن قد ضُمّ عليها لا تنكشف إلا بعد أن يكشف العلم عنها — فما فائدة اشتمال القرآن عليها، وحمله لها، وبقائها مستورة فيه خلال هذه القرون الطويلة، حتى يجىء العلم الحديث فيتحدث عنها، ويكشف عن وجهها ؟

والجواب على هذا من وجهين أيضاً :

فأولا : أن الأسرار والحقائق التى نقول إن القرآن قد اشتمل عليها — لا يُقصد بها الأسرار والحقائق العلمية، وإنما يقصد بها أولا وبالذات الحقائق النفسية والروحية، التى تُعلى من قدر الإنسان، وتدفع بإنسانيته إلى الكمال، وهذه الحقائق يمكن أن يجدها فى القرآن علماء النفس وعلماء الاجتماع والأخلاق، حيث يعتبر القرآن المصدر الصحيح لها، وقد انكشفت هذه الحقائق للمسلمين فى الصدر الأول انكشافا مشرقا، فعرفوها معرفة مستيقنة، وعاشوا فيها حياتهم، وأسلموا لها وجودهم .

وثانيا : ماذا يضير القرآن إذا اشتمل فى كيانه على دلائل إعجازه، بما

أودع فيه الحق سبحانه ، من أسرار وحقائق ، تحدّث الناس عن آياته ، فى كل عصر وفى كل جيل ؟

وبذلك، يخلد إعجازه ، ويتجدد على الزمن . . لا شىء يضير القرآن من هذا ولا مانع يمنع من أن يشتمل فى كيانه على كثير من الأسرار التى لا تنتهى . إذ أنه رُوح من روح الله . . تتبدى آياته كل حين ، وتلتقى بعقول الناس فى كل مستوى . . على اختلاف أجيالهم ، وأمصارهم ، وأحوالهم .

وعلى أىّ فإن القرآن فى إعجازه إلى الحد الذى يقيم الحجة على صدقه ، وصدق النبى الذى جاء به ، لا يحتاج إلى عقول العلماء وبصائر الفلاسفة بقدر ما يحتاج إلى فطر سليمة ، وإنسانية مستقيمة على هذه الفطرة ، فتجد فى القرآن روح الحق تجذبها إليه ، وتخلطها به ، وإذا هى وقد خشعت له ، وخرّت ساجدة بين يديه . . !

فكم من الناس من لم يفهموا المرامى البعيدة لآيات الكتاب الكريم ، ومن لا يتجاوزون ما وراء مدلول الكلمات فى لغة التخاطب . . ومع هذا فإن روح القرآن تنفذ إلى أعماقهم ، وتبلغ الصميم من قلوبهم . . بل وأكثر من هذا ، فإن كثيرا ممن يستمعون إلى القرآن من أهل الكتاب . تأخذهم لسماعه روعة وتغشاهم لتلاوته خشية . . وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة فى قوله تعالى :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يقولون ربنا

آمنَّا فاكتبنا مع الشَّاهدين ، وَمالنا لا نُؤْمنُ باللهِ وما جاءنا مِن الحقِّ »[1] .

ولكن إذا كان — بعد هذا — فى الناس ذو البصر النافذ ، والبصيرة الملهمة ، والعقل الحصيف الذكى — فإن لكل هذه القوى المدركة فى الإنسان مجالاً فسيحاً فى القرآن . فلا ينتهى نظره فى القرآن عند أفق ، ولا يرتد عقله منه عند نهاية مطاف ، ولا تستولى مدركاته على ماتصول وتجول فيه ، بل إن المدركات الإنسانية كلها لتأخذ ما تأخذ من كتاب الله ، ثم تجد نفسها أخيراً أنها ما زالت على الشاطىء ، تغترف غرفات من هذا البحر العظيم . . ومن أجل هذا كان الوصف الذى وصف به الرسول الكريم القرآن ، فى قوله ، صلى الله عليه وسلم ، « لا يخلق على الردّ » — أى لا يبلى على كثرة ترداد تلاوته — كان هذا الوصف ملازما للقرآن لاينفك عنه أبداً . . وكان لزومه على هذا الوجه القائم أبدَ الدهر أبلغَ شهادة على صدق الرسول ، والكتاب الذى شهد لهذا الرسول .

نقول إن اشتمال القرآن على ما اشتمل من حقائق وأسرار ، هو إعجاز من إعجاز القرآن ، وهو آية خلود معجزته على الزمن . . حيث يلتقى بالعقول كلها ، فى كل زمان ومكان ، فتجد فيه زادها ومرعاها . . وحيث تظل العقول دائماً متطلعة إليه ، ناظرة فيه ، آخذة منه . . كلما جاءت إليه أصابت خيراً ، ووجدت عنده رزقا !

ونقول أيضاً : إن هذه الحقائق ، وتلك الأسرار لا تجىء من خارج القرآن ثم تحمل إليه ، فتكون أشبه بالأجسام الغريبة التى تعلق بالماء لتكدر صفوه ، وربما أفسدت طبيعته . . وإنما تلتمس هذه الحقائق وتلك الأسرار من آيات الكتاب

---

(١) سورة المائدة : آية ٨٢ – ٨٣ .

الكريم ، من غير تعسف فى التأويل ، ولا التواء بالمعنى إلى غير ما أُريد له . . وبهذا يسلم القرآن من مناقضات النظريات التى يكشفها العلم ، ثم لا تخرج إلى الحياة مرة أخرى .

أما الحقائق التى تؤخذ من القرآن على حسب ما تعطى آياته للفهم السليم ، والإدراك الرشيد، فإنها ستظل ثابتة قائمة على وجه واحد ، هو وجه الحق ، الذى لا يختلف أبدا ، والذى يزول الوجود كله ، وهو لا يزول ، وتتحول الدنيا وهو ثابت لا يتحول ولا يتبدل .

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »[1] .

* * *

هذا ، وإن داء التحكك بالقرآن الكريم ،أو عرضه فى معرض المناظرة للعلم ومعطياته الناضجة وغير الناضجة — هذا الداء ، داء قديم ، أصيب به كثير من الناس ، فانحرفت نظرتهم عن كتاب الله ، ونظروا إليه بعيون حولاء ، تذهب بآياته مذاهب مختلطة مضطربة ، إلى مقررات العلوم والفنون، فتخرّجها عليها، وتلوى زمامها نحوها ، فى جرأة لا يصحبها وقار لجلال آيات الله ، وقدس كلماته !

وقد وقف كثير من العلماء فى وجه هذه المذاهب التى تخلط بين حقائق القرآن ، ومقررات العلم . . وأنكروا على أصحابها أن يضعوا آيات الكتاب الكريم هذا الوضع المقلوب ، وأن يقرءوها من الشمال إلى اليمين ! . . يرون ،

---

(١) سورة الأنعام — ١١٥ .

أو يسمعون أن مخترعاً علمياً قد ظهر ، أو ظاهرة من ظاهرات الطبيعة قد انكشفت ، فيديرون القرآن الكريم إليها ، ويخرّجون آياته على مفهومها ، ويفسرونها كما تفسر الرؤى والأحلام ! .

وكان الإمام الشاطبي[1] — رضى الله عنه — ممن كشفوا عن هذا الداء ، ونبهوا إليه ، وحذروا منه . .

يقول الإمام الشاطبي فى هذا : « إن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين والمتأخرين : من علوم الطبيعيات ، والتعاليم — أى العلوم الرياضية — والمنطق ، وعلم الحروف — اليازرجة — وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها .

ثم يقول :

« وهذا إذا عرضناه على ما تقدم[2] لم يصح ، وإلى هذا ، فإن السلف الصالح — من الصحابة والتابعين ومن يليهم — كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه ، وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدّعَى سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلى ذلك . .

« ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر ، لبلغنا منه ما يدل على أصل المسألة . . إلا أن ذلك لم يكن ، فدلّ على أنه غير موجود عندهم .

ثم يقول :

« وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقريرٌ لشىء مما زعموا !

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمى الغرناطى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ .

(٢) يشير الشاطبى إلى ما قرره قبل هذا ، من أن القرآن الكريم إنما خاطب العرب بما كان واقعاً فى حياتهم .

« نعم ، تضمن علوماً هى من جنس علوم العرب ، أو ما ينبنى على معهودها ، مما يتعجب منه أولو الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره . .

ويقول :

« وربما استدلوا[1] على دعواهم بقوله تعالى :

« وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ » . وقوله تعالى : «مافَرَّطْنا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

« ونحو ذلك . . وبفواتح السور — وهى مما يعهد عند العرب — وبما نقل عن الناس فيها ، وربما حكى ذلك عن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره — أشياء .

« فأما الآيات[2] فالمراد بها عند المفسرين مايتعلق بحال التكاليف والتعبد ، أو المراد بالكتاب فى قوله تعالى : « ما فَرَّطْنا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » — اللوح المحفوظ . . ولم يذكروا فيها مايقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية » .

« وأما فواتح السور ، فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهداً ، كعدد الجمّل الذى تعرفوه من أهل الكتاب حسب ماذكره أصحاب السير ، أو هى من المتشابهات التى لايعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لاعهد به فلا يكون »[3] . . هذا مايقرره الإمام الشاطبى فى جلاء لا يحتاج إلى تعقيب .

---

(١) يقصد الذين يعرضون آيات القرآن على مقررات العلم . .

(٢) يقصد الآيات السابقة مثل قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » .

(٣) الموافقات للشاطبى — الجزء الأول ص ٨١ .

إن القرآن الكريم لم يكن كتاباً قد جاء بمقررات تشرح أسرار الوجود، وتضع فى أيدى الناس مفاتح هذه الأسرار . . ولو كان من تدبيره أن يكون هكذا، لما جاء على هذا الأسلوب، ذى الرنين النفاذ، والإشعاع اللماح من النظم، بل لجرى على ذلك الأسلوب العلمى، الذى تبرز فيه الحقائق العلمية مضغوطة فى قوالب من اللفظ، أشبه بالأرقام الحسابية، لايختلف عليها أحد، ولا تكتم عن أحد شيئاً وراءها .. ولو كان ذلك من شأن القرآن لما كان معجزة الدهر الخالدة، ولأخذ الناس منه كل مافيه لأول عهدهم به، ثم تطلعوا إلى جديد غيره . . ولو كان ذلك من شأن القرآن أيضاً لكان ذلك داعية من دواعى التخدير للعقل الإنسانى، والتحريض له على الاستنامة فى ظل هذا الغذاء المحدود الممدود، الذى لم يعمل له، ولم يسع إليه !

وليس هذا من شأن القرآن أبداً، ولا من تدبيره بحال . . فإن دعوة القرآن هى إيقاظ مشاعر الإنسان، وتنبيه ملكاته، وتوجيه نوازعه وسلوكه إلى العمل فى طريق مستنير، واضح، مستقيم .

ومن هنا كانت آيات القرآن دائماً فى حياة مستمرة متجددة مع مسيرة الإنسانية فى الحياة، لاينفد عطاؤها على كثرة ماترددت الأنظار إليها وأخذت العقول منها، فهى أبداً موفورة الثمر، تعطى كل من مدّ يده إليها، ماتطول منها، دون أن يكون فى ذلك ماينقص من ثمرها .. ولهذا يظل القرآن الكريم فى صحبة المسلمين، مثاراً لعقولهم، وجامعة لمدارساتهم، للتلمذة عليه، وتلقى العلم الغزير منه، وليس كذلك أى كتاب علمى، فإنه سرعان ماتصبح الحقائق التى ضمها بين دفتيه، من بدهيات العلم بعد زمن قليل، وسرعان ما يتحول إلى متحف من متاحف التاريخ، لاينظر إليه إلا على أنه أثر من آثار التفكير الإنسانى فى مرحلة من مراحل الحياة البشرية على هذا الكوكب الأرضى . .

ومن هنا أيضاً كانت آيات الكتاب الكريم كلها متجهة إلى القلب أولا . . إلى المشاعر ، والوجدانات ، والأحاسيس المائجة فيه ، المتقلبة بين صفو وكدر . . وبين نور وظلام . . فإذا أصابها صوب من نور الحق الذى نزل به القرآن،سكن مائجها ، وصفا كدرها ، وانجلى ظلامها ، وأصبح الإنسان وقداطمأن قلبه ، وعمرت بالحق جوانبه ، وخلت من وساوس الشر نوازعه ، وإذا ملك الإنسان قلباً مطمئناً ، فقد ملك الخير كله . . ملك عقلا متزنا ، ورأياً صائباً ، لا يجنح به هوى ، ولا تستبد به غواية . . وفى هذا يقول النبى الكريم : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

* * *

وعلى هذا، فإننا فى غايتنا إلى الكشف عن إعجاز القرآن، لن يكون طريقنا إليه هذا الطريق الذى يزحم القرآن بمقررات الكشوف العلمية ، وبأجهزتها وأدواتها . فإن ذلك يذهب بكثير من جلال القرآن الكريم وروعته ، بل ويُنزل من قدره ، حين يجرى مع العلم والعلماء فى ميدان ، وحين يكون مبلغ فضله وإعجازه ، أنه من فرسان هذه الحلبة ، أو من السابقين فيها !

سئل أبو العباس البناء . . فقيل له : لِمَ لَمْ تعمل « إنّ » فى « هذان » من قوله تعالى :

« إنَّ هذَانِ لَسَاحِرانِ » .

فقال : « لمّا لم يؤثّر القول فى المقول ، لم يؤثر العامل فى المعمول !! » فقال السائل : وما وجه الارتباط بين عمل « إن » وقول الكافرين فى النبيين ؟

فقال للسائل : «ياهذا . . إنما جئتك بنوّارة يحسُن رونقها . . فأنت تريد أن تحكها بين يديك ، ثم تطلب منها ذلك الرونق ؟ »[1]

إنه لفرق بعيد بين منطق العقل ولمسة الوجدان !

إن إعجاز القرآن — فى نظرنا — سر محجوب عن الأنظار ، لايقع موقع الحس ، ولا يستجيب لدواعى الحواس . . ولا يخضع للتحاليل الكيميائية ، وإنما هو أشبه بريح طيبة تهب عليك من روض أريض ، قد أينعت أزهاره ، وتفتح نواره ، فجاءك من ريحه الطيبة ، ما انتعشت به روحك ، وانتشى منه وجدانك ، فإذا أنت ذهبت تفتش فى هذا الروض ، وتمسك بأزهاره زهرة زهرة ، ثم ذهبت تمسك بتلك الريح ، تحاول أن تشم عبير كل زهرة مررت عليها — إذ أنت ذهبت هذا المذهب أعيتك المذاهب ، وعُدت بغير طائل ، وفاتك ما كنت تنعم به من استقبال هذه الريح ، وماتحمل من طيب .

إن القرآن الكريم يحمل إلى الناظر فيه ، والمستقبل لأضوائه ، مايحمل الروض إلى من يستقبل ريحه من أريج الزهر ، وعبير النور ، مطوياً فى غلائل من نور . . والقلب السليم ، والعقل المتحرر من الضلالات ، والوجدان المتفتح ، هى الأدوات التى يكشف بها الإنسان عن بعض ماضمت عليه آيات الله من أسرار . .

ومن هذه الأسرار المتحجبة فى غلائل النور العلوى تتفلت تجليات من الجلال والروعة والبهاء ، ثم تخلص إلى القلوب ، فتصفو وتخشع ، وإلى العقول فتعنو وتخضع ، وإلى النفوس فتهتز ، وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ! .

---

(١) الموافقات للشاطبى — الجزء الأول ص ٨٥ .

هذا ، وليس من غايتنا فى هذا البحث — كما قد يبدو لأول خاطرة — مجرد الكشف عن إعجاز القرآن ، وأن إعجازه قد تحقق على الزمن . . إذ كان ذلك أمراً مفروغاً منه ، واقعاً موقع اليقين والإيمان ، عند المسلمين جميعاً ، على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ! إذ ليس بين المسلمين من لا يؤمن بهذه الحقيقة ، ويعرفها ، على أى لون من ألوان المعرفة . . فالمسلمون جميعاً على رأى واحد بأن القرآن قد تحدّى ، وقد أعجز جميع المتحدّين من يوم نزوله إلى اليوم ، وإلى يوم الدين . .

ونحن لا نلتفت فى هذه الدراسة إلا إلى المجتمع الإسلامى ، ولم يكن من همّنا إلا هذا المجتمع ، دون غيره من المجتمعات الأخرى ، التى لا تدين بهذا الدين ، ولا تعتقد معتقد المسلمين فى كتابهم الكريم ، وفى إعجازه !

فحديثنا إذن عن الإعجاز يرمى إلى مقصد أبعد من مجرد تقرير هذه الحقيقة المقررة ، بل والمستقرة ، عند من نتحدث إليهم بهذا الحديث ، فى إعجاز القرآن !

فما هو هذا المقصد الذى نسعى إليه ؟ وما الثمرة المرجوة من ورائه !

نحن نقصد من دراسة الإعجاز القرآنى أولا ، وقبل أى مقصد آخر — أن نقيم فى قلب المسلم صلة وثيقة بكتاب الله ، الذى يؤمن به ، ويؤمن بأنه كلام الله المنزل على رسوله الكريم : « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ! ، أو بمعنى آخر : نريد أن يقوم إيمان المؤمنين بكتاب الله ، على معرفة به ، وفهم له ، وإحساس صادق بما تحمل آياته وكلماته من معانى الحق والخير ، ومن أسرار قدرة الله وحكمته وعلمه .. كما يتكشف ذلك كله من آيات القرآن الكريم ، فى دلالتها اللغوية ، فى مواضعات اللسان العربى المبين .

ذلك ، على حين أن الإيمان الذى يقع فى قلوب أكثر المسلمين اليوم من

كتاب الله ومن كلمات الله ، هو إيمان ساكن بارد « مُجَمَّد » ، لا يثير شعوراً، ولا يحرك عاطفة ، ولا يقيم وازعا يستمد أحكامه وسلطانه من هذا الكتاب !

إنه إيمانُ عادةٍ ، وميراثُ تقاليد . . لا أكثر من هذا .

والشيء إذا اتصل بالإنسان اتصال العادة الموروثة المألوفة ، بَرَد شعوره به . وفتر إحساسه له ، وتأثره به .

ولهذا فقد صار إحساس المسلمين بالقرآن إلى هذا الحد من البرود والجمود . !

يقرءون ما يقرءون من كلام الله فى صلاتهم ، وفى غير صلاتهم ، فلا تختلف بهم الحال عما كانوا عليه قبل أن يقرءوا ، وقبل أن يُصَلُّوا !

فما هى إلا حركات أشبه بحركة من يمشى فى طريق اعتاد أن يقطعه كل يوم ذهاباً وإيابا ، عشرات السنين . . وما هى إلا كلمات مرددة أشبه بتلك الكلمات التى يرددها البائع الجائل على سلعة يقطع عمره كله فى صحبتها ، والإعلان عنها . . ينادى عليها بصوت منغوم ، ويصفها بأطيب الصفات ، وينعتها بأكرم النعوت . . لا يجاوز شيء من ذلك لسانه ، ولا ينتقل شيء من تلك النعوت والأوصاف إلى قلبه ، أو عقله . . إنه آلة متحركة تعلن عن بضاعة ، أو لافتة صامتة كتب عليها إعلان ! ! هذه حال المسلمين مع القرآن الكريم فى أغلب أحوالهم اليوم ، وما قبل اليوم ، إلى نهاية الصدر الأول للإسلام ، وإلى حيث كان لكلمات القرآن سلطان قاهر على النفوس ، ومكان مكين من القلوب . . حيث كان المؤمن لا يسمع أو يقرأ آية من آيات الله حتى تستولى على وجوده كله ، وحتى يكون هو مدلولاً حياً من مدلولاتها ، ومعنى مجسداً من معانيها . . فإذا كانت الآية دعوة إلى معروف تجسد منه حال هو جواب هذه الدعوة فى أكمل صورة ، وأتم أداء . . وإذا كانت آية نهى عن منكر ، كان المسلم هو المفهوم الحىّ لمجانبة المنكر

واجتنابه . . وإذا كانت آية رحمة ومغفرة ، كان المسلم هو الأرض الخاشعة التى تستشرف مواقع الرحمة والمغفرة من معطيات تلك الآية . . وإذا كانت الآية آية عذاب ؛ كان المسلم كيانا متصدعاً من خشية الله وسطوة عذابه . . ! !

هكذا كان المسلمون الأولون مع كتاب الله ، وهكذا كانوا يحيون فى آياته وبها . . فهم التفسير الحق لكتاب الله فى أكمل صورة تحتملها النفس البشرية ، من مؤدّى كلمات الله ، وفى أتم مفهوم يمكن أن يقع فى عقل بشر منها .

* * *

إن القرآن الكريم هو شريعة ووازع معاً .. هو قانون ، وهو فى الوقت نفسه سلطان يقيم أحكام هذا القانون . . أو هو بلغة العصر ، هو سُلْطات : تشريعية ، وقضائية ، وتنفيذية . . جميعا .

وبالكلمة ، وبالكلمة وحدها جاء القرآن ليقيم فى كيان المسلم قانونا يدركه بعقله ، ويحتكم إليه بقلبه ، ويمضيه بوجدانه ، وينفذه بجوارحه . .

ذلكم هو قانون السماء الذى جاء به القرآن . . ليس أحكاما صامتة ، ولا نظريات مجردة . . وإنما هو كيان واحد فى أحكامه ، وفى الولاء لهذه الأحكام ، والخضوع لسلطانها الذاتى الذى لها .

* * *

وقد شُغل المسلمون زمناً بالتعرف على هذا القانون السماوى ، تعرف دراسة ، ونظر ، أشبه بالدراسات « الأكاديمية » لمسائل الفلسفة والأخلاق والاجتماع ونحوها — دراسة نظرية بعيدة عن مجال التطبيق العملى ، فى أية صورة من صوره .

وحسنٌ أن يُعنى المسلمون هذه العناية بفقه قانونهم السماوى ، وأن يلقوه بهذا النظر المحدق الحديد ، وأن يحشدوا له هذه الجهود وتلك العزمات على مر القرون ، وحسن أن يتدبر المسلمون نصوص هذا القانون حرفاً حرفاً وكلمة كلمةً ، وأن يدوروا حولها ، وأن يرقبوها من كل أفق ، ليرصدوا كل ما يلوح لهم منها من دلالات وإشارات ومفاهيم .

حسنٌ كل هذا ، ولكن على ألا يجور ذلك على سلطان هذا القانون ، ويُجْليه من القلوب والسرائر ، أو يقيمه فيها مقاماً خامداً ساكناً ، لا يرتبط بشعور ، ولا يختلط بوجدان ، ومن ثَمَّ فلا تُرعى له حرمة ، ولا يُحمى له حمى !

إن العناية التى يبذلها فقهاء القانون الوضعى ، والدراسات التى يصلونها به ، والشروح ، والتعليقات والمبادىء التى يستخلصونها منه ، هى أمر مطلوب لضبط أحكام هذا القانون ، وتحديد حدوده . . وإنه مهما يبذل الفقهاء فى هذا المجال من جهد ، فإنه لن يُدخل ذلك أى ضيم على سلطان هذا القانون ، وتنفيذ أحكامه . . إذ أن وراء هذا القانون سلطة قضائية وضعية تقضى به ، ثم سلطة تنفيذية وضعية أيضاً تنفذ أحكامه !

وخطأ فاحش غليظ أن نحسب القانون السماوى بهذا الحساب الذى تجرى عليه القوانين الوضعية ، وأن نحمله مجرد أحكام يقوم على تنفيذها خليفة المسلمين ، أو الحكومة التى تحكمهم ، أيا كانت ، وأيا كان قربها أو بعدها من أحكام هذا القانون ورعايتها له . . إن القانون السماوى الذى نزل به القرآن ، هو — كما قلنا — قانون وسلطان معاً ، وأنه إذا تجرد من هذا السلطان لم يكن هو القانون الذى حملته الرسالة الإسلامية ، ودعت الناس إليه .

وهذا مفهومه ، هو أن يَدْخل الإسلام قلبَ المسلم بهذا القانون وما تلبّس

به من سلطان ، حيث ينفّذ أحكامه فى شخصه أولا ، دون حاجة إلى قوة خارجية ، من حكومة أو مجتمع !

إن الدين بغير وازع من الدين نفسه ، لا يحسب دِيناً بحال أبدا . . بل إنه إذا كان كذلك لم تكن له داعية أصلا ، ولم يكن للرسل ولا لرسالاتهم معنًى . . فالناس فيهم الحكماء والفلاسفة والمشرعون الذين يضعون لهم القوانين التى تحفظ عليهم النظام ، وتدفع بأس بعضهم عن بعض .. فما جاءت الشرائع السماوية إذن لمجرد أن تقول للناس هذا حلال ، وهذا حرام . . فالناس يعرفون الحلال والحرام ، والرسول الكريم يقول : « الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ » .

وإنما الذى جاءت له الشرائع السماوية ، هو إقامة سلطان وازع فى كيان الإنسان ، حتى لا يفلت الإنسان من سلطانها فى أى حال من أحواله . وبهذا يكون للدين رسالة ، فى الحياة ، ويكون له بهذه الرسالة مفهوم جدّى يطلبه الناس من أجله ، ويبذلون النفس والمال فى سبيله . إنهم إذ ذاك يجدون أن فى كيانهم شيئاً حياً عاملا ، يرشدهم إذا ضلوا ، ويعينهم إذا عجزوا ، ويقويهم إذا ضعفوا . . إنه إشراق يملأ حياتهم نورا ، وإنه خير يعمر قلوبهم بالطمأنينة ، ويغمر نفوسهم بالسعادة ، فتجدهم لهذا فى حرص شديد عليه ، وفى يقظة دائمة لحمايته ، ودفع كل ما يطرقه من مؤثرات تتحكك بسلطانه ، أو تعبث بنوره !

ولهذا كان المسلم فى مطلع الإسلام ، إذا اقترف إثماً ، أو ألَمّ بمعصية اضطرب وفزع ، وأحس أن النعمة التى كان يعيش بها ، ويسعد بصحبتها ، قد بدأت تشد رحالها لتفارقه فراقاً لا لقاء بعده .. فلا يملك من نفسه إلا الندم الطويل ، وإلا التوبة النصوح ، والرجاء فى عفو الله ورحمته !

ويحدّث تاريخ الإسلام عن كثير من المسلمين كانوا إذا غلبتهم أنفسهم على

سلطان دينهم ، فقارفوا إثما ، فزعوا إلى رسول الله أو إلى خليفته من بعده يطلبون إقامة حدود الله فيهم ، ليتطهروا من هذا الرجس الذى أفسد عليهم الأحاسيس الطيبة الراضية التى كانوا يعيشون فيها . . وقصة « ماعز » ، والمرأة الغامدية — قصتهما مع رسول الله معلومة مشهورة . . فقد اقترف « ماعز » جريمة الزنا ، فلم يحتمل إثمها فى ضميره ، ولم يقو على الصراع بين وازع الدين الذى فى قلبه ، وبين هذا الشر الذى دخل عليه ، فغدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول له : طهرنى يا رسول الله . . فقد زنيت ! ! ورسول الله مشفق أن يكون بالرجل غمرة سكر ، أو مسة جنون . . والرجل يدفع فى إصرار عنيف عن نفسه أن يكون به شىء من هذا . . ولم تسكن نفسه إلا بعد أن رضى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بإقامة الحد عليه ، ورميه بالأحجار حتى يموت . . وقد كان ! . . ومثل هذا الموقف تماما بل وأعظم منه كان موقف « الغامدية » فقد جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرت على نفسها بهذا الجرم ، وأبت إلا أن تقدم شاهداً قاطعاً بين يدى الرسول الكريم .. فتعترف بأنها حبلى ، ويدعها الرسول الكريم حتى تلد ، فلما ولدت جاءت تستعجل الحد ، لأنها فى عذاب أليم مع هذا الإثم الذى يعيش فى كيانها . . ويمهلها الرسول حتى تفطم الصبى ، فلما فطمته جاءت إلى الرسول تستعجل تنفيذ العقوبة ، فكان أن رجمت ، واستراحت من هذا الهم الثقيل الذى كانت تعالجه ! وقد يكون الموت — وهو داء — أنجع دواء .

ومرة أخرى نقول : إننا منذ انتهى الصدر الأول للإسلام ، ومنذ أخذت تلك الدراسات الفقهية ، والكلامية تدور حول القرآن الكريم ، وترد موارده — أقول : منذ ذلك الحين أخذ الكتاب الكريم يتحول فى نظرنا شيئاً فشيئاً إلى نصوص ، لا تعطى أكثر من أحكام ومقررات فى شئون الشريعة أو العقيدة . . أما السلطان الوازع الذى كان من شأنه أن يكون هو الذى يسبقها إلى العقل

وإلى القلب ، وأن يفتح لها الطريق إليهما — أما هذا السلطان فقد أهمل العلماء والفقهاء والدارسون أمره إهمالاً مطلقاً ، فلم نر مذهباً من مذاهب الفقه ، ولا متجها من متجهات الرأى ـ إذا استخلص حكماً أو قرر مبدءاً من مبادىء الإسلام مستنداً فى ذلك إلى آية أو آيات من كتاب الله ـ لم نره التفت لفتة واحدة إلى مافى الآية أو الآيات من مفاهيم نفسية وروحية ، وهى مفاهيم ليس لها شأن مباشر فى تصوير الحكم ، ولا فى تقرير المبدأ ، وإنما هى فى صميمها ذلك الوازع الذى يدخل مع — أو قبل — الحكم أو المبدأ إلى كيان الإنسان . . ويقع فى مفهومه ! ومن ثمّ يصبح هذا المفهوم قوة حيّة عاملة فى كيان الإنسان ، وفى ضبط سلوكه ، وفى محاسبته إذا هو انحرف عن سواء السبيل . .

وأحسب أن الذى صار بعلماء المسلمين وبفقهائهم ومتكلميهم إلى هذا الاتجاه فى تجريد الدراسات القرآنية من المعانى النفسية والروحية — أمران :

أولها : هذه الخلافات المذهبية بين تلك الطوائف الكثيرة التى نجمت منذ الصدر الأول للإسلام . . وكانت غاية هذه المذاهب فى الاتصال بالقرآن — اتصال دراسة — هو الانتصار للمذهب ، والاحتجاج للرأى . وذلك إنما يقتضى عرض النص القرآنى على أساليب الجدل ، وعلى مقاييس المنطق ، بعد عرضه على مدلول اللغة ، وهذا من شأنه أيضاً ألا يدع مجالا لمراعاة شىء من المؤثرات النفسية أو الروحية التى يحملها النص ، ويقدّم بها الحكم الذى بين يديه ، لأن الغاية لم تكن إلا الحصول على مستند للرأى أو المذهب ، يتفق مع الرأى أو المذهب الذى اتخذته كل فرقة من تلك الفرق المتنازعة ، عقائدياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، بل وقومياً .

ومن أجل هذا كانت مسائل الخلاف بين أصحاب تلك المذاهب والفرق ؛

مسائل ذهنية ، رياضية ، عاطفية ، تتصادم فيها الآراء ، وتتصارع الحجج . .
دون أن يكون لذلك محصل ، إلا الغَلَب فى حلبة المصاولة والمقاولة والمصادرة
لآراء الآخرين .

وثانيهما : أن الفقه الإسلامى — لسوء الحظ أو لحسنه ، لا أدرى — قد نما
وازدهر فى ظل الخلفاء ، والأمراء والولاة . . إذ كان معظم هؤلاء الفقهاء
الذين كان لهم شأن كبير فى تقرير المذاهب الإسلامية — كانوا قضاة ، أو مفتين ،
أو مستشارين للخلفاء والأمراء والولاة . . ومن لم يطرق منهم باب السلطان
طرق السلطانُ بابه ليسأله الرأى والفتيا فى الأحداث التى تقع ، وفى الشئون
التى تعرض .

فكانت هذه الفتاوى ، وتلك الآراء ، وهذه الأحكام ؛ هى عمود المذاهب
الذى قامت عليه ، فجاءت هكذا : مسائل وأجوبتها ، وقضايا وأحكامها ،
ومشكلات وحلولها ، واستفتاءات وفتاواها . . ولا شىء وراء هذا .

وبهذا ، وبذاك عُزل المسلمون عن النظر فى كتاب الله نظراً يَرُود العبرة
والموعظة ، التى يخشع لها القلب ، وتسكن إليها النفس ، وصار أكثر النظر فى
كتاب الله إما لتلاوة مرددة ، ابتغاء الله ، أو الثواب أو « البركة » ! وإما التماسا
لفهم جديد فى مسألة فقهية ، أو استجلاء لغامضها ، أو ترجيحاً لمقولة من مقولاتها ،
وذلك على الطريق المرسوم فى دراسة النص القرآنى ، دون أن يلتفت الناظر
فى كتاب الله كثيراً إلى الأنوار المشعة من آياته وكلماته ، ودون أن يستعدَّ روحياً
ونفسياً إلى استقبال ما يتغشاه من روحانية القرآن ، وجلال طلعته . .

* * *

وكون القرآن هو معجزة ، وكون إعجازه فى هذه الكلمات المقروءة المسموعة ،

من شأنه أن يقيم للقرآن فى نفوس المسلمين حياة متجددة أبداً . . وخاصة عند أولئك الذين يحسنون العربية ، ويدركون أسرارها .

فما كانت قراءة القرآن أو تلاوته إلا لتلقى العبرة والعظة منه ، والعبرة والعظة إنما تكون عن إدراك وفهم لمواقع العبرة والعظة .

ومستويات الإدراك والفهم، درجات متفاوتة أشد التفاوت، ومنازل متباعدة، بعد ما بين السماء والأرض !

وانظر كيف كان تدبير اللطيف الخبير لإقامة شريعة الإسلام ، وجعلها خاتمة الشرائع ، وكمال كمالاتها . .

لقد جعل الحكيم العليم مفاهيم هذه الشريعة فى كلمات ، وجعل من هذه الكلمات معجزات . . فحيث نظر ناظر فى كتاب الله ، بقلب سليم ، ونفس مجتمعة — وجد وراء كل آية معجزة أو معجزات . . يرى فى منطوقها المعنى الذى جاءت له ، والشرع الذى دعت إليه . . وبهذا يتلقى المسلم أحكام شريعته على أضواء معجزات مشرقة نيرة ، تغمر بنورها الآفاق كلها من حوله ، فلا يرى إلا نوراً علوياً يشرح صدره للحق ، ويفتح قلبه للإيمان :

« وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

* * *

وهنا أمر يجب أن نلتفت إليه ، وأن نذكره دائماً — وهو أن المعجزة القرآنية لم تكن موقوتة بوقت الدعوة فى تحدّيها للناس ، وإنما هى قائمة ما دامت الحياة ، وما عاش الناس ، والتحدى بها قائم فى كل زمان ومكان . . ومن أجل هذا كانت معجزة القرآن — كما قلنا أكثر من مرة — محمولة فى كلمات

القرآن ، معروضة فى معرض التحدى والإعجاز للناس : أفراداً وجماعات وطوائف وأمما . . فإذا تقرر هذا — وهو ما يجب أن يتقرر — كان لزاماً على المسلم أن يقف بين يدى القرآن الكريم وقوفَ مَن دعاه داعى الحق ليشهد معجزات السماء تتنزّل عليه من كلمات القرآن الكريم وآياته . . !

فآيات القرآن الكريم ، هى رسول يحمل بين يديه ، وعلى فمه كلمةَ الله ، إلى عباد الله ، كما تحمل تلك الآيات من بين يديها ومن خلفها الشاهد لمعجز الذى يشهد لها أنها رسالة الله إلى الناس . . فالقرآن الكريم ، هو فى ذاته الرسالة والرسول ، والمعجزة ، التى تشهد بصدق الرسالة والرسول . . ومن هنا كان القرآن الكريم حجة قائمة على كل من بلغته آيات هذا القرآن ، ووعى ما حملت إليه من معانٍ ومقاصد . . وهنا ندرك السرّ فى أن كان الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — خاتم الرسل ، وكانت رسالته خاتمة الرسالات . . لأن القرآن الكريم — بكلماته وآياته . رسول قائم فى الناس أبد الدهر : يلقاهم برسالة الله ، ويحاجّهم بالإعجاز المتحدِّى منه . . وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى للنبى الكريم : « وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »[1] .

فإذا لم يلق المسلم كتاب الله هـذا اللقاء الذى يقيم نفسه فيه مقامَه بين يدى رسول الله ، ولم يقف منه هـذا الوقف الذى يقفه مستمعاً إلى آيات الله يتلوها رسول الله ، وإذا لم يطالع وجه الرسول ، وصدقه فيما يبلغ عن ربه — إذا لم يكن المسلم على تلك الصورة بين يدى القرآن الكريم ، فليعلم أنه ليس من كتاب الله فى شىء . . فما كان القرآن مجرد آيات تُتلى ، ولا كانت شريعته نصوصاً وأحكاماً وحسب ، وإنما القرآن قوة مضيئة هادية ، فحيث كان ، كان منه الهدى والنور . . ولهذا كانت صفته دائماً « الهدى » كما يقول الله تعالى :

(١) سورة الأنعام : ١٩

« ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »[1].

وما كانت القوانين فى ذاتها ـ وضعية أو سماوية ـ ما كانت « هدى » إلا لأنه يقوم من ورائها سلطان مادى خارج عنها ، أو نفسى منبعث منها ، يقيم الناس عليها ، ويأخذهم بأحكامها ، كَرْهاً أو طوعاً . .

* * *

أحسب أنى ربما أكون قد أسرفت فى توضيح هذا المعنى ، ولكن أرجو ألا يُحسب ذلك على أنه سوء ظن بفهم القارىء . . وإنما هو أسلوب من البيان القرآنى فى عرض الحقائق ذات الأثر والخطر ، عرضاً كاشفاً ، وذلك بتكرار عرضها فى صور متعددة ، ليتقرر معناها ، ويرسخ مضمونها فى النفس ، فتقوى دوافع العمل بها ، وتشتد نوازع الثباتَ عليها ، والتعلق بها .

والمعجزة القرآنية معجزة خالدة أبد الدهر ، تصحب المسلمين أينما كانوا ، وحيثما وجدوا ، ولكن جرى أمر المسلمين مع القرآن على غير هذا النحو ، إذ صرَفوا وجوههم عن معجزاته وإعجازه ، وصحبوه هكذا . . كلاما يردد على الأفواه كما تردد الأدعية والتعاويذ ! !

أفليس هذا مما يَحْزن له المسلم ويَكْرب منه ؟ بل ويطول له حزنه وكربه ؟ وأليس هذا مما يحمل المسلم على أن يفكر ، بل ويطيل التفكير فى التماس وجه التحول عن هذه الحال التى صار فيها القرآن كلاماً يتردد على الأفواه ، ويمر على الآذان ، دون أن يخلِّف فى القلب أثراً ، أو يحدث فى النفس ذِكراً ! !

نعم ، فإن الغفلة عن هذا الأمر ، أو السكوت عليه ، معناها الاستخفاف بالعقيدة ، والاستهانة بها ، بل والانخلاع عنها . . إذ لا عقيدة لمسلم بغير هذا القرآن ، ولا قرآن

(1) سورة البقرة : ٢

فى كيان مسلم ، بغير فهم له ، وإحساس به ، ولا فهم له ، ولا إحساس به إلا إذا شوهدت فيه آياته ومعجزاته ، وإلا إذا وقع فى النفس بَهَرٌ وإعجاب ، وإعجاز . . من تلك الآيات والمعجزات !

ذلك هو مقصدنا من هذا البحث ، وهو غايتنا من هذا الحديث ، الذى نرجو أن يصل بنا إلى ما نريد من هذا الخير المخبوء لنا فى كتاب الله ، والمدخر لأجيال المسلمين فى آياته وكلماته ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ، وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » [١].

صدق الله العظيم

* * *

(١) سورة الزخرف : ٤٤

الباب الأول

كلمات الله .. وكلام الناس

من أوائل سور « القرآن » نزولاً ، سورة « المزّمل » إذ تعد ثالث سورة نزلت على النبيّ بعد أن جاءه الوحى ، وآذنه بالنبوّة . . وتبدأ هـذه السورة الكريمة بقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قَلِيلا ، نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا »[1] .

فما شأن هذا القرآن الذى يقوم له النبيّ الليل كله . . إلا قليلاً ؟

يرتله ترتيلا . . ! ؟

يملأ به فمه ، وأذنه ، وقلبه ، وكيانه كله ! ويخلو معه الّليل كّله إلا قليلاً ، مناجياً مسامراً ، مناجاة الروح للروح ، ومسامرة الحبيب للحبيب ! !

هكذا . . ليلة بعد ليلة ، لثلاث وعشرين سنة ! ؟

وليس النبيّ وحده هو الذى كان يقوم للقرآن هذا القيام ، ويحتفى به هذا الاحتفاء ، بل لقد كان يتأسّى به فى ذلك كثير من صحابته . . يقومون له الليل . . يرتلونه ترتيلا .

« إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ . . وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ . فاقْرَءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ »[2] .

---

(١) سورة المزمل : ١ — ٤ (٢) سورة المزمل : ٢٠

ما شأن هـذا القرآن الذى يقوم له النبي والمسلمون هذا القيام . . يقرءونه ويرتلونه ؟ وماذا تجد النفوس منه على كثرة الترديد والترتيل على مدى الأيام والسنين ؟ وهل فى حُرِّ الـكلام كلام تطول مع الإنسان صحبته يوماً أو بعض ، ثم يلقاه من قريب أو بعيد بما يشبه ذلك اللقاء الخفيّ ، الذى كان منه لأول عهده به ، وصحبته له ؟ وهل يجد له فى نفسه ما كان يجد من دَهَش وَبَهر وإعجاب؟

إن أى كلام مهما يكن ما يحمل من كريم المعانى ونبيل المشاعر ، فى رائع النظم ، وعجيب الصوغ ـ فإن جديده إلى بِلًى ، وإن جماله إلى زوال ، وإن سحره إلى لعب ولهو . . حين تلقاه النفس لقاء مكرراً . . فهو يقبل على النفس فى كل مرة وقد برد شيئاً ما ، شوقُها إليه ، وإعجابها به ، إلى أن ينتهى بها الأمر معه إلى حال التشبع ، فيقبل عليها دون أن تأبه له أو تلتفت إليه ! تماماً كما تزورُّ العين ، وتزهد النفس فى حالة الشبع من ألوان الطعام ، وإن طابت وكرمت ! !

ولك أن تختبر هذا فيما بينك وبين نفسك !

منطق التجربة :

وتخير أروع وأبلغ ما يقال عنه من منثور الـكلام ومنظومه .. ثم عش معه يوماً أو أياماً ، وعد إليه بعد هذا مرة ، ومرة ومرات ! فماذا تجد لهذه التجربة عنـدك ؟

أتريدنى على أن أكشف لك عن معطيات هذه التجربة فى نفسك ؟ لا ! أنت أولى بهذا ، وأقدر عليه .

ولـكنى : أحدثك عن نفسى لو أخذت مكانك فى هذه التجربة ، ووقفت منها موقفك .. لاشك أن لى فى اللّقية الأولى مع هذا الـكلام المتخير لحظاتٍ طيبة مسعدة ، تنتشى فيها الروح ، وينشرح لهـا الصـدر ، ويرضى بها العقل والقلب !

ذلك أبلغ ما يبلغه فن القول من النفس فى أول لقاء به ، وعند أول ذوق له ، وتجاوب معه !

ثم على قدر مافيه من قوى الإثارة والتأثير ، يكون حظ النفس منه فى الغَدَوات والرَّوْحات بعد هذا ، فلقد تأخذ النفس كل حظها منه فى أول مرة ! ثم لاتذكره بعد ذلك أبداً ! وقد تنفصل عنه النفس وهى بعدُ مشوقة إليه ، وعلى موعد معه ، فتلتقى به لقاء مسعداً . . مرة ، ومرة . ومرة !

ثم ماذا ؟

ثم يجىء الوقت الذى يكون فيه لقاء ، ثم لا إثارة ولا تأثير !

ثم أتريدنى أن أزيدك علماً بما يقع فى نفسى من معطيات اللقاء بعد هذا . . مع هذا الكلام البليغ المتخير ؟

حسبك أن تعلم أن أقسى عقوبة تقع على نفسى هنا، هو أن يُفرَض علىَّ ترديد هذا الكلام ، وملء فمى وسمعى به ، مرة بعد مرة . بعد أن أخذت النفس حاجتها منه إن الأمر قد يصل بعد هذا إلى حد الاختناق !

أرأيت إلى من امتلأ بالطعام والشراب ، ثم أُريد له أن يزداد طعاما وشرابا ؟ ثم يزداد طعاماً وشرابا ، حتى يصاب بتخمة وكِظَّة — ثم لا يكون بعد ذلك إلا الموت بالبِطنة ؟ مِثل ذلك تماما يكون حال من يُحمل على ترديد كلام بعينه ولو كان من أطيب الكلام وأحسنه ، فإن هذا الكلام على حسنه وطيبه هو صنعة بشر ، وما كان لصنعة بشر إلاَّ أن تذبل بعد نضارة ، وتموت بعد حياة . . تماماً كما يذبل الصانع نفسه بعد نضارة ، ويشيخ بعد شباب ، ويموت بعد حياة ! !

وليس ذلك شأن فن القول وحده ، بل إنه حكم قائم على الفنون الجميلة كلها . . وما أُودع فيها من كل آيات العجب والروعة !

فإنها مهما تكن فهى صنعة إنسان ! فيها الإنسان كله بخيره وشره ، بقوته وضعفه ، بصحته ومرضه ، بشبابه وهرمه ، بحياته وموته . .

وإنها لتأخذ من الإنسان الذى خلقها مافيه من مَلَل وضجر ، وتقلب ، كما أخذت منه ما فيه من مهارة وحذق وذكاء . . فإذا هى أعطت فإنما تعطى من كل ما فيها من هذه الأخلاط : من مهارة وحذق وذكاء ، وملل وضجر وتقلب ، مطبوع ذلك كله بطابع الفناء المحكوم به على البشر ! !

فإذا أثارت هذه الآثار فى الإنسان ذكاءه وأرضت حذقه ومهارته ، فإنها تستدعى فى الوقت نفسه ، مسارب ضجره وسأمه ، وملله ! إنها تشرق وتغرب فى قلبه ، وتحيا وتموت فى كيانه ! !

ماذا فى كلمات القرآن ؟ :

والقرآن كلام . . ليس فى هذا شك أبداً .

كلام تحركت به الألسنة ، ونطقت به الأفواه . . حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ، قبل أن يتلقاه النبىّ آياتٍ بينات من السماء . ووحيا يوحَى إليه من رب العالمين . !

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » [1] .

فكيف يكون هذا شأنه من الخلود ذى السلطان الآسر على النفوس إذا أخذ المسلم بتلاوته وترتيله على مدى العمر . . ليالى وأياما ؟ ونأخذ الجواب على هذا من القرآن الكريم نفسه ... يقول الله تعالى :

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٣ – ١٩٥ .

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » [١] .

هو حديث . . ولـكنه أحسن الحديث ! !

وهو كلام . . ولـكنه أصدق الـكلام ! !

كلام الله سبحانه وتعالى . . وحديث الحق جل شأنه . .

وكلام الله صفة من صفاته سبحانه ، كاملٌ كمالها، جليل جلالها، باق بقاءها. . تلك صفة كلام الله . .

« لاَ يَأتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » [٢] .

لقد استولى القرآن الـكريم على عقول المسلمين وملك قلوبهم . . فشُغلوا به ، وفرغوا له . . حتى لقد أخذ عليهم كل سبيل إلى راحة الجسد ، مما يعرض لهذا الجسد من فتور من العمل وطول السهر ، وحتى لقد وصف القرآن ما كان من حالهم معه وشأنهم به ، فقال تعالى :

« إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً» [٣]، وقال سبحانه : « كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ » [٤] . . إذ كان في القرآن الـكريم حياة نفوسهم ، وغذاء أرواحهم ، وملاك حياتهم ووجودهم . .

وقال سبحانه في النبي الـكريم وصحابته في قيامهم بأمر القرآن :

---

(١) سورة الزمر : ٢٣
(٢) سورة فصلت : ٤٢
(٣) سورة السجدة : ١٦
(٤) سورة الذاريات : ١٧

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَة مِنَ الَّذِينَ معكَ »[1] .

إنهم على هذا المورد العذب الروى الذى أوردهم الرسول الكريم إياه ، فَعَلُّوا ونهلوا ، مُمْسين ومصبحين ، لا يريدون أن يرفعوا رءوسهم عن هذا المورد السماوى ، مهما طال وقوفهم عليه ، وكثر أخذهم منه . . هكذا أهل الجنة مع ما يرد عليهم من ألوان النعيم . . « كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل وأتوا به متشابها »[2] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو قدوةَ المسلمين وإمامَهم فى صحبته للقرآن الذى نزل على قلبه ، فهو صلوات الله وسلامه عليه على صلة دائمة به . . لا تنقطع أبدا .

يتلقى ما يتنزل عليه من السماء فى شوق ولهف ، فما أن يسمع الكلمة من كلمات الله يُلقِى بها جبريل على سمعه ، أو فى قلبه ، حتى يحملها على لسانه ، ليَطعَم من حلاوتها ، ويرتوى من رحيقها ، وكان ذلك داعياً له إلى العجلة التى ربما تشغله بالسابق عن اللاحق ، ولهذا دعاه الحق سبحانه وتعالى أن يأخذ نفسه بشىء من الأناة والرفق . . فقال سبحانه :

« لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لسانَكَ لتعْجَلَ به ، إنَّ علينا جمْعَهُ وقُرْآنهُ ، فإذَا قرأْناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ »[3] .

فكان النبي — صلوات الله وسلامه عليه — إذا تلقى ماشاء الله أن يتلقى من آيات الكتاب ، ضَمّ ذلك إلى مافى صدره من كتاب الله ، وآذن أصحابه به ، وتلاه عليهم ، فكان

(١) سورة المزمل ٢٠ (٢) سورة البقرة : ٢٥
(٣) سورة القيامة : ١٦ — ١٨

ذلك نعمة جديدة إلى ما عندهم ، يحيون فيها حياتهم كلها ، فى غدوّ ورواح ، مع كلمات الله . . مرتلين آياته ، أو مستمعين إلى المرتلين .

عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اقرأ علىّ » فقلتُ أعليك أقرأُ ، وعليك أُنزل ؟ قال : « فإنى أحب أن أسمعه من غيرى » . . قال ابن مسعود فافتتحت سورة النساء ، فلما بلغت قولَه تعالى :

« فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وجئنا بك على هؤلاء شَهِيداً »[1] .

«قال ابن مسعود: فرأيت عيناه تَذرِفان ، فقال : حسبك!».. وهذا يكشف لنا عما كان يجد النبى من النشوة الروحية ، والنعيم النفسى ، فى اتصاله بالقرآن ، حتى لقد دعاه ذلك إلى أن يُعطى كل حاسة من حواسه حظها منه ، فإذا فاض قلبه بنور القرآن وَطعِم لسانه من جَنَى تلاوته ، أراد لأُذنه نصيبها من أنغامه العلوية ، وألحانه السماوية ، فطلب إلى من يحسن القراءة أن يقرأ عليه ! !

ويحدث تاريخ نزول القرآن ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، فَتَر عنه نزول الوحى فترة من الزمن أول النبوة ، فوجد النبى صلى الله عليه وسلم لذلك حزناً شديداً ، وضيقاً بالغاً ، حتى لقد ظهر ذلك لقريش التى كانت ترصد حركاته وسكناته ، فقال قائلهم إن ربّ محمد قَلَاه ـ أى هجره ـ فنزل قوله تعالى :

« والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » . . فكان فى ذلك عزاءاً أجمل العزاء للنبى ، لما ورد عليه من ضيق وألم ، بإبطاء الوحى عنه !

---

(١) سورة النساء : ٤١

ومن ذاق عرف ! كما يقال .

وقد ذاق المسلمون الأولون حلاوة القرآن . تلك الحلاوة التى لم يجدوا لها شبيها فيما يقع للسان من مذاقات الشراب والطعام ، وفيما تجد الأذن من نغمات الأصوات والألحان ، وفيما يروع القلب من آيات الحسن والجمال ، وفيما ينشده العقل من بينات العلم والحكمة . . إنها حلاوة آسرة ، تستولى على كيان الإنسان كله ، وتأخذ عليه حسّه ، ووجدانه ، وقلبه ، وعقله ! !

وهيهات أن يقنع الإنسان بحظ من هذا الجمال العلوى ، أو يستطيع صرف نفسه عنه مهما طال وقوفه عنده ، ومهما قطف من طيّب ثماره ، وطعم من جَنَى كَرْمه .

عن ابن إسحاق عن أبى بُردة عن عبدالله بن عمرو قال : قلت يارسول الله . . « فى كم أقرأ القرآن ؟ قال : « اختمه فى شهر » قلت : « إنى أطيق أكثر من ذلك » قال : « اختمه فى عشرين[1] » قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك . . قال : « اختمه فى خمسة عشر » قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ؟ قال : « اختمه فى عشر » قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك ؟ قال : «اختمه فى خمس» قلت : إنى أطيق أفضل من ذلك . . فما رخّص لى » ! أى فما أجاز لى قراءته فى أقل من خمس ليالٍ .

ولقد كان بعض المسلمين يختم القرآن مرة بالنهار ، وأخرى بالليل ! !

ولو أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن يفعل ذلك لفعل ، ولكان ذلك أرضى لنفسه ، وأهنأ لقلبه !

---

(١) أى عشرين يوماً وليلة .

ولـكن النبى صلى الله عليه وسلم — وقد جاء بالشريعة السمحة وبالدين اليسر — وقف بهذا الصحابى الـكريم عند هذا الحد ، حتى يجد من فضل نشاطه وقوته ، ووقته ، ما ينفقه فى خاصة شأنه ، وشأن بيته وولده .

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم أراد بهذا التدبير أن تـكون قراءة القرآن على الوجه الذى يتحقق به قوله تعالى :

« ورَتِّـلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً » .

ولا بد لهذا من فسحة من الوقت يختم فيها القرآن ، حتى يؤدىَ القارىء له هذا الحقَّ من الترتيل ، وحتى يتيح لنفسه فُرَصاً للتأمل والنظر ، عندما تشرق فى نفسه ضوءة من أضواء الـكتاب الـكريم .

ففى البخارى . . عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كانت مَدًّا » ثم قرأ — أى أنس — « بسم الله الرحمن الرحيم » يمد الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم ! أى يمثل بهذا أسلوب القراءة التى كان يقرأ بها النبىّ الـكريم .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا قال : « إنى أقرأ المُفَصَّل [1] فى ركعة واحدة » . فقال : أَهَذًّا كهذ الشِّعر [2] ؟ . . إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولـكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه ، نفع » وإنه لا يقع فى القلب موقع النفع حتى يكون عن فهم وتدبُّر ، ولا يكون الفهم والتدبر إلا بالوقوف المستأنى المتأمل ، ولو طال هذا الوقوف وامتد أياماً وليالى وسنين مع الآية الواحدة ، أو الآيات من كتاب الله !

---

(١) المفصل ، قصار السور ، وقد اختلف فيها ، والرأى أنها تشمل أربعة الأجزاء الأخيرة من القرآن الـكريم .

(٢) الهذ : الإسراع والتقطيع .

ونعود مرة أخرى لنسأل :

ما شأن هذا الكلام الذى لا يملّه اللسان ، ولا تسأمه الأذن ، ولا يضيق به الصدر ، على طول الصحبة وكثرة اللقاء ؟ ما هذا الشىء الذى لا يُشبَع منه أبداً ، ولا تفقد النفس شهيتها له فى حال من أحوالها ؟

إنه — كما قلنا — كلام مما جرت به ألسنة العرب . . بحروفه وكلماته ، حتى إذا تلقاه الرسول قرآناً يوحى إليه ، وجد الناس لكلماته شأناً غير ما عرفوا من الكلام ، وما سمعوا من منظوم ومنثور !

وماذا فى هذا الكلام القرآنى من جديد لم يعرفه العرب ولم ينطقوا به من قبل ؟

إن كلمات القرآن كلمة كلمة كانت معروفة للعرب ، جارية على ألسنتهم ، فى شعرهم ونثرهم ، حتى لقد كان الشعر الجاهلى مرجعاً عتيداً عند العلماء ، فى الاستدلال على بعض غريب القرآن . . من مفردات وتراكيب . !

هناك إذن سر ضُمّت عليه هذه الكلمات القرآنية ، فجعل لها هذا السلطان الآسر على القلوب ، وهذه الغلبة القاهرة على العقول ، وهذا الجلال القائم على كل نفس ، تقرؤه أو تستمع إليه !

فما هذا السر ، وما السبيل إلى الاستدلال عليه ؟

وكيف يكون لهذا السؤال جواب ؟ أسِرٌّ يُزال حجابُه ، وترفع سُتره ، ويكشف غطاؤه . . ثم يكون بعد ذلك سراً ! ؟ إنه لو كشف هذا السرّ لما كان سرًّا ، ولما كان موضع عجب ودهش . . وفى المثل : « إذا ظهر السبب بطل العجب » ! وإذا كان من الممكن الميسور كشف السر عن كثير من حقائق الوجود المودعة فى كيان الموجودات ، كما هو واقع فيما تكشف الإنسانية من

أسرار الكون — إذا كان ذلك ممكنا فى هذا المجال ، فإنه من غير الممكن أن ينكشف لنا بحال أبداً سرّ هذا الجلال المودع فى كلمات الله ، إنه سر علوى منزل من السماء ، مودع بيد الحكمة والقدرة ، محجب فى نور الجلال والجمال . .

إن دون ذلك السر ، حُجُب وأستار ، دونها حجب وأستار . . لا تنتهى أبداً حصراً وعداً ! وذلك فيما يبدو هو مركز القوة الكامنة فى القرآن ، تلك القوة التى تجذب الناس إليه ، وتحملهم على مداومة النظر فيه ، ومتابعة التطلع إليه ، لكشف ما وراء حجبه وأستاره ! وهيهات أن ينكشف ما وراء الحجب والأستار ! وإن تفاوح طيبه ، وعَبَق فى الأجواء مسكه ! !

ودعنى أكون هنا شاعراً ، فما بغير خيال الشعراء أستطيع أن أتحدث إليك ، ولا بغير لغة الشعر أقدر على تصوير هذه الرؤَى التى أريد أن أحدثك عنها !

وإذن فأنا معك منذ الآن شاعر ، يستجيب لهتاف عواطفه ، ودواعى مشاعره ، أكثر مما يستجيب لمنطق العقل ، ومنزع الرأى . . !

ولن يطول وقوفى معك هنا أكثر من لحظات ، نقضى بها حق هذا الموقف ، ثم نودّع عواطفنا ، ومشاعرنا ، أو نتخفف كثيراً منها ، لنفسح للعقل وللرأى مكانهما الذى ينبغى أن يكون معنا فى مجال النظر فى كتاب الله .

* * *

رحلة إلى الملأ الأعلى :

إن كلمات القرآن التى كانت على فم الناس ، كان لها رحلة إلى الملأ الأعلى . . من الأرض إلى السماء . . من أفواه الناس إلى عالم الروح . . والحق . . والنور .

وهناك فى هذا العالم — عالم الروح . . والحق . . والنور . . عاشت تلك الكلمات دهراً طويلا بين ملائكة ، وولدان ، وحور ، فنفضت عليها هذه الحياة

الجديدة رُوحاً من روحها ، وجلالاً من جلالها ، ونوراً من نورها . . حتى إذا أذِن لها الحكيم الخبير أن تعود أدراجها إلى الأرض وتلتقى بأفواه الناس مرة أخرى ، وتطرق أسماعهم ، وتتصل بعقولهم وقلوبهم ، لم ينكروا شيئاً من وجودها ، وإن سرى إليهم من هذا الوجود مايخطف الأبصار ويخلب الألباب !!

أرأيت إلى إنسان تعرفه على حال يتقلب فيها كما يتقلب الناس فى الحياة ، بين وجوه الخير والشر . . إنسان لايختلف وجهه عن تلك الوجوه التى تعرفها فى كل مجال من مجالات اللهو أو الجد .

ثم تكون لهذا الإنسان هجرة إلى الله ،ينسحب بها من مواطن الزلل والعِثار إلى وجهة الحق والخير ، ثم ها أنت ذا تلقاه بعد غيبة ، فلا يخفى عليك وجهه ، ولا يختلف عليك شخصه . . إنه هو هو . . ولكن شيئاً ما يطلع عليك من وراء ظاهره ، يرفعه فى عينك ، ويدنيه من قلبك ، وإذا أنت منه بين يدى بارقة من بارقات الخير ، ولمحة من لمحات الحق .. تخشع لها ، وتطمئن إليها .. تعرفه وتنكره فى آن واحد ! ! تعرفه بما عهدت فيه من ملامح وقسمات، وتعجب لما يطلع عليك منه من هيبة وجلال !

هذا فى إنسان حمل نفسه حملا ، ونازعها نزاعا فى هجرته تلك إلى الله . . تثقله قيود جسده ، وتعوقه شهوات نفسه !

فكيف بتلك الكلمات وقد دعاها الحق سبحانه إليه ، وأنزلها فى ضيافته ، وأوسع لها فى ساحات كرمه وفضله ونفخ فيها من روحه ؟ ؟ إنهن منذ حللن هذا المحل الكريم ، وانتسبن إلى هذا النسب العالى الرفيع ، قد صِرْن من عالم غيرهذا العالم الأرضى ، وإن عُدْن إليه من جديد ، وجَرَيْن على الألسنة ، وطرقن الآذان ، واتصلن بالعقول والقلوب . لقد نفخ فيهنّ الحق من روحه كما نفخ فى مريم ، فكانت هى وابنها آية للعالمين .

إنهن يَعُدْن وفى قلوبهن أسرار لاتنتهى . . . كلما كشفن للناس منها عن سر لاح من ذلك سر.. وهكذا .. أسرار وراء أسرار .. لا تنفد على الزمن أبداً.

إنهن كلمات الله . . . ! وحسبك بكلمات الله وما أدع فيهنّ من خير لا نفاذ له !

« وَلَوْ أَنَّ ما فى الأَرْضِ مِنْ شجرةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُر ما نفِدَتْ كَلِمَاتُ الله .. إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

يقول « سهل بن عبد الله »: لو أُعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله فى آية من كتابه ... لأنه كلام الله ، وكلام الله صفته، وكما أنه ليس لله نهاية ، فكذلك لانهاية لفهم كلامه ، وإنما يَفهم كلٌّ بمقدار مايفتح الله عليه . . وكلام الله غير مخلوق (٢) ، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فُهُوم محدَثة مخلوقة » (٣) .

يزيد على طول التأمل بهجةً كأنّ العيون الناظرات صياقل

وفى إسراء الرسول الكريم إلى الملأ الأعلى ، شاهد لهذا ، فلقد دعا الله سبحانه النبى الكريم إلى ضيافته فى الملأ الأعلى ، وأراه من آيات ربه الكبرى ، مالا يستطيع قلب بشر أن يخطر عليه، ومالا تستطيع الكلمات أن تحمل بعضاً منه. « إذ يغشى السدرة مايغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (٤) . ولقد عاد النبى الكريم من تلك الرحلة المباركة إلى هذا العالم وفى قلبه أسرار يجدها فى كيانه ، ولا يجد اللغة التى ينقل بها ماوجد . هكذا كانت رحلة الكلمات القرآنية المباركة من الأرض إلى السماء . لقد عادت

(١) سورة لقمان: ٢٧ .

(٢) هذه المسألة ، وهى القول بخلق القرآن لها مدخل كبير ، فى مفهوم الإعجاز القرآنى، وسترى بحثاً خاصاً بها فى هذا الكتاب .

(٣) البرهان فى علوم القرآن جزء ١ ص ٩

(٤) سورة النجم : ١٦ — ١٨

محملة بأسرار لا تنتهى أبدا ، تُطلّ بها على النـاس من وراء حجاب من نور ، فلا ترى بعضَ ملامحها إلا قلوب مشرقة بنور الحق ، وإلا بصائر تنظر بعين الحق : « ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور »[1] .

كلام الناس وحدوده :

هذا كلام الله . . وهذا قرآنه !

فأين منه كلام الناس . . وما يجلبون له من صنوف التمويه والتهويل ؟..

والمقايسة هنا لا وجه لها !

وكيف يُقايَس بين الحق والباطل ؟ ويوازن بين الخلود والفناء ؟ ويقابل بين ما لله، وما لخلق الله ؟ تعالى الله سبحانه ، وتعالى كلام الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومع هذا فلا بأس من أن ننظر فى كتاب الله نظرة ، وأن ننظر فى كلام الناس نظرة . . نظرة واحدة هنا وهناك . . ينكشف بها الأمر ، وتزول بها الشبهة ، ثم لا يُعاد بعدها نظر ، ولا يعود صاحب النظر إلى هذا الموقف أبداً . .

انظر . . !

تطلع على الناس فى الحين والحين أغنية حلوة النغم ، عذبة اللحن ، جميلة المعنى ، رائعة اللفظ .. فإذا هى على كل فم ، وفى كل سمع ، يغدو بها النـاس ويروحون . . رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، ثم يكون لها دورة فى الحياة ، حتى إذا بلغت مداها ؛ سكنت وخمدت إلى يوم النشور ، فلا ينطق بها فم ، ولا تصغى لها أذن !

وتعرف الحياة نماذج طيبة من الشعر والنثر . . يلهج الناس بها زمناً ثم تفتر وتبرد، بعد أن تزايلها الحياة التى خرجت بها إلى الحياة .. فإن بقى لها بعد ذلك فى

(١) سورة النور: ٤٠

الناس شأن ، فهو شأن تلك الأجسام « المحنّطة » التى أعجبُ ما فيها أنها خر على المألوف ، فلم تتحول إلى تراب بعد شهور أو سنين ، وإن كان لابد أن تلتقى يوماً باليوم الذى تصبح فيه ترابا فى التراب !

هذه « المعلقات » التى كانت الصورة الكاملة للشعر الجاهلى ، والتى فُتن بها العرب ، فجعلوها حديثَ سمرهم ، ومادة طربهم ، جماعات وأفرادا ، فى الحَلّ وفى السفر . . وحتى ليقال إنهم كتبوها فى قباطىّ بماء الذهب ، وعلقوها فى أستار الكعبة ، لتكون منسكا من مناسك حجهم وشعيرة من شعائره ؟

هذه « المعلقات » — وهى رائعة حقاً — ما أن تَنْزِلُ آياتُ القرآن الكريم على النبى ، وما أن يرددها ويرتلها الناس حتى تستخذى هذه المعلقات من مكانها فى صدور الناس وعقولهم ، وحتى يذهل الناس عنها . وإذا هى غارقة تائهة فى محيط الصحراء . . لا يلتفت إليها أحد ، ولا يذكر إنسان من أمرها شيئاً ، حتى فى مقام التحدى الذى قام على العرب جميعاً . . فلم يُشِرْ إليها أحد من أولئك المعاندين الذين تصدّوا للدعوة وحاربوا الله ورسوله . ولم يقل أحد للنبىّ هاتِ معلقة كإحدى هذه المعلقات ! ! إذ أنهم عرفوا ألا وجه لهذه المعلقات تظهر به إزاء القرآن ، وأنها إذ جىء بها بين يدى القرآن ، كانت حصىً وتراباً يُطاول الكواكب والنجوم . . وهيهات أن يعترض صاحب الحصا والتراب ، ليسوم صاحب الجواهر واللآلىء ! ! إنه إن يفعل فقد شهد على نفسه بالسفه والجنون !

وحتى أصحاب هذه المعلقات الذين أدركوا الإسلام وذاقوا طعم « البلاغة القرآنية » هؤلاء قد مات الشعر فى صدورهم ، حين بدا لهم ضآلة شعرهم ، وقماءته وسخفه ؛ إزاء آيات القرآن الكريم ووضاءتها وإشراقها وسموقها . . وحين بان أنهم فى وجه فضيحة فاضحة وخزى مبين ، إذا هم أظهروا شعراً من شعرهم ، وخرجوا به على أنفسهم أو على الناس ، بمشهد من القرآن وبين يدى آياته ! وأية

فضيحة لعاقل ، وأىّ اتهام لعقله ، أ كثر من أن يخرج على الناس فى وضح النهار وتحت ضوء الشمس بمصباح ذى فتيل ، ليقول لهم : إن هذه الشمس التى يغمر الوجودَ ضوؤها ، ليست إلا كهذا المصباح الذى ترون ! ؟

فأى سخف بعد هذا السخف ؟ وأى عبث بعد هذا العبث ؟

لقد جنّب كثير من الشعراء — ومن بينهم بعض أصحاب المعلقات — جنبوا أنفسهم خزى هذا الموقف ومعرّته ، فنفضوا أيديهم من الشعر ، وأخلوْا صدورهم منه ، بعد أن كان الشعر أجملَ حلية يتحلوْن بها ، ويعيشون بالناس فيها ، فى أ كرم منزلة وأرفع شأن !

مع وقائع التاريخ :

ويحدث تاريخ الأدب عن لبيد بن ربيعة العامرى ، صاحب المعلقة التى مطلعها:

عَفَتِ الديار محلّها فمقامها ... بِمِنًى تأبّد غوْلُها ورِجامُها

يحدث هذا التاريخ ، أن هذا الشاعر الفحل ، عزل نفسه عن الشعر منذ دخل فى الإسلام ، وجرت على لسانه آيات القرآن الكريم . فلم ينطق ببيت شعر ، وود لو أن ماقاله من قبل قد دفن ، وتوارى فى عالم النسيان ، كما يتوارى الأموات فى التراب ! إنه لفضيحة أن يكون هذا الكلام هو بضاعته التى عزّ بها فى الناس ، وبلغ بها مابلغ من مكانةٍ فيهم ، وكيف لا يكون هـذا الكلام فضيحة وخزيا عند من ينظر فى هذا الكلام الذى نزل به القرآن ، ثم هو يقول عن نفسه إنه فصيح ، وبليغ ، وصاحب رسالة فى الناس ؟

ومن شواهد ذلك ما يُروى عن « لبيد » هذا ، من أنه كان إذا هبّت الصَّبا نحر الجُزُر ، ودعا الأيتام والأرامل إلى انتهابها ليطعموا منها . . وكانت تلك عادته فى الجاهلية ، وقد صحبها معه فى الإسلام ، وفاءً لنذْر كان منه !

وجاء عام مجدب ، وقد هبت الصَّبا ، ولم يكن للبيد جزر ينحرها ، على ما جرت به عادته . . وعرف الوليد بن عقبة — وهو والى الكوفة — هذا الأمر ، فخطب الناس ، ثم قال : « إن أخاكم لبيدَ بن ربيعة قد نذر فى الجاهلية ألاّ تهب صبا إلاّ أطعم . وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت صبا فأعينوه ، وأنا أول من فعل » . ثم بعث إلى « لبيد » بقطار من الإبل ، يفى به نذره ، ويجرى به على عادته . . وبعث مع هذا العطاء أبياتا من الشعر ، يقول فيها :

أرى الجزار يشحَذُ شفْرتَيْه إذا هبت رياح أبى عقيلِ

أشمّ الأنف : أبيض عامرىّ طويل الباع كالسيف الصقيل

وفَى ابنُ الجعفرىّ بحَلْفتَيْه على العلاّت والمال القليل

بنحر الكوم[1] إذ سُحبتْ عليه ذيولُ صبا تجاوبُ بالأصيل

ولم يدر لبيد بماذا يجيب هذا السيدَ الكريم ، وهو شاعر قد هجر الشعر ! ولم ترض ابنة لبيد لأبيها أن يخذله شعرُه فى هذا الموقف ، ورأت أن ذلك يكون عقوقاً للمروءة وتنكراً للمعروف . . ولن يشفع أى عذر يعتذر به لبيد عن الإمساك عن لقاء هـذا الفضل بالشكران . . وهو الشاعر الفحل الذى عرف الناس له قدْره فى هذا المجال !

ولم يجد لبيد مخرجا من هذا الحرج إلا أن يجعل لابنته القيامَ بهذا الأمر ، وأن تتولى عن أبيها شكرَ هذا المعروف . . فصنعت أبياتاً ، عرضتها على أبيها ، تقول فيها :

إذا هبتْ رياح أبى عقيل دعوْنا عنـد هبّتها « الوليدا »

---

(١) جمع كوماء ، وهى الناقة العظيمة الجسيمة .

أشم الأنف أروعَ «عبشمياً»[1] أعان على مروءته «لبيدا»

بأمثال الهضاب كأن ركباً عليها من بنى حامٍ قعودا

أبا «وهب» جزاك الله خيرا نحرناها وأطعمنا الثريدا

ثم ختمتها بقولها :

فَعُدْ إن الكريم له مَعاد وظنّى بابن أروى أن يعودا

فقال لها «لبيد» أحسنت يابنية . . لولا أنك سألتِه ! فقالت : إن الملوك لا يُستحيا من مسألتهم ! ! . فقال لها : وأنت فى هذا أشعر ! »[2] .

ولقد أرادت قريش فى أول مواقفها من النبى — صلوات الله عليه — أرادت أن تتخذ من الشعر سلاحاً فى حربها الكلامية معه ، ووقع فى وهمها أنها بسلاح الشعر — وهو أقوى أسلحتها فى هذا المجال ، أنها بهذا تستطيع أن تتصدى للنبىّ ، وأن تمسك لسانه عن الحديث إليها بما يحدثها به من كلمات الله ، فأغرت شعراءها به ، ينبحونه نبح الكلاب ، فما حجب هذا النباح ضوء الشمس ، ولا شفى مابصدر القوم من مرارة وحسد ، لما تسمع من النبى من هذا الكلام الذى أخذ على عقولها ، وقلوبها كلّ سبيل . . ثم سرعان ما انجحر هؤلاء الشعراء ، وخمدت أصواتهم ، فلم يجد القوم بدًّا من لقاء النبى بسيوفهم ، بعد أن عيّت ، وخرست ألسنتهم . .

وهذه أم جميل (العوراء) امرأة أبى لهب تسمع ما نزل فيها وفى زوجها فى قوله تعالى . « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » — تسمع هذا فتخرج مولولة

---

(١) نسبة إلى عبد شمس جد بنى أمية ، وهو الجد الأكبر لهذا الأمير .

(٢) الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى ج ١٥ ص ٣٧٠

صارخة كالمجنونة، تعْوي في طرقات مكة، وتقول إن محمداً قد هجاني، وتستنجد بالشعراء أن يهجوا محمداً كما هجاها، فيخفّ إليها بعضهم، ويُلقنها هـذا الشعر تهجو به محمداً:

مـــذمَّماً هجـــونا وأمرَه عصـــينا
ودينـــه قليـــنا

هذا كل ما كان في جعبة القوم من سهام طائشة رَموا بها نحو النبي، فارتدت إلى نحورهم.. إنهم هم المذمومون، وما كان النبيّ مذمماً، إنه محمد، وفي هـذا يقول الرسول الـكريم: «ألا تعجبون كيف صرف الله عني هجاء قريش وكيدها، يهجون مذمماً، وأنا محمد؟»

هذا شأن كلام الناس، وإن كان شعراً، وإن كان في الدرجة العليا من الشعر!! يعيش أعماراً كأعمار الكائنات.. ثم يتحول حالُه وينتهي وجوده! ويصير كما يصير الناس تراباً في التراب.. أما كلام الله، أما القرآن الـكريم، فقد عرفتَ من أمره أنه وإن يكن كلاماً مما نطق به الناس ومما جرى على ألسنتهم، فإنه ليس على ما عهدوا لمواقع الكلام وآثاره في القلوب والعقول.. فما كل بيضاء شحمة! كما يقولون!

استمع إلى قول الله جلّ وعلا:

« ضَرَبَ اللهُ مَثلاً، كَلِمةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّـبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفرْعُهَا في السَّماء.. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حينٍ بإذْنِ رَبِّهَا، ويضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ للنّاس.. لَعَلهُمْ يتفـكّرونَ.. ومثلُ كلِمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مالها مِنْ قرارٍ»[1].

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٥ ـ ٢٦

قف عند هاتين الآيتين ، ناظراً متأملا . . مقدرًا مفكرًا ، وارشفهما رشفة رشفة . . حرفا حرفا ، وكلمة كلمة . . ثم عد إليهما مرة ، ومرة ، وعشرات المرات ومئاتها وألوفها ، فإنك لن تجد إلا نشوة روحية ، تزداد كلما ازددت ترتيلا ، وتلاوة . ولو أقمت على هذا الأيامَ والسنين . . لن تزايلك النشوة أبدًا ، ولن تزيدك الصحبة إلا شوقاً . . فإنك لبيْنَ يدى كلمات « تؤتى أكلَها كل حين بإذن ربها » وهذا هو فيصل ما بين الكلام والكلام — كلام الله وكلام خلق الله !

والتجربة العملية دائماً هى التى تؤدى إليك أصدَق شهادة وأعدَلها ، فيما بين آيات الكتاب وما يكتب الكاتبون ، ويقول القائلون .

اقرأ من كتاب الله آية أو آيات ، واجعلها على لسانك وعلى سمعك ، وفى قلبك وعقلك ، واقرأ من كلام الناس أحسن ما يعجبك ويروقك . ثم عُدْ إليه . . ولا أذهب معك إلى أبعد من هذا ، فإنك غير محتاج بعد هذه التجربة إلى من يقول لك قولا أو يكشف لك عن الحق وجهاً !

وليس يصحّ فى الأفهام شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل

كلمات القرآن وآثار الزمن :

لقد صحب القرآن الحياة قُرابةَ أربعة عشر قرناً منذ نزل من السماء إلى يوم الناس هذا . وهو حديث الدنيا ، فى سرها وجهرها ، وهو ملء الأسماع والأفواه ، مؤمنةً وغيرَ مؤمنة ، وهو حركة عاملة دائبة . . مادة للأقلام ، ومَسْبَحاً للخواطر ، ومسرحًا للعقول ، ومجالاً للجدل والمناظرة . . هو فى الأفواه صلاة وعبادة ، ودعاء ، وهو على الصحف أدب وحكمه وعلم ، وهو شريعة دين ونظام لمئات الملايين من الناس ، تلقاه أجيالهم جيلا بعد جيل ، وتعيش فيه أممهم

عصراً بعد عصر .. أربعة عشر قرنا أو نحوها .. وهو حيث هو .. لا يفرُغ الناس منه أبداً، ولا تنتهى حاجاتهم منه، ولا تنقطع ثمراته عن الواردين والطالبين .

فالمؤمنون،فى شوق متجدد معه ، وفى خير متصل منه ، وفى عطاء موصول ، من ثمره ، كلما مدوا أيديهم إليه ،قطفوا من أدبه أدبا عالياً ، ومن علمه علماً نافعا ، ومن شريعته ديناً قِيَماً !

وغير المؤمنين ،فى عجب من أمره ودَهَش.. يتناولونه بألسنة حِداد ، ويرمونه بسهام مسمومة ، وبكيد عظيم، فما يصل إليه من كل هذا شيء يضيره ، أو يحجب سناه ، بل يزيده ذلك ألقاً وبهاء ، ويكسب بهذا الاحتكاك أو التحكك به ، قلوباً تهفو إليه ، وعقولاً تتجاوب معه ، ولله در الشاعر العربى الذى يقول :

وإذا أراد الله نشرَ فضيلة   طُويت أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يُعرف طيبُ عَرْفِ العودِ

ولو كان القرآن كلاما من الكلام لفرغ الناس منه ـ أولياؤه وأعداؤه ـ منذ أمد بعيد، ولقال كلٌّ فيه ما عنده .. من خير أو شر .. من رضًى أو سخط .. من تقدير أو تحقير . . ثم مضوْا جميعاً إلى ما فى الحياة من شئون غيره وشئون ، ولمَا عاد لهذا الكلام شأن مع الناس بعد هذا أبداً ، شأنُهم فى هذا مع كل عمل إنسانى ، مهما كان له من سلطان على العقول والقلوب ، فى أول مولده فى الناس .

ولكن ما هذا القرآن ؟ وما كلامه الذى صيغ منه ؟

لقد كان ما حير العربَ منه ،وخلط عليهم رأيهم فيه .. ذلك أنهم مهما يجدون

في أنفسهم من روعة له ، ورجفة منه ، واستخذاء دونه ـ لايلقاهم منه إلا كلام عرفوه ، ونظم ألفوه ، ومعانٍ دارت في عقولهم ، وجرت على ألسنة حكمائهم وخطبائهم ، حتى ايخيل إليهم أنهم قادرون على الإتيان بمثله . . فيقول قائلوهم ما حكى القرآن عنهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فإذا شاءوا هذا وأقدموا على تحقيقه ، وجدوا السماء أقربَ إليهم من أن يقفوا لآية واحدة من آياته . . إنه كلام . . لاشك أنه كلام ! لم ينكروا منه كلمة ، ولم يجهلوا منه أسلوبا . . ولكنه طعوم وألوان لم يألفُوها من قبل ، ولم يعرفوا لها مثيلا فيما تقلبوا فيه من ألوان البيان ، وطعوم البلاغة ! وأقرب مثل لهذا مايجده أصحاب الجنة من طعوم ثمارها التي تقدم إليهم في صورةٍ ما عرفوا منها في الحياة الدنيا ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها »[١] .

ومرة أخرى . . ما هذا القرآن ؟ وما هذا الكلام الذى صيغ منه ؟

لانستطيع أن نعطى هنا جوابا عجزت العرب عنه ، ولا أن نكشف وجها لم يستطيع أرباب البلاغة والبيان أن يطّلعوا عليه . . ولو أننا أردنا أن نقول قولًا في هذا المقام لما وجدنا لهذا السؤال جوابا إلا قولَ الحق سبحانه وتعالى في هذا الكلام : « وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالَمين ، نزَل به الرُّوحُ الأمينُ ، عَلَى قَلبِكَ لِتكونَ منَ المنذرينَ ، بلسانٍ عربى مبين »[٢] وقوله جل شأنه : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »[٣] . . ذلك إذا وقف المرء أمام القرآن وقفة المؤمن بالله ، المصدق برسالة

(١) سورة البقرة: ٢٥

(٢) سورة الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٤ .

(٣) سورة فصلت: ٤١ ، ٤٢

رسوله وما بلغ به عن ربّه . . أما إذا وقف أمامه وقفة الأديب الذى يستفتى أدَبه وذوقه ، ووجدانه ، ولا يسأل عقيدته وإيمانه ، فإنه لا يستطيع أن يقول إلا تلك الأقوال المتناقضة المتضاربة التى كانت تقولها قريش فيه : « إن هذا إلا سحر يُؤْثَر »(١) إما أن يكون من كلام البشر فذلك مالا يقول به من له مَسْكة من عقل ، أو ذوق للكلام ، ولو كان لهذا القول مساغاً لقالته قريش ، ولاقتضاها — والقوم بَشَر — أن يقولوا مثل هذا القرآن ، ولكنهم وقد عجزوا عن هذا عجزاً مطلقاً ، فقد خرست ألسنتهم عن أن تنطق بهذا الادعاء .

ومرة ثالثة . .

ماهذا القرآن ؟ وما هذا الكلام الذى صيغ منه ؟

وجوابنا هو : أنه كلام . . عرفته العرب ونطقت به . .

ولكن . . ماذا ؟

انظر :

أرأيت إلى عصا موسى ؟

ما هى ؟ إنها عصا من تلك العِصِىّ التى تتخذ من الشجر . . ليس فيها شىء يختلف عما فى غيرها من العِصىّ . .

ولم يكن موسى حين اتخذها قد أجهد نفسه فى اختيارها ، وفى البحث عن صفات خاصة فيها ، بل لعله مدّ يده إلى أى فرع من أشجار الزيتون التى تغطى رءوس الجبال فى ارض مَدْيَن ، فسوّى هذا الفرع واتخذه عصاً ! أو لعله وجد تلك العصا مسوّاة عند من يستصنع العِصىّ ويسوّيها ، ويعرضها لمن يشترى — فاشتراها !

(١)

هذه عصا موسى . . إنها عصا من العصىّ .. لا أكثر ولا أقل .. وفى هذا يقول الله سبحانه مخاطباً موسى :

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى »(١) . إنها عصا موسى ، قد أضافها إلى نفسه، ولم يضفها إلى الله ، لأنه كان لايرى فيها شيئا يخالف العصىّ التى فى أيدى الناس فى زمانه ، لايدرى من أمر عصاه ، إلا أنها قطعة من الخشب . يتوكأ عليها ، وَيُهِشّ بهاعلى غنمه . . أما المآرب الأخرى التى له فيها فهى ما تُستخدم فيه العصا من شئون صغيرة مختلفة . . كأن يدفع بها الأذى، أو يعلق عليها ثوباً ، أو يحمل بها إداوة . . لم تكن تختلف فى شىء أبداً عن تلك العصىّ التى فى يد الرعاة ! ولكن أدِرْ نظرك بعد هذا إلى تلك العصا ، وقد نفخت فيها القدرة من روحها . كيف أصبحت تضم فى كيانها قوى خفية ، تظهر عند استدعاء النبىّ الكريم لها ؟ فحين أراد الله سبحانه لتلك العصا أن تحمل فى كيانها ماتحمل من آيات بينات — قال سبحانه لموسى :

« أَلْقِهَا يَا مُوسَى ! فَأَلْقَاهَا ، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ! قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى »(٢) .

لقد فزع موسى من هذا المنظر العجيب الذى صارت إليه تلك الخشبة الميتة الهامدة فى يده . . لقد صارت حية تسعى !

« فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ »(٣) .

---

(١) سورة طه : آية ١٧ — ١٨

(٢) سورة طه : آية ١٩ — ٢١

(٣) سورة القصص : آية ٣١

أرأيت إذن كيف كانت العصا فى يد موسى ؟ ثم كيف أصبحت فى يده أيضاً ؟ وهى فى كلا حاليها لم تختلف عليه فى هيئتها ، وفى أوصافها التى عرفها عليها . . إنها هى هى فى كلا الحالين . . لم يتغير منها شىء ولم يجد موسى جديداً دخل عليها . . ومع هذا فهى بين يديه تحمل ما تحمل من قوى الحق التى تعجز يد البشر عن أن تنال منها منالا . . يلقيها من يده فإذا هى حية تسعى ، ويضرب بها البحر فينفلق ،فإذا كل فِرْق كالطود العظيم ! ويضرب بها الحجر فتتفجر منه اثنتا عشرة عينا ! !

* * *

والكلمات التى نزل بها القرآن الكريم ،هن أشبه بتلك العصا فى حالتها معاً . . هن كلمات معروفة متداولة ، يعرفها النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن تكون قرآنا ، كما يعرفها العرب قبل أن تنزل عليهم من السماء . . معجزةً متحدية !

وهى هى فى حاليها قبل أن تكون قرآناً ، وبعد أن كانت .. اللفظة هى اللفظة، والعبارة هى العبارة . . ومع هذا فقد وجد المشركون لهذه الألفاظ ، وتلك العبارات فى محيط القرآن، وقعاً جديداً على آذانهم ، وسلطاناً قاهراً على قلوبهم ، وامتلاكا ممكَّناً من مشاعرهم ، حتى ليستمع أحدهم إلى كلمات الله تتلى وهو متجه إليها بقلب يغلى غيظاً ، ونفس تفيض عداوة وحقداً ، ثم إذا هو لا يجد ذلك القلب الذى كان معه ، ولا تلك النفس التى صحبته ، وإذ هو خزيان يرجف هلعاً ، ويضطرب فزعاً ، كأنما تمتد إليه يد القدَر لتلقى به فى مهاوى الهلاك .

جاء الوليد ابن عتبة وكان سيداً من سادات قريش — إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يعرض عليه أن يدع ما هو فيه ،وأن يطلب من قريش ما يشاء من مال ، أو سلطان ، فقرأ عليه النبىّ صلى الله عليه وسلم الآيات الأولى من سورة

« فصلت » والوليد مأخوذ بها ، لا تختلج فيه خالجة ، فلما بلغ النبيّ إلى قوله تعالى :
« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »[1].
— أخذ الرجل على فم النبيّ أن يمضى أكثر من هذا ، ودعاه فى ذلة وانكسار، أن يمسك ! ولم يكن ذلك إلا لأن الرجل عرف وجه الصدق فى هذا الكلام ، بعد أن استيقن أن هذا الكلام لا يصدر من نفس إنسان ،وإنما هو — كما يقول النبيّ — كلام الله رب العالمين ، وأن ما ينذر به من صواعق،حق واقع لا شك فيه .

ومن هذا ما يُروى عن إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأنه ذهب إلى أخته وزوجها بعد أن كانت حدثته نفسه — قبل أن يدخل فى الإسلام — أن يذهب إلى النبيّ وأن يُلقى إليه من الأذى ما يليق برجل مثل عمر أن يأخذ بنصيبه منه من أذى النبيّ ، الذى توزعته قريش فيما بينها ، وتقاسمه ساداتها ، وتنافس فيه أشرافها !

نقول : كان عمر فى طريقه إلى النبى يحمل إليه الأذى والضر ، فلقيه فى بعض الطريق من سأله : إلى أن يريد ؟ فلما أخبره بوجهته . . تعجب مما هو بسبيله ، إذ كان محمد قد دخل على أخته وزوجها بدينه . . فكيف لا يدفع عمر عن بيته هذا الأذى ، ثم تحدثه نفسه أن يذهب إلى « محمد » ويتحداه ؟

وصعق عمر لهذا الخبر الذى لم يكن يعلم من أمره شيئاً . . وكاد يختنق غيظاً وحنقاً . . ثم عدل عن طريقه الذى كان يؤدى به إلى محمد ، وركب الطريق إلى بيت أخته وزوجها سعيد ، وقد غرق فى عرق الحُمّى التى ركبته !

وطرق الباب . . وعلمت فاطمة بنت الخطاب أنه عمر . . وكانت هى وزوجها يقرآن آيات من القرآن ، يقرؤهم إياها « خبّاب ابن الأرتّ » .

---
(١)

وحار القوم فى أمرهم . . ولم يكن بد من أن يدخل عمر . . فاختبأ خباب فى ناحية من الدار ، ودخل عمر ! !

فبادر سعيداً بلطمة ، فشجه بها ! ، ووقفت أخته بين الرجلين فدفعها عمر ، وصكها صكة أسالت دمها . . ثم قال عمر لأخته ولسعيد : أَصَبَوْتما ؟ . فقالت أخته : لا ، بل لقد أسلمنا ، فافعل مابدا لك ! ! وكانت فى يد « سعيد » صحيفة فتناولها عمر وقرأ ما وجد فيها ، فإذا هى آيات من سورة طه . وما كاد ينتهى منها حتى سكن ثائره ، وهدأت نفسه ، واطمأن قلبه ، وأنس لهذا الكلام الذى تمثل له ملائكةً أولى أجنحة ، تحمله إلى عالم النور ، منشدةً هذا النشيد العلوى :

« طَـهَ . مَـا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تنزيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُـلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، لَهُ مافى السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، اللهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسماء الحسنى » (١) .

ويفرغ عمـر من قراءة الآيات ، وتستقر أقدامه على الأرض ، بعد هذه اللحظات الخاطفة التى عاش فيها محلقاً فى السماء . ويلتفت إلى سعيد وإلى أخته فى ضراعة ولهفة : وأين محمد الآن ؟ ويستشف القوم ماوراء كلمات عمر من إيمان بمحمد ،وبلهفة إلى لقائه .. ويخرج خباب من مخبأه ، فيقول : اللهَ اللهَ يا عمر . . فلعلك ذلك الذى استجاب الله لرسوله فيه ، فلقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم البارحة يقول :«اللهمأعز الإسلام بأحدالعمُرَيْن»(٢) وكان أن ذهب عمر من فوره إلى النبىّ ودخل فى جماعة المسلمين !

---

(١) سورة طه : ١ — ٨

(٢) هما عمر بن الخطاب ، وعمرو بن هشام ، وهو أبو لهب ، ولقد سبقت الحسنى لابن الخطاب وثنى عمر وعمرو هكذا « عمرين » على التغليب لعمر .

ويحدِّث التاريخ أيضاً أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : اقرأ عليّ ، فقرأ عليه :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »(١) .

« فقال أعدْ عليّ ، فأعاد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول ذلك بشر ! » .

لقد أُخذ كثير من الذين استمعوا إلى القرآن قبل أن يسلموا — أخذوا بروعته ، وفاضت نفوسهم خشية ورهبة ، لما كان يطلع عليهم منه من لمسات روحية كأنها مس الكهرباء . . ولهذا عجب القرآن من أناس قست قلوبهم ، وتبلدت أحاسيسهم ، فلم تأخذهم للقرآن روعة ، ولم تحضرهم منه حال تذوب لها لها قلوبهم ، وتنفطر منها أفئدتهم . .

« فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القرآنُ لاَ يَسْجُدُونَ؟ » (٢) .

إنهم لأقل إحساساً وأشد مواتا من الحجر الصلد . . !

« وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٣) .

فماذا فى هذا الكلام الذى إذا سمعه الذين عرفوا وجهه من قبلُ فى مختلف

(١) سورة النحل : ٩٠ (٢) سورة الانشقاق ٢٠ ، ٢١
(٣) سورة البقرة : ٧٤

أحاديثهم ، أُخذوا به وركبتهم منه حال ؟ إنه غير جديد عليهم ولكنه مع هذا يطلع عليهم وكأنهم يسمعون كلماته لأول مرة . وكأن تلك الكلمات لم تكن تقع فى آذانهم قبل يومهم هذا ! !

فما هذا الكلام ؟ وما هذا القرآن ؟

ذلك ما نريد أن نجيب عليه فى المباحث التالية فى هذا الكتاب ، مستلهمين من الله سبحانه العون والسداد .

إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

الباب الثاني

المعجزة .. فى زمانها ومكانها

ما المعجزة :

المعجزة فى اللغة اسم فاعل من الإعجاز ، والإعجاز مصدر للفعل « أعجز » . . يقال : عجز فلان عن الأمر ، وأعجزه الأمرُ إذا حاوله فلم يستطعه ، ولم تتسع له مقدرته وجهده .

« والمعجزة فى لسان الشرع، أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّى ،سالم عن المعارضة [1] » .

يقول ابن خلدون : « إن المعجزات هى أفعال يعجز البشر عن مثلها ، فسُميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد ، وإنما تقع فى غير محل قدرتهم [2] » !!

والمعجزة : إما حسية ، تُجابه الحواس ، وتتحدى القُدَر . . وأغلب المعجزات التى سبقت معجزة نبىّ الإسلام كانت من هـذا النوع ، أى أنها كانت تقع فى مجال الحسّ ، وخاصة حاسة النظر ، حيث أنها فى هذا المجال تنكشف للناس على صورة تكاد تكون واحدة ، لا اختلاف عليها بينهم ، لأن الناس لايختلفون كثيراً فى مدلول المرئيات ، على حين يختلفون اختلافا بعيداً فى مدلول ما يقع للحواس الأخرى من مسموعات ، ومذوقات ، ومشمومات ، وملموسات .

وإما أن تكون المعجزة عقلية تواجه العقل ، وتلقاه بكل ما فيه من قُوى

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى — جزء ٢ ص ١١٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٠

الإدراك والاستبصار . . وهذا النوع من المعجزات لا يقع من الناس موقعاً متقاربا ، وإنما يلقاه كل إنسان بما لديه من إدراك، وفهم ، وقدرة على التمييز بين المدركات ، والتفرقة بين الخير والشر .

يقول السيوطى : « وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية . . لبلادتهم ، وقلة بصيرتهم . . ! وأكثر معجزات هذه الأمة — الإسلامية — عقلية . . لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم . . ولأن هذه الشريعة لمّا كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خُصَّت بالمعجزة العقلية الباقيـة . . ليراها ذوو البصائر » [١] .

هكذا يقول السيوطى . . ونحن نقول إن معجـزة الرسول هى القرآن وليست له معجزة غيرها . . وإن كانت كل آية من آيات الـكتاب الـكريم معجزة ، بل معجزات . . قال تعالى :

« أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » [٢] .

لماذا تتعدد المعجزات وتختلف ؟ :

والمعروف فى تاريخ الأديان ، وفى نصوص الـكتب المقدسة أن كل نبىٍّ كان يحمل بين يديه إلى قومه آيةَ صدقه ، فى معجزة ، يلقاهم بها ، متحديا ، على صورة لم يسبقه إليها أحد من قبل ، ولم ينـكشف للناس شىء من وجهها قبل أن تطلع عليهم ، قاهرةً ، متحدية .

بل إن بعض الأنبياء كان يحمل إلى قومه أكثر من معجزة ، ويجىء إليهم بأكثر من دليل يدل على أنه مرسل من عند الله ، وهذه المعجزات التى بين يديه هى شهود عدول على صدق ما يقول ، وما يدّعى ! فإن لم يصدّقوا بأن ما بين يديه هو آية من آيات الله ، لاتنالها يد بشر ، فليأتوا بمثلها .. وهيهات هيهات !

(١) الإتقان للسيوطى — جزء ٢ — ١١٦ . (٢) سورة العنـكبوت آية ٥٠ .

فموسى – عليه السلام – قد حمل إلى بنى إسرائيل عصا كانت تتفجر منها المعجزات . . يلقى بها من يده فتنقلب حية تسعى ، ويضرب بها البحر فينفلق عن طريق يبس بين جبال عالية من الماء . . ويضرب بها وجه الحجر فيتفجر منه الماء ، وتسيل العيون . . ثم كان معه إلى جانب تلك العصا ومعجزاتها ، معجزة أخرى هى يده ، يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ! . . ثم من معجزاته كذلك سوْف آيات النقمة والبلاء على فرعون وقومه :

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ . . آيات مُفَصَّلَاتٍ »[1] .

وعيسى – عليه السلام – كانت معجزته فى يده ، وفى فمه ! ! يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله . . وبكلمة من فمه وإشارة من يده ؛ يحيى الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، كما يقول سبحانه على لسان عيسى : « جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين[2] »

واختلاف المعجزات فى أجيال الناس هو مما اقتضته دواعى الحكمة التى جاءت المعجزات من أجلها . . ذلك أن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ، وإذ كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول ، وقيام الدليل على صحة دعواه ، فكان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم ، آخذة بعقولهم وقلوبهم . . فيما يدور فى هذه العقول ، وما يختلج

(١) سورة الاعراف آية : ١٣٣

(٢) سورة آل عمران ٤٩

فى تلك القلوب ، وبهذا تستولى المعجزة على كيان الناس ، وتُخرس ألسنتهم ، وتقوم عليهم الحجة كاملة ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن ينتظروا الهلاك الماحق ، الذى لا يبقى ولا يذر . . ومن هنا كانت تلك المهلكات التى وقعت بهؤلاء الأقوام الذين كذبوا رسل الله الذين جاءوهم بتلك المعجزات المادية الواقعة فى مرأى العين ، والتى لا يختلف عليها اثنان ، فى حين أنه لم يعجل الله تعالى بهلاك من ووجهوا بالمعجزة العقلية — وهى القرآن الكريم — لأن هذه المعجزة تحتاج إلى تدبر وتأمل ، وطول نظر ، ولهذا كانت فى صحبة دائمة للناس ، ينظرون فيها بعقولهم ، ويرددون النظر فيها حالا بعد حال ، حتى تنكشف لهم وجوه الإعجاز منها . . ثم إن هذه المعجزة القرآنيةُ لا تقع من الناس موقعاً واحدا ، لاختلاف مداركهم ، وتباين مستوى تفكيرهم ، وأنه إذا كان فى الناس من ينكشف له الحق منها لأول نظرة فى وجهها ، ومع أى آية تسمعها أذنه ، فإن كثيرا من الناس لا يهتدى إلى مواقع الحق من تلك الكلمات إلا بعد زمن قد يقصر وقد يطول ، ولهذا كان من حكمة الحكيم العليم أن يُفسح الوقت للناظرين فى المعجزة القرآنية ، وألا يأخذهم بالعذاب فى هذه الدنيا ، حتى تتاح لهم الفرصة لمواجهة تلك المعجزة إلى آخر يوم من أيام حياتهم فى هذه الدنيا .

وهذا ، وإن يكن من الممكن أن يتحقق فى المعجزة المادية الواحدة ، تتكرر جيلا بعد جيل ، فتظل أبدا متحدية قاهرة — إلا أن ذلك يذهب بكثير من تأثير المعجزة وينزل بقدر كبير من قدرها فى أعين الناس .

فلو أن عصا موسى مثلا كانت هى المعجزة التى يتناولها الرسل رسولا بعد رسول ، وكانت فى كل مرة ، وفى كل حال تطلع على الناس بتلك المعجزات التى كانت لها عند موسى ، أو بمعجزات أخرى غيرها — لوأن ذلك كان لما كان

لها على الناس ذلك السلطان الذى للمعجزة التى تجىء متفردة بوجودها ، والتى تجىء إلى الناس على غير انتظار ، وعلى خلاف أية صورة يتصورونها — ذلك أن أقل مايقع للناس من المعجزة الواحدة المتكررة أنها ربما كانت وليدة الصدفة ، توارثها أصحابها . . خلفاً عن سلف ، أو أنها بنت تجربة ناجحة لرجل حاذق ماهر ، آثر بها نفسه ، وجعل سرها مستغلقاً إلا على من يختار ويرضى من ورثته ، أو تلاميذه وحوارييه ! !

ثم إنّ حصْر أمارات السماء فى أمر واحد على صورة واحدة متكررة ، فيه اتهام لقدرة الله ، وفتح باب واسع للتشكك فى صدق الرسول . . إذ أن القدرة الإلهية لا حدود لها ، فكيف لا يراها الناس إلا فى صورة واحدة ، تتكرر على الأجيال ؟

لهذا كان من تدبير الحكيم العليم القادر أن يكون فى يد كل نبىٍّ دليلُ صدقه الذى لا يشاركه فيه غيره ، وأن تكون معجزته التى يلقى بها الناس حَدَثاً فريدا ، لم يقع لهم فى خاطر ، ولم يحل لهم فى تفكير !

هل المعجزة لازمة للرسول ؟ :

إن الرسول يجىء إلى الناس محملا برسالة فريدة بين الرسالات التى يحملها الناس إلى الناس فيما بينهم . . إنه يحمل رسالة من الله إلى الناس ، يدعوهم فيها إلى أمور تتغير بها معالم حياتهم الروحية ، والعقلية ، بل والمادية . فهو يدعوهم أولَ مايدعوهم إلى ترك ما يعبدون من معبودات باطلة فاسدة ، وأن ينخلعوا انخلاعا كاملا عما بينهم وبين هذه المعبودات من صلة ، وأن يوجّهوا وجوههم خالصة لله وحده ، لاشريك له .

إنها دعوة إلى انقلاب شامل فى تفكير الناس ، وفى وجداناتهم ومشاعرهم . .

إنها عملية جراحية بالغة ، يجريها الرسول فى أعماق الإنسان . ويلمس بها روحه ، ويمس وجدانه ، ليخرج هذه الضلالات المندسة فى كيانه . . وذلك أمر يتطلب أن يكون بين يدى الرسـول وسائل مادية وروحية ليست مما يتعامل به الناس .

فهو يجيئهم أولا بالمعجزة التى تشهد له أنه رسول من عند الله .. فإذا استقام له ذلك ، وعملت المعجزة عملها فى الناس ، فآمنوا له ، وصدقوا به — دخل إلى نفوسهم ، وإلى عقولهم وقلوبهم بالشريعة التى شرعها الله لهم ، فدعاهم إليها ، وأخذهم بها ، وأقام وجودهم عليها . . فهو لايدعوهم إلى متابعته إلا بعد أن يثقوا فيه ، وبهذا يتقبلون منه كلّ ما يدعوهم إليه ، عن ثقة واطمئنان .

وهذا الأمر العظيم الذى يجىء به الرسول إلى الناس مخبراً إياهم أنه إنما يبلغهم رسالة من الله تلقاها عنه ، وأمره بتبليغها إليهم — هذا الأمر لا يمكن أن يقبله الناس على علاّته ، وأن يستجيبوا له بلا نظر ، وبلا مراجعة، وإنما يلقونه بالعجب والدهش ، ويقفون منه موقف الريبة والحذر ، أو التهمة والإنـكار .

إنه لنبأ عظيم أن يجىء فى الناس من يقول إنه رسول الله .. إنها دعوى عجيبة تحتاج إلى برهان ، بل وإلى أكثر من برهان .. يقوم إلى جوارها .. يؤيدها ، ويفتح للناس الطريق إلى قبولها ، والتصديق بها .

من أجل هذا كان الرسول دائماً مطالباً من قومه بأن يقدم لهم الدليل القاطع الذى يشهد له بأنه متصل بالسماء ، وأنه القائم بالسفارة بين الله والناس !

وهذا الدليل ينبغى ألا يكون فى طوق البشر أن يحصلوا على مثله ، وإنما هو من صنع القدرة الإلهية التى يدّعى الرسول الاتصال بها ، قد اختصته به ، وجعلته بين يدى دعواه . ومن هنا كان الدليل « معجزة » يعجز الناس عن

الإتيان بمثلها . وكان « آية » ، أى أمارة وعلامة على صدق الرسول ، وصدق ما جاء به !

إن « السفير » الذى يقوم بالسفارة بين دولة ودولة ، لاتقبل سفارته ، ولا يعوّل على ما يُسفِر به إلا إذا حمل بين يديه أوراقاً مختومة بخاتم دولته ، موثقة بالأدلة التى تثبت شخصيته ومهمته ! .

والسفارة بين الله والناس أعظم سفارة يقوم بها إنسان فى هذا العالم .. ولهذا اقتضت حكمة الله أن يؤيد رسله بالمعجزات والأمارات التى تشهد لهم أنهم رسله وحملة رسالاته إلى عباده .

الناس والمعجزات :

ومع أن الرسل قد جاءوا إلى أقوامهم بالأمارات القاطعة ، والمعجزات القاهرة التى تشهد أنهم رسل الله ـ مع هذا فقد وقف كثير من الناس إزاء هذه المعجزات وقفة عناد وإعنات ، فاستقبلوا الرسول استقبال مكذب مرتاب ، أو منابذ محارب !

إن الذى دخل على المكذبين بالرسل والمعادين لهم لم يكن من جهة قصور فى المعجزة ، أو نقص فى كفاية الأدلة المقنعة ، والبراهين المبينة ، وإنما كان ذلك لما يقع فى تفكير الناس من استكثار هذا الأمر على بشر من بينهم . إذ كيف يطول إنسان السماء ، وتقوم بينه وبين الله هذه الصلة الوثيقة ، وهو واحد منهم ، لايبين عنهم بشىء ، ولا يفضلهم فى شىء ! ؟

وتختلط عند الناس فى هذا الأمر كثير من الأفكار المضطربة ، والعواطف المتضاربة . . من الغيرة ، والحسد ، إلى عظمة الأمر واستكثاره على إنسان أن يستقل به وينفرد ، دون سائر الناس !

لقد كذب اليهود بكل المعجزات التى جاءهم بها أنبياؤهم ، وهى معجزات قاهرة مبصرة . . فموسى عليه السلام . . قد فلق بهم البحر ونجاهم من فرعون . . وفجر لهم من الحجر عيوناً ، يستقون منها ، ويحيون عليها ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى . . ومع هذا فلم يروا فى ذلك كله دلائل صدقه . . فقالوا له :

« لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى نرى الله جهرَةً ! » (١) .

وجاءهم عيسى بالمعجزات التى أنطقت الجماد ، وأحيت الأموات . . فلم يكن فيها لليهود مقنع ! حتى أن الحواريين ، وهم أول من استجاب لعيسى وصدقه ، وشهد المعجزات القاهرة التى بين يديه — هؤلاء الحواريون لم تطمئن قلوبهم الاطمئنان الكامل إلى ما يشهدون من تلك المعجزات ، فقالوا ما ذكره القرآن الكريم على لسانهم : « يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ » ويجيبهم عيسى عليه السلام قائلا : « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين »(٢) .. ومع هذا فإنهم لا يمسكون عن المطلب الذى طلبوه ، فيقولون : « نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين(٢) » .

هكذا يكون موقف الناس بين يدى المعجزات المادية ، حيث لا يكون للعقل سبيل إلى النظر فيها . . إنها فوق مستوى العقول ، ولهذا يظل العقل فى حاجة إلى وارد يرد عليه من وراء هذه المعجزات المادية ؛ حتى يجد الطمأنينة والسكن إليها . . ومحمد عليه الصلاة والسلام جاء إلى قريش بالمعجزة الخالدة ، فأسمعهم آيات الله التى أخذت بمجامع قلوبهم ، واستولت على عقولهم ، فما أذعنوا للحق ، ولا استجابوا له ، وإن يكونوا قد عرفوه واستيقنوه .

(١) سورة البقرة : ٥٥ .
(٢) سورة المائدة: ١١٣

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ »[1] .

وفى هـذا ما يشير إلى أن العقل وإن رأى الحق فى المعجزة العقلية أو عرف أنها فوق مستواه — هذا العقل لا يقنع غالباً بما رأى، بل يريد شاهداً من عالم المحسوس، مما يقع لبصره، فيلتقى بهذا وارد الحواس مع واردات العقل . . وهذا إنما يكون من العقول التى غلب عليها الهوى، وزاحم مدركاتها الضلال الذى عشّش فيها . . أما العقول السليمة، فإنها ترضى بمدركات العقل حكماً، وتجعل له سلطانه الذى لا ينازع عندها، ولهذا جاء قوله تعالى منكراً على أهل الضلال أن يلتمسوا غير مدركات عقولهم دليلاً يدلهم على مواقع الحق والخير، فيقول سبحانه : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »[2] .

ولا شك أن هذا الموقف الذى يقفه الناس من معجزات الرسل، هو موقف لم يحتكم فيه الناس إلى عقولهم، بقدر ما كانوا يحتكمون إلى أهوائهم الغالبة، وعاداتهم المتحكمة . .

وإذا كان كثير من الناس لم يصدقوا بمعجزات الرسل، ولم ينتفعوا بما حملوا من خير وهدى، فإن أعداداً غير قليلة من الناس أيضاً قد صدقوا الرسل، وآمنوا

---

(١) سورة الإسراء ٩٠ — ٩١

(٢) سورة العنكبوت : ٥١

بمـا معهم وانتفعوا به واستقاموا عليـه ، وقليل فى الناس أولئك الذين يؤمنون بالرسول وبالرسالة التى حملها دون أن يطالبوا بمعجزة تشهد لها وله ، لأن الخير الذى تحمله رسالات الرسل إلى أقوامهم خير شاهد على أنها حق ، وأنها من من عند الله . . ولـكن لا يرى هذا الخيرَ إلا ذوو القلوب السليمة ، والبصائر المنيرة النافذة ، الناظرة بنور الله .

وهكذا كل خير يسوقه الله إلى عباده . . يقع من الناس كما يقع الغيث من الأرض . . ينفع أقواما ، ويضر آخرين ، وتحيا به أرض ، على حين لا تمسك منه أخرى قطرة واحدة ! وهذا ما يشير إليه الرسول الـكريم فى قوله :

« مثل ما بعثنى به الله عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت المـاء فأنبتت الكلأ والعشب الـكثير ، وكان منها أخاذات[1] أمسكت المـاء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنمـا هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

المعجزة الخالدة :

وإذا كان لـكل نبىٍّ آياته ومعجزاته التى يؤيد بها دعوى نبوته ورسالته ، فما هى المعجزة أو المعجزات التى جاء بها « محمد » بين يدى رسالته . . لتقطع على الناس طريق الشك فيه ، وفيما يدعيه ؟ لا شك عندنا فى أن معجزة « محمد »

(١) الأخاذات : جمع أخاذة ، وهى المصنع او الغـدير الذى يجتمع فيه المـاء . . وقد وردت كلمة «أخاذات» مصحفة فى كتب الأحاديث المطبوعة فجاءت «أجادب» . . والصحيح ما أثبتناه ، نقـلا عن عوارف المعارف للسهروردى على هامش إحياء العـلوم للغزالى جزء ١ ص ٢١٦

صلوات الله وسلامه عليه هى القرآن الكريم . كما صرح بذلك القرآن نفسه فى قوله تعالى :

«وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ . . قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[1] .

فهذه الآية صريحة فى قطع الكافرين عن البحث فى آيات أخرى غير القرآن . .

« إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

فهو الرحمة والذكرى معاً . . هو المعجزة ، وهو الشريعة . . ففى الشريعة يجدون الرحمة ، وفى الآيات التى نزلت بهذه الشريعة يرون الذكرى والمعجزة . . لقوم يؤمنون . . وكذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن القرآن وموقف قريش منه :

« أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ »[2] .

تلك هى معجزة الرسول ، كما ينطق بها القرآن الكريم .

ومع هذا فقد حاول كثير من العلماء أن يضيفوا إلى تلك المعجزة معجزات أخرى للرسول الكريم ، مصوّرة فى أحداث نقلها بعض الرواة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وجعلوها من معجزاته . كانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وكتكثير الطعام القليل حتى يطعم منه الأعداد الكثيرة من الناس ، ومثل

---

(١) سورة العنكبوت : ٥٠ — ٥١ (٢) سورة الشعراء : ١٩٧ — ٢٠١

كلام الضب والجمل بين يديه . . وغير ذلك مما تتحدث به كتب السيرة ، وتُفيض فيه .

وهذه أمور — إن ثبتت للرسول الكريم — لا تكون شيئاً إلى منزلته التى رفعه الله إليها ، ولا إلى تلك الرسالة الشاملة التى ندبه لها . . كما أنها لا تقاس إلى هذا الكتاب الكريم الذى وضعه الله تعالى بين يديه وأجراه على لسانه ، ذلك الكتاب الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » . . فكل آية من آياته معجزة قاهرة ، خالدة أبدَ الدهر . . فأين تقع تلك المعجزات التى تتحدث عنها كتب السيرة من آيات الكتاب الكريم . . كثرةً وعدًّا ؟ .

وإذا اختلف الناس أو شكوا فى تلك المعجزات التى تضاف إلى النبىّ الكريم ، وتُحسب له ، فإن المعجزة التى لا يختلف أحد عليها ، ولا يشك أحد فيها ، هى القرآن الكريم ، الذى قامت شواهد الحياة كلها على صدقه ، وتداوُله ، على الصورة التى نزل بها ، إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، لم تنقص منه كلمة ، ولم يتبدل منه حرف . .

فما لنا نخلط هذا بتلك ؟ ونجمع بين ما ضمن الله حفظه ، وسلامته فى قوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] .

وبين ما هو موضع زيادة ونقص ، ومجال تحريف وتبديل ؟ إن تلك المعجزات ، التى رآها الناس تجرى على يد النبى فى عصر النبوة ، هى من خصوصيات النبىّ ، ومن مزيد فضل الله تعالى عليه ، وإحسانه إليه ، ثم هى من جهة أخرى معجزات قائمة بذاتها إلى جانب المعجزة الكبرى ، وهى القرآن الكريم ،

---

(١) سورة الحجر : ٩

تقوم منها حجة مادية إلى جانب تلك المعجزة العقلية ، تفتح طرقاً إلى القلوب المغلقة ، للإيمان بالله ، والتصديق برسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهى حجة على من شهدوها ، ولم يؤمنوا بالله ، ولم يصدقوا رسول الله ، ، كما كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى خُلقه معجزة ، شاهدة بصدقه ، حتى لقد آمن كثير برسول الله عن نظرهم إليه ، وتفرسهم فى وجهه ، وحتى لقد كان يلقاه أحدهم فيقول له : « آلله أرسلك ؟ . فإذا قال الرسول: نعم الله أرسلنى ، فلايملك سائله إلا أن يقول: لقد صدقتك ، فآمنت بما جئت به ، فإن هذا وجه لا يكذب أبداً ! »

لندع إذن تلك المعجزات التى تضاف إلى الرسول ، ولنجعلها بمعزل عن المعجزة القرآنية ، التى جاءت للتحدى ، ولإقامة الحجة على الناس ، فهى وحدها معجزة الرسالة دون سواها ، ولكن تلك المعجزات الأخرى — قليلة كانت أو كثيرة — لذات الرسول ، وخاصة نفسه ، نعمة من نعم الله عليه وتكريمه له .

يقول الباقلانى : إن نبوة نبينا « محمد » صلى الله عليه وسلم بُنيت على هذه المعجزة «القرآن الكريم» ، وإن كان قد أُيد بعد ذلك بمعجزت كثيرة ، إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة ، وأحوال خاصة ، وعلى أشخاص خاصة ، ونُقل بعضها نقلا متواترا يقع العلم به وجودا ، وبعضها مما نقل نقلا خاصا ، إلا أنه حُكى بمشهد من الجمع العظيم الذين شاهدوه ، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لأنكروه أو لأنكره بعضهم ، فحل محل المعنى الأول. وإن لم يتواتر أصل النقل فيه .. وبعضها مما نقل من جهة الآحاد ، وكان وقوعه بين يدى الآحاد !

« فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة ، عمّت الثقلين ، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها وإلى يوم القيامة على حد واحد[1] »

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى (هامش الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى) ص ٨

ويقول ابن خلدون :

« واعلم أن أعظم المعجزات، وأشرفها، وأوضحها دلالة — « القرآن الكريم » المنزل على نبينا « محمد » صلى الله عليه وسلم .

« فإن الخوارق فى الغالب، تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبىّ ، ويأتى بالمعجزة شاهدة على صدقه . . . » - يريد ابن خلدون أن يقول إن الرسول من الرسل كان يحمل إلى الناس أمرين : شريعة يوحَى إليه بها ، يدعوهم إليها ، ومعجزة تشهد له بأنه رسول من عند الله ، وأنه صادق فيما يدعو إليه . . بمعنى أن هذه المعجزات المادية التى يواجه بها الرسول قومه ، هى شاهد صدق يشهد لما يدعوهم إليه من أنه من عند الله ، وأنه رسول الله ، إذ كانت دعوة الرسول فى ذاتها لا تحمل معها من الشواهد والقرآن معجزة تشهد لتلك الدعوة أنها من عند الله .

ثم يقول ابن خلدون :

« والقرآن هو نفسه الوحى المدّعَى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له - كسائر المعجزات - مع الوحى .

فهو واضح الدلالة . . لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . . »

ومعنى هذا الذى يقوله ابن خلدون . . أن النبى صلى الله عليه وسلم حمل إلى الناس أمراً واحداً فقط ، هو الشريعة ، وفى الشريعة نفسها المعجزة التى تشهد له بأنه رسول الله ، الصادق فيما يقول عن الله .. فمن قرأ آيات من القرآن الكريم، أو استمع إلى آيات منه ، طالع فى وجهها معجزة متحدية ، تشهد أنها كلمات الله، وأنه ليس لبشر أن ينطق بمثلها . .

ثم يقول ابن خلدون !

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

« ما من نبيّ من الأنبياء إلا وأوتيَ من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر . . وإنما كان الذى أُوتيته وحياً أُوحى إلىّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

ثم يفسر ابن خلدون معنى هذا الحديث الشريف بقوله :

« يشير — أى النبى — إلى أن المعجز متى كان بهذه المثابة فى الوضوح ، وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى — كان المصدقُ لها أكثرَ ، لوضوحها . . فكثُر المصدق والمؤمن ، وهو التابع والأمة »[1] .

ونقول : إن الرسول الكريم يكشف فى هذا الحديث عن المعجزة القرآنية بأنها معجزة عقلية . . هى وحى يوحى ، أى شىء يدرك بعين البصيرة ، فيهتدى إليه العقل من خلال الإشارات الخفية، واللمحات البعيدة، التى تتجمع من خيوطها شواهد الحق على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر .

فليس المقصود فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما كان الذى أوتيته وحياً يوحَى » — ليس المقصود بالوحى هنا الوحى الذى نزل عليه بالقرآن ، وإنما هو الوحى الذى ينزل على قلوب الناس من القرآن حين يستمعون إليه أو يقرءونه .

فالوحى . . معناه هنا الإشارة الدالة ، واللمحة الموحية . .

قال الشاعر[2] :

هل من مَعاشرَ غيرِكم أدعوهُمو فلقد سئمتُ دعاء : يا لَـكلابِ

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢

(٢) هو القتال الكلابى ، واسمه عبيد الله بن مجيب المضرحى ، من بكر بن كلاب ، وغلب عليه هذا اللقب لتمرده وفتكه .

ولقد لحنتُ لـكم لـكيما تفهموا ووحيتُ وحياً ليس بالمرتابِ

وليس فى القرآن الـكريم آية من آياته تخلو من إشارة دالة ، أو لمحة موحية ، تتولد منها حقيقة كاملة ، تنطق بأن هذا القرآن هو كتاب الله ، وأن هذا الكلام هو كلام الله .

ومن هنا يكثر أتباع هذه الرسالة ، إذ هى رسالة إلى كل إنسان ، ووحى إلى كل عقل ! . . لايحصرها زمان ، ولا يحدّها مكان !

يقول « جرونيباوم » صاحب كتاب « حضارة الإسلام » فى الحديث عن معجزة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه :

« ويُصبح الـكفار مطالبين بمعجزة . . ويدّعون أنهم يشـكون أن الله يختار رسولا له ، رجلا وسطاً فى المركز الاجتماعى . .

« ولم يجد « محمد » بُداً من أن يحاول أن يقنع المتشـكـكة بأن القرآن نفسه هو المعجزة التى تشهد بصدقه . .

« فالقرآن ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى اللسان العربى ، وليست آياته مما اخترع النبى . . بل هى — إن جاز هذا القول — الصورة العربية لـكلمة الله نفسه . . كما تلاها «محمد» أو أوحيت إليه عن أصل القرآن السماوى الذى فى أمّ الـكتاب . . ولا يستطيع « محمد » أن يضيف إليه كلمة واحدة ، أو أن يلغى منـه كلمة واحدة : « وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَـكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْـكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[1] .

---

(١) سورة يونس : ٣٧ ، ٣٨

« على أن «محمداً» نفسَه — حاملَ هذه الرسالة السامية ، وآخرَ مبلغ للوحى ، يرسله الله للناس — ليس إلاّ رجلًا فانياً » (١) .

ونعم إن « محمداً » رجل فان ، ولكنه يحمل بين يديه ، وفى قلبه ، وعلى لسانه آية خالدة . . هى هذا القرآن الذى تلقاه عن ربه . . روحا يبعث الحياة حيث أصاب !

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (٢) .

زمان المعجزة ومكانها :

كان من تدبير الحكيم العليم وتقديره أن تقع معجزات الرسل موقعها المناسب لها ، كى تُطلِعَ الثمر المرجوَّ منها . فيصيب الناس من ذلك الثمر على قدر مافى نفوسهم من استعداد للالتقاء بهذا الخير ، والإفادة منه .

وأحسن مواقع الخير للناس أن يلقاهم من حيث تمتد أبصارهم ، وتتجه عزَماتهم ، وتجتمع آمالهم . . إنهم حينئذ يلقَوْنه وكأنهم على موعد معه ، فيكون منهم التفات إليه ، واهتمام به ، واجتماع عليه .. يقلبونه بين أيديهم ، ويحتكمون فيه إلى عقولهم ، فيحيا به من يحيا ، ويهلك به من يهلك . . « ومن الخير ماقتل ! » . . وليس كذلك الخير حين يطلع فى الناس من اتجاه غير اتجاههم . . فيكون هو فى واد ، والناس فى واد ، لايلتفتون إليه ، ولايقفون عنده . . إنه ليس على الطريق التى يسلكون ! !

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٤ (٢) سورة الشورى : الآيتان الاخيرتان منها .

لهذا كانت معجزات الرسل - وهى خيرٌ مرسلٌ من السماء للناس - تطلع فى القوم وكأنها أمل كان يضطرب فى صدورهم ، فحققته الأيام ، أو حلم كانوا يظنونه أضغاث أحلام ، فجاءهم الرسول بتأويله . . وضيئاً مشرقا ، كفلق الصبح ، أو أَلَقَ الضحى . !

والمعجزات التى نراها على تلك الصفة ، هى تلك المعجزات التى تكون بين يدى الرسول شاهداً مبيناً على صدق رسالته ، وبرهانا قاطعاً على أنه مرسل من عند الله . ففى هذه المعجزات ترى الناس أنهم كانوا يحاولون أمراً أعياهم اضطلاعه فوقع على يد إنسان منهم ، ولن يكون لهم أن يقفوا أثره ، أو يلحقوا به أبدا . . وهنا يرون أن هـذا الأمر ليس من صنع إنسان ، ولا فى طوق بشر ، وأنه - كما يقول لهم نبيهم - آية من السماء ، ليس له هو فيها إلا أنه الذى دُعِىَ من السماء لحملها إليهم . . أما تلك المعجزات التى تقع بالدمار والهلاك على المكذبين بالرسل ، فليس من شأنها أن تجىء على وفاق مع مجريات الحياة التى يحياها الناس ، ولا على ما لهم من امتلاك للحياة فى علم أو فن فيها . . ذلك أن هذا النوع من المعجزات إنما يجىء للقوم بغتة من وراء ظهورهم ، لا ليقيم الحجة عليهم ، ولا ليقدم شواهد الإعجاز لهم ، وإنما ليدمدم عليهم ، ويدفع بهم فى لمحة خاطفة إلى مهاوى الهلاك ، والفناء !.. بعد أن عافوا الدواء الذى قدمته لهم السماء ، وبعد أن أبوا أن يمدوا أيديهم إلى اليد الممدودة لإنقاذهم .. فصاروا إلى مصيرهم المحتوم ! !

وإذا كان بعض العلماء لم ير فى معجزات موسى توافقاً مع ما كان عليه الحال فى مصر يومذاك ، وأن السحر الذى جاء به سحرة فرعون لم يكن من جنس المعجزة التى جاء بها موسى ، والتى أقامت من العصا حيَّة تسعى ، إذ كان ما جاءوا به ليس إلا ضرباً من الشعوذة ، أو فناً من الحيل ، لا يقوم على علم ، ولا يستند

إلى حق ، ولهذا فإن السحرة كانوا أول من استخذى أمام المعجزة ، لأنهم أعرف الناس بما فى أيديهم من باطل لا وجه له .. فى مواجهة هذا الحق المبين .

— إذا كان بعض العلماء يرى هذا ، ويحسب أن ما جاء به سحرة فرعون ليس إلا مجرد تلفيقات أوحت بها إليهم المعجزة التى قدمها موسى بين يدى فرعون ، قبل أن يلقاه فرعون بهذا التحدّى ، الذى جمع له السحرة من كل مكان فى مصر — فإن التاريخ يشهد بغير هـذا ، إذ أن الكهنة فى عهد الفراعنة ، كان لهم قدرات عجيبة فى كثير من الأمور ، وأنهم كانوا مستودَع أسرار لكثير من العلوم والفنون ..!

والقرآن الكريم يسجل هذه الظاهرة التى كانت شائعة فى مصر ، والتى كان يستند إليها فرعون مصر ، ويعتز بها .. فما أن جاء موسى إلى فرعون بمعجزته حتى تحداه فرعون بمـا يملك من قوى مدخرة عنده .. يقول سبحانه على لسان فرعون مخاطباً قومه :

« قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؟ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ »(١) .

ويقول سبحانه على لسان فرعون أيضا مخاطبا موسى :

« قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى ، قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى »(٢) .

---

(١) سورة الشعراء : ٣٤–٣٧ (٢) سورة طه : ٥٧–٦٠

فالذى يسجله القرآن الـكريم هنا، هو أنه كان هناك أعداد كثيرة من السحرة الذين لهم مهارة وحذق ، يملـكون بهما السيطرة على بعض قوى الطبيعة ، فتنقاد لهم ، وتستجيب لدعوتهم . . وآثار الفراعنة تنطق بهـذا ، وتقوم شاخصة شاهدة به .

فما جاء به موسى عليه السلام كان فى اتجاه الحياة التى تطمح إليها أنظار القوم، وتتحرك نحوها آمالهم ، وإن كانت معجزة النبى قد وقعت موقعاً بعيداً تنحسر عنه الأبصار ، وتنقطع دونه الآمال !

وكذلك كان الشأن فى معجزات عيسى . .

فلقد كثر فى عصر عيسى الأنبياء والمتنبئون ، وامتلأت أرض إسرائيل بهؤلاء وهؤلاء ، فكان يطلع على الناس من كل مكان مَن يلقاهم بأن عنده من القوى الروحية ، ومن الامتلاء من روح القدس ما يملك به القـدرة على شفاء الأمراض ، وإزاحة العلل .

لم يكن الطب بمعناه العلمى متقدِّما فى بنى إسرائيل على نحو من الأنحاء المقابلة لمعجزات عيسى عليه السلام — كما يرى ذلك بعض من يلتمسون وجه المناسبة بين معجزة عيسى وعصره ـ ولـكن الذى كان متقدما حقاً هو « الإيحاء النفسى » الذى كان يبلغ عنـد بعض الناس حداً كبيراً من القـوة والاقتدار على التأثير فى الغير ، وظهور آثار هـذا التأثير فى شـفاء كثير من الأمراض والعلل .

ولهذا كانت معجزة عيسى قوة روحية تنطلق من كيانه فتفعل فعلها ، وتظهر آثارها العظيمة التى يقف منها « الإيحاء النفسى » وموحياته ، وآثاره ، متخاذلا ، مستخذيا . . مبهور الأنفاس !

يقول « عبد الجبار » فى كتابه « المغنى » : « وعلى هذا الوجه رتّب تعالى المعجزات ، فجعل المعجز الذى أظهره على يد موسى ، مما الأغلب وضوحه لأهل زمانه ، وانكشافه لهم . . فقد كانوا يتعاطون السحر ، فلما ورد عليهم ما ورد من انقلاب العصا حيّة آمنوا لظهور الأمر ، وكان اعترافهم وإيمانهم مقوّياً لدواعى غيرهم إلى البصيرة ، وشدة التأمل ، لأن من حق التابع أن يكون مقتديا بالمتبوع تقليداً ، أو سالكا سبيله بالتأمل .

«وكذلك فعل تعالى فيما أظهره على عيسى، مما بهرعقول الأطباء فى زمنه . . ووجه الحكمة فى ذلك ظاهر، لأنه لو أظهر على كل واحد منهم فى زمانه مالايخرج عن طريقتهم قويت البصائر ، وانكشف وجه التعذر ، فيكثر التصديق ، وتقل الشبه » [1] .

أما أن الذين رأوا تلك المعجزات . واستيقنوا صدقها ، ثم لم يؤمنوا بها — أما هؤلاء ، فإن الذى حجزهم عن الإيمان ، هو العناد الآثم ، الذى يحمل صاحبه على أن يركب مركب الهلاك ، ولا يمدّ يده إلى من يأخذ بيده ، وينتشله من بين الأمواج الصاخبة حوله . . هكذا العناد ، وتلك هى سبيل المعاندين . . يقول الله تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها »[2] ويقول سبحانه : « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » [3].

* * *

وعلى هذا التدبير جاءت معجزة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . . فكانت على أفق الحياة التى تمتد إليها أنظار الأمة العربية ، وتتفتح لها قلوبهم ، وتنتعش بها نفوسهم . . !

---

(١) المغنى لعبد الجبار جزء ١٦ ص ٢٠٥

(٢) سورة الإسراء : ٥٩ (٣) سورة النحل : ٨٣

والذى كان يرصد مجرى الحياة العربية قبيل البعثة النبوية كان يرى أن أوضح ظاهرة فى حياة هذه الأمة ، وأقوى قوة عاملة فيها ، هى « الكلمة » . . !

« فالكلمة » فى حياة الأمة العربيـة هى تاريخ أمة بأسرها . . هى عقلها المفـكر ، وهى قلبها النابض ، وهى مشاعرها المتدفقة ، وهى خيالها المنطلق . . هى كل شىء عندها .. تمسك بوجودها كله ، وتستولى على كل خالجة منها ..

فما عرفت الحياة أمةً من الأمم كانت « الكلمة » مالـكة زمامها ، ومصرِّفة أمرها ، ومنطلق حياتها ، ومسبح آمالها وآلامها ـ كالأمة العربية ، منذ جاهليتها إلى أن طلع عليها الإسلام ، ونزل عليها القرآن !

وماذا كان يكون شأن الأمة العربية فى الحياة لو لم تـكن « الكلمة » معها ، وعلى لسانها فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة عبْرَ تلك الحياة الغليظة الجافية الجافة ؟ إنه لولا « الكلمة » لما احتمل العرب الحياة فى الجزيرة العربية ، ولمـا قام لهم وجود فيها على تلك الصورة التى جعلت منهم قبائل وعشائر .. ثم جمعتهم أخيراً فى أمة واحدة ! !

ولماذا العرب وحدهم ؟ :

وقد يبدو هـذا الكلام غريباً عنـد بعض الناس .. حيث يرون أن « الكلمة » ـ ونعنى بها اللغة ـ ليست مقصورة على العرب وحدهم ، بل إن الناس جميعا شركاء لهم فى هـذه الظاهرة الطبيعية .. فلكل أمة لغتها التى تعيش بها ، وتنتقل بها الآراء والأفـكار بين أفرادها .

فـكيف ينفرد العرب بوضع خاص فى هذه الظاهرة ؟ وكيف يكون للكلمة عندهم شأن غير شأنها حيث تـكون على لسان الأمم والشعوب ؟

وهذا اعتراض له وجهه ووجاهته !

ولكن لنا أن نقول : إن ظروف الحياة التى فرضتها الطبيعة على العرب فى هذه الصحراء القاحلة المقفرة قد جعلت للكلمة فى أفواههم طعماً لم يكن لها على أى فم ، فى أى مكان غير هذا المكان !

فالحياة فى هذا الموطن الجديب القفر، حياة لا تحتملها النفس البشرية ، إلا إذا دخل عليها عنصر جديد ، من شأنه أن يمد الناس هناك بقوى تشد عزائمهم ، وتربط على قلوبهم، وتوثق عُرى الإلف بينهم وبين وجوه هذه الأرض المنكرة ، فتتحول دمامتها — فى ظل هذا الإحساس — حُسناً مقبولا .. يعاش معه ، ويُسكن إليه ، وقد يُحَبُّ ويؤْلف ! !

ولم يكن بين يدى العرب فى موطنهم هذا شىء يصلهم بالحياة ، ويجعل بينها وبين قلوبهم ، وعقولهم ، ومشاعرهم ، وخيالاتهم ـ طريقاً إليها غير «الكلمة» .. والكلمة وحدها ، دون أية وسيلة أخرى من تلك الوسائل الكثيرة ، التى تصل ما بين الناس وبين الحياة !

فى الأمم الأخرى ـ غير أمة العرب ـ وجد الناس إلى جانب الكلمة فنونا كثيرة يصوّرون بها أفكارهم وآراءهم ، ويجسدون فيها خواطرهم ومشاعرهم . . فعرفت الأمم ـ فيما عرفت من هذه الفنون ـ الخطّ ، فسجلت به آراءها وأفكارها ، وعرضت هذه الأفكار فى مجال التعامل بين أفرادها . . فأخذوا بها وأعطوا ، كما يأخذون ويعطون فى الأسواق التجارية . . كذلك عرفت هذه الأمم ـ فيما عرفت ـ النحتَ ، والتصويرَ ، والموسيقى . فأقامت من كل أولئك مشاهد تنبض فيها خلجات مشاعرها ، وتُطل منها عليهم وجوه آمالهم وآلامهم . . فيرون فى كل هذه المجالات مسارح فسيحة تتحرك فيها عقولهم ، ويسبح فيها خيالهم ، وتخطر عليها مشاعرهم وأحاسيسهم . . هذا إلى جانب ما عند تلك الأمم من اللغة

التى ينظمون من ألفاظها وعباراتها ما تستطيع « الكلمة » حمله من معطيات عقولهم ، وقلوبهم . .

وهذا كله إلى ما عند الأمم الأخرى ـ غير العرب ـ من وجوه كثيرة للسعى فى الحياة ، والتنافس فى وجوه العمل ، والتقلب فى ألوان الحياة وزخارفها .

أما الأمة العربية ـ فى هذا البلد الجديب القفر ـ فلا شىء عندهم يستجيب لهم فى يسر ، ويصحبهم فى المكْرَه والمَنْشط ، وفى الارتحال والحِل ـ إلا الكلمة .. دون غيرها مما تهيأ لغيرهم من الأممَ والشعوب أن يصطنعوه ، ويستخدموه من ألوان الفنون . . وشئون الحياة .

إن حياة البادية قد فرضت على العرب أن يعيشوا فى فراغ ثقيل موحش ، إذ لا مجال للنشاط الإنسانى هناك غير تربية الحيوان ، أو بمعنى أصدق اقتناؤه ، من غير أن يتكلف له صاحبه إلا حمايته من الحيوانات المفترسة ، أو من المغيرين من صعاليك العرب وفتاكها . . ثم إرساله بعد ذلك هملاً يرعى حيث يوجد العشب والكلأ . . وكان أمر ذلك ـ ما عدا الدفاع عن الحمى ـ موكلا إلى الصبيان والنساء ، والعبيد !

ثم إن حياة البادية ، وجفاف جوّها ، وتقلب هذا الجو بين السَّموم المحرق ، والنسيم العليل فيما بين الضحوات والأصائل — هذه الحياة من شأنها أن تبعث فى الإنسان حيوية فى الجسم ، ويقظة فى المشاعر ، ورفاهة فى الحس ، وحدة فى الذكاء .

كل حيوان البادية على تلك الصفة . . خفيف منطلق كالعاصفة الهوجاء ، أو الريح المرسلة . . إذ لا شىء يخمد وقدة الحياة المشتعلة فى الكائن الحى هناك ، مما هو مبعث خمول ، وفتور ، وتبلد فى المواطن التى ثقل جوها ، ووخم هواؤها ،

أو كثر خيرها فألقت على الكائن الحى أكواما من الشحم واللحم ، أطفأت جانباً كبيرا من تلك الشعلة الحيوية المشتعلة فيه ، كما ذهبت بالكثير من خفته ورشاقته !

نقول : إن العربى فى فراغه هذا الثقيل الممل ، وفى تلك الحيوية العارمة المتدفقة فى كيانه — لا بد له من متنفس تتنفس فيه طاقاته الثائرة الفائرة ، وبغير هذا المتنَفّس يحترق هذا الإنسان احتراقا داخليا ، ثم لا يلبث أن يتحول إلى رماد !

فكانت الحروب ، والثارات مما فرضته الحياة الصحراوية على الناس هناك ، ليلتمسوا فى شرها متنفساً لهم ، ومنطلقاً للقوى الحيوية الصارخة فى كيانهم . . . !

على أن هذا المنطلق لم يكن ليتسع للنشاط الإنسانى كله فى هذا الوطن . . فهو بغيض كريه إلى النفوس ، وقد تسكن دواعيه وأسبابه . . فكان لا بد أن يزهد فيه الناس فى فترات من حياتهم . قد تطول وقد تقصر . . فيفيئون إلى السلم ، وبهذا يعودون إلى هذا الفراغ البليد من جديد . . ثم إن الحرب فى ذاتها حياة من لون آخر . . لها مشاعرها ، وأحاسيسها ، ولها أثقالها وأعباؤها . . فهناك قتلى هم بعض نفس الإنسان . . من ولد ، أو أب ، أو أخ ، أو ابن عم . . يغدو بهم الإنسان فرسانَ حرب ثم يروح آخرَ النهار، وقد تركهم طعاما للوحش وسباع الطير !

فلا تَشُب نار الحرب حتى يستقبل الناس منها ريحاً ثقيلة تختنق بها النفوس ، وتضيق بها الصدور .. ففى كل صدر مأتم وعويل ، وفى كل نفس حسرة تَفرى الأكباد ، وتقطع نياط القلوب !

فإذا كانت الحرب متنفساً للناس فى الحياة البدوية ، فإنها إذ تذهب بداء تجىء بأدواء .

إذا استشفيتَ من داء بداء ... فاقتلُ ما أعلَّك ما شفاكا

وهنا يأتى دور « الكلمة » فتؤدى رسالتها العظيمة فى هـذا المجال .. إذ لا يملك العربى إذ ذاك شيئاً غيرها .. فلا رسم ، ولا نحت ، ولا تصـوير ، ولا تمثيل .. ممـا تسمح به الحياة المستقرة المطمئنة ، الأمر الذى لم يكن ليتاح لأهل البادية ، وسكان الصحراء ..!

هكذا كان :

ليس غير « الكلمة » إذن — شىء فى يد العربى ، يمكن أن يصوِّر منـه ما يجول فى تفـكيره ، من خواطر ونوازع ، وما يختلج فى مشاعره من آلام وآمال .

والحاجة ــ كما يقولون ــ تَفتِق الحيلة !

فهل استطاعت هـذه الحاجة الملحة أن تفتق عند العرب وجهاً للحيلة مع « الـكلمة » ، أو الكلام الذى معهم ؟

ونستطيع أن نؤكد أن العرب وحدهم من بين سائر الأمم ، هم الذين استطاعوا أن يصوغوا الحياة كلها ، فى تلك الـكلمات التى أصبحت لغة مكتملة البناء ، راسخة الأركان ، بما أبدعوا ، وولدوا ، من أمهاتها وأصولها . .

ونستطيع أن نؤكد أيضاً أن العرب قد استطاعوا أن يحملوا لغتهم كل ما تحمل الفنون الجميلة كلها من ملهمات وأسرار !

فالموسيقى بألوانها ، وأنغامها ، ومقاماتها ، قد حواها الشعر العربى ، فى تفاعيله وبحوره ، وقوافيه . .

والتصوير ، قد تكفل به البيان العربى فى براعة ودقة ، تجعل من الصورة الكلامية صورة أوضح ، وأجمل من أية صورة أبدعتها يد فنان صَنَاع ، وضع ألوانها وظلالها بيد عبقرى حكيم !

والنحت .. قد ضمنته البلاغة العربية ، فأقامت من الكلمات شخوصاً ماثلة بكل مشخصاتها ، وأصباغها ، وألوانها .

والتمثيل .. له فى الكلمة مكانه ، ومقامه .. فلقد كانت البلاغة العربية ، والبيان العربى ، مسرحا حيا قامت فيه الكلمات والعبارات مقام الشخوص . . تُحاورُ وتجادل ، وتغدو وتروح . فإذا أنت منها بمشهد من مشاهد التمثيل لأعظم الروايات ، وعلى أعظم المسارح !

وماذا بعد هذا ؟

لا بعدُ ، ولا قبلُ . .

فإن كل ما فى الحياة من معطيات الفنون والآداب، قد ضمته اللغة العربية إليها، وجعلته بعضاً منها . .

ولسنا نقول ذلك متأثرين بعاطفتنا للغة القرآن ، وإن كانت هذه العاطفة تملأ صدورنا وقلوبنا . . وإنما نقوله لأنه الحق قبل أن يكون عاطفة ، ولأنه الواقع الذى تقوم له الأدلة القاطعة ، والشواهد الناطقة .

فالشعر الجاهلى الذى أدرك الإسلام أو أدركه الإسلام، هو الصورة الكاملة للبيان العربى ، وهو الشهادة القاطعة لما بلغته الكلمة فى اللسان العربى ، من امتلاكها كل ما يمكن من قدرة على الإبانة عن أدق المشاعر الإنسانية ، وأعمق الأحاسيس ، بما لا تقدر عليه وسائل الإبانة من لغة ، ورسم ، ونحت ، وتصوير ، وتمثيل .. متفرقة أو مجتمعة ..

يقول الجاحظ فى كتابه الحيوان : «قال الهيثم، وابن الكلبى ، وأبو عبيدة : « كل أمة تعتمد فى استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها ، بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو ديوانها .. وذهبت العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان ، فبنوا مثل «كردبيداء» وبنى أزدشير بيضا اصطخر ، وبيضا المدائن ، والحضر ، والمدن ، والحصون ، والقناطر ، والجسور ، والنواويس .. ثم إن العرب أحبت أن تشارك العجم فى البناء ، وتنفرد بالشعر، فبنوا غُمدان ، وكعبة نجران ، وقصر مأرِب ، والأبلق الفرد .. وغير ذلك من البلدان .. »[1] .

والجاحظ إنما يكشف عن جانب واحد من المجال الذى تعمل فيه الكلمة ، وهو حفظ الآثار والمناقب وتقييدها ، لأنه يتحدث عن الكتابة وفضلها على غيرها من صور الحفظ والتخليد للأخبار والآثار .. ولم يعرض الجاحظ للمجالات الأخرى للكلمة ، وهى تصوير المشاعر ، ونقلها من محيط الوجدان والعاطفة إلى مسرح الحياة الواقعة المحسوسة ..

وعلى أىّ فإن ما يحكيه الجاحظ نقلا عن الهيثم، وابن الكلبى وأبى عبيدة — فيه دلالة واضحة على أن العرب قد اعتمدوا اعتماداً كلياً على الكلمة فى تصوير حياتهم، وأنهم قد صاغوا من الكلمة، الشعرَ الموزون المقفّى، ليكون أوقع فى النفس، وأعلق بالقلب ، وأيسر فى الحفظ .

وهذا — كما قلنا — هو الذى جعل للشعر فى الحياة الجاهلية هذا الدور الخطير الذى قام به فى التنفيس عنهم ، والترويح عليهم فى هذه الحياة الثقيلة الجافية ، التى كانوا يحيونها ، وفى هذا الفراغ الممل الكئيب الذى كانوا يعيشون فيه .

(١) الحيوان للجاحظ — جزء ١ ص ٣٦

ولا نجادل فى قضية الشعر الجاهلى وما ثار حوله من شكوك فى نسبته إلى قائليه ، وما قيل من أنه كلّه ، أو معظمه من عمل الوضاع ، وتلفيق الرواة . .

لا نجادل فى هذه القضية، لأننا لسنا بصدد الدفاع عن قضية الشعر الجاهلى من هذه الجهة ، وإنما الذى يعنينا هنا هو تلك المادة التى بين أيدينا ، وهذا الشعر الذى نحاجّ به ، ونقيم منه الأدلة على البيان العربى ، والبلاغة العربية .

ويكفينا فى هذا المجال أنه شعر عربى خالص العروبة، وأن الذين قالوه أو الذين وضعوه هم عرب خُلّص ، إن لم يكونوا جاهليين فقد عاشوا جاهليين فى مشاعرهم ، وفى منازع تفكيرهم — على أقل تقدير — أثناء هذا الدور الذين مثلوه ، وأخرجوا فيه هذا الشعر مخرج الشعر الجاهلى ، وإلا لما أحسنوا أداء دورهم فيه ، على هذا الوجه الذى دخلوا به الحياة الجاهلية ، من غير أن يتنبه إليهم أحد ! !

وقفة مع الشعر الجاهلى :

الفترة التى سجلها التاريخ من حياة الشعر الجاهلى فترة قصيرة ، لا تكاد تُعدّ شيئاً إلى الحياة الطويلة التى عاشها قبل هذه الفترة المعروفة من حياته .. فهذا الشعر الجاهلى الكثير الذى أمكن تسجيله من أفواه الرواة وصدور الحفاظ فى عصر التدوين أيام الدولة العباسية — هو بعض ما حُفظ من شعر ، لقليل من شعراء تلك الفترة ، التى كانت قُبيل ظهور النبىّ بمدة لا يتجاوز مداها مئة عام أو مئة وخمسين عاما على أكثر تقدير .

ومن الواضح أن الشعر الذى حُفظ عن تلك الفترة ، اعتُبر الصورة الكاملة للشعر الجاهلى ، وعن هذا الشعر صدرت آراء النقاد والدارسين للحياة العقلية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، للأمة العربية فى جاهليتها .. إذ كان الشعر هو الأثر الأول والأخير ، الذى انطبعت عليه السمات الظاهرة والخفية

للحياة الجاهلية .. فما عرف الجاهليون فناً غير الشعر يسجلون فيه أحداث الحياة وما تثير في نفوسهم من انفعالات وتصورات .. فهم لم يعالجوا النحت ولا التصوير ، ولم يعنوا بالموسيقى ، ولا النقش والزخرفة .. فكان الشعر هو النافذة الوحيدة التي أشرفوا منها على دنيا الفن ، فسكبوا فيه نبضات قلوبهم ، وخلجات صدورهم ، ونفضوا عليه كل مافي كيانهم من مهارة وحذق وذكاء ! .

ومن عجب ألا يتجه العرب الجاهليون إلى النحت ، وألا يكون لهم في هذا الفن مكان مرموق بين الأمم التي عالجت هذا الفن وبرعت فيه . . كالفراعنة واليونان ! وفي بلاد العرب جبال وصخور تملأ السهل والوعر .. هي مادة هذا الفن والمغرية به .. وفي حياة الجاهليين آلهة متعددة في صور من الأصنام والأبداد يتخذونها من الصخور والأحجار ، ويسوونها على الوجه الذي يريدون — من عجب أن تكون مادة النحت ودوافعه على هذا الوجه في الجزيرة العربية ، ثم لا يكون للجاهليين اتجاه إليه ، ولا رغبة فيه ، مع توفر الوقت الذي يكاد يكون كله فراغاً مملا ، يقتل النفوس سآمة وضجراً ؟ !

وليس شيء كالنحت استنفاداً للوقت ، واستجلاباً للمتعة والحياة ! ! ثم الموسيقى ! . ما بالهم لم يبرعوا في الألحان ؟ ولم يفتنوا في اختراع الآلات ؟ . والحياة من حولهم في سكون شامل مخيف ، ووحشية مطلقة قاتلة .. وليس شيء أفعل من الموسيقى لبعث الحياة في هذا الموات ، ولا ألزم منها لتبديد هذه الوحشة ، ولبعث الطمأنينة والأنس في النفوس !

ونبحث عن العلة أو العلل التي صرفت العرب عن النحت والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة ، فلا نجد لها سبباً يمكن أن يتصل بالأسباب التي تصرف الأمم عن هـذه الفنون .. فماداتها عندهم موفورة ، ودوافعها حاضرة ، واستعدادهم

الفطرى لهـا على أتم ما يكون وأكمله .. شعور مرهف ، ووجدان سليم ، وذكاء حاد ، ونظر عميق، وفراسة صادقة .. ومع هذا، فذلك هو الذى حدث !؟ لم يكن للجاهليين تعلق بأى فن جميل غير الشعر !

إن كان لابد من علة نذكرها ، أو سبب نرجع إليه ، فإننا لا نجد إلا الشعر نفسه .. فقد فتن العرب به أيمـا افتتان . إذ استطاع أن يملأ كل جانب من جوانب حياتهم ، فاستغنوا بفن الكلمة عن غيرها من الفنون ، إذ كانت أخف محملا ، وأكثر طواعية .. يجدونها فى الظعن والإقامة ، وفى البدو والحاضرة ، وفى المنشط والمـكسل . يستقل بها الفرد وحده دون أن يحتاج إلى غيره ، أو يجلس إلى من يشاركه !

ذلك أظهر ما نراه علة لهذه الظاهرة ، يسانده ما عرف من تمـكن الشعر من نفوس العرب وقوة سلطانه فيهم .. فالبيت من الشعر يرفع القبيلة أو يسقطها، والبيت من الشعر يضع الرفيع ، ويرفع الوضيع .. ولقـد ترك الشعراء صوراً خالدة رائعة من هذا اللون من الشعر الذى كان له أثر كبير فى تغيير مجرى الحياة لـكثير من القبائل والأفراد .. والذى ظل متحكماً فى موازين الناس وأقدارهم أجيالا طويلة متعاقبة . لا ينقضها الزمن ، ولا تغير منها الأحداث !

من أجل هـذا كانت نظرة العرب إلى الشعر وإلى الشعراء نظرة حب وإعجاب ، تبلغ مبلغ التقديس ، فـكان إذا ظهر فى القبيلة شاعر كان ظهوره إيذاناً بمولد العزة والسيادة فيها ، وإذا قال الشاعر قصيدة ، وعتها العقول، وحفظتها الصدور ، ورددتها الألسنة ، وتناقلتها الركبان ، وسمر بها السمار ، وعمرت بها المجالس ، وأصبحت رواية خالدة ، تمثل على مسرح الحياة فى الجزيرة العربية كلها .

وقد شك بعض مؤرخي الأدب فى تعليق المعلقات ــ وهي أشهر قصائد قيلت

فى الجاهلية — بأستار الكعبة ، وتسميتها بهذا الاسم المشتق من هذا العمل . .
ولكن الذى يتصوّر الحياة الجاهلية وما كان للشعر من أثر فيها — يقع فى يقينه أن ذلك العمل الذى صنعه الجاهليون بالقصائد المشهورة عندهم ، عمل يتفق مع المكانة التى كانت لهذا الشعر فى نفوسهم . . بل ويقع فى يقينه أيضاً ما يُروى من أن هذه المعلقات كتبت بماء الذهب فى قباطىّ ، وأنها كانت تسمى المذهّبات ، كما كانت تسمى المعلقات ! وليس فى هذا غرابة عند قوم لم يكن لهم متعة فى الحياة ، غير هذا الفن الجميل . . فن الكلمة ، ونظمها فى قوالب الشعر !

كانت قبيلة « تغلب » من أعظم قبائل العرب وأشدها بأساً ، حتى أنها لعزتها وأنفتها أخذتها العزّة بالإثم ، فاستحبت العمى على الهدى ، ولم تدخل فى الإسلام حين دخل فيه الناس أفواجاً . . وآثرت أن تهاجر من أوطانها ، فتلحق بقيصر الروم ، حين فرض عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تدخل فى الإسلام ، أو تُفرض عليها الجزية كما تفرض على أهل الذمة . . فلما لم تقبل أحد الأمرين وتهيأت للهجرة ، رأى عمر أن يمسك بهذه القبيلة ، ويحتفظ بها فى المجتمع العربى ، وأن يضاعف عليها الزكاة !

هذه القبيلة — وهذا شأنها من القوّة والعزّة — كان دستور حياتها ، ومبعث فخرها وعزها ، تلك القصيدة التى أنشأها أحد شعرائها وسادتها «عمرو بن كلثوم» التغلبى ، وهى إحدى المعلقات السبع . . فلقد لعبت هذه المعلقة دوراً كبيراً فى حياة هذه القبيلة ، وتركت آثاراً واضحة فى عواطفها وتفكيرها ، حتى أقامتها على هذا العناد الآثم ، والكبر القاتل ، فأغلقت قلبها عن كل خير ، ولت ظهرها لكل فضل . . فلم تستمع لدعوة النبوة ، ولم تلتفت لأنوار السماء . . وحسبها أن تتزود فى الحياة بهذه المعلقة ، وأن تتخذ منها كتابها المقدّس ، ودينها القويم !

فموقف قبيلة تغلب هذا الموقف الشاذ من الإسلام دون قبائل العرب جميعاً ، إنما ترجع أكثر أسبابه إلى هذه المعلقة ، وإلى تعلق القوم بها تعلقاً شغلهم عن كل شيء ، إلا عن ترتيلها والهتاف بها فى كل غدوة وروحة . . لقد تسربت إلى قلوبهم وعقولهم ، فأغرتهم بالكبر ، ونفخت فيهم من ريح العصبية ماصوّر لهم هذا العناد الذى باعد بينهم وبين الإسلام . ولسنا نقول هذا استنتاجاً مما عرف عن هذه القبيلة من الموقف الشاذ الذى وقفته من الإسلام ، وإنما ذلك قول سجله من شهدوا هذا الحدث وعاصروه ، ورأوا بأعينهم الآثار القوية الواضحة التى تركتها المعلقة فى هذه القبيلة ، وفى هذا يقول أحد الشعراء المعاصرين لقبيلة تغلب ، والمشاهدين لمجرى الحياة فيها ، يقول هذا الشاعر :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرُمةٍ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم

فهذا مثل من أمثلة كثيرة لما كان للشعر الجاهلى من سلطان قاهر على العقول فى الجاهلية ، ثم امتد هذا السلطان إلى الحياة الإسلامية ، فصحب المجتمع الإسلامى على أنه الصورة الكاملة للشعر العربى . .

ولولا أصالة الفن فى الشعر الجاهلى ، لما صبر الجاهلون طويلا على هذا الشعر ، ولالتمسوا لهم فنًّا آخر أو أكثر ، يساندە فى التعبير عن مشاعرهم ، والتنفيس عن عواطفهم . ولكن أصالة هذا الفن قد سدت حاجتهم الفنية ، وأرضت مطالب العقل والقلب معًا ، فأغناهم ذلك عن أن يلتمسوا فنًّا غيره .

ولما جاء الاسلام بالقرآن الكريم وببلاغته المعجزة أستطاع أن يخفت صوت الشعر ، فسكنت حُمَيّاه فى الصدور بعد أن امتلأت القلوب بمشاعر العقيدة الدينية ، وكان فى آيات الكتاب الحكيم وترتيلها على النحو الذى ترتل به

إرضاء كامل لحاجة القلب وخلجات الضمير ، بما فى آيات الكتاب من ألوان العواطف الإنسانية : من أمل وإشفاق . . ورجاء وخوف . . وتبشير وإنذار ، ووعد ووعيد ، وحب وبغض ، وسلام وحرب . . إلى غير ذلك مما ضُمَّ عليه الكتاب الكريم وحوته آياته وسوره .

ومع هذا فإنه ما كادت تتم الدعوة الإسلامية ، ويبسط الإسلام سلطانه على الجزيرة العربية وما حولها ، وما كاد المسلمون ينتهون من معارك الفرس والروم ، ويفرغون لكتاب الله حفظاً وفهماً ، ويأخذ كلٌّ حظه منه — حتى دب فى النفوس دبيب الشعر ، وحاكت فى الصدور سَوْرته ، ففاضت به الخواطر ، وتحركت به الألسنة . . وأخذ يسترد دولته شيئاً فشيئاً حتى عادت إليه ، فى سلطان مبسوط ، وقوة ظاهرة ..

ومع الآثار القوية الواضحة التى تركها الدين وكتابه الكريم فى عقلية العرب وفى مسارب تفكيرهم ، وفى تصوراتهم وأخيلتهم ، ومع ما أفاضت الحياة الجديدة عليهم من ألوان ومظاهر لم يكن لهم إلف بها ، ومع العقليات الجديدة التى اختلطت بهم وحُسبت منهم ، ومع الثقافات التى دخل بها الداخلون فى الإسلام من فارس والروم والهند ومصر وغيرها — مع هذا كله فقد ظل سلطان الشعر الجاهلى قوياً على النفوس ، فلم تجد بداً من السير فى طريقه ، إذ لم يكن فى مقدورها مع هذه الروافد الجديدة التى أمدها به الدين الجديد والحياة الجديدة — أن تجىء بخير منه ، إذ كان فى أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه الفن العبقرى من فنون القول ، على لسان بشر ! !

* * *

الإسلام والشعر الجاهلي :

وهنا أمر يجب أن ننبه عليه ، إذ كان مدخلا لكثير من الخطأ وسوء الفهم عند كثير من الناس .. وهو أن الدعوة الإسلامية ـ وإن قطعت العرب عن كثير من حياتهم الجاهلية ، وأجلَت من صدورهم كثيراً من الخواطر والنوازع — لم تذهب بالشعر الجاهلي جملة ، ولم تقطع الصلة بينه وبين العرب جميعاً . .

فإنه إذا كان كثير من المسلمين ، وخاصة صحابة الرسول الكريم ، قد لبسوا الإسلام ، أو لبسهم الإسلام ، ظاهراً وباطناً ، فعاشوا فى الإسلام ، وللإسلام ، فلم يشغلهم شيء من الدنيا عن مدارسة القرآن الكريم ، والقيام بحقه وبما يدعو إليه ، وماينهى عنه — إذا كان كثير من العرب قد صحب الدعوة الإسلامية ، وعاش فى الاسلام على هذا الوجه — فإن كثيراً من العرب أيضاً قد صحب الإسلام ، وصحب معه كثيراً من مخلفات الحياة الجاهلية ، ومن بينها الشعر الجاهلى . . إذ ليس كل العرب كان فى شغل بالإسلام على تلك الصفة التى عرفتها الحياة للمجتمع الإسلامى فى المدينة ومكة ، وما حولها . .

إن الأعراب من سكان البادية فى نجد ، وتهامة والعسير ، وغيرها من الأطراف النائية فى الجزيرة العربية أو الغارقة فى قلب الصحراء — لم يكن حظهم موفوراً من الإسلام إلى درجة تحملهم على الانقطاع له ، وقطع الصلة مع كل ما لم يتصل به ، بل كان معظمهم على جاهليته ، لم يغير الإسلام منه إلا وجهاً ظاهراً يعيش به فى المسلمين . على حين ظلت آراؤه ، وأفكاره ، وعواطفه على جاهليتها ، أو على كثير من هذه الجاهلية . .

والقرآن الكريم يسجل هذه الظاهرة عن أولئك الأعراب ، وعن استغراقهم فى حياة الجاهلية ، وفى تشبثهم بها ، فكانوا من أجل هذا كما وصفهم القرآن الكريم فى قول الله سبحانه وتعالى :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ »[1] .

وذلك لأن هناك قوى ضاغطة عازلة ، تقف بينهم وبين هدى الإسلام ، وما ينبعث من هذا الهدى من نور تضىء به البصائر ، ومن خير تحيا به القلوب . . فظلوا هكذا مسلمين ، لم يخلطوا أنفسهم بالإسلام ، ولم يضيفوا وجودهم إليه . . وفى هذا يقول الله سبحانه :

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » .[2]

أفيكون مما يعقل — بعد هذا — أن يذهب مافى صدور هؤلاء الأعراب من شعر شعرائهم الذى عشّش فى هذه الصدور ، وباض وأفرخ فيها ؟ . . كلا . . لقد ظل هذا الشعر حيث هو ، وبمكانه من قلوب الأعراب وعقولهم ، إن لم يكن ذلك واقعاً عليهم جميعاً ، فهو واقع فى الكثرة الغالبة فيهم !

وأكثر من هذا . . عرب الحجاز ، ومن بينهم عرب المدينة ، ومكة ، والطائف ،.. أتراهم جميعاً قد أخلوا نفوسهم مما كان قد تلبس بها من شعر الجاهلية ، فلم يعد فى تلك النفوس أثارة من هذا الشعر ؟

وكلا . . أيضاً . .

فإن كثيراً من هذا الشعر قد بقى فى مستقره من قلوب كثير من الصحابة وعقولهم . إذ كان فيه الحكمة البالغة ، وفيه الرأى الصائب ، وفيه الخلق الكريم ، والفطرة السليمة ، وكثير مما جاء به الإسلام ودعا إليه . . ! فكان هذا داعية

(١) سورة التوبة : آية ٩٧

(٢) سورة الحجرات : آية ١٧

من دواعى الحرص على هـذا الشعر ، لا سبباً من أسباب التفريط فيـه ، والنسيان له . .

ولقد سجل التاريخ الاسلامى للصحابة رضوان الله عليهم ، أو لـكثير منهم مواقف من الشعر الجاهلى تدل على اهتمامهم له وحرصهم عليه . .

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحفظ كثيراً من الشعر الجاهلى ، ينشده حيناً ، ويستمع إليه أحياناً ، ويسأل وفود القبائل الوافدة إليه عن شعرائهم ، وعن أحسن ما عندهم من شعرهم . .

بل وأكثر من هذا . . فلقد كان عمر رضى الله عنه إذا حضره موقف من المواقف ، وهو على منبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه، واستدعى هذا الموقف شاهداً لمعنى من معانى القرآن فى بيت من الشعر ، استمع إليه ووعاه ،وأخذ به ..

روى أنه رضى الله عنه قرأ — وهو على المنبر — قول الله تعالى :

« أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » . (١)

فسئل عن معنى التخوّف ، فقام رجل من هذيل ، فقال : التخوف عندنا التنقص ، ثم أنشد :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفِنُ (٢)

فقال عمر : « أيها الناس .. تمسكوا بديوان شعركم فى جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم » (٣)

---

(١) سورة النحل: آية ٤٧

(٢) هذا الشعر فى وصف ناقة، طالت بها الأسفار، فنحل جسمها .. والتامك هو السنام، والقرد الذى تجعد شعره . أى أن سنام هذه الناقة قد براه الرحل من كثرة السفر وأن شعره قد تلبد لملازمة الرحل له .. والنبع : شجر القسى، والسفن كل ما ينحت به غيره .

(٣) من كتاب الموافقات للشاطبى / جزء ٢ ص ٨٨

وأمرُ ابن عباس رضى الله عنـه فى موقفه من الشعر الجاهلى ، وحفظه له ، وإنشاده إياه فى مسجد الرسول — أظهر من أن ينبه عليه . . فلقد كان صدره — رضى الله عنه — خزانة هذا الشعر ، كما كان قلبه مستودع القرآن الـكريم ، حفظاً وعلما . .

وكذلك كان الصحابة رضى الله عنهم جميعا ، يحفظون من هـذا الشعر ما يستدعونه فى المناسبات الداعية له ، بين مقل منهم ومكثر . . ونشك كثيراً فى أن أحـداً منهم لم يلتفت إلى هـذا الشعر ، فى موقف أو أكثر من موقف ، فيتمثل به فى الحال المناسب له . .

وكيف يعقل أن يكون الأمر فى شأن الشعر على غير هـذا ! .. وقد كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الشعر ويُلفت إليه ، وإن لم يكن شاعراً، وما ينبغى له أن يكون . . قال سبحانه وتعالى :

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ »(١)

لأن فى الشعر خيالا ، وفيه شطحات بعيدة مغربة عن الواقع .

ولـكن فى الشعر أيضا عيون متخيرة من الحـكمة .. ومن أجل هذا كان الرسول يلتفت إلى الشعر ، ويُلفت إليه ، وفى هـذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحـكمة » .

فكان صلى الله عليه وسلم يستمع إلى الشعر، وكان يستحضر مواقع الاستشهاد منه فى أحوال كثيرة .

يُروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول :

---

(١) سورة يس : آية ٦٩

« أبياتَك[1] » :

تقول السيدة عائشة ، فأقول :

ارْفَعْ ضعيفَك لا يَحُرْ بِكَ ضعفُهُ   يَوْماً فتُدْرِكَهُ العواقِبُ قد نَمَى

يَجْزِيكَ أو يُثْنِي عليك وإنَّ من

أثنى عليك بما فعلت فقد جَزَى

ففي هذه الأبيات التي كان يستمع إليها الرسول الكريم دعوة كريمة من دعوات البر والإحسان إلى الناس ، وإقالة عثراتهم .. وهذا من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام ، فلا غرابة في أن يستمع الرسول إلى مثل هذا الكلام الذي يحمل هذه الدعوات الطيبة .

ويُروى أن « سودة » بنت زمعة ، زوج النبيّ أنشدت مرة في محضر من عائشة ، وحفصة — شعراً فيه هذا المقطع : «عديٌّ وتيمٌ تبتغي من تُحالِفُ» فظنت عائشة وحفصة أنها عرّضت بهما ، فجرى بينهنّ كلام في هذا المعنى ، فأُخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليهنّ وقال : « ياويلكن .. ليس في عَدِيِّكُنّ ولا تيمكن قِيل هذا ، وإنما قيل هذا في عدى تميم ، تيم تميم .. »

وهذا المقطع في شعر هو :

تحالفْ ، ولا والله تهبطُ تَلْعَةً   من الأرض إلا أنتَ للذلِّ عارفُ

ألاَ من رأى العبدين أو ذُكِرا له   عَدِيٌّ وتيمٌ تبتغي من تُحالِفُ !

وروى الزبير بن بكار قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه برجل يقول في بعض أزقة مكة :

---

(١) أي أسمعيني أبياتك .

يا أيها الرَّجلُ المحوِّلُ رحلَه   هلاَّ نزلت بآلِ عبد الدّار ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر .. هكذا قال الشاعر ؟ قال : لا .. يا رسول الله ، ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحوِّل رحـــــله   هلاَّ نزلتَ بآل عبد منافِ(١)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا كنا نسمعها » !(٢) .

وأكثر من هذا ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع للشعر ويجيز على الجيد منه ، كما استمع إلى قصيدة كعب بن زهير ، وخلع عليه بُردته ، بعد أن انتهى من إنشادها .

وكان له صلى الله عليه وسلم شعراء على رأسهم حسان بن ثابت ، يردّ بشعرهم على شعراء المشركين ، ويلقاهم به فى ميدان القول كما كان يلقاهم فى ميدان الحرب ! .

وليس هناك حال من الأحوال التى كان للشعر موضع يُحمد فيها ، ويرجى نفعه وغَناؤه ، إلا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مجيزا له ، أو مشاركا فيه بصورة ما من صور المشاركة ..

فى حفر الخندق الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم به قُبيل غزوة الخندق المعروفة ـ شارك النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا العمل كواحد من المسلمين .

وقد كان العاملون فى حفر هذا الخندق يرتجزون ، ليتقوّوا على العمل .. ومما كانوا يرتجزون به حينذاك هذا « البيت » :

سمّاه من بعـدِ جُعَيْلٍ عَمْرَا   وكان للبـــــائس يوماً ظَهْرَا

(١) وبعد هذا البيت :

ثكلتك أمك لو نزلت بحيهم   منعوك من عدم ومن إقراف

(٢) انظر فى هذا دلائل الاعجاز للجرجانى ص ١٤ وما بعدها .

وهو فى جُعيل بن سراقة الضمرى . .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول معهم المقطع الأخير من شطرى البيت : « عمرا » و « ظهرا » ولا يقول بقية الشعر . وكان جُعيل بن سراقة يعمل معهم ، ويقول مثل قولهم ، ويضحك إليهم ، فعلموا أنه لا يسوؤه ارتجازهم .

وجعيل هذا كان رجلا صالحا من قدماء المهاجرين ، ومن البدريين ، ومن الذين شهدوا المشاهد كلها مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد غير النبى صلى الله عليه وسلم اسمه فسماه عمرا بدل جعيل . . »(1)

فالقول بأن الشعر الجاهلى قد ذهب جملة من صدور العرب بعد أن دخلوا فى الإسلام ـ قول فيه اجتراء كثير على الحق، وافتراء على الواقع .. ولو أن الدعوة الإسلامية كانت دعوة متجهة إلى القضاء على الشعر الجاهلى كما قضت على الشرك ، لكان للإسلام تدبير فى هذا ، ولكان لرسول الإسلام موقف من الشعر غير هذا الموقف . . بل لفرض الإسلام على إنشاده أو الاستماع إليه عقوبة ، ولأقام الحد على قائليه أو المستمعين إليه ، كما فعل مع شاربى الخمر مثلا . . !

ولكن أمر الشعر مع الإسلام كان على غير هذا . . كان الشعر كغيره من شئون الحياة التى يعيش فيها الناس ، وقد ينحرفون بها إلى غير الطريق السوىّ . . فتتغير صفتها ، ويتغير بذلك نظر الإسلام إليها ، وحكمه عليها . . فما أكثر ما يتحول الخير إلى شر . . !

والشعر بطبيعته يجنح إلى الهوى ، ويستخفّ صاحبه إلى طُرق كثيرة غير جادة . . ومن هنا كثر فيه الانحراف عن طريق الحق . . ومن هنا أيضاً كانت

---

(1) المجازات النبوية للشريف الرضى ص ٦٦

نظرة الإسلام إليه نظرة قائمة على الحذر ، لا التحذير ، وعلى مداناته ، دون معاطاته .

فالشعر الجاهلى هو ديوان العرب فى الجاهلية وفى الإسلام . . ولعل كلمة « ديوان » التى عبّر بها عمر هنا لأول مرة فى اللسان العربى ـ لعلها تشهد للزمن الذى قيلت فيه . . وأنها كانت بعد أن دوّن عمر الدواوين ، وكان أول ديوان أقامه هو ديوان الخراج . . ثم لعل هذه الكلمة بالنظر إليها فى مدلولها الذى كانت تدل عليه يومذاك ـ تحدد المعنى الذى قصد إليه من ديوان الشعر الجاهلى ، وهو السجل الذى يضم الشعر الجاهلى كله . . وكانت صدور القوم هى الدواوين الحافظة له !

ماذا فى الشعر الجاهلى ؟ :

وأُرانا قد خضنا فى قضية الشعر الجاهلى على غير ما كنا نريد ، فإن هذا المقام لايتسع لنظر هذه القضية ، وتقليب وجوه الرأى فيها ، وجلب الشواهد والأدلة لكل وجه منها . . ولكن إذ عرضنا لهذه القضية ، لم نجد بدًّا من كلمة فيها ، تشير إلى الحكم الذى يقضى الحقُّ به فى هذا الموقف .. وذلك أقل مافيه أنه يريح خاطرنا ويرضى ضميرنا ، الأمر الذى كان يفوتنا لو أننا تركنا هذه القضية معلقة بين الشك واليقين !

وندع قضية الشعر الجاهلى إلى الشعر نفسه ، لننظر أكان على تلك الصفة التى وصفناه بها من قبل وقلنا عنه إنه حمل على كلماته ، وفى طواياها كل معطيات الفنون وأسرارها . . وأن العرب كانوا معه فى غنىً عن أن يطلبوا فناً غيره ، أو معه . . إذ كان لهم فيه غُنية عن كل فن . . هذا مع خفة محمله ، وقلة مؤونته ، واستجابته لدعوة الداعى إذا دعاه ، فى لمحة بارقة !

فما هى إلاّ أن تنجم فى صدر العربى خاطرة ، أو تلوح فى ذهنه فكرة ، حتى يجدها على فمه ، كلمات منغومة ، يكاد يرى فيها خاطرته ، ويلمس فكرته ! وهو فى مكانه لايريم ، ولا يستجلب شيئاً من قريب أو بعيد . . خواطره فى كيانه ، وكلمته على فمه ! !

ولننظر فى هذا الشعر أ كان حقاً على تلك الصفة ، وفى هذه المنزلة العالية التى انفرد بها عن الكلام الذى عرفه الناس جميعاً ؟

والحكم فى هذا الأمر يقتضى مراجعة الشعر الجاهلى كله، أو على أقل تقدير مراجعة قدر كبير منه ، واستجلاء محاسنه وروائعه ، وتذوق ألوان الجمال والبيان فيه ، ومطالعة وجوه البراعة والبلاغة منه . . حيث يعرف هناك وزن الكلام ، وتدرك قيمة الكلمة ، ويمايز بين الكلام والكلام كما يمايز بين الجواهر والحصا .

وموقفنا هنا لايسمح لنا بأن نقوم بهذا العمل إزاء الشعر الجاهلى ، ولا بقليل أو كثير منه . . فربما لو اجتزأنا ببعض الشواهد من هذا الشعر لوقعت عند بعض الناس أنها العيون المتخيرة فيه ، وأن ليس بعدها شىء ! وذلك فيه ظلم عظيم لهذا الشعر من حيث نريد أن ننصفه ، وندفع عنه يد الظالمين . . والجاهلين !

ومع كل هذا ، فإننا نرى أن نغض الطرف عن هذه الاعتبارات ، وأن نستحضر شاهداً من الشعر الجاهلى يشهد لهذا القول الذى قلناه فيه ، ويقيم وجهاً لذلك الحكم الذى ارتضيناه له . . فمن كان مع قولنا هذا ، وعلى حكمنا ، ففى هذا الشاهد مقنع ورضًى له ، ومن كان على خلاف قولنا وحكمنا ، فعليه هو أن يأتى بشاهد من عنده ، يرد شاهدنا ، وينقض شهادته !

معلقة امرىء القيس مثلا !

وقد تخيرناها لأنها تكاد تكون أبعد المعلقات عن الشك فيها ، وفي صاحبها . . إذ كان لصاحبها دور آخر في الحياة ، غير دوره الذي عرف به كشاعر من أصحاب المعلقات . .

فالرجل كان ابن ملك من ملوك كندة على قبيلة بني أسد ، وقد تآمر عليه القوم وقتلوه . . وكان على امرىء القيس أن يطالب بثأر أبيه ، كما تقضي بذلك التقاليد العربية في الجاهلية . . فشمر للحرب ، وأفنى فيها أكثر أنصاره . . ثم اتجه إلى قيصر الروم يطلب منه مدداً ونجدة . . وهذه الأحداث كلها قد سجلها التاريخ العربي ، كما سجلها تاريخ الدولة الرومانية !

فامرؤ القيس شخصية تاريخية لا شك فيها ، وشعره سجل لهذه الشخصية . . مرحلة مرحلة ، بل وربما يوماً يوماً .

وفي معلقة امرىء القيس هذه شاهدنا على دعوانا ، أو على حكمنا في الشعر الجاهلي .

وقد حشد امرؤ القيس في هذه المعلقة الحياة العربية كلها . . ما تراه العين ، وما ينبض به القلب ، وما تقله الأرض ، وما تسوقه السماء ، وما يلهو به الناس وما يجدّون . .

فأنت في هذه المعلقة بين مشاهد متعددة ، متغايرة . . كأنك في مركب من مراكب الفضاء يطوّف بك في الدنيا ، وينتقل بك بين مشارق الأرض ومغاربها في لحظات . .

إنها نفس حية يقظى . . تستقبل الحياة ، وتتفاعل معها . . وتسجل في هذا الشعر ما يقع لها من تلك الحياة ، من قريب أو بعيد !

فمن وصف الدِّمن والأطلال ، إلى وصف الصيد والقنْص ، وإلى وصف جواده الذي ينطلق به لصيده . . إلى التشبيب والغزل ، إلى المغامرات في سبيل المرأة

ومطارحتها الهوى . . إلى وصف الليل ، والمطر ، والطير ، والوحش . . كل ذلك وكثير غيره فى صور حية لا تستطيع أن تمسك بها أدق وسائل الفنون وأبرعها ، ولا أن يخرجها فى هذا الصدق العبقرى أعظم مخرجى الروايات .. !

وأقف بك عند مشهد صغير من تلك المشاهد التى تحفل بها هذه المعلقة ، والتى يُعَدُّ البيت الواحد منها مشهداً قائماً بذاته ، أو عدة مشاهد يكمل بعضها بعضاً .

فى هذا المشهد ، يحدث امرؤ القيس عن نفسه ؛ حين وقف على أطلال الديار التى كانت يوماً ما تضم محبوبته .. فهاج ذلك ذكريات كثيرة عنده ، كان أشدها قسوة عليه يوم أن ارتحلت محبوبته مع قومها ، وهو يرقبها من بعيد . . فى أسى ، وحسرة ، ووجوم ، لا يملك معه من الأمر شيئاً ، إلا هذه الوقفة . . كما يقف المرء على ميت عزيز عليه ، قد ذهب به الموت ووري فى التراب .

يقول امرؤ القيس مصوِّراً حاله تلك :

كأنِّى غداةَ البَيْنِ يوم تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُراتِ الحيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

وقد لا تجد لهذا الكلام طعما فى فمك ، ولا إلفاً إلى أذنك إذا كنت لم تتعرف إلى الشعر الجاهلى من قبل ، ولم تردد النظر طويلا فيه .. فهو نتاج عصر بَعُدَ الزمن بيننا وبينه ، وهو ثمرة بيئة بعيدة عن مألوفنا فيما نتقلب فيه من شئون الحياة وظروفها .

ولكن عد إلى هذا البيت مرة . . ومرة ، ومرات . . ولا بأس من أن أفتح لك طريقاً إليه بشرح الغريب من كلماته . .

« فالبيْن » هو الفراق الذى يقع بين المتحابَّيْن ، « يوم تحملوا » أى يوم ارتحلوا وفارقوا من يحبهم ويألفهم .. و « السمرات » : جمع سمُرة وهو شجر من العضاة ، ضخم ، له شوك .. « وناقف الحنظل » هو الذى يشق الحنظل ليخرج ثمره ، والحنظل ثمر مرّ . .

وعد إلى البيت بعد هذا ..

فماذا تجـد ؟ ؟

إنك لا تجد هذا الـكلام الثقيل على لسانك ، الغريب على سمعك ، وإنما تجد من كل كلمة مطلعاً من مطالع الروعة ، ومدخلا يدلُف بك إلى مشهد من مشاهد الإنسان فى صراعه مع عاطفة من أقوى العواطف الإنسانية ،وهى الحب .. فلاتملك من نفسك إزاء هـذا المشهد إلا أن تعطفك منها عاطفة الرحمة والإشفاق بهذه النفوس التى ذهب بها الوجد ، وأحرقها الأسى .

فأنت تشهد من هذه الـكلمات امرأ القيس ، وقد وقف غدوةً يرقب محبوبته من بعيد وهى تتهيأ مع قومها لسفر بعيد ، ، قد لا يكون بعده لقاء بينه وبينها . . ثم ترى كيف تخير امرؤ القيس هذا المـكان الذى يرى منه محبوبته وأهلها ، وهم لا يرونه .. فقد تخفّى بين أشجار السَّمُر .. والتصق بأحد جذوعها .

ولعلك تقول : وأى شىء فى هذا المنظر ؟ إنسان واقف متخفٍّ بين الأشجار .. يسرق النظر إلى محبوبته وهى تتهيأ للرحيل ؟

ولك حق فى هذا ، فإن ظاهر الصورة لا يعطى أكثر من ذلك الذى أنت ناظر إليه !! ولـكن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً حين تنظر مرة أخرى إلى هذه الـكلمات ، وتستشف ماوراءها من ظلال . . وعندئذ ترى مالا عين رأت !

انظر إلى امرىء القيس وهو يعرض عليك وجوده كله . . فى هذه الحال :

كأنِّى غداةَ البَـيْنِ يوم تَحمَّلُوا ... لَدَى سَمُرَاتِ الحىِّ نَـاقِفُ حَنْظَلِ

إنه فى موقفه هذا كناقف الحنظل ! !

وناقف الحنظل يطلع عليه من ريح الحنظل ما يملأ فمه مرارة تنفذ إلى أعماقه ، فيجف لها ريقه ، ويضيق لها صدره . . حتى ليكاد يموت اختناقاً !

ولعينيه نصيبهما من هذه الريح المرة النفاذة الخانقة . . فتنهمر منهما الدموع فى صمت — وبلا بكاء ! أرأيت إذن إلى هذا الـكمد المـكبوت الذى ينطوى عليه

كيان الشاعر ، فتنطلق منه مرارة يغصّ بها الحلق ، ويجف بها الريق ، وتسيل منها الدموع . . في بكاء مكتوم مكظوم !

ثم أرأيت إلى هذه الرّعدة التي تسرى في بدن الشاعر ، فيرجُف لها كيانه كله كما يرجف القِدر مع غليان الماء ! فهذا الدمع المرسل من عينيه في كمت و كبت ليس إلا الزبد الذى ترمى به نفس محترقة وصدر يغلى ويفور !

ذلك هو بعض مخبوء تلك الكلمات . . وكم فيها من مخبوء ومستور !

ثم بعد أن ينفض امرؤ القيس بعض الذكريات ليوم الفراق ، وهو واقف على أطلال الديار — بعد أن ينفضها في هذا البيت يدير بصراً زائغاً شارداً يقلبه في أنحاء هذه الأطلال لعله يرى أثراً من تلك المعالم التي شهدت حبه ، وصغَتْ إلى غزله الساحر ، وهو ينفث به في أذن محبوبته .

وتقع عين الشاعر على شواهد الوحشة والخراب تتمشّى في هذه الأطلال . . يرى آثار أهلها مرسومة على أرضها . . فتصدمه الحقيقة ، ويوقظه الواقع . . ويستيئس من أن تعمُر هذه الديار يوماً ، ويعود إليها أهلها المفارقون ! فيقول في حسرة يائسة :

ترى بعَرَ الآرام في عرَصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فُلفُلِ

ويخيل إليك لأول بادرة من النظر تلقيها على هذا الكلام أنه مجرد كلام ، وأنه لا يحمل في كيانه قوى مشعّة متوهجة . . تنطلق منها — كلما حدّدت النظر إليها — معانٍ مجدّدة . . لا تنتهى !

وإن الأمر لعلى خلاف ما خِلْت . . !

ودع بعَرَ الآرام هذا ، وانظر إليه من خلال حب الفلفل الذى شُبه البعر به . . فإنك واجد آية من آيات الفن العبقرى ، تحملها إليك كلمة واحدة « حب الفلفل » .

فما أدق المشابهة وأكملها بين بعر الآرام وحب الفلفل فى واقع الحس ، ومرأى العين .. إنك حين تنظر إليهما معاً لاتكاد تعرف هذا من ذاك ، إلا أن تفتهما ، وتكشف عن باطنهما ... فاللون ، والحجم ، والاستدارة ، والنتوء التى تظهر على السطح فى كل منهما . . كل هذا على سواء فيهما . .

ولو وقف الأمر عند هذا التماثل ، والتطابق بين طرفى التشبيه لكان ذلك جديراً بأن يكسو الكلام ثوبا قشيباً من البلاغة والبيان . .

ولكن هناك ما هو أعظم من هذا .

فهناك مايشبه الإعجاز فيما يشع من هذا التشبيه من معنى ، لا تستطيع أدق صور الأداء الفنى أن تمسك به ، وأن تخرجه على هذا الوجه من البراعة ،واللطف !

إن بعر الآرام هذا ، ليس هناك شىء أبغض منه إلى نفس الشاعر فى تلك الحال. إذ هو الشاهد القائم على البلى والخراب الذى يتمشى فى عرصات هذه الديار المهجورة ، التى كانت مَغنىَ المحبوبة ، ومطلع شمسها ! فأصبحت مسكناً للوحش ، وللظباء . . وهذا البعر هو أشباح البلى التى تتمشى فيها . .

إنه — وهذا شأنه — ليس بعرَ آرام ، ولكنه نعيق البوم ، ونعيب الغربان ! ويد البلى والفناء . .

وأين مابين بعر الآرام وبين البوم والغربان ، والبلى والفناء من تشابه وتماثل فى واقع الحس ومرأى العين ؟

إنه ليس بعر الآرام ، ولكنه حب الفلفل . . ذلك الحب اللاذع الحرّيف ، الذى يكوى الفم ، ويحرق الجوف !

ولعله لا يغيب عنك ، أن الآرام جمع رئم ، والرئم : هو الظبى !

وهكذا تستطيع أن تمضى مع امرىء القيس فى معلقته هذه ، وفى أشعاره كلها ثم فى الشعر الجاهلى جميعه فتجد أنك أمام كلام . . ليس مجرد كلام . . وإنما هو كلامان .. ظاهر وباطن .. فالظاهر يبدو فى هذا المدلول اللغوى الذى تحمله الألفاظ ،

وتؤديه أداء يصلح عليه المعنى المراد ويستقيم به . . والباطن هو مايشعّ من تعانق الألفاظ ، وما ينقدح من احتكاك بعضها ببعض . . وهو شيء كثير لا حدود له . . يكتسى منه المعنى ألوانا زاهية مشرقة . . كلما ملّت العين لوناً ، طلع عليها منه لون جديد . . !

و ذا هو سر البلاغة التى انفرد بها البيان العربى ، وهو الأثر الخالد الباقى الذى تركه العرب فى الحياة ، حين أقدرتهم الحيلة على أن يطوّعوا الكلمة لمقتضيات الحياة ، وأن يحمّلوها ماتحمل الفنون الإنسانية كلها من روائع وأسرار ، حين لم تسمح لهم الحياة منها بغير « الكلمة » ! !

اللغة العربية ومكانتها بين اللغات :

ولم يكن غير العرب — كما قلنا — من استطاع أو يستطيع أن يبلغ بالكلمة هذه الغاية ، وأن يصير بها إلى تلك المنزلة ، وأن يجعل منها قوة قادرة على أن تتحرك مع الإنسان إلى أقصى مدى تصل إليه قدرته فى التعبير والإعلام . .

ولعلك تذكر هنا بلاغة اليونان ، وحكمة فارس والهند .. فى القديم ، كما تذكر أساليب البيان الأوربى وما نبغ فيه من كتاب وشعراء فى العصر الحديث . . لعلك تذكر هذا فتعترض به على ما قلنا فى البيان العربى ، وفى تفرده بمنزلة لا يشاركه غيره فيها — لعلك تذكر هـذا ، وربما نذكره نحن أيضاً معك ، فإننا لا نبخس الناس حقهم حين نتمسك بحقنا و ندافع عنه .. ولكنا مع هـذا لا نرى أن بلاغة اليونان وحكمة فارس الهند ، وبلاغة الأدب الأوربى الحديث — لا نرى شيئاً من هذا يعلو البيان العربى ، أو يساويه . . وإن وقفت منه بعض تلك الآداب موقفاً مدانياً مقارباً . .

وشاهدنا على هذا قائم بين أيدينا على مرّ الأيام والسنين . . وهو القرآن الكريم !

وأنت تعلم أن القرآن هو معجزة كلامية . . قد أعجزت كل متكلم، وأخرست كل ناطق !

وأن القرآن الكريم حين تحدّى العرب « بالكلمة » وإعجازها ؛ إنما تخير زمانا ومكانا ، دعا فيه أهل هذا الزمان وذلك المكان إلى التحدّى .. وكان أهل هذا الزمان وذلك المكان بحيث لاترى الحياة بعدهم أو قبلهم من بلغ أو يبلغ شأوهم فى هذا الميدان . . وبهذا يكون إفحام هؤلاء القوم وإعجازهم حجة قائمة على الناس جميعا . . فحين تسقط الرءوس لا قيام للأقدام ! وقد سقطت رءوس العرب بين يدى القرآن ، وخرّت ساجدة تحت قدميه ! . وهذا شاهد قائم أبدَ الدهر على أن اللغة العربية هى وحدها من بين اللغات ، اللغة الصالحة للمعجزة الكلامية . وأن الكلمة لاتبلغ مبلغ الاعجاز إلا فى هذه اللغة وبها ! !

هل القرآن حجة على غير العربى ؟

وقد يكون لسائل أن يسأل :

إذا سلمنا بأن القرآن الكريم حجة قائمة على العرب ، لأنه دعاهم إلى التحدّى فأفحمهم وأعجزهم — فكيف يكون القرآن حجة على غير العرب ممن لا سبيل إلى تحدّيهم به ، وهم لايعرفون لغته ؟

وجوابنا على هذا :

أن القرآن الكريم دعوة عامة ، ورسالة شاملة للناس جميعا . . من عرب ، وغير عرب . . على مدى الأزمان والأجيال . .

وقد دعا القرآن الناس جميعا إلى الإيمان به ، وبالرسول الذى نزل عليه . . واستجاب ، ويستجيب دائما كثير من غير العرب لهذه الدعوة ، فيدخلون فى الإسلام ، ويتصلون بكتابه ، ويتعلمون لغته ، بل ويحذقونها ، ويذوقون طعومها. ثم يكون لهم بعد هذا نظرتان : نظرة تجمع بين لغتهم التى عاشوا بها قبل أن يدخلوا

فى الإسلام ، وبين اللغة العربية التى عرفوها بعد أن دخلوا الإسـلام . . ومن خلال هذه النظرة يبدو لهم وجه الحـكمة فى أن الله سبحانه شرّف اللغة العربية بحمل هذه الرسالة ، وبجعل معجزتها فى ذات الـكلمات التى اشتملت عليها هـذه اللغة ، والتى صيغت منها الرسالة .. فـكانت قرآنا مبينا .. ! !

إن هـذه النظرة ستطلعهم على مافى اللغة العربية من اقتدار على التحليق بالأسلوب البيانى إلى أبعد مدى يمكن أن ترتفع إليه الـكلمة من فم إنسان أوقلمه !

أما النظرة الأخرى، فهى نظرة إلى اللغة العربية وإلى مكانها من القرآن الـكريم ومن هذه النظرة يتجلّى إعجاز القرآن ، وتبدو اللغة العربية فى أعلى منازلها وكأنها الـكواكب تدور فى فلك الشمس ، وتأخذ من ضوئها !

وقد دخل فى الإسلام كثير من غير العرب ، من فرس ، وروم ، وهنود . . دخلوه ومعهم لغاتهم التى عاشوا فيها ، وعرفوا أسرارها . . ثم درسوا اللغة العربية ، لغة الدين الذى آمنوا به ، فعرفوا بلاغتها ، والأسرار المنطوية عليها . . ثم عرفوا « المعجزة » القرآنية التى أعجزت أرباب البيان وأئمة الـكلام . .

وحسبك أن تذكر فى هذا المقام عبد الحميد الـكاتب ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والجاحظ ، وكلهم أئمة البيان ، وأرباب الفصاحة فى النثر العربى، ثم تذكر بشاراً ، وابن الرومى ، وأبا نواس . وهم من تعرف فى الشعر . . وهؤلاء وأولئك جميعاً أعاجم أو من أصل الأعاجم !

هذا إلى كثير من العلماء والفلاسفة . . وهؤلاء جميعا من غير العرب . . ولهم أو لـكثير منهم باللغات غير العربية معرفة يميزون بها بين منازل الـكلام، ومراتب الفصاحة ! ..

ولو كان هؤلاء قد وجدوا اللغة العربية على ماعهدوا من لغات أقوامهم لما كان عندهم هذا النزوع الشديد إليها ، ولا هذا التعلق القوى بها ، ولا هذا

الإخلاص والحب المكينين لها . . حتى كان لهم من ذلك عون ملهم على حذقها وبلوغ الغايات القصوى منها .

وهذا فى ذاته شاهد عدل على ما للغة العربية من مكانة تعلو بها على غيرها من اللغات ، ومن أسرار تنفرد بها بين ما عرف الناس من أسرار البلاغة والبيان !

وهذا الشاهد قائم أبداً . . ففى كل عصر ، ومن كل أمة يدخل فى الإسلام أعداد كثيرة من الناس . . من علماء ، وفلاسفة ، وكتّاب . وهؤلاء لهم مالهم من حكمة ونظر فى « فن القول » . . وهم أقدر الناس على وزن البلاغة العربية بغيرها من البلاغات الأخرى . . ثم وزن بلاغة القرآن إزاء البيان العربى .

وقد نظروا ، وقدّروا ، ووزنوا . . فكانت كفة اللغة العربية هى الراجحة دائماً . . وكان القرآن الكريم هو معجزة هذه اللغة !

يقول « توماس كارليل » فى كتابه « الأبطال » متحدثاً عن القرآن :

« هذا صدًى يتفجر من قلب الكون كله » . !

* * *

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن إعجاز القرآن إنما هو حجة على من يحسن العربية ، ويطلب للإيمان بالدعوة معجزةً شاهدة لها !

ولكن ليس معنى هذا أن كل من لا يعرف الإعجاز القرآنى ، ولا يملك وسائل معرفته غير مطالب بالدخول فى هذا الدين الإسلامى . . كلا .

فالإسلام رسالة إنسانية ، تدعو إلى الحق، وإلى الخير . . وليست دعوة الخير فى ذاتها فى حاجة إلى معجزة تشهد لها أنها من عند الله . . وإنما كانت المعجزة المكابرين المعاندين، الذين لا يستجيبون للحق،ولا يذعنون له . . كما وصفهم القرآن.

« وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لايُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا »[١] .

فلمثل هؤلاء جاءت المعجزة ، لتقيم الحجة عليهم ، إلى جانب الحجج الأخرى القائمة من شواهد الحق والخير التي تحملها الدعوة بين يديها ، وتبشر في الناس بها . .

الله أعلم حيث يجعل رسالته :

ونستطيع بعد هذا أن ننتهى إلى مقررات :

أولا : أن القرآن الكريم معجزة فى ذاته ، وأن معجزته محمولة فى كلماته التى نزل بها . .

ثانياً : أن المعجزة القرآنية جاءت فى زمانها ومكانها ، ونزلت فى أهلها الذين هم أقرب الناس إليها ، وأعرفهم بها .. إذ كانت بلاغتهم قد بلغت الغاية ، وكانت الكلمة فى أفواههم قد أعطت كل ما يمكن أن تعطيه لإنسان .. فلما أخذ القرآن هذه الكلمات على صفتها تلك ، نفخ فيها نفخة من روح الحق ، فجاءت بثمر جديد ، وبخير كثير ، لم يكن لها أن تعطيه أبداً فى صنعة إنسان . . على أى لسان ! ولعل فى قوله تعالى :

« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » — ما يشير إلى هذا المعنى .. فإن كلمة « حيث » يعبر بها عن المكان .. والمكان يحويه زمان . ويعيش فيه أشخاص .. ! !

وبهذا يكون استعمال القرآن لهذه الكلمة «حيث» — معجزة، تنطلق منها إشارات مضيئة، تشير إلى الرسول، وإلى المرسل إليهم، وإلى زمن الرسالة ومكانها . .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

فقد أصابت الرسالة مكانها فى شخص الرسول ، وفى العرب المرسَل إليهم ، فى زمان ومكان معلومين !

ثالثاً : أن الأدب الجاهلى — وخاصة الشعر — هو المنظور إليه فى معرض التحدى ، وهو الذى وقع الاعجاز عليه .. إذ كان هذا الأدب ، وهذا الشعر ، غايةَ ما يمكن أن يرقى إليه فن القول ، فى مجال العمل الإنسانى ، فى استصحاب الكلمة ، والتعامل بها .

ما هو الاعجاز فى القرآن :

ومع أن الإجماع يكاد ينعقد على أن معجزة الرسول صلوات الله وسلامه عليه هو القرآن الكريم .. ليس له معجزة غيرها ، لأنه هو الذى حمل دعوة التحدّى به إلى الناس عامة ، وإلى العرب خاصة ، فى أكثر من موضع منه .. فقال تعالى :

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »[1] وقال سبحانه « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[2] .

— مع هذا الاجماع على أن القرآن هو معجزة الرسول ، ومع هذا الاجماع أيضاً على وقوع الإعجاز به ، وتسليم قريش والعرب جميعاً بالعجز .. فى حينه — فإن الوقوف على الجهة التى كان منها الإعجاز القرآنى ، أمر لم تلتق عنده الآراء ، ولم يكن محل اتفاق بين الباحثين والناظرين فى وجوه الاعجاز ، فى كل زمان ومكان . فهناك أكثر من رأى ، وأكثر من مذهب فى الجهة أو الجهات التى كان

---

(١) سورة هود : آية ٣ .　　(٢) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

بها القرآن معجزاً مفحماً ! على ما سنرى ذلك حين نعرض وجوهاً من تلك الآراء . وصوراً من هذه المذاهب .

وليس كذلك الشأن فى معجزات الأنبياء .. إذ كل معجزة كانت تنادى معلنة فى وضوح عن صفتها التى أعجزت بها . وتشير فى صراحة إلى الجهة التى جاء منها الإعجاز ، فيعلم الناس لوقتهم ماذا فى المعجزة من دلائل الإعجاز ! وماذا فيها من القوى القاهرة المعجزة التى لا يستطيعون القيام لها ، والجرى معها ؟

بل إن الأمر لأهون من هذا .. فما كان لأية معجزة من معجزات الأنبياء إلا جهة واحدة ، وإلا صفة واحـدة ، جاء منها الإعجاز ، ووقع بها ، وهى قطع النظر والفكر معاً عن البحث عن وجه الإعجاز فيها ، وعن طلب الدلائل الدالة عليه .

وماذا يبحث الناس فى عصا موسى مثلا ؟ إنها مجرد عصا .. لا تختلف فى مرأى العين عن أى عصا أخرى .. ليس فيها أجهزة ، ولا عدد ، ولا أى خروج عن صفات العصىّ التى فى أيدى الناس .. ولكنها فى يد موسى تفعل هذه الأعاجيب ، وتلد تلك المعجزات !

وليس فى يد موسى غير ما فى أيدى الناس .. لحم ، ودم ، وعظم ، وعصب ، وعروق ! لا تختلف فى شىء أبدا عن الأيدى التى تحيا فى أجساد الناس وتعمل لهم !

إذن فهناك قدرة لا تُرى .. هى قوة الله .. التى تمد موسى بهذه المعجزات ، وليست عصاه أو يده إلا أداة تحمل هذه المعجزة أو تلك !

كذلك معجزات « عيسى » .. يهتف بالميت فيصحو ، ويشير إلى الأكمه والأبرص فيبرأ .. وليس فى صوته الذى يهتف به شىء يخالف مألوف الأصوات المعروفة للناس .. إنه مجرد كلمة تنطلق من فم ، فإذا هى حياة ، وإذا هى روح

تسرى فى موات فتبعثه من موقده ! . . ومجرد إشارة تتجه إلى أعمى فإذا هو مبصر ، أو إلى أصمّ فإذا هو سميع مجيب !

وإذن فليس الشأن فى هذا الصوت ، أو فى تلك الإشارة ، وإنما هو قوة قادرة .. لا تُرى .. قد جعلت لهذه الكلمة ولتلك الإشارة هذا الأمر المعجز !

وليس للناس إزاء هـذا الانقلاب الشامل لطبائع الأشياء ، وخروجها على مألوف الحياة عندهم — رأى أونظر .. وإنما هو الدّهش والعجب .. أوالحيرة ، والتبلد ! ! إذ ماذا يرى الناس أو يقولون فى كلمة يحيا بها الميت ؟ وماذا يرى الناس أو يقولون فى إشارة يبرأ بها الأكمه والأبرص ؟

* * *

أما القرآن الكريم فشأنه غير هذا الشأن وأمره على خلاف هذا الأمر !

فهو كلمات ، وألفاظ ، وعبارات .. لا تختلف عما ألف الناس ، مما يجرى على ألسنتهم من كلام .. إنه كلمات مألوفة معروفة .. تعامل بها الناس ، فأخذوا بها وأعطوا .. وقلّبوها على جميع وجوهها .. فى مختلف الأساليب ، وشتى التراكيب .

إنّ كل ما فى القرآن الكريم من كلام هو مما كان يدور على ألسنة العرب ، ومما يصاغ منه نثرهم ، ونظمهم .. من خطب ، وحكم ، ومساجلات ، ومن قصيد ، ورجز .. وفى هذا يقول الله تعالى :

« إنا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »(١) .

ويقول سبحانه مخاطباً نبيه الكريم :

---

(١) سورة يوسف : آية ٢

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »(1)

ثم إن هذه الكلمات التي عُرفت – بعدُ – باسم القرآن ، والتي تحدّى بها الرسول الكريم العرب جميعاً ، ثم الإنس والجن قاطبة – هذه الكلمات لها ما كان لكلمة عيسى حين كان ينطق بها فتتجسّد معجزة قاهرة يشهدها الناس ، ويرونها رأى العين .

إن كلمات القرآن كلمات لا يلدن تلك المخلوقات العجيبة المجسّدة ، ليومهن ، ثم يمضين عقيمات إلى آخر الدهر . . لا يعرف لهن مكان في الوجود !

أين كلمات عيسى التي أحيا بهنّ الموتى ، وأبرأ بهنّ الأكمه والأبرص ، ونزّل بهنّ مائدة من السماء ؟ . . لقد تخلّقن كائنات تسعى بين الناس بهذه الأمور المعجزة ، لساعة أو لأيام . . ثم مضين . . وطواهن العدم إلى الأبد . .

وأين عصا موسى ؟ بل أين يده ؟ . . لقد أدّتا دورهما في الحياة ، ثم ذهبتا مع الذاهبين !

وكلمات القرآن . . لم يخلقن شيئاً من تلك الصور المعجزة . . شأنهن شأن الكلام المألوف ، الذي يجرى على ألسنة الناس . . ولقد جعلهن الله على أفواه الناس إلى يوم القيامة ، لا تتغير صفتهن ، ولا تتبدل صورهن . . بل يظلَلْنَ هكذا كلاما مما يعيش به الناس ، ويتعاملون به ، وينظمون منه أشعارهم ، ويؤلفون به خطبهم ، ويكتبون به علومهم وآدابهم ، كما كان شأن هذا الكلام قبل أن يُنظم منه القرآن . .

ولكن هذا الكلام المألوف المعروف حين ضمه القرآن إليه ، ونظم منه آياته

(1) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ – ١٩٥

وصور منه أحكامه ، وقصصه ، وجدله ، ومواعظه ، وزواجره — هذا الكلام قد أصبح منذ ذلك اليوم معجزة قاهرة ، تتحدى الناس جيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة .. فليأتوا بحديث مثلِهِ .. إن كانوا صادقين ! ! .

* * *

إنه لو كان فى كلمات القرآن الكريم مافى كلمات عيسى، وما فى عصا موسى ويده — شىء من هذه القوة التى كانت تنطلق منها لوقف الناس من كلمات القرآن عند رأى ، حين يرون الثمرة التى أثمرتها ، وحين يشهدون المعجزة التى تخلقت منها .. ولكن — كما قلنا — لم يكن فى كلمات القرآن شىء إلا أنّهن كلام قد تداوله الناس ، وعرفوه منثوراً ومنظوماً .. قبل أن يصبح قرآناً !

ومع هذا فقد جاءت هذه الكلمات تتحدى الناس — وتقول لهم : إنها من حديثكم الذى تتحدثون ، ومن كلامكم الذى تنطقون :

« فَأْتوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ »(١) .

ولكن .. أين هى المعجزة فى هذا الكلام ؟ وماذا يبدو للناس منها ؟ وماذا يشهدون من إعجازها ؟ وكيف يضع الناس أيديهم على المعجزة ، ويرفعون أبصارهم إليها ؟

إنها معجزة لاتُرى بالعين ، ولا تلمس باليد !

وإنه لن يخرج من هذا الكلام ما يراه الناس بأعينهم، ويلمسونه بأيديهم . . وإنما على الناس أنفسهم أن يسمعوا لهذا الكلام ، وأن يتدبّروا آياته .. وعندئذ

(١) سورة البقرة : آية ٢٣ .

يرون ببصائرهم — لا بأبصارهم — فى كل آية معجزة قاهرة . . تعنو لها الجباه ، وتخضع لها الرقاب !

إن على الناس أنفسهم . . فرداً ، فرداً . . أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لهذه الكلمات — فإنهم إن فعلوا تكشف لهم منها ما كان يتكشف من عصا موسى ، ويده ، ومن كلمة عيسى وإشارته .. حين كانت تتفجر منها الآيات ، وتتخلق المعجزات ! وهذا مفهوم قوله صلى الله عليه وسلم : « وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلىّ .. » على ما أشرنا إليه من قبل(١) .

استمع إلى قوله تعالى :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ، لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ »(٢) .

فعن هذا التدبر ، وذلك التذكر ، يشهد كل متدبر ومتذكر معجزة الرسول ، وإعجاز القرآن !

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »(٣) .

فالعقل مدعوّ هنا إلى الكشف عن الحق الذى نزل به القرآن .. وعن الإعجاز الذى ضمّت عليه كلماته وآياته .. واستمع أيضاً إلى قول الحق جلّ وعلا :

« وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ »(٤) .

إنها آيات .. معجزات .. وما يعقلها ، ويعرف وجه الإعجاز فيها إلا العالمون

---

(١) ص ٨١ من هذا الكتاب .

(٢) سورة ص : آية ٢٩ (٣) سورة يوسف : آية ٢

(٤) سورة العنكبوت : آية ٤٣

الذين يُلقون أسماعهم لها ، ويفتحون قلوبهم وعقولهم للحق الذى فيها ، وللنور الذى معها ..

واستمع إلى قوله سبحانه :

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ . . وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ »(١)

فهذه الآيات الكريمة وأمثالها التى نزل بها القرآن هى شاهد الحق والعدل على أن « محمدا » هو الرسول المرسل من رب العالمين . . وأنها لاتؤدى هذه الشهادة على وجهها إلا لمن ينظر إليها بعين بصيرته ، ويهتدى إليها بعقله ، وبقلبه جميعاً !

وإذا أنت عرفت هذا من تلك الآيات الكريمة .. فاستمع إلى قول الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه الكريم :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يتفكّرون »(٢)

فلقد سمى الله سبحانه القرآن ذكراً فى هذه الآية « وأنزلنا إليك الذكر » . ثم جعل فاصلتها دعوة إلى التذكر بهذا القرآن ، والتفكر فيه «ولعلهم يتفكرون» ثم — وهذا ما جعلنا الآية شاهدا له هنا — هذه اللفتة الرائعة العظيمة التى فى قوله سبحانه : « لتبين للناس ما نزّل إليهم » . . فالقرآن وإن نزل على النبىّ ، فهو منزّل للناس ، ومن أجل الناس . . والقرآن ، وإن كان معجزة النبىّ ، فإن على الناس أن يعرفوا وجه المعجزة فيما نزل عليهم ! فهو كتاب النبى وكتابهم ، وهو معجزة النبىّ ومعجزة العرب الذى نزل بلسانهم . . فهم الذين يعرفون المعجزة القرآنية ، ويشهدون مطالعها فى آياته .. ومن أجل هذا خاطبهم الحق بقوله :

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٢ (٢) سورة النحل : آية ٤٤

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ . . وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ »(١) .

فالعرب ـ وقد نزل القرآن بلسانهم ـ هم الذين يرون المعجزة التى حملها الرسول إليهم فى كلمات هذا الكتاب الكريم ، وهم — من أجل هذا — مسئولون مع الرسول عن تبليغ هذه الرسالة السماوية ، والدعوة إليها .. إنهم أصحاب رسالة مع الرسول الذى جاءهم من أنفسهم .. وجاءهم من عند الله بكتاب ، ينطق بلسانهم ، ويتحدث بلغتهم .. محملة بهذا الإعجاز الذى ليس لغير العرب شهوده ، والتعرف عليه.

وليس هناك من تكريم للعرب ، وتشريف ، لقدرهم ، أعظم ، وأفضل مما كرمهم الله وشرفهم به فى قوله سبحانه : « وسوف تُسألون » .

فقد جعلهم والنبىّ الكريم كيانا واحدا ، يبلغ رسالة الإسلام ، ويبشر فى الناس بها . . وعلى قدر هذا التكريم ، وذلك التشريف تكون المسئولية ، ويكون الحساب عن التقصير فى حمل هذه الأمانة ، وأداء تلك الرسالة !

«وسوف تُسألون» .. «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ»(٢)

ولقد كان من هذا أن دار الناس حول القرآن فى كل اتجاه ، ورصدوه من كل مطلع ، وجاءوا إليه بكل ما يملكون من قوى ذهنية ، وملكات نفسية وروحية ، يدرسونه ويتدارسونه ؛ فما تركوا منه حرفا إلا نظروا فيه نظرا مردداً ، ولا كلمة إلا وقفوا إزاءها خاشعين متأملين ، ولا آية إلا عاشوا فيها متعبدين متوسمين . .

ولك أن تحسب جميع العلوم التى اشتغل بها المسلمون منذ صحبوا القرآن إلى اليوم — أنها إنما كانت من أجل القرآن ، ولحساب القرآن ..

فعلوم التفسير ، والقراءات ، والفقه ، والأصول ، وعلم الكلام ، والنحو ،

(١) سورة الزخرف : آية ٤٤

(٢) سورة الأعراف : آية ٦

واللغة والأدب ، والسير ، والتاريخ ، والفلك ، والخط .. وغيرها — كانت غايتها الكشف عن أسرار القرآن الكريم ، أو العمل على صيانة مادته وحفظها .

ولا شك أن كل علم من هذه العلوم كان يرصد القرآن من مرقب خاص ، فيتجلى فيه بعض ما فى القرآن من آيات الروعة والجلال ، والإعجاز !

غير أن هناك دراسات اتجهت اتجاها مباشراً للبحث عن وجوه الإعجاز ودلائله فى القرآن ، فلم يكن من همها شىء إلا أن تكشف النقاب عن هذا السر المحجب.. فكانت من أجل هذا تدور حول القرآن فى كل مدار ، وتلتقى به فى كل مجال ، وتنظر إليه من كل اتجاه .. وقد اجتمع من تلك الدراسات محصول وفير ، يكمل بعضه بعضاً .. إذ كان لكل ذى نظر نظرة — مهما اتسعت آفاقها — لا تأخذ من القرآن الكريم إلا ما يأخذ النمل من أركان جبل شامخ ..

ولا نحاول أن نعرض هنا جميع هذه الدراسات ، ولا أن نجمع كل هذه النظرات فيما يتصل بالقرآن الكريم من هذه الجهة ، فذلك أمر إن حاولناه لا نستطيعه ، ولا نقدر على الوفاء بحقه ، إذ لا يكاد يحصره العادون ، لكثرته ، وامتداد أزمنته ، واتساع أمكنته ! وضياع أكثره !

وإنما الذى نحاوله هو أن نتخير من كل جماعة رأسها ، ومن كل عصر — إن أمكن — بعض رجاله ، لنعرف أثر الزمن فى موقف المسلمين من القرآن الكريم ، ونظرتهم إليه ، وفهمهم له .. ونستطيع فى حدود هذا المجال أن نجعل « الجاحظ » على رأس أولئك النظار الذين نظروا فى بلاغة القرآن وحاولوا أن يعرفوا السبيل إلى وجه الاعجاز فيه ..

فقد كان الجاحظ ـ فيما نرى ـ أول من نظر هذه النظرة فى كتاب الله ، وحاول أن يجعلها موضوعا من موضوعات رسائله وكتبه الكثيرة التى جال بها فى كل مجال ، واصطاد بها كل عجيب وغريب !

وإذا كان الجاحظ قد سبق إلى شىء من هذا، فإن الذين سبقوه لم يحاولوا أن يقيموا من هذه النظرة رأياً ، أو مذهباً فى إعجاز القرآن . . كما نرى ذلك عند « النظام » أستاذ الجاحظ ، فقد قال فى القرآن وفى إعجازه قولا ، ولكن هذا القول لم يكن ليقوم وحده لولا تلك المقولات الكثيرة التى انفرد بها « النظام » فصار شيخ مذهب بين المسلمين ، هو مذهب المعتزلة .

ثم جاء بعد « الجاحظ » كثيرون ، جروا على طريقته ، وأخذوا مأخذه ، وحاولوا أن يكون لهم نظر خاص إلى جانب رأى الجاحظ ، ولكنهم كانوا دائما يدورون حوله ، ولا يجيئون ـ فى الغالب ـ بجديد عليه . .

إن أنظار المسلمين كانت دائما معلقة بكتاب الله ، يدرسونه ، ويتدارسونه ، ويلقونه بكل ما تسعفهم به الحياة من علوم ومعارف ، فيجدون كل شىء دون ما فى كتاب الله من علوم ومعارف ، فيزداد لذلك تعلقهم بكتاب الله ، وتتوثق صلتهم به ، ويشتد إقبالهم عليه ، ومدارستهم له . .

وفى كل يوم من أيام المسلمين تظهر دراسات وبحوث فى القرآن وعلوم القرآن ، حتى لقد اجتمع من ذلك مالا يحصى عداً .

ولقد كان نصيب « الإعجاز » فى مباحث القرآن نصيباً موفورا ، وقد أفرده بعضهم بدراسة خاصة ، كما فعل عبد القاهر الجرجانى وعبد الجبار والرمانى ، والخطابى ، والباقلانى . . إلا أن أكثر مباحث الإعجاز هى التى كانت تجىء ضمن مباحث التفسير ، أو القراءات . . فمعظم الذين فسروا القرآن الكريم حاولوا أن يجعلوا فى صدر تفسيرهم إشارات تتضمن آراءهم فى فضل القرآن ، وفى إعجازه . .

ولعل « الزمخشرى » أشهر هؤلاء المفسرين وأولاهم بالذكر فى هذا المقام ،

إذ كان تفسيره «الكشاف» يبحث عن مناط الإعجاز فى كتاب الله . . فى آياته ، آية ، آية ، وفى كلماته ، كلمة ، كلمة . . كما سترى ذلك عند نظرنا إلى رأيه فى الإعجاز . .

* * *

وقد آن أن نلتقى بعد هذا مع بعض هؤلاء العلماء والمفسرين ، الذين يتسع المجال للقائهم ، والتحدث إليهم . وذلك بعد هذا المدخل القصير :

لماذا اختلف الناس فى الاستدلال على وجه الإعجاز ؟

وإذا كان العرب قد أذعنوا للقرآن ، وأقروا بإعجازه ، وشهدوا على أنفسهم بالعجز عن مطاولته فى أقصر سورة من سوره — إذا كان هذا هو واقع الأمر فى شأن الإعجاز القرآنى — فإن الأمر ليختلف اختلافا واضحاً فى مجال الكشف عن وجه الإعجاز ، والتعرف على الجهة أو الجهات التى كان منها هذا الإعجاز !

كلام معجز . . ما فى ذلك شك . . حيث قامت الشواهد والأدلة القاطعة المتصلة أبدَ الدهر على وقوع الإعجاز بهذا الكلام . .

ولكن من أين كان لهذا الكلام هذا الإعجاز ؟

ومن أية جهة يُبحث عن دلائل الإعجاز فيه ؟

أمن جهة ألفاظه ؟

وكيف ؟ والألفاظ التى نُظم منها القرآن هى الألفاظ المتداولة المعروفة للعرب، والتى نظموا منها شعرهم ، ونثرهم ، وصاغوا منها حِكَمهم وأمثالهم ؟

أمن جهة تركيب عباراته وجمله ؟

وكيف ؟ والقرآن لم يخرج على قواعد اللغة ، ولم يبعد عن أساليب القول التى تواضع العرب عليها وتعاملوا بها ؟

أم من جهة معانيه التى ضُمَّت عليها آياته ، واحتوتها سوَرَه ؟

وكيف هذا ؟ والمعانى التى دارت حولها آيات القرآن كانت معروفة عند العرب فى جملتها ، وخاصة الأخلاقيات منها،وإن لم يستقيموا عليها، أو على الكثير من مفاهيمها ؟

وإنك أينما قلّبت وجوه الرأى فى الكلام العربى وأساليبه لم تجد القرآن قد خرج على وجه واحد منها خروجاً غير مألوف ، بحيث يُعدّ وجها جديداً جاء به القرآن مفردا . . يُرَى منه وجه الإعجاز ، الذى لايقدر الناس على مثله — رؤيةً واضحة محددة .

ومع هذا فالقرآن معجز . . ولو ضاقت صدور ، ورغمت أنوف ! !

ومع هذا أيضاً فقد كان الكشف عن وجه الإعجاز ، والتعرف على دلائله مطلباً عزيزاً أثيراً . . انصرفت إليه همم الباحثين والدارسين من المسلمين ، وغير المسلمين ، ليقعوا على السر الذى من أجله كان القرآن الكريم بهذه المكانة العالية ، التى لا ينالها أحد . ولا يطمع فيها بشر . . مع أنه كلام من الكلام المألوف المعروف ! !

* * *

الباب الثالث

آراء ومباحث فى الإعجاز

من نظرات السابقين فى الإعجاز :

إننا نحاول هنا أن نعرض وجوهًا من الرأى فى إعجاز القرآن ، تظهر فيها نظرات الناظرين فى كتاب الله ، وما وقع فى نفوسهم من جلاله وروعته ، وما تكشف لبصائرهم من أسراره وروائعه . ونود أن نشير إلى أن هذه الوجوه التى سنعرضها إنما هى لأصحابها الذين صوروها على هذا النحو ، وأرادوها على تلك الصفة . . وليس لنا فيها إلا مداخل ندخل بها إليها ، ومعارض نتخيرها لها ، ووقفات قصيرة نقفها منها . . لنجلو غامضاً ، أو نكشف مستورا . . ثم نرسلها هكذا على ما أقامها عليه أصحابها .

قليل من كثير :

وطبيعى أننا لانستطيع أن نعرض هنا جميع الآراء التى قيلت فى الإعجاز ، قديمًا وحديثًا ، كما أننا لانستطيع إذا عرضنا رأيا من هذه الآراء أن نمسك به من جميع أطرافه . .

وإنما الذى سيكون منا فى هذا المجال ، هو أن نتخير بعض الآراء التى نراها تتجه إلى البحث عن الإعجاز اتجاها مباشرا ، لا تلك التى تدور حوله من بعيد .. فإن اخترنا رأيا من تلك الآراء التى يبدو أنها تنظر بعيداً عن مواقع الإعجاز، فذلك لما لنظرتها تلك، من تصويب سديد إلى مواقع الإعجاز، كما نرى ذلك فى« دلائل

الإعجاز » و «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجانى . . فإن نظرة «عبد القاهر» فى هذين الـكتابين إنما هى فى صميم الإعجاز ، وإن كانت تبدو فى ظاهرها أنها تطوف به ، وتُلِمّ بساحته إلماما .

أما صنيعنا مع الرأى الذى نعرضه ، فإننا سنجهد الجهد كله فى تلخيصه ، تلخيصاً يقارب بين مقبوضه ومبسوطه ، بحيث تظهر جميع الملامح التى أودعها فيه صاحبه . . فإن قدرنا على الوفاء بذلك ، فلله الحمد أن أدينا الأمانة لأهلها ، وإن قَصُر باعنا عن الوفاء وفاء كاملا بهذا الأمر ، فعذرنا عنـد أنفسنا ،وعندأصحاب هذه الآراء ــ أن صحت نيتنا لذلك ، وانعقدت عليه . . « وإنما الأعمال بالنيات ، ولـكل امرىء مانوى » !

ومن صنيعنا أيضاً فى عرض هذهالآراء ،أننا سنعرضها بحسب ترتيبها الزمنى : السابق ، فاللاحق . .

وذلك ليبين فى هذا أثر الزمن فى اتجاهات النظر إلى « الإعجاز » وفى تأثر العلماء بعضهم ببعض ، وفى تأثير بعضهم فى بعض . . الأمر الذى يبدو جلياً فى موضوع « الإعجاز » حيث سلك العلماء فيه مسلكا يكاد يضع فيه اللاحق منهم قدميه على قدمى سابقه . . كما سنرى ذلك عند النظر فى هذه الآراء . .

وعلى هذا ، فسيكون « الجاحظ » هو أول من نبدأ لقاءنا به ، للتعرف على رأيه فى الإعجاز . . إذ كان أول من تصدّى لهذا الأمر ، وجعله موضوعا خاصا للنظر والدرس . . أما الذين سبقوا الجاحظ إلى شىء من هذا ، فلم يكن البحث فى إعجاز القرآن قائماً عندهم على هذا الوجه المحدد المقصود .

ثم إننا سنلتقى بعد هـذا بمن جاءوا بعد « الجاحظ » ممن كانت لهم مباحث خاصة فى الإعجاز ، أو من كان لهم نظر فيـه فى معرض من معارض القول فى

تفسير القرآن أو علم البيان ، أو غيرها . . إذ كانوا جميعاً — فيما نرى — شراحاً لنظرية « الجاحظ » سائرين فى اتجاه نظرته .

هذا ، وربما قد يرى بعض الناظرين فى هذا البحث أننا قد استكثرنا من هذه الشواهد التى قدمناها هنا فى وجوه الإعجاز . . وأنه كان يمكن الاكتفاء ببعضها ، والاجتزاء منها بشاهدين أو ثلاثة . . خاصة وأنها جميعاً وجوه متماثلة ، وآراء متقاربة ، يتبع بعضها آثار بعض . . !

ونقول فى مقابل هذا : إننا قد استكثرنا فعلا من الشواهد ، واستعراض الآراء المتقاربة المتماثلة ، ولكن ذلك كان عن تقدير وتدبير . . ذلك أن أمر الإعجاز — كما قلنا — ليس مما يمكن أن يحصر على صورة واحدة ، محددة المعالم ، والملامح ، بحيث تتلاقى عندها الآراء ، ولا تختلف عليها المفاهيم . . وإنما لكل ناظر فى « الإعجاز » ما يقع له منه ، وما ينكشف لبصيرته من سماته . .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذه النظرات الكثيرة التى دارت حول الإعجاز — وإن تقاربت وتماثلت — ليست على مستوى واحد ، ولا على طريق سواء . . بل إن لكل ناظر فى الإعجاز شيئاً غير قليل ، من خاصته ، قد نفضه من ذات نفسه على ماتكشف من له وجوه الإعجاز ، وما وقع فى نفسه منها . .

من أجل هذا كان حرصنا على أن نستكثر ما استطعنا من عرض هذه الآراء وأن نضع بعضها إزاء بعض . . ما تقارب منها ، وما تباعد . . وفى هذا مايعين على التعرف على إعجاز القرآن ، ويلقى أضواء من جوانب وزوايا كثيرة على مواقع إعجازه ، حتى أنه لوخفى على سالك هذا الطريق بعض ملامح الإعجاز

فى جانب ، رأى بعضًا من تلك الملامح فى جانب آخر ، وإن عُمِّيت عليه السبيل مع رأى ، استقامت له السبل مع غيره .

ذلك أن الناظرين فى إعجاز القرآن إنما ينظرون فى آيات معجبة .. معجزة .. ويشهدون أمراً لا يمكن أن يقع فى مجال الفكر ، ولا أن يضبط فى قوالب المنطق وإنما هم — فى مواجهة البيان القرآنى — ينظرون فى سماء تتنزل منها عبقريات الفنون جميعها !

وفرق كبير بين الحقائق العلمية ، والحقائق الفنية .

إننا لو كنا إزاء حقيقة علمية لما أجهدنا نفسنا هذا الجهد فى التطلع وراء نظرات الناظرين وتشمم آثارهم ؛ وتحسس خطراتهم — ولا كتفينا بقطع القول فيها برأى ذى الرأى من أربابها .. إذ ليس فيها إلا قول واحد ، لا اختلاف عليه ، ولاخلاف فيه .

أما الحقائق الفنية — وخاصة الجميلة العليا منها ، وبوجه أخص إذا كانت منزلة من السماء — فإنه ليس فيها « حَزامِ »[1] التى تقول قولا لامعقب عليه بعدها .. إذ لكل إنسان هنا فى هذا الأمر نظره ، وقوله .. بقدر مايسمح به استعداده ، وفهمه .

ومن هنا كان للباحث فى إعجازالقرآن أن يتتبع نظرات الناظرين فى إعجاز القرآن جميعها ، وأن يتفرس فيها نظراً بعد نظر ، حيث يلوح له فى كل نظر ملامح جديدة فى وجه الإعجاز أو وجوهه .

* * *

(١) حزام : امرأة عربية يضرب بها المثل فى القول الفصل ، فيقال : « القول ما قالت حزام » .

بهذا التقدير كانت نظرتنا إلى هذه الآراء الكثيرة لوجوه الإعجاز التى عرضناها هنا ، وهى فى رأينا قليلة لا تبلغ بعض ما كنا نريد . . إذ أن أمر الإعجاز لا يمكن أن تحيط به أنظار الناظرين مهما كثرت ، ولا أن تحدّه مقولات القائلين وإن تجاوزت الحصر والعد ، فكل نظر وتدبر فى آيات القرآن الكريم ، هو وجه جديد من وجوه إعجازه ، ولو كان هذا النظر بعدد أفراد الناس فرداً فرداً ، وبعدد اختلاف نظرات الفرد حالا حالا ، على امتداد الزمان واختلاف الأزمنة والأوطان . .

« قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً »[1] .

---

(١) سورة الكهف : آية ١٠٩

١ ـ الجاحظ [1]

رأيه فى الإعجاز :

لم يحفظ التاريخ للجاحظ رسالة من رسائله ، أو كتاباً من كتبه فى إعجاز القرآن . . وهذا أمر يبدو غريباً . . فإن الجاحظ عرض لكثير من الموضوعات التى لايلتفت إليها أكثر الكتاب ، ولا يجرون أقلامهم فيها ـ فعالجها هو ، وبسط القول فيها . . وجعل منها رسائل ، وكتباً .

وبعيد جداً ألا يكون الجاحظ كتب رسالة فى القرآن وعرض فيها لوجوه إعجازه ، ولكن ذهبت فيما ذهب بيد الضياع من كتبه ورسائله التى ذهب أكثرها . . وقد يكون لذلك علة سنشير إليها بعد قليل .

ومع هذا فقد كان له فى بعض كتبه ورسائله كلمات منثورة هنا وهناك عرض فيها لإعجاز القرآن ، ولوجوه إعجازه . . ومن هذه الآراء المتناثرة يمكن أن نعرف رأيه فى الإعجاز وفى الوجوه التى وقع بها الإعجاز .

ففى رسالة للجاحظ بعنوان « حجج النبوة » [2] يتحدث الجاحظ عن معجزة الرسول ، وأنها قائمة فى القرآن الكريم الذى هو معجزته الكبرى . . الخالدة . . ويقيم الدليل على هذا بما عُرف من تحدى القرآن للعرب ، وعدولهم عن لقاء هذا التحدى ، والنزول إلى ميدان القول . . فهربوا من هذا الميدان . . وأوقدوا نار الحرب بينهم وبين النبىّ . . فَقَتَلُوا ، وَقُتِلُوا . . ولو كان فى مستطاعهم أن يَصْمدوا لهذا التحدى لما فروا هذا الفرار المشين ، ولما رضوا أن يعرضوا أنفسهم

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، « والجاحظ » لقب غلب عليه . وهو أشهر من أن يعرف ، ومكانته العلمية والأدبية يكاد يكون فيها منفرداً بين العلماء والأدباء ، ومؤلفاته أكثر من أن تحصى ، توفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) ضمن مجموعة رسائل الجاحظ . . نشرها : السندوبى .

للموت ، وخاصة بعد أن ظهر عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الميدان أيضاً، وقتل كثيراً من فرسانهم ومشيختهم ..

يقول الجاحظ :

« إن محمداً صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة ، لها فى العقل موقع كموقع فَلْق البحر من العين(١) .. وذلك قوله لقريش خاصة ، وللعرب عامة — مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء . والدهاة ، والحلماء ، وأصحاب الرأى والمكيدة ، والتجارب ، والنظر فى العاقبة — : « إن عارضتمونى بسورة واحدة فقد كَذَبْتُ فى دعواى ، وصدقتم فى تكذيبى » ..

ثم يقول الجاحظ : « ولا يجوز أن يكون مثل العرب فى كثرة عددهم ، واختلاف عللهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم ، وقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم ، حتى قالوا فى الحيات والعقارب ، والذئاب ، والكلاب ، والخنافس ، والجُعلان ، والحمير ، والحمام وكل ما دبّ ، ودرج ، ولاح لعين ، وخطر على قلب .. ولهم — بعدُ — أصناف النظم ، وضروب التأليف . . كالقصيد ، والرجز ، والمزدوج ، والمتجانس ، والأسجاع ، والمنثور . . وبعد . . فقد هجوه من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ، ونازعوا خطباءهم ، وحاجّوه فى المواقف ، وخاصموه فى المواسم ، وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم وقَتلوا منه . . وهم أثبت الناس حقداً ، وأبعدهم مطلباً ، وأذكرهم لخير أو لشر ، وأبقاهم له ، وأهجاهم بالعجز ، وأمدحهم بالقوة — ثم لا يعارضه معارض ، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر ..

ثم يقول :

« ومحالٌ فى التعارف ، ومستنكر فى التصادق أن يكون الكلام أخصر

(١) الجار والمجرور متعلق به كموقع ، أى كموقعها من العين .

عندهم ، وأيسر مئونة عليهم ، وهو أبلغ فى تكذيبه ، وأنقض لقوله ، وأجدر أن يُعرف ذلك أصحابُه — فيجتمعوا على ترك استعماله(١) ، والاستغناء به ، وهم يبذلون مُهَجهم وأموالهم ، ويخرجون من ديارهم ، فى إطفاء أمره ، وتوهين ما جاء به ، ولا يقولون ، بل ولا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم ، وتستهلكون أموالكم ، وتخرجون من دياركم ، والحيلة فى أمره يسيرة ، والمأخذ فى أمره قريب؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه ، كأصغر سورة يحتكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها ! ، بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكرهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم ، بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف ، فدل ذلك العاقلَ على أن أمرهم فى ذلك لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم ، فرأوا أن الإضراب عن ذكره ، والتغافل عنه فى هذا الباب — وإن قرعهم — أمثل لهم فى التدبير ، وأجدر ألا ينكشف أمرهم للجاهل والضعيف ، وأجدر أن يجدوا إلى الدعوى سبيلا ، وإلى اختراع الأنباء(٢) سبباً ، فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه ، وهو قوله عزّ ذكره :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا»(٣)

« وهل يذعن الأعراب ، وأصحاب الجاهلية ، للتقريع بالعجز ، والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم ، وهم أشد خلق الله أنفةً ، وأفرطه حمية ، وأطلبه بطائلة ، وقد سمعوه فى كل منهل وموقف ، والناس(٤) موكلون بالخطابات ، مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد أتاه به من لم يُزَوّده ..

(١) الضمير هنا عائد الى الكلام فى قوله : « أن يكون الكلام أخصر عندهم » :
(٢) فى الأصل الأنبياء وهو خطأ .
(٣) سورة الأنفال : آية ٣١ .
(٤) الناس : أى العرب .

« وإلا أن يكون غير ذلك ، ولا يجوز أن يُطبِقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحكماء مع اختلاف عللهم ، وبُعْد هممهم ، وشدة عداوتهم — بذلُ الكثير ، وصونُ اليسير ! ! وهذا من ظاهر التدبير ، ومن جليل الأمور التى لا تخفى على الجهال.. فكيف على العقلاء ، وأهل المعارف ؟ فكيف على الأعداء ؟ لأن تحبير الكلام أهون من القتال ، ومن إخراج المال .

« ولم يقل أحد : إن القوم قد تركوا مساءلته فى القرآن والطعن فيه بعد أن كثرت خصومتهم فى غيره .. ويدلك على ذلك قوله عز وجل :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عليهِ القرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً »(١)

وقال عز ذكره :

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ »(٢)

وقوله تعالى ذكره :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افتَرَاهُ ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ »(٣)

« ويدلك كثرة هذه المراجعة ، وطول هذه المناقلة ،على أن التقريع لهم بالعجز كان فاشياً ، وأن عجزهم كان ظاهراً . .

« ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم تحداهم بالنظم والتأليف ، ولم يكن أيضاً أزاح علتهم حتى قال تعالى :

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣٢
(٢) سورة يونس : آية ١٥
(٣) سورة الفرقان : آية ٤

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »(١) ...

ثم يقول :

« والذى منعهم من ذلك هو الذى منع ابن أبى العوجاء ، وإسحق ابن طالوت، والنعمان بن المنذر ، وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلاً ، وبالإيمان كفراً ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة فى الزندقة خاصة . . فقد كانوا يصنعون الآثار ، ويولدون الأخبار ، ويبثونها فى الأمصار ، ويطعنون فى القرآن ، ويسألون عن متشابهه ، وعن خاصه وعامه ، ويضعون الكتب على أهله » . .

ثم يتحدث الجاحظ بعد هذا عن توافق المعجزات، مع دواعى الأحوال التى يكون عليها الذين تظهر المعجزة فيهم . . فيقول :

« ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ، ولم يكن أصحابه قط فى زمان أشد استحكاماً منهم فى زمانه — بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه ، بكشف ضعفه وإظهاره ، ونقض أصله ، لردع الأغبياء من القوم ، ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام ، لأنه لو أتاهم بكل شىء ولم يأتهم بمعارضة السحر حتى يفصل بين الحجة والحيلة ، لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعة ، ولاعتل به أصحاب الأشغال، واشتغلوا به بال الضعيف ، ولكن الله — تعالى جده — أراد حسم الداء وقطع المادة ، وألا يجد المبطلون متعلقاً ، ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلا .. مع ما أعطى الله تعالى موسى عليه السلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .. كذلك زمن عيسى عليه السلام ، كان الأغلب على أهله ، وعلى خاصة علمائه ، الطب ، وكانت عوامهم تعظمهم على خواصهم، فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى ، إذ كانت غايتهم(٢) علاج المرضى.. وبإبراء الأكمه ، إذ كانت غايتهم علاج

---

(١) سورة هود : آية ١٣

(٢) أى أقصى جهدهم

الرمد . . مع ما أعطاه الله عز وجل من سائر العلامات وضروب الآيات . . لأن الخاصة إذا بَخَعت بالطاعة ، وقهرتها الحجة ، وعرفت موضع العجز والقوة ، وفصل مابين الآية والحيلة ـ كان أنجعَ للعامة ، وأجدرَ ألاتبقى فى أنفسهم بقية[١] »

ثم يتحدث عن معجزة النبي « محمد » فيقول :

« وكذلك دهر « محمد » صلى الله عليه وسلم — كان أغلبَ الأمور عليهم وأحسنَها عندهم ، وأجلَّها فى صدورهم حسنُ البيان ، ونظم ضروب الكلام . مع علمهم له ، وانفرادهم به ، فحين استحكمت لغتهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم ، وفاق الناسَ خطباؤهم ، بعثه الله عزّ وجل فتحداهم بما كانوا لايشكّون أنهم يقدرون على أكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، وينقصهم على نقصهم حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ، مع سائر ماجاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات[٢] » .

* * *

هـذا ، وفى كتاب « الإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى نجد كلمة أخرى للجاحظ تدور حول هـذا المعنى . . وحرصاً على تحصيل كل ما يقع لنا من كلام الجاحظ حول إعجاز القرآن — ننقل ما جاء فى كتاب الإتقان . وإن كان لايختلف كثيراً عما نقلنا له من قبل . . يقول الجاحظ :

« بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثرَ ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشدّ ما كانت عُدّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيدالله ،

(١) انظر ما أشرنا إليه فى المبحث السابق تحت عنوان : « زمان المعجزة ومكانها » .

(٢) من رسالة « حجج النبوة » للجاحظ ص ١٤٤ وما بعدها .

وتصديق رسالته .. فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العـذر ، وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الإقرار، الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له ؛ وقتل من عِلْيتهم ، وأعمامهم ، وبنى أعمامهم ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم ، وتقريعاً لعجزهم ، عنها تـكشّف عن نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا : أنت تعرف من أخبار الأمم مالانعرف، فلذلك يمكنك مالا يمكننا ، قال : فهاتوها مفتريات ! فلم يَرُمْ ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولا تكلفه .. ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ، ويحامى عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه عارض ، وقابل ، وناقض ، فدل ذلك العاقلَ على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم ، واستطالة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباءهم ، لأن سورة واحـدة ، وآيات يسيرة ، كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ فى تـكذيبه ، وأسرع فى تفريق أصحابه — من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال .. وهـذا من جليل التدبير الذى لايخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى ، والعقل ، بطبقات !! ولهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج ، واللفظ المنثور . ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم — فمحال — أكرمك الله : أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر ، والخطأ المـكشوف البين ، مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والـكلام سيد عملهم ، وقد احتاجوا إليـه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض ، فـكيف بالظاهر الجليل المنفعة ..

وكما أنه محال أن يُبقوا ثلاثاً وعشرين سنة ، على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة ، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل إليه ، وهم يبذلون أكثر منه »[1] .

ذلك هو رأى الجاحظ فى إقامة الحجة على وقوع الإعجاز بالقرآن .. وهو رأى — كما ترى — تقوم بين يديه حجج مشرقة ، وأدلة قاطعة .. وإن أكثر الذين أقاموا الحجة على إعجاز القرآن من هذا الوجه ، إنما نظروا إلى رأى الجاحظ هذا ، واعتمدوا عليه ، وداروا حوله .. ومنهم « الباقلانى » فى كتابه « إعجاز القرآن » والزركشى فى كتابه : « البرهان فى علوم القرآن » وغيرهما ممن كان لهم رأى فى إعجاز القرآن !

الجاحظ ووجوه الإعجاز :

أما عن رأيه فى وجوه الإعجاز التى كان بها القرآن معجزا ، فهو الرأى الذى ذهب إليه « الباقلانى » من بعده ، « والجرجانى » كذلك .. وهو « النظم » ، الذى انفرد به القرآن ، فى صياغة أساليبه ، صياغة تنتظم بها المعانى انتظام الروح فى الجسد ..

والجاحظ كما نعرف ، إمام من أئمة البلاغة ، وعلم مفرد فى أساليب البيان ، وذواقة لم تعرف العربية مثيلا له فى التعرف على طعوم الكلام . واختلاف مذاقاته ! وما تعرف اللغة العربية أديبا طاوعه قلمه فتحرك فى كل اتجاه ، وجال فى كل حلبة ، ونازل فى كل ميدان ، مثل هذا القلم الذى اشتملت عليه يد الجاحظ !

فإذا كان لهذا القلم وقفة فى ساحات القرآن يتملى فى محاسنه ، ويستملى من روافد

---

(١) « الإتقان فى علوم القرآن » السيوطى ج ٢ ص ١١٧ .

بيانه وبلاغته ، فإن ما يخط هذا القلم بعد ذلك ، هو خير ما يمكن أن يحمله قلم يرتاد رياض القرآن ، وينهل من مناهله !

ولكن — ولا تعجب — قد استخذى الجاحظ ، وغرق قلمه فى عرَق الخجل، حين وقف أمام هذا المقام الكريم ، وحين أجراه فى هذا المرتقى البعيد ، الذى تقصر دونه الأوهام ، وتحسر عنه العيون !

ومن يستخذى فى هذا المجال إذا لم يستخذ الجاحظ ؟ إنه أعرف الناس بقدْره وقدْر قلمه إزاء القرآن ! ولو كان ممن يخفى عليهم مواطن البلاغة القرآنية، وعلوها هذا العلو الشامخ البعيد عن الكلام، لكان لقلمه صولة وجولة .. ولكن الرجل رأى مالا قِبَل للإنسان به ، فلم يجد أبلغَ من الصمت ! وهذا شاهد من شواهد البلاغة الجاحظية ، قبل أن يكون شاهدا من شواهد الإعجاز القرآنى . . فقد عرَف الجاحظ مقام أدبه ومقام قلمه ، فوقف بهما حيث يحسن الوقوف! ولاشك أن هذه براعة وبلاغة معاً ! . وهذا ما يمكن أن يعلل به خلوّ مكتبة الجاحظ من كتاب ، أو رسالة خاصة ، فى إعجاز القرآن .

وإذا كنا قد قلنا إن رأى الجاحظ ، فى وجه الإعجاز فى القرآن ، هو ذلك النظم الذى انفرد به القرآن فى تصوير معانيه وإخراجها على تلك الصور العجيبة من النظم — فإن ذلك الرأى لم يكن رأيا صريحا للجاحظ ، وإنما كان عن طريق الاستدلال ، والاستنتاج ، لمقولاته التى حمّلناها هذه المحاميل ، وفهمناها على هذا الوجه من الفهم، وإلا فإن الجاحظ لم يقل قولا صريحا مواجها، فى الجهة أو الجهات التى جاء منها الإعجاز فى القرآن !

كان الجاحظ ممن يحفلون بالصياغة اللفظية ، وممن يحملون لصفاء العبارة

ونضارتها شأنا فى البلاغة ، وتمكين المعنى من أن يعرض أروع عرض ، وأبرعه ، وأكمله !

وكانت الظاهرة الغالبة فى تلك الفترة المعاصرة للجاحظ ، هى الاحتفال بالمعنى ، وكد الذهن له ، وإرهاق الخاطر فى البحث عنه ، والجرى وراءه . . إذ كانت آثار العقل اليونانى فى الفلسفة ، والعقل الهندى والفارسى فى الحكمة ، وضرب الأمثال - قد أخذت تنتقل إلى اللغة العربية ، وتؤثر فى الناس هذا التأثير الذى أقام المذاهب الكلامية والفلسفية عند كثير من الجماعات والأفراد — وكان من ذلك أن جرى الناس وراء المعانى يلتقطونها فى أى محمل من محامل اللفظ ، وعلى أية صورة من صوره . . حتى لقد كاد ذلك يذهب بكثير منهم إلى الخروج على الأساليب العربية والذوق العربى ، وكاد كثير من الكتاب والشعراء يهجم على المعانى ويُفرغ لها جهده ، وإن قلقت ألفاظه ، والتوت أساليبه . . وكانت أقرب صورة للناس يشهدون فيها هذا التحول الكبير فى الأسلوب العربى ، هى الصورة التى تجمع بين البحترى ، وأبى تمام ، حيث كان البحترى ممن ظل ملتزما عمود الشعر العربى ، مخلصا له ، محتفيا بموسيقى اللفظ ، ورنين القافية ، بينما كان أبو تمام قد اندفع فى التيار الجديد ، يتصيد المعانى الغريبة الدقيقة ، ويستهلك فيها جهده ، فإذا هو عمد إلى صياغتها فى قوالب الشعر لم يكن عنده من الجهد بقية ينفقها فى اختيار اللفظ ، وتنميق الأسلوب ، فكان فى شعره هذا الاضطراب الكثير الذى خرج به عن مألوف السمع ، بل والذوق ، عند العرب ، وكان ذلك مما دعا إلى القول المأثور : « الحكيم أبو تمام ، والشاعر البحترى » وبذلك القول خرج أبو تمام عن أن يكون فى عداد الشعراء ! ! أما أن يكون فى زمرة الحكماء فهذه دعوى تحتاج إلى دليل يسندها ، وإلى حجة تقوم لها . . !

نقول : إن الجاحظ رأى فى حياته هذه الظاهرة تتفشى ، فخشى أن تطغى على الأسلوب العربى ، وتتحول به إلى ترجمات ومصطلحات مستغلقة ، تنتهى آخر الأمر إلى قطع الصلة بين ماضى العرب ومستقبلهم ، حين تصبح الأساليب الجديدة شيئاً ليس بينه وبين اللغة العربية — لغة القرآن — تلك الصلة التى تجعل من عصور اللغة كلها عصراً واحداً ، يُتلى فيه كتاب واحد ، وإن تنوعت فصوله وأبوابه ! لهذا وقف الجاحظ فى وجه هذا التيار ، وتصدَّى له ، ودفع به إلى الوراء بعيداً . . فانحسر شيئاً شيئاً ، وجعل أولئك الذين كانوا قد ركبوا هذا المركب لاصطياد المعانى ، يعودون رويداً رويداً إلى الساحل ، حيث يأخذون من المعانى ما تنال أيديهم ، وما تبلغ أفكارهم . . !

وإنه لولا وقفة الجاحظ تلك لربما كان هذا الاتجاه قد انتهى إلى نتائج بعيدة الأثر فى الأسلوب العربى ، بل لربما جعل اللغة العربية تتجمد فى وضعها الذى شهد هذا التحول ، ثم تتولد منها أساليب ، لا تلبث أن تصبح لغات ليس بينها وبين اللغة « الأم » إلا لمحات من الشبه البعيد .. كما حدث ذلك للغة اللاتينية ، واللغات التى تفرعت عنها !

رأى الجاحظ :

والرأى الذى دعا إليه الجاحظ ، هو أن البلاغة نظم وصياغة . . فمن أخطأه حسن النظم ، وحبكة الصياغة ، فقد أخطأت كلامَه عناصرُ الحياة ، وجمدت فيه عروق البلاغة والبيان . . وذلك أن المعنى الذى يخرج فى صورة من النظم المضطرب ومن الصياغة المشوشة المختلطة ، هو معنى شائه دميم ، وإن نزع عن أصل بارز الحسن ، رائع الجمال !

ويشهد عبد القاهر الجرجانى آثار هذه المعركة التى كانت دائرة بين اللفظ

والمعنى، ويراها فى مخلفات الجاحظ الذى كان ينتصر للفظ .. من جهة، وفى مخلفات من كانوا يقفون ضده . . فى الجهة الأخرى !

ويقف « عبد القاهر » إلى جانب رأى الجاحظ ، ويقفو أثره . . ويتخذ من هـذا الرأى حجته على وجه الإعجاز فى القرآن ! (١).

ولا تحسبنّ أن « الجاحظ » يهون من شأن المعنى ، أو يُغمض من قدره .. وكيف وهو رجل كله عقل . . وكل عقله علم وحكمة وأدب ؟ وكيف والجاحظ دائرة معارف وخزانة معرفة — يذهب به الرأى إلى الإزراء بالمعرفة والحط من قدرها ؟

إن الجاحظ — كما قلنا — كان فى وجه تيار عنيف يتجه بالناس إلى الاستخفاف بالأساليب العربية ، والتخلص منها ، إذا لم يستطع المرء أن يجد المعنى الذى بين يديه اللفظ الذى يتسع له ، أو الأسلوبَ الذى يخرج فيه . وينتهى هذا الاتجاه آخر الأمر إلى أن يذهب كل إنسان مذهباً ، ويتخذ له طريقاً . . وأن من قل جهده ، أو قصر باعه عن أن يجد اللفظ العربى ، أو الأسلوب العربى الذى يلائم المعنى الذى يحضره ، عمد إلى أى لفظ ، وتناول أى أسلوب ، ولو كان فيه ما فيه من الجفاء والعجمة !

فالجاحظ لم ينتصر للفظ ، ولم يقف إلى جانب الأسلوب ، إلا لمواجهة هذا الخطر الداهم على اللغة ، وإلا فإنه — كما قلنا — حفىّ بالمعنى ، مؤثر له ، حريص عليه مادام لم يَجُرْ على الأسلوب ، ولم يفسد كيانه ، ولم يشوّه خَلْقه .

يقول « عبد القاهر » وهو يدافع عن موقف الجاحظ ومن سلك مسلكه فى الانتصار للأسلوب :

(١) انظر رأى عبد القاهر فى الإعجاز . فى هذا الكتاب بعد ذلك .

« واعلم أنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه من حيث جهلوا أن المعنى إذا كان أدباً وحكمة ، وكان غريباً نادراً فهو أشرف مما ليس كذلك . . ! بل عابوه من حيث كان من حكم من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص ألا يعتبر في قضيته تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس ، وترجع إلى حقيقته ، وألا ينظر فيها إلى جنس آخر ، وإن كان من الأول بسبيل ، أو متصلا به اتصال ما لا ينفك منه . . » (١)

ويقصد عبد القاهر من هذا أن يقول : إن الذين هونوا من شأن المعنى على حين رفعوا من قدر اللفظ ـ لم يكن ذلك منهم على إطلاقه ، فهم يعرفون قدر المعنى ، ويقدرون منزلته ، ولكنهم إنما فعلوا ذلك في مقابل أولئك الذين يحكمون على الكلام بالفضل أو النقص ، غير ناظرين إلا إلى جانب واحد منه ، وغير معتبرين إلا وجهاً واحداً من وجهين . فإذا رأوا معنى تبدو فيه مخايل كريمة رفعوه إلى مقام الفضل ، وإن كان في لفظ سقيم ، وأسلوب معلول !.. وكان الحق يقتضيهم ألا يقيموا حكومتهم تلك على ساق واحدة فتمشي عرجاء . ولو نظروا إلى اللفظ كما نظروا إلى المعنى لاستقامت حكومتهم ، واعتدل حكمهم !

ثم يقول عبد القاهر :

« ومعلوم أن سبيل الكلام ـ اللفظ ـ سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذي يعبّر عنه سبيلُ الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه .. كالفضة والذهب ، يصاغ منهما خاتم أو سوار .

« فكما أن محالا ـ إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم ، وفي جودة العمل ورداءته ـ أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه العمل ، وتلك الصنعة ـ كذلك محال إذ أردت أن تعرف الفضل والمزية في الكلام ، أن تنظر في مجرد معناه !

---

(١) دلائل الإعجاز . . ص ١٩٧

« وكما أنا لو فضلنا خاتماً على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود، أو فصّه أنفس، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم – كذلك ينبغى إذا فضلنا بيتاً على بيت من أجل معناه ألا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام.. وهذا قاطع.. فاعرفه»[1]

ثم يقول عن رأى الجاحظ الذى أشرنا إليه من قبل، وهو انتصاره لجانب اللفظ:

« وإذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبلغ فى ذلك كل مبلغ ، ويتشدد غاية التشدد .. وقد انتهى فى ذلك إلى أن جعل العلم بالمعانى مشتركا ، وسوّى فيه بين الخاصة والعامة . . فقال – أى الجاحظ : –

« ورأيت ناسا يبهرجون أشعار المولدين ، ويستسقطون من رواها[2] ، ولم أر ذلك قط إلا فى رواية غير بصير بما يَرْوِى!.. ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفى أى زمان كان !.. »

ثم يروى الجاحظ – على عادته حادثة طريفة .. يقول :

« وأنا سمعت أبا عمر الشيبانى – من أئمة اللغة – وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن فى المسجد الجامع يوم الجمعة أن كلَّف رجلا . . حتى أحضره قرطاساً ودواة ، حتى كتبهما ! !

ثم يعلق الجاحظ على هذا بأسلوبه الساخر الساحر . . يقول :

« وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً .. ولولا أن أدخل فى الحكومة بعض الغيب لزعمت أن ابنه لا يقول الشعر أيضاً ! »

أما البيتان اللذان يتحدث الجاحظ عنهما ويحكم على قائلهما وعلى ذريته ألا يقولا شعراً أبداً . . فهما :

لا تحسبن الموتَ موتَ البِلَى   وإنما الموتُ سؤالُ الرجال

كلاهما موت ولكنّ ذا   أشد من ذا على كل حال !

---

(١) دلائل الإعجاز .. ص ١٩٧ .

(٢) وذلك أن أشعار المولدين جنحت إلى جانب العناية بالأسلوب فجاء شعرها سمحاً رقيقاً عذباً .

وأنت إذ ترى تهالك النظم وانحلال أوصاله .. فلعلك تعذر « الجاحظ » في قسوة حكمه على هذا الشاعر ، وأخذ ذريته بجريرته من بعده ! فإن كلمة . « على كل حال ! » التي سوّى بها البيت الثاني ليس أبرد ولا أغث ، ولا أخزى منها ، في موضعها هذا الذي وضعت فيه !

ثم يقول الجاحظ بعد هذا :

« وذهب الشيخ — يريد أبا عمرو الشيباني — إلى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والقروي والبدوي .. وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع ، وكثرة الماء ، وجودة السبك .

« وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير !! »[1] .

ويعلق عبد القاهر على هذا بقوله :

« فقد تراه — أي الجاحظ — أسقط أمر المعاني ، وأبى أن يجب لها فضل فقال : « وهي مطروحة في الطريق .. ثم قال : وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً .. فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه ، لا بمعناه ، وأنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة » .

ثم يقول الجاحظ :

« ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذكر ، وربما خيل إليّ أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء » ..

« ولولا أن أكون عياباً ، ثم للعلماء خاصة — لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة ! »

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٧ .

ويفْصِل عبد القاهر فى هذه القضية بقوله :

« واعلم أنهم لم يبلغوا فى إنكار هذا المذهب ما بلغوا إلا لأن الخطأفيه عظيم ، وأنه يفضى بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدّى من حيث لا يشعر» !

« وذلك أنه إذا كان العمل على مايذهبون إليه من أنه لا يجب فضل ومزية إلا من جانب المعنى ، وحتى يكون قد قال ـ أى صاحب القول ـ حكمة أو أدباً ، واستخرج معنى غريباً ، أو تشبيهاً نادراً ـ فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس فى الفصاحة والبلاغة ، وفى شأن النظم والتأليف ، وبطل أن يجب بالنظم فضل ، وأن تدخله المزية ، وأن تتفاوت فيه المنازل ، وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون فى الكلام معجز ، وصار الأمر إلى مايقوله اليهود ، ومن قال بمثل مقالتهم فى هذا الباب ودخل فى مثل هذه الجهالات ، ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار »[1]

وأنت ترى أن « الجاحظ » ليس له هنا حديث عن الإعجاز فى القرآن ، وإنما هو يتحدث عن صفة الكلام البليغ ، وعن مأتى البلاغة فيه ، ومجال التفاضل بين الكلام والكلام .

وإنه بهذا الميزان الذى يوزن به الكلام ، وتُعرف به منازله ، يمكن أن يعرف فضل القرآن على غيره من الكلام ، ويمكن أن يُستدل على وجه الإعجاز فيه . . وهذا ما كان من « عبد القاهر » فى كتابيه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » حيث أقام مذهبه فى الإعجاز على هذا الميزان ، وهو « النظم » ، كما سنرى ذلك عند وقوفنا معه فى كتابه : « دلائل الإعجاز » .

هـذا ، و « الجاحظ » إذ يرى وجه الإعجاز فى « النظم » لا يرى النظم نظماً

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٨ .

إلا إذا كان على شيء من السعة والامتداد ، بحيث يحمل معنى مؤلفاً من حقائق مترابطة ، يسند بعضها بعضاً ، فتتشكل منها صورة سوية الخلق .

أما النظم الذي يقوم على جملة أو كلمة ، أو كلمتين ، فلا يدخل في هذا الباب ، ولا يعد نظماً ينكشف به معدن الكلام ، وَيبينُ فضله .

يقول الجاحظ في هذا :

« ولأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة — لتبين له في نظامها ومخرجها ، وفي لفظها وطبعها ، أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها » .

ثم يقول :

« وليس ذلك — أي العجز ، والإعجاز — في الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين ، . ألا ترى أن الناس قد يتهيأ في طباعهم ، ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : « الحمد لله » و « على الله توكلنا » و « ربنا الله » و « حسبنا الله ونعم الوكيل » وهذا كله في القرآن ، غير أنه متفرق غير مجتمع ! » .

« ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه ، وتأليفه ، ومخرجه — لَمَا قدر عليه ، ولو استعان بجميع « قحطان » و « معد بن عدنان » [1] .

فالنظم على صورة مخصوصة ، وفي امتداد رحب ، هو المعرض الذي تتجلى فيه روعة القرآن ، وتتخايل ملامح إعجازه .

وعلى هذا ، فالجاحظ هو إمام هذا المذهب في إعجاز القرآن ، وعمدة الرأي فيه . . ما أن كشف عنه في حديثه عن الأدب ، وبيان معادنه حتى كان ذلك

---

(١) من رسالة حجج النبوة للجاحظ ، ضمن مجموعة رسائل الجاحظ « للسندوبي ص ٢٠ »

مذهباً غالباً من مذاهب الرأى فى الإعجاز ، وحتى دفع إليه العلماء دفعا ، إذ جعلوا قوله هذا فى الفصاحة والبيان ، هو مجال النظر فى الإعجاز ، لا يكادون يتجاوزونه ، ولا ينظرون إلى شىء وراءه .

ولم يكن رأى الجاحظ هذا متسلطا على الناظرين فى إعجاز القرآن وحدهم ، بل أنه قد تسلط تسلطا قاهراً على الذوق الأدبى ، وعلى مقاييس الأدب عند الباحثين فى الأدب وفنونه . . من الذين جاءوا بعد الجاحظ ، وتصدّوْا للتآليف فى الأدب والبلاغة .. مثل « ابن بشر الآمدى »[٢] فى كتابه : « الموازنة بين الطائيين .. أبى تمام والبحترى » . . و « كأبى الحسن الجرجانى[١] » فى كتابة « الوساطة بين المتنبى وخصومه » و « أبى هلال العسكرى[٤] » فى الصناعتين » و « ابن رشيق القيروانى[٥] » فى كتابه : « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » . . فهؤلاء وأضرابهم نحوْا هذا المنحى فى تقييم الأدب . وفى الموازنة بين الجيد والردىء منه .

وليس من همنا هنا مناقشة هذه الآراء ، ولا تعديلها أو تجريحها ، وإنما هى إشارة خاطفة نلمح منها هذا الأثر البعيد الذى تركه مذهب الجاحظ ، ورأيه ، فى عناصر البلاغة ومقوماتها . .

ونكتفى هنا بعرض رأيين من تلك الآراء فى مجال الانتصار لمذهب الجاحظ هذا ، وهما للآمدى ، ولابن رشيق . .

يقول الآمدى :

« ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ . . أن الخطب الرائقة ، والأشعار الرائعة ، ما عُملت لإفهام المعانى فقط ؛ لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها فى الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحسن مقاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب معانيه — على

(١) توفى سنة ٣٧١ هـ

(٢) توفى سنة ٣٦٦ هـ

(٣) توفى سنة ٣٩٥ هـ

(٤) توفى سنة ٤٦٣ هـ

فضل قائله ، وفهم منشيه . وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعانى . . ولهذا تأنق الـكاتب فى الرسالة ، والخطيب فى الخطبة ، والشاعر فى القصيدة . . يبالغون فى تجويدها ، ويغلون فى ترتيبها ، ليدلوعلى براعتهم وحذقهم بصناعتهم . . ولو كان الأمر فى المعانى لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كداً كثيراً ، وأسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا . . »[1]

وهذا اعتراف صريح بما للفظ من مكانة مرموقة فى وزن الـكلام ، وفى تقييمه وتحديد منزلته فى البلاغة والبيان . . وليس معنى هذا إهدار المعنى . . فاللفظ إنما جاء ليؤدى المعنى ، ويكشف عنه . ولولا المعنى لما كان هناك داعية إلى اللفظ . ولـكن هذا الالتفات إلى اللفظ إنما هو وقفة فى وجه تلك الحركة التى كانت منطلقة بالاحساب نحو المعانى ، واصطياد غرائبها ، دون الاهتمام بالثوب اللفظى الذى تظهر به . . وهى تلك الحركة التى تصدى لها « الجاحظ » من قبل وأوقف تيارها .

ويقول ابن رشيق :

« اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يَضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ ، كان نقصا « للشعر » وهُجْنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام ، من العرج ، والشلل ، والعَوَر ، وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ! .

« وكذلك إن ضعف المعنى ، واختل بعضه ، كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح .

ثم يقول :

« ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب ، وقياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح . . فإن اختل المعنى كله وفسد ، بقى

(١) الصناعتين ص ٥٧ .

اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حَسَنَ الطِّلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى مرأى العين، إلا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيدفائدة ،وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأنا لا نجد روحا فى غير جسم ! » .

وواضح أن ابن «رشيق» يحاول أن يَعدِل فى كفتى الميزان بين اللفظوالمعنى، وإن كان يقوى جانب المعنى ويجعله روحاً على حين يجعل اللفظجسما ..

كما أننا نلمح من ابن رشيق هنا أنه يحاول المزاوجة بين اللفظ والمعنى ، ثم يجعلهما كياناً وحداً، وهو ذلك النص الأدبىالذى يرى الناس فى مضمونه مايرون من جمال أو قبح ، كما يطالعون ذلك فى وجه الكائن الحى من الناس !

وهذا هو فى رأينا — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — هو الوجه الذى نرضاه وننظر من أفقه إلى النص الأدبىّ ، وإن كنا لا ننظر حين ننظر إلى أن هناك جسداً وروحاً ، وإنما هو كائن حى يؤثّر أثره فى الحياة .

الجاحظ .. والقول بالصرفة :

ثم لا تعجب إذا رأيت الجاحظ يقول بالصرفة فى وجه الإعجاز فى القرآن .. فالجاحظ كما نعلم « معتزلى » وجه من وجوه المعتزلة ورأس من رءوسهم .. ونعلم أيضًا أن النظام وهو شيخ من شيوخ المعتزلة قد كان أول من جاهر بهذا الرأى ، وفتح للناس باب الكلام فيه ..

ولا يذهبنّ بك الرأى إلى أن تحسب الجاحظ متابعاً أو مقلداً لإمام مذهبه « النظام » فى هذا الرأى .. فالجاحظ وإن أخذ بقول « النظام » فليس ذلك عن تقليد ومتابعة ، وإنما عن نظر وموازنة ومراجعة .. ثم اقتناع ..

ولهذا ،فإننا نرى الجاحظ يطلب لهذا الرأى أسسا يقوم عليها ، وأوتاداً تمسك

ب ، وتجعل له « معقولية » ومنطقا ! . . ولهذا أيضاً كان رأى الجاحظ فى القول بالصرفة هو الذى جعل لرأى « النظام » بعد هذا مكانا بين الآراء التى دارت حول إعجاز القرآن ، ولولا هذا لما التفت الناس إلى رأى النظام هذا الالتفات ، ولما عاش هذا الرأى فى الناس ، ينقضونه حينا ، ويقبلونه أحيانا . . وأمر آخر ، وهو أن الجاحظ إنما قال بالصرفه بعد أن أعياه الوقوع على الضوابط الدقيقة التى يضبط بها وجه الإعجاز فى القرآن ، ويكشف عن أسرار هذا الإعجاز .. فذلك أمر إن أعجز الجاحظ فقد أعجز الإنس والجن جميعاً ! فلو أن سر الإعجاز قد انكشف — وهيهات — لعرفه الناس ، وَمن ثم لم يعد بعيداً عن متناول أيديهم . . وكان فى مستطاعهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا القرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1] .

إن سر الإعجاز مُضْمَرَ فى كلمات القرآن .. كلمة كلمة ، وآية آية ، انه أمر من أمر الله . . كالروح ترى آثارها ، وتُشاهد أفعالها ، دون أن ينكشف للناس شىء منها .

« ويسألونك عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمآ أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاّ قَلِيلًا »[2] .

والقرآن « روح » تتجلى آثاره فى هذه الكلمات المنظومة فى آياته . .

ولعل فى قوله تعالى للنبى الكريم :

« وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا »[3] .

(١) سورة الإسراء : آية ٨٨
(٢) سورة الإسراء : آية ٨٥
(٣) سورة الشورى : آية ٥٢

وقوله جل شأنه :

« يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ، عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »[١]

لعل فى هذا ما يعين على الفهم الذى فهمناه من أن القرآن « روح » من روح الحق جلّ وعلا . . ونقول : لا تعجب إذا عجز الجاحظ عن الكشف عن هذا السر المضمر ، أو هذا الروح السارى فى القرآن فلم يعرف وجه الإعجاز فيه ! فألجأه هذا العجز إلى القول بالصرفة . . ! فالجاحظ أستاذ الأساتيذ فى نقد الكلام ، فلا عجب أن عرف قدر القرآن ، ولزم حدّه معه !

هذا وسنرى رأى الجاحظ فى القول بالصرفة عند عرضنا لهذا المذهب الذى كان « النظام » أول قائل به .

* * *

(١) سورة النحل : آية ٢

الخطابى

[٣١٩ — ٣٨٨]

يعتبر الخطابى[1] أسبق علماء المسلمين إلى البحث عن « الإعجاز » بحثاً علمياً منظماً . . ذلك أنه على الرغم من عكوف المسلمين على القرآن الكريم، قراءة ومدارسة، وعلى الرغم من قطع أكثرهم العمر كله من الطفولة إلى الممات ، فى الغدو والرواح عليه ، حتى أنهم أحصوا كلماته ، كلمة كلمة ، وعدّوا حروفه ، حرفاً حرفاً ، وأخذوا أنفسهم بكثير من العلوم والفنون يستعينون بها على فهمه ، ويكشفون بها وجوه محاسنه — على الرغم من ذلك فإنه قد مضى عصر النبوة، وعصر الخلفاء الراشدين ، ودولة بنى أمية كلها ، وشطر كبير من دولة العباسيين — دون أن يحاول أحد التعرض لقضية « الإعجاز القرآنى » والكشف عن أسرار الإعجاز ودلائله . .

ولم يكن ذلك عن تقصير فى حق القرآن . . وكيف ؟ والأمة الإسلامية كلها لم يكن لها وجود إلا به ، ولم يكن لها تفكير إلا فيه ، ولا حديث إلا عنه ، ولا شغل إلا به ، أو له ! !

وإنما هذا الذى يبدو أنه تقصير — إنما كان إعظاما لأمر القرآن ، وتهيباً لمقامه، وصوناً لذاته أن يكون غرضاً للآراء والأهواء ، ومجالا للجدل والخلاف ، حتى لقد تجنب كثير من الصحابة تفسير آية أو كلمة فيه . . إذ كان يرى أن ذلك قول بالرأى فى القرآن ، وتألٍّ على الله فى كشف المراد من كلامه ، ولا يعلم حقيقة ذلك الكلام غير الله سبحانه وتعالى . .

رُوى عن الربيع بن خُثَيم قال : ليتَّقِ أحدكم التكذيب . . إياه أن يقول :

(١) هو أبو سليمان محمد بن الخطابى .. أديب لغوى . محدث: توفى سنة ٣٨٨ هـ

قال الله كذا وكذا ، فيقول : « كذبتَ ، لم أقل » . . ويقول : لم يقل الله كذا وكذا ، فيقول : « كذبتَ : قد قلتُ ! »(١) .

وروى عن الشعبى قال : « أدركتهم — أى الصحابة — وما شىء أبغض أن يسألوا عنه ولا همْ له أهيب — من القرآن »(٢) .

وقد كان « الأصمعى » وهو إمام الأئمة فى اللغة لا يفسر شيئاً من غريب القرآن . . وقد حكى عنه أنه سئل عن قوله تعالى : « قد شَغَفَها حُبًا »(٣) . . . فسكت ، وقال : هذا فى القرآن .. ثم ذكر قولا لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعها : « أتبيعونها وهى لكم شَغَاف ؟ » .. ولم يزد على ذلك !

نقول — إن خلوّ القرنين الأولين للإسلام من تلك الدراسات القرآنية التى تتصل بإعجازه والكشف عن مواطن الإعجاز فيه — كان عن تهيب لمقام القرآن ، وعن حرص على البعد به عن الجدل وتنازع الآراء فى مفاهيم آياته . .

ولكن اتساع رقعة الإسلام ، ودخول كثير من غير العرب فى هذا الدين ، جعل شرح الآيات القرآنية وتفسيرها أمراً ضرورياً لأولئك الذين ليس لهم حظ من اللغة العربية يصلهم بالقرآن الكريم صلة مباشرة . . فكان أن أخذ بعض العلماء يضعون للقرآن تفسيراً للغريب من مفرداته ، أو تفسيراً كاملا لمعنى آياته ، واستخراج أحكام الشريعة منها . .

كذلك كان علم الكلام الذى ظهر فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث — كان داعية من دواعى الجدل والخلاف بين المسلمين فى أمور كثيرة تتصل بالعقيدة ، وقد كان القرآن الكريم محل نظر المتكلمين وخصومهم . . فيما يجادلون فيه ، ويختلفون عليه . .

---

(١) مقدمة كتاب المبانى ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة يوسف : آية ٣٠

ومن هنا فقد أصبح النظر فى القرآن نظراً متعمقاً فاحصاً دارساً مقلّبا وجوه الرأى ـ أمراً لا مناص منه للعلماء ، وأصحاب الرأى بين مختلف المذاهب والطوائف ..

« وإعجاز القرآن » مسألة من تلك المسائل التى دار حولها الجدل والخلاف .. وكان « النظام »[1] وهو رأس المعتزلة ، وعمدة فى المتكلمين — أول من قال فى إعجاز القرآن ، وجعل من هذا الإعجاز أمراً يتصل بالعقيدة . . فقال فى هذا : « إن العرب لم يعجزوا عن معارضة الله ، وإنما صرفهم الله عن تلك المعارضة » !

ومنذ ظهر هذا الرأى الذى نادى به « النظام » وأنظار العلماء متجهة إلى البحث فى إعجاز القرآن ، وإقامة الأدلة لهذا الإعجاز .

وقد رأينا الجاحظ يعرض فى مؤلفاته لموضوع الإعجاز ، ويتحدث عن نظم القرآن الذى وقع به الإعجاز ، كما يتحدث عن وجه آخر من وجوه الإعجاز ، وهو « الصرفة » التى قال بها من قبل أستاذه « النظام » !

وكان كل هذا الذى قيل فى الإعجاز من «النظام» أو الجاحظ أو غيرهما لا يعد دراسة موضوعية — كما يقولون — للإعجاز ، وإنما هو أشبه بالخطرات العارضة ، لا يقف عندها أصحابها وقوفاً طويلا ، ولا يتوفرون عليها زمنا يتاح لهم فيه الإحاطة بها من جميع جهاتها . . وإن كان التاريخ يذكر أن « الجاحظ » ألف كتابا فى الإعجاز باسم « نظم القرآن » إلا أن هذا الكتاب لم يقدر له الحياة مع الناس فضاع فيما ضاع من كتب الجاحظ وكثير غيره من علماء المسلمين ، فى موجات الفتن والأحداث التى نزلت بالمجتمع الإسلامى . وعلى هذا فلا يكون حسابنا مع الجاحظ إلا على ما بين أيدينا من آثاره .

---

(١) هو أبو اسحق ابراهيم بن سيار النظام . . شيخ الجاحظ وأحد رءوس المعتزلة . . توفى ٢٢٤ هـ .

الخطابى أول من فى الميدان :

وإذ صرفنا نظرنا عن هذا الذى ليس بين أيدينا شىء منه من رسائل الإعجاز فلنا أن نقول إن أول من نراه فى هذا الميدان هو « الخطابى » الذى تصدى لهذا الأمر ، وواجه مسألة الإعجاز مواجهة مباشرة ، فألف فيها رسالة سماها : « بيان إعجاز القرآن » . وهى تقع فى نحو أربعين صفحة من القطع الكبير [(١)]

وها نحن أولاء نلتقى مع « الخطابى » فى رسالته تلك ، وننظر فيما يمد إلينا يده به من ثمرات .

مع بيان إعجاز القرآن «للخطابى»

يبدأ الخطابى رسالته بالكشف عن السبب الذى من أجله لم يلتق الناس عند رأى فى الوجه أو الوجوه التى بها كان القرآن معجزاً .

فيقول الخطابى فى هذا :

« قد أكثر الناس الكلام فى هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رىّ ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز فى القرآن ، ومعرفة الأمر فى الوقوف على كيفيته » .

فالخطابى يرى أن سبب خلاف الناس فى الرأى حول وجوه الإعجاز فى القرآن . لأن ذلك أمر متعذر فى حقيقته ، لأنه ليس مما يواجه النظر ، أو يقع فى مجاله ، وإنما هو مما يستشعر بالقلب استشعاراً ، ويلمح بالبصيرة لمحا . .

هذا هو سبب الخلاف بين الناظرين فى إعجاز القرآن .. اختلفوا فى سلامة الأجهزة التى يتعاطون بها النظر إلى القرآن ، فاختلفت مُعطَيات القرآن لهم،وبهذا اختلفت مقولاتهم فيه .

---

(١) طبعت ضمن : ثلاث رسائل فى الإعجاز بتحقيق الأستاذ محمد خلف الله وزميله .

وهـذا في رأينا — أصدق نظر يُنظر به إلى الإعجاز ، من حيث أنه أمر لايخضع لمقاييس العلم ، وإنما هو مما يستجيب لمناجاة الروح . ولمحات البصيرة !!

الاختلاف فى الإعجاز :

أما الإعجاز فى ذاته فلا خلاف فيه ، إذ كان أمره أوضح من أن يختفى منـه شىء على ناظر ينظر إليه . . من أى اتجاه كان !

يقول الخطابى :

« فأما أن يكون قد نَقَبت فى النفوس نَقبةٌ بكونه معجزاً للخلق ، ممتنعاً عليهم الإتيانُ بمثله ، على حال — فلا موضع لهـا » .

ثم يدلل على ذلك فيقول :

« والأمر فى ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن نَدُلّ عليه بأ كثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذى نحن فيه » . .

«وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد تحدّى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، وانقطعوا دونه ، وقد بقى النبىّ صلى الله عليه وسلم مدة عشرين سنة[1] مظهراً لهم النكير ، زارياً عليهم أديانَهم ، مسفها آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب ، فهلكت فيها النفوس ، وأريقت المهج ، وقُطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

« ولو كان فى وسعهم أو تحت أقدارهم ، لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ،

(١) الذى عليه الرأى أن تلك المدة هى ثلاث وعشرون سنة ، وهى مدة نزول القرآن ، من مبعث النبى إلى يوم وفاته .. ولعل الخطابى إذ يحصر فترة التحدى بعشرين سنة إنما يبدؤها بالوقت الذى نزلت فيه أول آية صريحة بالتحدى ، وطبيعى أن ذلك كان بعد مبعث النبى ، بمدة ، وبعد نزول قدر مناسب من القرآن . .

ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة[١]، ولم يكونوا تركوا السهل الدَّمِث[٢] من القول، إلى الحَزْن الوعْر من الفعل . . هذا مالا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذو لب .. وقد كان قوم قريش خاصة موصوفين برزانه الأحلام ، ووفارة العقول والألباب ، وقد كان فيهم الخُطباء المصاقع ، والشعراء المُفْلِقون ، وقد وصفهم الله تعلى بالجدل واللَّدَد ، فقال سبحانه :

« مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »[٣]

وقال سبحانه :

« وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا »[٤]

«فكيف كان يجوز على مثل[٥] العرب ـ ومجرى العادة ، مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة — أن يُغفلوه ، ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأن يضربوا عنه صفحاً ، ولا يحوزوا الفَلْج والظفر فيه — لولا عدم القدرة عليه ، والعجز المانع منه ؟ .

« ومعلوم أن رجلا عاقلًا لوعطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك على نفسه ، وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه ، وهذا بيّن واضح لا يشكل على عاقل»[٦] .

وأنت ترى أن هذا الرأى الذى يقول به « الخطابى » فى الاحتجاج لوقوع الإعجاز قد سبقه الجاحظ إليه ، وجاء به على أتم صورة وأكملها . .

---

(١) الفواقر : جمع فاقرة، هى الداهية الشديدة لأنها تكسر فقر الظهر. والمبيرة المهلكة التى لاتبقى على شىء .

(٢) الدمث : بفتح الميم ، وبكسرها وسكونها : اللين

(٣) سورة الزخرف : آية ٥٨ (٤) سورة مريم : آية ٩٧

(٥) فى الأصل «قول» وهو تحريف . (٦) الصفحة الأولى والثانية من الرسالة

بماذا وقع الإعجاز ؟ :

ثم يأخذ الخطابى — بعد هذا — يعرض الآراء التى قيلت فى الوجوه التى أعجز بها القرآن العرب ، وأسقط رايتهم فى معركة التحدى !

إنكار الإعجاز بالصرفة :

وينكر الخطابى هذا الرأى الذى يقول : إن الإعجاز كان من قبيل الصرفة .. ثم يسقطه من حساب المعجزة ، والإعجاز . . يقول :

« وذهب قوم إلى أن العلة فى إعجازه — القرآن — الصرفةُ ، أى صَرْف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورا عليها ، غير معجوز عنها ؛ إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجا عن مجارى العادات — صار كسائر المعجزات . فقالوا ـ أى القائلون بالصرفة ـ : « ولو كان الله عز وجل بعث نبيًّا فى زمان النبوات ، وجعل معجزته فى تحريك يده أو مد رجله فى وقت قعوده بين ظهرانى قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال :

« آيتى أن أحرك[1] يدى ، أو أمدّ رجلى ، ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلى . . والقوم أصحاء الأبدان ، لا آفة بشىء من جوارحهم . . فحرك يده ، أو مدّ رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ـ كان ذلك آية دالةً على صدقه . . وليس يُنظر فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبىّ ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجارى العادات ، ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها . . »

ويردّ الخطابى على هذا الذى يقول به القائلون بالصرفة . . بقوله :

---

(١) فى الأصل أخرج ، وهو تحريف لا يستقيم معه أول العبارة مع آخرها .

«وهذا أيضاً قريب[١] ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه . وهى قوله تعالى :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ ، ولو كان بَعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا »[٢] .

« فأشار فى ذلك إلى أمرٍ طريقُه التكلف والاجتهاد ، وسبيلُه التأهبُ والاحتشاد . . والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدلّ على أن المراد غيرها . . والله أعلم » .

والخطابى يرى فى الصورة التى عرضها القائلون بالصرفة والتى صوّروا بها المعجزة — أن هذه الصورة يمكن أن تقوم عليها المعجزة الحسية التى تتحدى قوى البشر ، فيجىء النبىّ بمعجزة تمسك ألسنتهم عن الكلام يوما أو أياماً . . أو ما شابه ذلك — أما معجزة القرآن فهى لا تتحدى قُوَى الناس فى الجانب المادى المحسوس ، ولكنها تتحدى الملكات العقلية والطاقات النفسية والروحية الكامنة فيهم ليقولوا كلاما كهذا الكلام . . وما عطل الله من العرب ملكاتهم العقلية ، ولا حبس طاقاتهم النفسية والرّوحية ، بل كانوا يتكلمون ويجادلون ، ويَهجُون ، وما أحسوا يوما أنهم فقدوا شيئاً من البيان الذى كان يجرى على ألسنتهم[٣]

هل جانب الإعجاز بما فى القرآن من أخبار غيبية ؟

ولا يرضى الخطابى هذا الرأى أيضاً .

يقول : « وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما تضمنه من الإخبار عن

---

(١) أى التصوير للمعجزة ووقوعها على نحو هذا ، ممكن . . ولكن ذلك فى المعجزة المادية التى تظهر فى واقع الحس متحدية القدرة الإنسانية . . أما فى القرآن فجاءت المعجزة فيه على غير هذا كما أشرنا الى ذلك فى مواقف كثيرة من هذا الكتاب .

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٨

(٣) انظر فى هذا مبحث : « الإعجاز بالصرفة والرد عليه » فى هذا الكتاب .

الكوائن فى مستقبل الزمان » . . نحو قوله سبحانه : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ فى أدْنىَ الأرضِ ، وهم مِنْ بَعدِ غَلَبِهم سيَغْلبون . . فى بضع سنين[١] »وكقوله سبحانه «قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قومٍ أُولِى بَأسٍ شديدٍ[٢] » ونحوهما من الأخبار التى صدّقت أقوالُها مواقعَ أكوانها .

ويردُّ الخطابى على هذا بقوله :

« ولا يُشَكُّ فى أن هذا وما أشبهه من أخباره — نوعٌ من إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن .

« وقد جعل الله — سبحانه — فى صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لايقدر أحد من الخلق على أن يأتى بمثلها . . فقال :

« فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادعُوا شُهداءَكُم من دونِ اللهِ . . إنْ كنتم صَادِقين »[٣] .

من غير تعيين ، فدلّ على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه » .

هل الإعجاز فى النظم الذى انفرد به القرآن ؟

يرى « الخطابى » أن إعجاز القرآن إنما كان باللفظ والمعنى معاً . . أى بهذا الأسلوب من النظم ، الذى جمع بين أفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمّنا أصح المعانى .

فالصورة البيانية بجميع عناصرها كيان واحد ، هو « نظم القرآن » ، وهو الذى أعجز العرب عن القيام له ، والوقوف إزاءه .

---

(١) سورة الروم : آية ١ — ٢

(٢) سورة الفتح : آية ١٦

(٣) سورة البقرة : آية ٢٣

وفى هذا يقول « الخطابى » :

« ذهب الأكثرون من علماء النظر ، إلى أن وجه الإعجاز — فى القرآن — من جهة البلاغة .. لكن صعب عليهم تفصيلها، وصَغَوْا[1] فيه إلى حكم الذوق».

فالخطابى يرى هنا أن عجز العلماء عن الوقوف على إعجاز القرآن، والكشف عن وجه هذا الإعجاز إنما كان لأنهم احتكموا فى هذا إلى أذواقهم ووجداناتهم، ولم يحتكموا إلى الرأى والمنطق .

وهذا الذى يعدّه الخطابى مأخذاً على العلماء قعد بهم عن الوصول إلى بيان الإعجاز — نراه نحن الطريق الذى لا طريق غيره للكشف عن بعض أسرار الإعجاز فى القرآن،إذ ليس هذا الإعجاز مما يؤخذ بالمقايسة والنظر بقدر مايُستَشفّ بالشعور والوجدان . .

ثم يقول بعد هذا :

«والتحقيق أن أجناس الكلام مختلفة،ومراتبها فى درجات البيان متفاوتة.. فمنها الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز المطلق المرسل .. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود .. فالأول أعلاها ، والثانى أوسطها ، والثالث أدناها وأقربها » .

ونحن لا نوافق الخطابى على رأيه هذا فى الترتيب الذى رتب فيه درجات الكلام ، فجعل الرصين الجزل أعلاها ، وجعل الفصيح القريب السهل فى درجة دون هذه الدرجة ..

فهذا الإطلاق فى تفضيل الرصين الجزل دائماً على الفصيح القريب السهل .. لا يستقيم أبداً مع البلاغة ، ولا يجىء على شرطها ، وهو المطابقة لمقتضى الحال ..

---

(١) أى استمعوا الى ما يمليه عليهم الذوق .

فليس الرصين الجزل محموداً فى مقام يقتضى اللين والسهولة ، كما أن اللّين السهل ليس محموداً فى حال تقتضى الرصين الجزل ..

وفى القرآن الكريم البيان الكاشف الشافى لهذا ..

ففى مقام الوعيد والتهديد تأتى آيات القرآن هادرة مدوية كأنها الصواعق ، تنخلع لها قلوب الجاحدين المعاندين ..

استمع إلى قوله تعالى :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ .. إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ، وَأَكِيدُ كَيْداً ، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ، أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً »(١) .

وفى مشهد من مشاهد القيامة حيث يساق المجرمون مصفدين بالأغلال ، تجد آيات الكتاب الكريم تدفعهم دفعاً إلى هذا العذاب الأليم :

« خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ . . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ .. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ .. لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ »(٢) .

فإذا كان المقام مقام رحمة ، ولطف ، ورضى .. فما نسيم الصَّبا تسرى بعد وقدة الهاجرة بأروح منها للنفس ، وأطيب على القلب .. وما نغبة من سلسبيل بارد فى يوم قائظ ، على ظمأ لاهث ، بأنقع منها للصدى ، وأبرد على الكبد ..

---

(١) سورة الطارق : آية ١١ – ١٧

(٢) سورة الحاقة : ٣٠ – ٣٧

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »(١) .

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ، وَمُبَشِّراً ، وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِرَاجاً مُنِيراً ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ، وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً »(٢) .

فهذا مقام ، وذاك مقام ، وهذا مقال ، وذاك مقال . . ولكل مقام مقال كما يقولون ، أو لكل مقال مقام كما يمكن أن يقال ! ثم يقول الخطابى بعد هذا :

« فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادّين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة يعالجان نوعاً من الذُّعُورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه ، مع نبوّ كل منهما عن الآخر فضيلةً خُصّ بها القرآن ، ليكون آية بينةً لنبيه صلى الله عليه وسلم » .

ثم يأخذ الخطابى بعد هذا فى عرض الرأى الذى ارتضاه رأياً له فى إعجاز القرآن ويكشف عن الوجه الذى قدّر أنّ عجز العرب عن تحدّى القرآن قد جاء منه . فيقول : « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور . . منها : أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها، وهى ــ أى الأسماء ــ ظروف المعانى، ولا تدرك

(١) سورة المطففين : آية ٢٢-٢٦ (٢) سورة الأحزاب : آية ٤٥-٤٨

أفهامُهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تَتكمّل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المنظوم التى بها يكون ائتلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتواصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله .

« وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم .

« وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة » .

ثم يقول بعد هذا : « واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعانى . . من توحيد لله عزّت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته . . من تحليل ، وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ ، وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعًا كل شىء منها موضعه الذى لا يُرى شىء أولى منه ، ولا يُرَى فى صورة العقل أمر أليق منه . . مُودَعا أخبارَ القرون الماضية ، وما نزل من مَثُلاتِ الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئًا عن الكوائن المستقبلة عليه ، فى الأعصار الباقية من الزمان ، جامعًا فى ذلك بين الحجة والمحتجّ له ، والدليل والمدلول ، ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . . »

ثم يقول بعد هذا أيضا :

«ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم ، وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قُدَرهم . . فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أومناقضته فى شكله . . ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكره ،

يقولون مرة : « إنه شعر » ، لمّـا رأوه كلامًا منظومًا ، ومرة « سحر » إذ رأوه معجوزا عنه ، غير مقدور عليه .

« وقد كانوا يجدون له وقعًا فى القلوب، وقرعًا فى النفوس يريبهم ويحيرهم..»[١]

ويلفتنا من قول الخطابى هنا ما يشير إليه من هـذا الأثر القوى للقرآن على القلوب ، وهذا السلطان الآسر على النفوس . . يجدها من يستمع إلى القرآن أو ينظر فيه . .

فهذه الهيمنة التى يأخذ بها القرآن قارئه ، ويستولى بها على سامعه ، هى سرّ مضمر فى القرآن الكريم ، لا يعرف له مأتَى ، ولا يُبصر له وجه ، وإنمـا هو روحٌ يسرى فى القرآن كما تسرى الكهرباء فى أسلاكها . فإذا اتصل متصل بالقرآن دبّ إليه من تلك الروح دبيب يسرى فى كيانه . فيملك وجدانه ، ويأسر مشاعره . . ويكون فيمن وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

« إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا »[٢] .

ثم يعرض « الخطابى » رأيه فى روعة القرآن وسطوته ، ويبسط هذا الرأى بعضَ البسط فيقول :

« قلت فى إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم :

« وذلك . . صَنيعُه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منثوراً — إذا قرع السمع خَلَصَ له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حالٍ ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى — ما يَخلُص من القرآن إليه !

(١) بيان إعجاز القرآن : للخطابى ص ٢٤ (٢) سورة مريم : آية ٥٨

« تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور . حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، وقد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرَق ، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب . . يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . . فكم من عدوّ للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه[1] » .

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز هو — فيما نرى — المعجزة القائمة فى القرآن أبدا ، الحاضرة فى كل حين ، وهى التى تسع الناس جميعا ، عالمهم وجاهلهم ، عربيّهم وأعجميّهم ، إنسهم وجنّهم . . « استمع نفرٌ من الجنّ ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرُّشدّ ، فآمنا به ، ولن نشركَ بربِّنا أحدا[2] . »

أما الوجوه الأخرى التى عرضها « الخطابى » لإعجاز القرآن فهى وجوه لا تظهر لكل ناظر ، ولا تتجلى فى كل حين .

ولكن الوجه الذى لا يخفى على أحد ، — عالم أو جاهل ، عربى أو غير عربى — والذى يصحب القرآن دائما حيث كان ، ومع من كان — هو هذه الروعة التى تطلع منه القلوب ، وتلك السطوة التى تملك النفوس ، وهذه الروحانية التى تلبس الكيان الإنسانى كله ، وتستولى على كل خالجة منه .

* * *

(١) رسالة الخطابى فى الإعجاز، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز — ص ٦٤

(٢) سورة الجن — الآيتان : ١ ، ٢

الباقلانى

ورأيه فى الإعجاز

« والباقلانى[1] » من العلماء الذين نظروا فى إعجاز القرآن نظراً مباشراً ، وهو — فيما نعلم — أول من ألف فى الإعجاز كتاباً مستقلا به ، مقصورا عليه ، إذ كان كل ما يعرف فى هذا الباب للعلماء ، كلمات منثورة فى تضاعيف كلامهم ، أو فى مقدمات تفسير القرآن .

القرآن معجزة الرسول :

يبدأ الباقلانى حديثه فى إعجاز القرآن بتقرير أن القرآن هو معجزة الرسول التى كانت بين يديه ، لإثبات نبوّته ، لمن يطلب شاهدا يشهد للرسول بدعوى الرسالة التى يدعيها . . وهو إذ يقرر هذا لا ينكر أن للرسول معجزات أخرى ، ولكن هـذه المعجزات لم تكن للتحدى ، ولا لإقامة الدليل على صدق مدّعاه من أنه رسول رب العالمين . . بل هى تكريم للرسول، وفضل من فضل الله عليه .

يقول « الباقلانى » :

« الذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوّة نبينا عليه السلام، بُنيت على هـذه المعجزة ، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة ، إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة وأحوال خاصة ، وعلى أشخاص خاصة ، ونُقل بعضها نقلا متواترا ، يقع به العلم وجوباً ، وبعضها مما نقل نقلا خاصاً، إلا أنه حكى بمشهد الجمع العظيم أنهم شاهدوه . . فلو كان الأمر على خلاف ما حكى

---

(١) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى . توفى سنة ٤٠٣ هـ

لأنكروه أو لأنكره بعضهم ، فحل محل المعنى الأول وإن لم يتواتر . . وبعضها عما نقل من جهة الآحاد ، وكان وقوعه بين يدى الآحاد !

« فأما دلالة القرآن، فهى عن معجزة عامة ، عمّت الثقلين، وبقيت ببقاء العصرين، ولزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد ! [١] » .

ما الدليل على أن القرآن معجزة الرسول ؟ :

ويأخذ الباقلانى يقيم الدليل على أن القرآن هو معجزة الرسول من منطوق آيات الكتاب نفسه . . يقول :

« فأما الذى يبيّن ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن، وبنى أمر نبوّته عليه[٢] ، سور كثيرة ، وآيات . . نذكر بعضها ، وننبه بالمذكور على غيره ، فليس يخفى . . بعد التنبيه على طريقه .

فمن ذلك قوله تعالى :

« الٓر . . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »[٣] . .

فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به ، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة » .

وهذا الذى يحتج به الباقلانى على أن القرآن معجزة لاتقوم به الحجة للقرآن وحده ، إذ كل ما أنزل الله سبحانه من كتب ؛ يقع بها الاهتداء مثل القرآن ، كما يقرر ذلك القرآن نفسه فى قوله تعالى :

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٨

(٢) كان من حق « سور » أن تقترن بالفاء لأنها جواب أما

(٣) سورة إبراهيم : آية ١ — ٢

« الم . . اللهُ لاَ إِلهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم . . نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْه ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ . . وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ »[١]

وآيات كثيرة غير هذه الآيات ، تصف التوراة والإنجيل بهذه الصفة :

« إنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ »[٢].

فليس إعجاز القرآن من هذا الوجه، وأنه يحمل الهدى والرحمة للناس . . فكل رسالات السماء قائمة على هـذا المقصد ، ثم إنها مع ذلك ليست معجزةً فى ذاتها .

ثم يقدم الباقلانى دليلا آخر يستدل به على أن القرآن هو معجزة الرسول . . وهو قوله تعالى :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ »[٣]

ثم يقول عن هذه الآية : فلولا أن سماعه إياه ــ أى القرآن ــ حجة عليه ، لم يوقفْ أمرُه على سماعه ، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة » .

وهذا يعنى أن القرآن يحمل فى آياته دلائل صدق النبىّ بما فيه من شواهد الإعجاز التى يجدها فيه من يستمع إلى آياته .

وهـذا إنما يكون للعرب وحدهم الذين يعرفون قدر البلاغة ، ويعرفون فضل ما بين كلام وكلام .

ثم يمضى الباقلانى فى الاستشهاد بكثير من آيات الكتاب على هذا النحو ، وكثير منها ليس فى مدلوله ما يُعين على تقرير المذهب الذى يذهب إليه .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١-٤

(٢) سورة المائدة : آية ٤٤

(٣) سورة التوبة : آية ٦

ثم يقول بعد هذا :

« ثم مما يدل على هذا — أى إعجاز القرآن — قوله عزّ وجل :

« وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ .. قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ »[1].

فأخبر أن الكتاب آية من آياته ، وعَلَمٌ من أعلامه ، وأن ذلك يكفى فى الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء، صلوات الله عليهم ».

ولا شك أن فى هذه الآية دلالة واضحة على أن القرآن هو معجزة الرسول .. وأنه الآية التى له .. لمن تدبّر القرآن ، ووعى ما فيه ، أو بعض ما فيه من روعة ، وسطوة ، وجلال .

ما وجه الإعجاز فى القرآن ؟

يرى الباقلانى أنه ينبغى قبل البحث فى الوجه أو الوجوه التى بها كان القرآن معجزاً — ينبغى التثبت من حقيقة القرآن ، وأنه هو الوثيقة التى يقال عنها أنها القرآن الذى نزل على محمد .. فإذا ثبت ذلك كان البحث عن مظانّ الإعجاز فى القرآن واقعًا على حقيقة مقررة ، وكان الحكم الذى يصدر بعد هذا حكمًا ، على ذى صفة واضحة ، وشخصية معروفة ..

وفى هذا يقول « الباقلانى » :

«الأصل فى هذا هو أن نعلم أن القرآن الذى هو متلوّ ، محفوظ مرسوم فى المصاحف ــ هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه هو الذى تلاه على من فى عصره ثلاثًا وعشرين سنة .

---

(١) سورة العنكبوت · آية ٥٠

«والطريق إلى معرفة ذلك ، هو النقل المتواتر الذى يقع عند العلم الضرورى به ، وذلك أنه — أى النبىّ — قام به فى المواقف ، وكتب به إلى البلاد ، وتحمّله عنه إليها مَن تابعه ، وأورده على غيره من لم يتابعه ، حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشتبه على أحد . . وحتى انتشر فى أرض العرب كلها ، وتعدّى إلى الملوك المصاقبة (١) لهم ، كملك الروم والعجم والقبط ، والحبش ، وغيرهم من ملوك الأطراف .

« ولما ورد ذلك — القرآن — مضاداً لأديان ذلك العصر كلهم ، ومخالفاً لوجوه اعتقادهم المختلفة فى الكفر — وقف جميع أهل الخلاف على جملته ، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله ، وتظاهر بينهم ، حتى حفظه الرجال ، وتنقلت به الرّحال ، وتعلمه الكبير والصغير ، إذ كان عمدة دينهم ، وعَلَماً عليه ، والمفروضَ تلاوتُه فى صلواتهم ، والواجبَ استعمالُهُ فى أحكامهم . ثم تناقله خلف عن سلف ، ثم مِثْلُهم . . فى كثرتهم ، وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى إلينا على ما وصفناه من حاله ، فلم يتشكك أحد ، ولا يجوز أن يتشكك — مع وجود هذه الأسباب — فى أنه أتى بهذا القرآن من عند الله . .

« فهذا أصل ، وإذا ثبت هذا الأصل وجوداً ، فإنا نقول إنه تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله ، وقرّعهم على ترك الإتيان به طول السنين التى وصفناها فلم يأتوا بذلك !» .

القرآن يتحدى العرب :

« والذى يدل على هذا الأصل — أى تحدّى القرآن للعرب — أنا قد علمنا أن ذلك مذكور فى القرآن ، فى المواضع الكثيرة لقوله تعالى :

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ

(١) المصاقبة : أى المجاورة ، وفى الأصل « المعاقبة » وهو تصحيف

تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [(١)] » .

وكقوله :

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ . قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » [(٢)] .

فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلا على أنه منه ـ أى من عند الله ـ ودليلا على وحدانيته . . .

ثم يقول : « فقد ثبت بما بيناه أنه تحدّاهم به ، ولم يأتوا بمثله . .

« وفى هذا أمران : أحدهما التحدى به ، والآخر أنه لم يأتوا إليه بمثل . .

« والذى يدل على ذلك ، العلمُ المتواتر الذى يقع به العلم الضرورى ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين . .

ثم يقول :

« فإذا ثبت هذا ، وجب أن يُعلم بعده أنّ تركهم الإتيان بمثله كان لعجزهم عنه ، والذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم به حتى طال التحدى ، وجعله دلالة على صدقه ، ونبوته ، وتضمّن أحكامُه استباحةَ دمائهم ، وأموالهم ، وسبى ذريتهم . . فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حُكمه ، بأمر قريب هو عادتهم فى لسانهم ، ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال ، وإكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان ، وعن تسليم الأهل والذرية للسبى ، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم، عُلم أنهم عاجزون عنها » .

(١) سورة البقرة : آية ٢٣ — ٢٤ (٢) سورة هود : آية ١٣ ـ ١٤

ويقول فى موضع آخر :

« ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، وتشتيت أسبابه ، وكان من صدّق به يرجع على أعقابه ، ويعود فى مذهب أصحابه . . فلما لم يفعلوا شيئا من ذلك مع طول المدة ، ووقوع الفُسْحة ، وكان أمره يتزايد حالا فحالا ، ويعلو شيئا فشيئا ، وهم على العجز عن القدح فى آيته، والطعن فى دلالته — عُلِمَ بيِّنا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته، ولا على توهين حجته .. وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قوم خَصِمُون ، وقال : « وَتُنْذِرُ به قومًا لُدًّا »(١) .

وعلم أيضا أن ما كانوا يقولون من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم :

« لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا .. إنْ هَذَا إلاّ أساطيرُ الأوَّلِينَ »(٢) .

وقولهم :

« ما هذا إلاّ سحرٌ مُفْتَرَى ، وَمَا سَمِعْنَا بِهذا فى آبَائِنا الأولين »(٣) .

« وَقَالُوا يا أيُّها الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لَمجنُون »(٤) .

وقالوا :

« أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُم تُبْصِرون»(٥) .

وقالوا :

« أئِنَّا لَتَارِكوا آلِهَتِنَا لِشاعِرٍ مَجْنُون »(٦) .

« وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ إفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عليه قومٌ

---

(١) سورة مريم : آية ٩٧
(٢) سورة الأنفال : آية ٣١
(٣) سورة القصص : آية ٣٦
(٤) سورة الحجر : آية ٦
(٥) سورة الأنبياء : آية ٣
(٦) سورة الصافات : آية ٣٦

آخرون . . فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »[١] .

« وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا »[٢] .

إلى آيات كثيرة فى نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين فى أمورهم ، متعجبين من عجزهم ، يفزعون إلى نحو هذه الأمور من تعليل ، وتعذير ، وموافقة بما وقع التحدى إليه ، وعرف الحث عليه .

« وقد علم أنهم ناصبوه الحرب ، وجاهروه ، ونابذوه ، وقطعوا الأرحام ، وأخطروا بأنفسهم ، وطالبوه بالآيات ، والإتيان بغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجيزه ، ليظهروا عليه بوجه من الوجوه .. .

« فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم ، وذلك يدحض حجته ، ويفسد دلالته ، ويبطل أمره ، فيعدلون عن ذلك إلى ما صاروا إليه من الأمور التى ليس عليها مزيد فى المنابذة والمعاداة ، ويتركون الأمر الخفيف ؟ هذا مما يمتنع وقوعه فى العادات ، ولا يجوز اتفاقه من العقلاء ! »[٣]

ثم يذهب « الباقلانى » مذهبا آخر للاستدلال على عجز العرب عن الإتيان بما تحداهم القرآن إليه .. يقول :

« ويمكن أن يقال إنهم لو كانوا قادرين على معارضته ، والإتيان بمثل ما أتى به ، لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة وهم ما هم عليه من الذرابة ، والسلاقة ، والمعرفة بوجوه الفصاحة . وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته ، وأنهم يضعفون عن مجاراته .. . ويقرعهم ، ويؤنبهم عليه ، ويدرك آماله فيهم ، وينجح مايسعى له بتركهم المعارضة ..

---

(١) سورة الفرقان : آية ٤ — ٥ (٢) سورة الفرقان : آية ٨

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٧ وما بعدها

« وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه — أى شأن القرآن — وتفخيم أمره، حتى يتلو عليهم قوله تعالى :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا »[1] .. وقوله: « يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاّ أَنَا فاتَّقُونِ »[2] وقوله: « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمِ »[3] وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ »[4] . وقوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ »[5] . وقوله: « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »[6] وقوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتابًا مُتَشابِهًا ، مَثانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ »[7] .

إلى غير ذلك من الآيات التى تتضمن تعظيم القرآن .. وذلك مما يدعوهم إلى المباراة ، ويحضهم على المعارضة ، وإن لم يكن متحدّيا إليه»[8] .

بهذا ونحوه يقيم « الباقلانى » الحجة على أن القرآن قد أعجز العرب ، حين لم يقم له أحد من شعرائهم أو خطبائهم أو حكمائهم يعارضه بمثل سورة من سوره ، أو عشر سور ولو مفتريات ، كما كانوا يصفون مافى القرآن من أخبار وقصص بقولهم : « إن هذا إلا إفك افتراه » .

وهذا المنحى الذى نحاه الباقلانى يكفى دليلا لمن أراد أن يقع على دليل لإعجاز

---

(١) سورة الإسراء : آية ٨٥
(٢) سورة النحل : آية ٢
(٣) سورة الحجر : آية ٨٧
(٤) سورة الحجر : آية ٩
(٥) سورة الزخرف : آية ٤٤
(٦) سورة البقرة : آية ٢
(٧) سورة الزمر : آية ٢٣
(٨) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٣٠

القرآن .. فما عليه حينئذ إلا أن يرجع إلى القرآن نفسه فيرى فيه مواقع التحدى التى أعلن العربَ بها ، وتحداهم فيها .. ثم كرر ذلك فى أزمنة متفاوتة .. ولو وقع شىء من المعارضة التى تردّ هذا التحدى لما كان للقرآن وجه يلقاهم به متحديا مرة ، ومرة ، ومرات ![1] .

إن القرآن ـ وقد ثبت تاريخيا ـ أنه أصدق ، وأدق وثيقة حفظت على التاريخ ، وتظاهرت جميع صور الحفظ على الإمساك بها وصيانتها .. من كتابة فى الصحف ، وحفظ فى الصدور . وتلاوة دائبة ليلا ونهارا فى الصلاة والتعبد به ، ومراجعة لآياته فى معرفة أحكام الشريعة .. إلى نظر أهل الكتاب والكفار فيه الوقوع على سقطة ، والعثور على عثرة — إن القرآن — وهذا شأنه — يشهد شهادة قاطعة ، مثبتة فى آيات متعددة منه ، ومتفرقة فيه — بالتحدى ، ثم بالعجز عن القيام لهذا التحدى ..

هذه حقيقة لا يجادل فيها أحد ، ولا ينكرها أحد من خصوم الإسلام ، بل ومن أشدهم عداوة له .. إذ كانت أكبر من أن تنكر ، وأظهر من أن تخفى أو يشوش عليها بجدل أو سفسطة !

فمن أراد أن يعرف معجزة الرسول فهى القرآن الكريم .

ومن أراد أن يقيم الدليل عليها .. فهذا هو الدليل .. مثبتاً فى صدر القرآن ..

أما من أراد أن يعرف وجه الاعجاز أو وجوهه . فذلك شأن آخر يحتاج إلى علم بأساليب البيان ، وتمكن من فنّ القول . . وإلى وجدان سليم ، وحس مرهف . .

ثم يَلْقى بهذا كله القرآنَ الكريم ، ويردد النظر فى آياته .. هنالك يجد الإعجاز الذى أعجز العرب قاطبة ، وتحدى الإنس والجنّ جميعًا !

---

(١) لعلك تذكر من هذه الآراء أن الجاحظ هو الذى فتق أكمامها ، وصور وجوهها (انظر رأى الجاحظ فيما مضى من هذا الكتاب) .

ماذا عند « الباقلانى » من وجوه الإعجاز ؟ :

والباقلانى ليس مؤسساً لهذه الآراء التى يقول بها هنا فى وجوه الإعجاز ، وليس هو الذى كشف عن هذه الوجوه وأقام الشواهد لها، ونصب الأدلة إليها. بل هو مسبوق إلى هذه الآراء ، وهو يصرح بأنه إنما يحكى أقوال من سبقه من العلماء فى هذا الميدان . . ولكن الرجل — مع هذا — نظر فيما نظر إليه غيره ، ورأى فيما يَنقُل من رأى . . ويحصر « الباقلانى » هنا وجوه الإعجاز فى أمور ثلاثة اشتمل عليها القرآن ، وبها جميعها وقع الإعجاز ، وقامت المعجزة .

يقول الباقلانى :

« ذكر أصحابنا وغيرهم[1] فى ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز . .

أحدها : الإخبار عن الغيوب ، وذلك مما لايقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه .

فمن ذلك ماوعد الله تعالى به نبيّه عليه السلام من أنه سيُظهِر دينَه على الأديان بقوله عزّ وجلّ :

« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكونَ »[2] . . ففعل ذلك !

« وكان أبوبكر إذا أغزى جيوشَه عرّفهم ماوعدهم الله من إظهاردينه، ليثقوا بالنصر ، ويستيقنوا بالنُّجح . . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يفعل كذلك فى أيامه .. .

---

(١) لعل بالمراد بأصحابه أهل السنة وبغيرهم أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى من شيعة ، ومعتزلة .

(٢) سورة الصف : آية ٩

ثم يذكر الباقلانى ما فتح الله على المسلمين ، وما دخل فى دولتهم من ممالك ودول .

ويذكر بعد هذا من أنباء الغيب التى جاءت فى القرآن قوله تعالى :

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ ، وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ »(١).

فصدق فيه . . وقال فى أهل بدر :

« وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ »(٢) .

«ووفى لهم بما وعد . وجميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب يكثر جداً ، وإنما ننبه بالبعض على كل .

الوجه الثانى :

« أنه كان معلوما من حال النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان أمّيًا لا يكتب ، ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم ، وأنبائهم ، وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع ،وما حدث من عظيات الأمور ، ومهمات السير ، من حين خلق آدم عليه السلام إلى حين مبعثه .

الوجه الثالث :

نظم القرآن

وفى هذا يقول الباقلانى :

« فهو بديع النظم عجيب التأليف متناهٍ فى البلاغة إلى الحد الذى يُعلم عجز

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٢

(٢) سورة الأنفال : آية ٧

الخلق عنه . . والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التى أطلقوها . . » .

ثم يأخذ الباقلانى بعد هذا فى الكشف عما فى « نظم القرآن » من آيات الإعجاز . . وهى كما تبدو له تتجلى فيما يلى :

١ — ما يرجع إلى الجملة — أى جملة القرآن كله :

وفى هذا يقول الباقلانى :

« من ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد .

« وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدَّل المسجع ، ثم إلى معدَّل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة ، وإفهام المعانى المعترضة[1] على وجه بديع وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل ، ولا يتصنع له .

«وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق .. ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شىء منه ، وكذلك ليس من قَبيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى أن فيه شعراً كثيراً . . فهذا إذا تأمله المتأمل تبين له خروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم وأنه خارج عن العادة ، وأنه معجز . . وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميُّز حاصل فى جميعه .

(١) أى المطلوب عرضها .

٢ — ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة ، والغرابة والتصريف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة . . على هذا الطول ، وعلى هذا القدر .

« وإنما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ، يقع فيها الاختلال والاختلاف ، والتعمل ، والتكلف ، والتجوز ، والتعسف .

« وقد حصل[1] القرآن على كثرته وطوله متناسباً فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عزّ من قائل :

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ، كِتَابًا مُتَشَابِهًا ، مَثَانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلودُهُمْ وقلوبهم إلى ذِكْرِ اللهِ »[2] .

« وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً »[3] .

« فأخبر أن كلام الآدمى إن امتدّ وقع فيه التفاوت ، وبان عليه الاختلاف .

« والقرآن فى عجيب نظامه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين . . على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها ، من ذكر قصص ، ومواعظ ، واحتجاج ، وحِكم ، وأحكام ، وإعذار ، وإنذار ، ووعد ، ووعيد ، وتبشير ، وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها .

« ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المُفلِق ، والخطيب المِصْقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور . . فمن الشعراء من يجوّد فى المدح دون الهجو ، ومنهم

---

(١) أى جاء

(٢) سورة الزخرف : آية ٢٣

(٣) سورة : النساء : آية ٨٢

من يبرز فى الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجوّد فى التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يُغرب فى وصف الإبل والخيل ، أو سير الليل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو وصف الخمر ، أو الغزل ، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ، ويتداوله الكلام . . ولذلك ضُرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب . .

« ومتى تأملتَ شعر الشاعر البليغ رأيتَ التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها .. فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى ، فإذا جاء إلى غيره قصّر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره .

« وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حدّ واحد ، فى حسن النظم ، وبديع التأليف والوصف .. لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا !

« وكذلك تأملنا ما ينصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حدّ واحد لا يختلف !

« إن المعانى التى تتضمن أصل وضع الشريعة ، والأحكام والاحتجاجات فى أصل الدِّين ، والرد على الملحدين ، إذ تجىء على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة — مما يتعذر على البشر .

« ويمنع ذلك أنه قد عُلِمَ أن تخيّر الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهلُ وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة . فلو وَجَد أبرع اللفظ فى المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر المتصور . . ثم إن انضاف إلى ذلك التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييدَ ما يُبتَدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بأن التفاضل فى البراعة والفصاحة .. ثم إذا وُجدت الألفاظ وَفق المعانى ، والمعانى

وفقها لايفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر ، والفصاحة أتم .

٤ — أن الـكلام يتبين فضله ، ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الـكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف مابين شعر، فتأخذه الأسماع، وتتشوّف إليه النفوس، ويُرى وجه رونقه باديا ، غامراً سائر ما يُقرن به .. كالدرّة التى تُرى فى سلك من خرز ، وكالياقوتة فى واسطة العقد .

وأنت ترى الـكلمة من القرآن يُتمثّل بها فى تضاعيف كلام كثير .. فإذا هى غرةُ جبينه ، وواسطة عقده ، والمنادي على نفسه بتمييزه وتخصصه برونقه ، وجماله ، فى جنسه ومائه »[1] .

هذه بعض الاعتبارات والخصائص التى يراها « الباقلانى » فى نظم القرآن، وفى استوائه بها على مقام التحدى والإعجاز ، وهى آراء كما قلنا مسبوق بها ، نجدها مثبوتة فى كتب الجاحظ.. والذى يجعل « للباقلانى » ولـكتابه : « إعجاز القرآن » مكاناً يستحق الحمد له فى هذا المجال أنه أكثر من استدعاء الشواهد الأدبية من شعر ونثر ، وعرضها عرضاً جيداً ، له قيمته فى خدمة البحث ، وإلقاء أضواء كثيرة كاشفة له .

والذى يؤخذ عليه فى هذا الصنيع أنه استكثر من الشواهد الأدبية استكثاراً طغى على موضوع البحث ، وجار على الجهد الذى كان ينبغى أن يبذل فى النظر لاستخراج معطيات جديدة لا تزال مضمرة فى نظم القرآن .

الباقلانى وذوق القرآن :

ولا نظن أننا نظلم « الباقلانى » إذا قلنا إنه مع ما فى قلبه من يقين راسخ

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ـ الجزء الأول ص ٥٢ وما بعدها

فى إعجاز القرآن ، وفى سقوط أفصح كلام وأبلغه إذا أريد له أن يصعد إلى قمم القرآن العالية ، وأن يرتفع من الأرض إلى السماء — لانظن أننا نظلمه إذا قلنا إنه حين يرد موارد القرآن ويستقى من ينابيعه لاتسعفه قدرته أن يحمل شيئاً يعتد به من روائع القرآن ، وعجائبه ، ولا أن يقع على دلائل الإعجاز اللائحة منه فى كل نظر يمتد إليه !

« فالباقلانى » إذا عرض لآية من آيات الكتاب سال بيانه متدفقاً بالمديح والثناء على كل حرف ، وكل كلمة ، وكل عبارة فى الآية .. فهى أفصح كلام ، وأروع بيان ، وأحلى قول ، وأجمل صورة .. دون أن يشير إلى موطن الفصاحة ، ولا إلى مكان الروعة والجمال .. وهكذا يلقى كل آية بما لقى به غيرها .. من تلك العبارات المحفوظة المرددة .

يقول مثلا :

« تأمل قوله تعالى : « فَالِقُ الإِصْبَاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »[1] .

ثم يقول — بعد أن دعاك إلى أن تتأمل ، وتملأ عينيك من جمال الحق وجلاله فى هذه الآية — يقول : « انظر إلى هذه الكلمات الأربع — أى مقاطع الآية : فالق الإصباح — وجعل الليل سكناً — والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم — التى ألف بها ، واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره .. أليس كل كلمة منها فى نفسها غرة ، وبمفردها درة ؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى فى بهجة القدرة ، ويتحلى بخالصة القوة ، ويجمع السلاسة إلى الرصانة ، والسلامة إلى المتانة ، والرونق الصافى ، والبهاء الضافى .. !

« ولست أقول : شمل الإطباق المليح ، والإيجاز اللطيف ، والتعديل والتمثيل ،

---

(١) سورة الأنعام : آية ٩٦ .

والتقريب والتشكيل ، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه . لأن العجيب ما بيّنّا من انفراد كل كلمة بنفسها ، حتى تصلح أن تكون عين رسالة ، أو خطبة ، أو وجه قصيدة أو فقرة ، فإذا ألفت ازدادت حسناً ، وزادتك إذا تأملت معرفة وإيماناً»[١].

وهذه الأوصاف التى يصف بها الباقلانى الآية الكريمة ومقاطعها وإن كانت بعض ماينبغى أن توصف به ، إلا أنه كان ينبغى أن يُكشف أولا عن مواطن الحسن والروعة فى الآية ، وأن يشار إلى مدلول كل الصفات التى اتصفت بها . . فمثلا .. كان ينبغى أن يكشف عن بعض أسرار هذا التخالف فى التعبيرين المتعاطفين فى قوله تعالى :

« يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ »[٢] .

فقد جاء التعبير بلفظ الفعل فى إخراج الحى من الميت ، على حين جاء بلفظ اسم الفاعل فى إخراج الميت من الحى . . فما السر فى هذا ؟

وتنظر فى الآية الكريمة : « إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى . . يُخْرِجُ الحىَّ من الميت ، ومخرج الميت من الحىِّ » .

فترى أن قوله تعالى : «فالق الحبّ والنوى» يشير إلى حياة متولدة متجددة تتفجر من هذا الجماد . . « الحبّ والنّوى » . . فإذا أنت قرأت قوله تعالى :

« إن الله فالق الحبّ والنّوى . » وجدت تلك المواليد الحية منطلقة من عالم الموات إلى عالم الحياة ، ووجدتها ماثلة أمامك ، شاخصة إليك من قوله تعالى :

« يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ » !

« إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى . . يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ »[٣] .

هذه صورة تعرضها الآية عن بعض قدرة الله وحكمته .. موات تنطلق منه الحياة !

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى الجزء الثانى ص ٥٦ .

(٢) ، (٣) سورة الأنعام : آية ٩٥

ثم هناك صورة أخرى تقابل هذه الصورة ، وهى إخراج الميت من الحى . فالله سبحانه وتعالى : فالق الحبّ والنوى . . ومخرجُ الميت من الحىّ » .

فقوله تعالى : « مخرج الميت من الحى » معطوف على قوله سبحانه « فالق الحب والنوى » . . وتكون الجملة التى بينهما وهى قوله تعالى : « يخرج الحى من الميت » جملة كاشفة وشارحة لقوله سبحانه : « فالق الحب والنوى » .

هذا وجه من وجوه النظر الذى كان ينبغى أن ينظر فيه إلى الآية . .

وكذلك فى قوله تعالى : « فَالِقُ الإِصْبَاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا . . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

فى هذا التخالف بين المتعاطفين : « فالق الإصباح . وجعل الليل سكناً » نظر لناظر .

فلماذا لم يجىء النظم على وجه واحد فكان يقال مثلا « فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً » أو : « فلق الإصباح ، وجعل الليل سكناً » ؟

ولكن هكذا كان نظم الحكيم العليم !

وإنك لتلمح فى هذا النظم القرآنى الإعجاز فى كلة من كلمات الكتاب الكريم بل فى حرف من كلة . . بل فى حركة منها . .

ففى موازين هذا النظم الربانى تجد فرقا شاسعا بين : فالق وفلق . . وبين : جعل وجاعل .

« فالق الإصباح »

فى هذا التعبير باسم الفاعل « فالق » دلالة على التجدد والاستمرار . . وهذا من شأنه أن يمثل لأعيننا ، وفى خواطرنا ، صورة تنطلق منها صورة لا تنتهى . . تشاهد فيها قدرة الله سبحانه ، قائمة على كل شىء . .

إنه ليس إصباح واحد هو الذى فلقته القدرة الإلهية ، ثم تركته يغدو ويروح فى الحياة . . ولكنه إصباح يولد كل يوم . . يحيا ، ويموت ، ويموت ، ويحيا ، وهكذا أبدَ الدهر . . وقدرة الله هى القائمة عليه فى كل حال . . تحييه وتميته ، وتميته وتحييه !

وانظر كيف تذهب كل هذه المعانى ، لو أن النظم جاء هكذا : «فلق الإصباح» إنك لا ترى إلا صُبحاً واحداً يطل على الحياة .. يغيب ثم يظهر ، ويظهر ثم يختفى ، وهو هو لا يتغير وجهه ، ولا يتغير الزمن حوله .. والصبح — كما تعلم — مولد الحياة ، تتدفق منه الحياة عن كل حىّ كان ساكنا هامداً .. فإذا الأحياء وقد بُعثوا جميعاً ، ينتشرون فى الأرض ، ويبتغون من فضل الله .. ولهذا جاء التعبير عن شروق الصبح « بالفَلْق » الذى يدل على حركة وانشقاق وتصدع ، كما تنشق الأرض وتتصدع لتخرج النبات . . كما يقول الله سبحانه :

« فَلْيَنظُرِ الانسانُ إلى طَعامِه . أَنَّا صَبَبْنا الماء صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنا الأَرضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَعِنَباً »(١) .

أما التعبير بالفعل « جعل » فى قوله تعالى :

« وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا ، والشَّمْسَ وَالْقَمرَ حُسْبانًا » .

فإنه النظم المناسب لحال تلك الأكوان التى خلقها الله سبحانه وتعالى وأقامها فى الوجود مقاما واحداً لا يختلف فيه يومها عن أمسها أو غدها . .

إن التعبير بالفعل يدل على أن هذا الأمر المتولد عنه قد وجد على الوضع الذى أوجده الله سبحانه عليه ، فلا تجدد ولا تبدل .. فالليل ساكن خامد .. والشمس والقمر قد عرضا هنا فى معرض « وظيفى » حيث يعرف الناس من وجهيهما عدد السنين والحساب ..

---

(١) سورة عبس : الآيات ٢٤ — ٢٧

فكان التعبير عنهما وعن الليل الساكن الخامد بالفعل « جعل » الذى يدل على مجرد الخلق — أنسب تعبير لهذا المقام .. فما الليل ، وما الشمس والقمر فى هذا العرض إلا أكوان قائمة على أداء وظائف محددة ثابتة لا تعدوها ..

« جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا » .

وفى كل موضع ورد فيه الفعل « جعل » فى القرآن كان على هذا المعنى لمجرد « الجعل » و « الخلق » :

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »[1] .

« تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا . وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »[2] .

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ . فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً »[3]

وهكذا .. لا يراد من الفعل هنا إلا الدلالة على مجرد وجود الشىء على الصورة التى وُجد عليها ، ولأداء « الوظيفة » التى خلق لها .

أرأيت ؟ وإنك لترى عجباً من آيات القدرة والحكمة !

ثم انظر بعد هذا :

فلقد جاء قول الله تعالى : « فالق الإصباح » بعد قوله سبحانه : « فالق الحب والنوى » وبعد أن كشفت لك هذه الآية الكريمة عما وراء « فلق » الحب والنوى من حيوات تتفجر ، وتفيض من هذه الأشياء الميتة — « الحبّ والنّوى » — حين تنفلق وتنشق بيد القدرة القادرة !

فإذا أنت استقبلت — بعد هذا — قوله تعالى : « فالق الإصباح » وجدت تلك المعانى التى انكشفت لك من قوله تعالى : « فالق الحب والنوى » حاضرة تشير لك إلى ما كنت فيه منذ قليل ، من مشاهد الحياة والموت ، والموت والحياة ..

---

(١) سورة الأنعام : آية ٩٧ (٢) سورة الفرقان : الآيات ٦١ و ٦٢

(٣) سورة الإسراء : آية ٢١

فترى فى حضرة هذه المشاهد الحياة المتدفقة من « تفاق » الإصباح ، والهمود الساكن الساجى من سكون الليل ! « فالق الحب والنوى . . يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى . . . . فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً . . »

وانظر مرة أخرى إلى : « فالق الحب والنوى » و « فالق الإصباح » تر « الإصباح » فى مواجهة « الحب والنوى » ! إنه ليس صبحاً . . ولكنه « إصباح » . . هو جنين مضمر فى أحشاء الليل ، أو هو ليل يستجنّ فى أحشائه « إصباح » فإذا انفلق هذا « الإصباح » لاح الصبح وظهر !! .

فالذى يُفلَق هنا هو «الإصباح» لا الليل ، كما أن الذى يُفلَق هناك ، هو الحب والنوى ، لا القشرة التى تغطى الحبة والنواة .

« الإصباح » هو الجنين الذى يضمره الليل فى أحشائه ، فإذا فلقته يد القدرة تفجر منه الضوء ، وانتشر النور وطلع النهار !

والحب والنوى هو جنين الحياة التى تضمرها الثمرة أو القشرة فى جوفها ، فإذا فلقته يد القدرة انطلقت منه الحية ، وطلع منه الزرع ، والزهر والثمر ! !

وبعد ، فهل انتهى النظر إلى غايته مما وراء هذه الآية الكريمة من أسرار ؟ إننا — مع ما نشعر به من ضعف فى هذا الموقف ، الذى لسنا من أهله — نجد فى كل نظرة ننظرها إلى الآية الكريمة شيئاً جديداً لم يلح لنا من قبل .. فكيف لو كان فى هذا المقام من هو أحدُّ منا نظراً وأجلى بصيرة ؟ !

لماذا لم تجىء هذه الآية على نسق الآية التى سبقتها . . فيقال : « فالق الاصباح والليل » كما قيل من قبل : « فالق الحب والنوى » . . فيكون فى هذا تجانس وتقابل وتوازن . . فكما يولد النهار من الليل ، يولد الحى من الميت ، وبهذا تتم المقابلة بين الآيتين : « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى » يقابلها « فالق الإصباح والليل » بمعنى : يخرج النهار من الليل ، ويخرج الليل من النهار !

هكذا يبدو ظاهر الأمر ، مسوّى على تلك الصورة التى يبدو فيها التطابق والتوافق .

إن ذلك منطق النفس البشرية حين تعيش على الأرض وتسعى بين مغمورها ومعمورها .

أما حين يراد لها أن ترُود معالم الحق ، وأن تنزل منازل النور فإنه يتنزل عليها من آيات الله ما يرفع خسيسها ، ويحيى مواتها ، ويبعث أشواقها إلى الملأ الأعلى !

« فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا »

« فالفلْق » لا يكون إلا عن ولادة ، ولا ينجلى إلا عن حياة ! . . إصباح يلد صبحا ، وصبح يسفر عن نهارٌ ، وحياة وحركة دائبين فى الوجود ، ساريين فى الكائنات .

« والجعل » فعل جامد ، وصيرورة مغلقة . . لاشىء بعد الحدث الذى يجىء من إحداث الفعل . . « جَعْلٌ » هـذا لامعقبات له . . ليلٌ . . وسكون وهمود !

أفتريد مزيداً من معطيات هذا الحرف ؟

إن هناك أسراراً كثيرة لاتزال مخبوءة . . تنتظر من ينظر ويعقل !

فعد إلى الآيات ، وجدّد لك نظراً فيها وستجد على النور هدى !

* * *

ثم يعود « الباقلانى » فيدعونا مرة أخرى إلى النظر والتأمل فى آية أخرى ! يقول :

ثم تأمل قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »[1] .

---

(١) سورة يس : الآيات ٣٧ ـ ٣٩

ويعلق على هذا بقوله : « تجد كل لفظة ، وترى كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع ، وتتضمن شرط القول البليغ . . فإذا كانت الآية تنتظم القول البديع ، وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت حدّ المعهود ، ولا تجوز شأو المألوف ؟ وكيف لا تحوز قَصب السبق . ولا تتعالى على كلام الخلق[1] !؟ »

أهذا كل ما يمكن أن يقال فى مواجهة هذه الروعة ، وفى لقاء هذا الجلال ؟ . .

أين وجوه الحسن فيها ؟ وأين أمارات الإعجاز منها ؟ وأين أين المحجّب من أسرارها ، والمكنون من جواهرها ؟

ولست بمستطيع أن أملأ عينى من هذا النور المتدفق من كلماتها وحروفها . . ولا أن أدير عقلى وراء كل هذه المعانى اللائحة منها . . فإن هذا يقتضينى أن أنصرف عن هذا البحث الذى أعالجه ، وأن أصرف الجهد كله ، والوقت كله مع هذه الآيات الثلاث لقضاء بعض حقها ، والوفاء ببعض فضلها . .

وحسبى إذن أن أقف عند كلمة أو كلمتين منها . !

الآية التى نتحدث عنها . . الآية هنا هى « الليل » .

« وآيةٌ لهم الليل . . . »

فالحديث هنا عن الليل ، باعتباره نعمة من نعم الخالق على عباده . . فهو سكَنٌ للكائنات ، وسكون للأحياء !

« وَآيةٌ لَهُمُ اللَّيْل نسلخ منه النهار فاذا هُمْ مُظْلِمُون » .

ونقف عند كلمة « نسلخ »

« الليل نسلخ منه النهار » .

والسلخ فى اللغة بمعنى قَشْرِ الشىء عن الشىء وكشطه ، كما يُسلخ لحاء الشجرة ، وكما يسلخ الجلد من الحيوان ؟

(١) إعجاز القرآن للباقلانى — الجزء الثانى ص ٥٦

والليل والنهار هما صفحتا وجه واحد .. جانب مضىء ، فهو نهار ، والجانب الآخر مظلم ، فهو ليل !

وانظر فى حركة الليل والنهار على ضوء ما أصبح اليوم حقيقة ثابتة ، وهى دوران الأرض حول الشمس .

انظر فى هذه الحركة وافعل مايفعله تلاميذ المدارس ، واستحضر الجهاز الجغرافى الذى يحمل الشمس والأرض .. ثم أدر هذا الجهاز ، فتتحرك الأرض وتدور حول الشمس ، فى حركة دائرية .. تقطعها فى يوم كامل .. نهار وليل .

ماذا ترى ؟

إنك تلاحظ أن الجانب المضىء من الأرض ينسلخ منه النور شيئاً فشيئاً ، وجزءاً جزءاً .. هكذا أبداً مع دوران الأرض الدائب حول الشمس !

إن أى جزء يظلم من الأرض إنما أظلم بعد أن انسلخ منه النور الذى كان يغمره .. فلا ظلام ، ولا ليل إلا مع حركة الأرض ، وإلا مع انسلاخ النور الذى كان يغطى وجه هذا الجزء .. !

هذه حقيقة كونية أصبحت اليوم بديهية من بديهيات العلم النظرى والعملى معاً !

وحقيقة أخرى .. وهى أن النور يسبق الظلام ، والنهار متقدم على الليل !

وهذه الحقيقة قد قررتها الآية التى تلى هذه الآيات مباشرة ، وهى قوله تعالى : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابقُ النهار .. وكلٌّ فى فَلَكٍ يسبحون » !

ثم انظر ما وراء هذا « السلخ » ! سلخ النهار من الليل .

ظلام .. هو الليل .. وهمود ، وسكون .. .

كذلك .. سلخ الجلد من الحيوان ..

همود وسكون .. هو همود الموت وسكونه !

إذ الجلد هو موضع الحساسية في الكائن الحي . فإذا انسلخ الجلد فلاحياة — كذلك لو سلخ لحاء النبات لمات .

وأكثر من هذا ..

الشيء المنسلخ .. فيه هذا التشابه .. هنا وهناك .

فالنهار .. كان مسرح حياة وحركة للأحياء !

والجلد .. كان موطن الحساسية والشعور في الحيوان . !

ولعلك تسأل بعد هذا :

إن النهار إذا انسلخ من الليل خلف ظلاماً

والجلد إذا انسلخ من الحيوان أيخلف ظلاماً أيضاً ؟

ونعم .. ! أفلا ترى انطفاء جذوة الحياة في هذا الحيوان أو الشجر المسلوخ؟

وهل بعد هذا الظلام ظلام ؟

وكلمة أخرى .. هي « العرجون القديم » !

والعرجون هو العذق الذي يحمل سباطة البلح في النخلة !

وهو لا يكون على استقامة أبداً ، إذ أن ثقل مايحمل من ثمر يجعله دائماً مقوساً معقوفاً ، وهو إذا قدم ويبس اكتسب لونا أدكن أشبه بلون الشفق عند الغروب ! ..

فإذا أنت نظرت في القمر عندما يكون في المحاق ، في آخر ليلة من الشهر ، أو أول ليلة من شهر جديد . تجده هو وهذا العرجون سواء في مرأى العين !

ولابن « الرومي » بيت يضرب به المثل في دقة الوصف وبراعة التشبيه ، في «وصف الهلال » :

يقول ابن الرومى :

وانظر إليه كزورق من فضّة قد أثقلته حمولة من عنبر

إنه هو هذا القمر الذى صار محاقاً .. والذى يقول فيه القرآن الكريم :
« حتى عاد كالعرجون القديم » !

وفى أساتذة الأدب المتحدثين ، أو المجددين من إذا وقع على تشبيه ابن الرومى والتشبيه الذى جاء به القرآن — فكر وقدّر .. ثم نظر .. ثم عبس وبسر .. ثم خرج على قومه فقال : انظروا .. الأدب الحضارى ، وما يحمل فى كيانه من ألوان المدنية ، وشواهد الحضارة ؟ وانظروا الخيال الصحراوى البدوى؟ ماذا يعطى غير ما فى البادية من قحط وجدب ! ؟

هنا — مع ابن الرومى — تجدون بغداد فيما كانت فيه من ترف ، ونعمة ، ومدنية .. زوارق من الفضة، محملة بما خف حمله وغلا ثمنه .. بالعنبر .. الطيب الريح ، الثمين القدر !

وهناك .. تجدون الصحراء فى حرها وسمومها .. فى جفافها وجدبها .. « عرجون قديم » !

هكذا يبدو الأمر فيما بين التشبيهين على تلك الصورة ، عند أولئك الذين لا تزال على ألسنتهم رطانة وعجمة ، فلا تستقيم عليها لغة العرب ، ولا يحلو فيها أدب العرب ! وإن ذاقته فإنما تذوقه بعينها .. ولا ترشف رحيقة بفمها .. إنها تستخدم حاسة النظر مكان حاسة الذوق ، فلا عجب أن يختلط الأمر ، ويفسد الحكم !

وندع هؤلاء .. يتعالوْن بالجهل ، ويتعاوَوْن بالنباح فى وجه القمر .. !

وننظر فى الآية الكريمة ، وفى العرجون القديم !

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »[1] .

---

(١) سورة يس : آية ٣٩

القمر . . فى تمام طلعته ، وجلال بهائه ..

إنه لا يكون قمرا إلا وهو على تلك الصفة من التمام والكمال والبهاء !

ثم يتنقل فى منازله ليلة بعد ليلة .. فماذا يحدث ؟

إنه يتخلى كلّ يوم عن قدْر من تمامه ، وكماله ، وبهائه . .

والعِذق كذلك يتناثر عقده حبة حبة .. وتنفرط ثماره ثمرة ثمرة .. حتى لا يبقى من العقد شىء ، ولا يصبح على العذق ثمرة .. حتى هذه الخيوط التى كانت تمسك بالثمار .. قد تساقطت أيضاً .. كما انطفأت فى المحاق هذه الشعاعات التى كان يرسلها القمر ، فيطعم الناس من جناها الطيب أنسًا وروْحًا من وحشة الليل وغمرته !

لقد صار القمر عرجونا .. قديمًا ! أُكل ثمره ، وتقطعت حباله !

وأصبح العذق قمراً .. محاقاً ، انطفأ نوره .. وذهب شعاعه !

ولا أحسبك بعد هذا تأسى على زروق ابن الرومى إذا هو غاص فى الماء ، واستقر على القاع ! !

ونعود إلى « الباقلانى » فقد كدنا ننساه ، بعد أن بَعُدَ ما بيننا وبينه !

وعودتنا إلى « الباقلانى » الآن إنما هى لنستأذنه فى أن ندعه لنلتقى بغيره ..

إذ ليس عنده من جديد يحدثنا به عن إعجاز القرآن .. وكل ما يقوله بعد هذا هو كلام مكرور معاد . . ! !

* * *

عبد الجبار

رأيه فى الإعجاز

من هو القاضى أبو الحسن عبد الجبار ؟ :

هو القاضى أبو الحسن بن عبد الجبار الأَسْدَآبادى ، المعتزلى . .

كان يلقب شيخ القضاة فى عصره ، كما أنه كان رأس المعتزلة فى زمانه .

وقد سَلَّمَ له معاصروه بالتقدم والرياسة فى العلم والفقه . . وأشهر مؤلفاته كتابه « المغنى » فى أبواب التوحيد والعدل . . وهو موسوعة كبيرة . . يضم مباحث كثيرة جليلة فى التوحيد ، والفقه .

وقد ألفه على مذهب المعتزلة ، ليقيم به حجج المذهب ، وليدفع به اعتراضات المعترضين على آراء المعتزلة . .

ويقصد المعتزلة « بالتوحيد » نفى جميع الصفات عن الله سبحانه وتعالى . . كما يقصدون بالعدل ، القولَ بأن أفعال العباد مكسوبة لهم ، وأن ليس لله دخل فيها ، ولهذا وجب حسابهم عليها ، كما وجب جزاؤهم بها إن خيراً ، فخير ، وإن شراً ، فشر . . وهذا ما يقتضيه عدل الله . . كما يقولون . . !

هذا ، وقد توفى « عبد الجبار » فى مدينة الرىّ سنة ٤١٥ هـ .

رأيه فى الإعجاز :

أفرد « عبد الجبار » فى كتابه « المغنى » جزءاً خاصا للإعجاز[1] .

وهو فى هذا الجزء من الكتاب لا يلقى الإعجاز لقاء مباشراً ، بل يقدم لذلك

---

(١) هو الجزء السادس عشر من طبعة وزارة الثقافة والإرشاد .

بمباحث كثيرة تستنفد القدر الأكبر من هذا البحث .. فهو يحاول أن يقرر أولا صحة القرآن ، وتواتر نقله ، والدواعى الذى تقوم لهذا التواتر ، وتتظاهر على الاحتفاظ به كاملا بعيداً عن أى تحريف ، ثم يعقد فصولا فى البحث عن النسخ فى القرآن ، والأحكام التى يصح فيها النسخ ، والتى لا يصح أن يقع فيها نسخ .

ثم يعرض لثبوت نبوّة النبى ، ويقيم الحجج لها ..

وهنا يجد لنفسه مدخلا إلى الإعجاز ..

وهو فى هذا المدخل ينصب موازين البلاغة ، ليقيّم بها الكلام البليغ ، وليضع كل كلام بالمنزلة اللائقة به .

ما الكلام الفصيح ؟ :

والإجابة على هذا السؤال يتجه « عبد الجبار » إلى شيخه « أبى هاشم[1] » فيأخذ الجواب عنه .. يقول :

قال شيخنا « أبو هاشم » : إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحُسن معناه ..

« ولا بد من اعتبار الأمرين » .

« لأنه - أى الكلام — لو كان جزلَ اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً. فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين » .

هذا هو الميزان الذى يزن به « عبد الجبار » الكلام ، ويُدخله به مدخل الكلام الفصيح .. وهو أن يكون جزل اللفظ ، حَسَنَ المعنى ..

---

(١) أبو هاشم هو عبد السلام بن أبى على محمد الجبائى ، كان هو وأبوه من كبار المعتزلة توفى سنة ٣٢١ هـ قال صاحب الملل والنحل : والمتأخرون من المعتزلة انتهجوا طريقة أبى هاشم مثل القاضى عبد الجبار (الملل والنحل جزء ١ ص ١١١) .

ومعنى هذا أن بلاغة الكلام ليست من جهة النظم وحده ، ولا من جهة المعنى وحده أيضاً ، وإنما هى فى معنى كريم ، فى لفظ كريم !

وسنرى لذلك شرحاً طويلا عند عبد الجبار .

النظم المخصوص ، وأثره فى البلاغة :

ثم يعرض « عبد الجبار » للأسلوب الذى يجىء عليه نظم الكلام . . وهل لهذا الأسلوب أثر فى فصاحة الكلام وبلاغته ؟

ويؤذننا «عبد الجبّار» بأنه سيحدد موقفه من الرأى القائل بأن إعجاز القرآن إنما هو فى هذا النظام الفريد الذى جاء عليه . . فهو ليس مما تعهد العرب من أساليب القول المتداول بينها .. إنه ليس شعراً ، وليس نثراً منثورا مرسلا ، ولا سجعاً ملتزما . وإنما هو قرآن بنى على آيات فصلت تفصيلا .. كل آية تختم بفاصلة ، ليست قافية شعر ، ولا مقطع سجع .

يقول « عبد الجبار » :

« وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ..

« لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر .. والنظم مختلف . إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة .

« وقد يكون النظم واحداً ، وتقع المزية فى الفصاحة .. فالمعتبر ما ذكرناه ، لأنه الذى يتبين فى كل نظم ، وكل طريقة .. .

ثم يقول : « ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة فى النظم دون الفصاحة التى هى جزالة اللفظ ، وحسن المعنى »[1] .

فالفصاحة — فى رأى عبد الجبار — التى انفرد بها القرآن تقوم على جزالة

(١) المغنى جزء ١٦ ص ١٩٩

اللفظ ، وحسن المعنى أولا ، فإذا جاء ذلك فى نظم فريد لم يُسبق إليه ، كان ذلك ثوبا جديداً من أثواب الحسن ، يزداد بها الكلام الفصيح فصاحة وبلاغة .

أين تكون مواقع الفصاحة فى الكلام ؟ .

هذا الكلام الفصيح البليغ . . ما وجه فصاحته وبلاغته؟ وأين مظانّ الفصاحة والبلاغة فيه ؟ أفى كلماته المفردة . . من حيث سلامتها فى ذاتها وبعدها عن الغرابة والوحشية ؟ أم فى نظم هـذه الكلمات حين يُضم بعضها إلى بعض ، فيقع بينها تجانس وتناسب والتحام ؟

يجيب « عبد الجبار » على هذا فيقول :

« اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضمّ ، على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة[(١)] . .

« وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة[(٢)] التى تتناول الضم . . وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه[(٣)] . . وقد تكون بالموقع . . وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع .. لأنه إما أن تعتبر فيه[(٤)] ، الكلمةُ ، أو حركاتها ، أو موقعها .

«ولا بد من هذا الاعتبار فى كل كلمة . . ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات ، إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يوجد لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها ، وحركاتها ، وموقعها . . فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه ، إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه ، دون ما عداها » .

وواضح من هـذا أن « عبد الجبار » ينظر إلى الكلمة نظرتين باعتبارين

---

(١) المراد بالصفة هنا المعنى الذى تحمله وتؤديه مفردة ، أو مركبة مع غيرها .

(٢) أى ما تواضع عليه أهل اللغة من مفهوم خاص للكلمة .

(٣) الضمير يعود إلى الضم

(٤) أى فى مدخل هذا الضم

مختلفين : نظرة فى حال إفرادها ، ونظرة أخرى فى حال نظمها مع غيرها من الكلام . . وهى فى كلا الحالين واقعة تحت أحوال ثلاث :

أولها : مفهومها فى ذاتها ، من حيث الوضع الذى لها عند أهلها .

ثانيها : مفهومها حين تتداول عليها الحركات الإعرابية ، فتكون فاعلا أو مفعولا ، أو حالا ، أو صفة ، أو تمييزاً . . ونحو هذا .

ثالثها : مفهومها حين تأخذ مكاناً خاصاً فى الكلام . . فتتقدم، أو تتأخر . .

وإذن فالنظم هو الذى عليه المعوّل فى بلاغة الكلام ، وفصاحته ، وأن هذا النظم يدور فى مجالات ثلاث : اختيار الكلمة فى ذاتها ، ثم اختيار « الوظيفة » التى تؤديها فى مجتمع الكلمات التى ترتبط بها . ثم اختيار المكان المناسب لها، لتقوم فيه بأداء وظيفتها ، على أتم وجه وأحسنه .

ما حساب المعنى فى بلاغة الكلام ؟ :

أما المعنى فهو تبع للنظم الكلامى . .

يقول « عبد الجبار » : « إن المعانى وإن كان لابد منها — فلا تظهر فيها المزية ، وإن كانت تظهر — المزية — لأجلها — أى لأجل المعانى .

ثم يقول : « ولذلك نجد المعبِّرَيْن عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر ، والمعنى متفق . . وقد يكون أحد المعنيين أحسن وأرفع ، والمعبِّر عنه فى الفصاحة أدون .

«فهو — أى المعنى — لابد من اعتباره ، وإن كانت المزية تظهر بغيره . .

ثم يقول : «على أنا نعلم أن المعانى لايقع فيها تزايد .. فإذن يجب أن يكون الذى يعتبر ، التزايدُ[1] عند الألفاظ التى يعبربها عنها — أى عن المعانى — ..

(١) أى أن الذى يعتبر فى حساب النظم هو التزايد فى الألفاظ .

« فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال[1] الذى تختص به الكلمات ، أو التقدم والتأخر الذى يختص بالموقع، أو الحركات التى تختص بالإعراب ، فبذلك تقع المباينة .

« ولا بد فى الكلامين اللذين أحدهما أفصح من الآخر أن يكون إنما زاد عليه بكل ذلك أو ببعضه .. ولا يمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت فى معنى تكون أفصحَ منها إذا استعملت فى غيره ، وكذلك ـ الشأن ـ فيها إذا تغيرت حركاتها .. وكذلك القول فى جملة من الكلام ..

« فأما حسن النغم ، وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه يوجِدُ فضلا فى الفصاحة .. » .

وأنت ترى أن « عبد الجبار » يذهب مذهب « الجاحظ » فى الاحتفاء بالنظم، وفى جعل المعوَّل عليه فى إقامة ميزان الكلام ، وفى بلاغته وفصاحته .. وهذا كما قلنا لم يكن عن استخفاف بقدر المعنى ، أو تهوين لشأنه .. وكيف ؟ والألفاظ إنما هى خدم المعانى ، والمركب الذى تُحمل عليه إلى غاياتها من العقول والقلوب؟ وهل إذا خلت الألفاظ من المعانى تصبح شيئا له حساب وتقدير ؟ وهل هى إذ ذاك إلا أصوات جوفاء؟ .. لا فرق بين أن تنطلق من شفتين ، أو تتردد من احتكاك بين حجرين ! !

نقول : إن هذه الحفاوة بالنظم التى كانت من «الجاحظ» وغيره ممن تأسَّى به فى هذا المذهب كعبد القاهر ، وعبد الجبار — لم تكن إلا طرَفًا متطرفا فى محاربة دعوة كانت قائمة إذ ذاك على تحرير المعانى، واصطياد الأفكار الفلسفية، والغوص وراءها ، حتى إذا وقعت فى مجال الفكر لكاتب أو شاعر أخرجها فى أى ثوب

---

(١) يريد بالابدال الذى تختص به الكلمات، ما يكون من اختيار كلمة بدل كلمة لأداء المعنى المناسب ، وذلك فى الكلمات المترادفة ، أو المتقاربة المعنى

من اللفظ، سواء جرى فى ذلك على أوضاع اللغة ، وسلك مسالك أربابها ، أم تعثر بيانه ، واضطرب نظمه . . إذ كان المعنى هو همّه ووكْده وغايته . .

وهنا نَجَمَ خطر كاد يتهدد الأسلوب العربى ، ويذهب ببهائه ، ورونقه وطلاوته وكاد — لو استمر به الزمن — أن يَخرج جملةً عن الصياغة العربية ، ويقطع الصلة بين ماضى اللغة وحاضرها . . وهذا معناه ضياع التراث العربى من جهة ، ثم طمس معالم الطريق إلى القرآن من جهة أخرى . . !

لهذا حمل الجاحظ هذه الحملة القوية على هذا الاتجاه الجديد ، فكان منه هذا التحامل على المعنى ، والاستخفاف به ، على حين احتفى بالنظم هذا الاحتفاء البالغ الصارخ . . ولولا هذا التدبير البارع لما وقف المتجهون إلى هذه الوجهة الجديدة عند حد . . ولذهبوا فيه إلى أبعد مدى . . ثم لأصبحت اللغة العربية أثراً بعد عَيْن ، ولأخذها الزمن بما أخذ به كثيراً غيرها من اللغات التى درست ، وذهبت آثارها ومعالمها .

اعتراض ! :

ثم يورد « عبدالجبار » بعد هذا اعتراضاً ربما كان يحكّ فى صدرِ مَن نظر فى رأيه السابق الذى قرر فيه : أن مزية البلاغة والفصاحة إنما هى من جهة النظم — يورد هذا الاعتراض . . فيقول :

« إذا كانت لغة العرب عندكم حاصلة بالمواضعة والاختيار ، فهلا جاز منهم — أى العرب — أن يتواضعوا على ما يزيد على هـــذا القدر من الفصاحة فى الرتبة ؟ » .

يريد عبد الجبار أن يقول على لسان هـذا المعترض : إذا كانت اللغـة وليدةَ مواضعة بين أربابها .. فهلاّ كان من هذه المواضعة ، المواضعةُ على القدر الذى

يكون به الكلام بليغاً فصيحاً ، ثم المواضعة على ما يكون به أبلغَ وأفصح .. وهكذا .

ومعنى هذا .. أن المُورد لهذا الاعتراض يطلب أن تقوم اللغة فى مفرداتها ونظمها على مواضعات أشبه بمواضعات العلوم الرياضية مثلا ، بحيث يُضبط بها كل لون من ألوان البيان ، وكل منزلة من منازل البلاغة ..

ومعنى هذا أيضاً : أن يكون فن القول علماً يكتسب اكتساباً ، لا يدخل عليه شىء من جانب الإنسان .. من وجدانه ، أو عاطفته ، أو مشاعره .. ولا يكون بين إنسان وإنسان فضل إذا تساوى حظهما من هذا العلم .. كما لا يكون بين إنسان وإنسان فضل فى حلّ مسألة رياضية إذا عرفا القواعد التى يُرجع إليها فى حلها ..

ورد الاعتراض :

وهنا يتصدى «عبد الجبار» لتنفيذ هذا الاعتراض ودفعه فى قوة، وتمكّن .. ببصيرة نافذة ، وعقل مستنير فاقه ، أديب . فيقول :

« إنهم — أى العرب — إذا لم يفعلوا ذلك[١] . . ووقعت مواضعتهم على هذا الحد[٢] . . فيجب ألا يمتنع فيه ـ أى الكلام ـ المزية ، حتى يظهر المعجز فى القرآن وغيره . . سواء قلنا : إنه قد كان يصح أن يتواضعوا على أزيد من ذلك فى الفصاحة ، أو كان لا يصح . . وسواء قلنا : إن اللغة توقيف أو مواضعة . . »

---

(١) أى لم يتواضعوا على صور الكلام ، ووجوهه المختلفة .

(٢) أى وقفوا بالمواضعة على ذات الكلمة المفردة ، والصفات التى تلحقها فى حالات إعرابها ، وتأخيرها أو تقديمها فى النظم . .

ثم يقول : « على أن هـذا السائل — أى المعترض — ظن أن المزية فى الفصاحة إنمـا تـكون بأصل المواضعة ، وليس الأمر كذلك ، لأن ما يبلغ من الكلام فى الفصاحة النهاية لا يخرج عن أن يكون من جملة اللغـة ، كما أن ما دونه لا يخرج عن أن يكون من جملتها . . وإنما تتبين زيادة الفصاحة لا بتغير المواضعة ، لـكن بالوجوه التى ذكرناها[1] . . وهـذا كما نعلم من حال الثياب المنسوجة ، إنمـا تتفاضل بمواقع الغزل ، وكيفية تأليفه ، وإن كان غزل الجميع لا يتغير . . »

ثم يقول :

« وهـذا القول يُسقط قول من يقول : إذا كانت اللغـة ثابتة بالمواضعة ، فجوّزوا أن تقع المواضعة من قوم على ما يزيد عليها فى الفصاحة حتى يُعرف المقدار ، أو يمـاثله . . وإذا صح ذلك فمن أين أنه معجز ؟ لأنا قد بينا أنه لا معتبَر بتغير المواضعات ، وإنمـا المعتبَر بمواقع الـكلام ، وكيفية إيراده » .

يريد « عبد الجبار » أن يقول : إنه لا إعجاز للقرآن ، ولا تفاضل بين الكلام ، إذا كان هناك إلى جانب الوضع اللغوى ـ مواضعةٌ على الأداء والتعبير ، وطرق نظم الكلام ـ إذ المتكلمون حينئذ على طريق واحد ، قد رُسم لهـم من قبل فساروا فيه ، وصار نطقهم بالـكثير من الـكلام أشبه بنطقهم بالـكلمة الواحدة ، لا فضل لأحـد على أحد فى مقام النطق بها .. فـكلمة : شجرة ، أو كتاب ،

---

(١) يشير الى تلك الصفات التى تجرى على الـكلمة المتواضع عليها حين تقع مواقع مختلفة من النظم . . باختيار أختها دونها ، أو باختيار الوظيفة التى تؤديها فى النظم بأن تـكون فاعلا ، أو مفعولا ، وحالا ، أو تمييزاً ، أو مبتدأ أو خبراً لمبتدأ ونحو هذا . . أو باختيار مكانها من النظم وهى قائمة على وظيفتها المختارة لهـا . .

أو جبل . . لا تتغير مفاهيمها بين فم وفم . . لأن الناس قد تواضعوا على قيمتها ، ودلالتها ، فلا تخرج بحال عن هذا المفهوم الذى لها . . كذلك يكون الحال فى جملة الكلام إذا كانت المواضعة قد شملته ، فأصبح لكل معنىً القالبُ اللفظى الموضوع له ، بحيث لا يستطيع أحد الخروج عليه ، أو إدخال صنعة فيه ، بل ينقله من محفوظه اللغوى نقلا ، كما يستدعى الحقائق العلمية التى أودعها ذاكرته !

ولو أن هذا الوضع جرى على الكلام فى أحوال نظمه ، وصور أدائه لما كان هناك مزية لإنسان على إنسان ، فى أداء صورة من صُوَره ، لأن كل إنسان إنما يستدعى صورة محددة متفقاً عليها بالمواضعة من قبل . . !

الجانب الذاتى فى الإنسان وأثره فى النظم

ويكشف « عبد الجبار » هنا عن الأثر الذاتى للإنسان فى نظم الكلام ، لأداء المعنى الذى يقع فى نفسه . .

فالإنسان إذ يقع لنفسه خاطر من الخواطر ، أو معنى من المعانى يستدعى له من الكلام ما يناسبه ، ويخرجه من عالم اللامحسوس إلى عالم الحس مصوراً فى كلمات . . وهنا تخرج المعانى مختلفة الصور والألوان باختلاف الناس فى إدراكهم المعنى ، وتفاعلهم به ، وقدرتهم على التقاطه وتصويره وعرضه فى معرض من الكلمات الملفوظة أو المكتوبة !

يقول « عبد الجبار » :

« قد علمنا أن مع حضور الكلام قد يختلف الاختيار فى المتخيَّر ، بحسب التجربة والعادة .

« فلابد مع العلم بالكلمات — وذلك فى حدود الوضع اللغوى — من أن تتقدم للمتكلم هذه الطريقة فى نفسه ، وفى غيره ، ليعرف مواقع جمل الكلام

إذا تألفت ، فيفصل بين ما يأتلف من كلمات مخصوصة ، وبين ما يأتلف من غيرها ، ويعرف الطرائق فى هذا الباب .

ثم يقول :

« ولابد مع ذلك من محاضرة مايعلمه . .

«لأنه قد يجوز أن يتساوى الرجلان فى المعرفة وأحدهما أقوى محاضرة من الآخر ، وإن كان الذى يقصر عنه مثله فى العلم ، أو أزيد ، لكنه يحتاج ـ فيما نعلم ـ إلى تثبيت وفكرة .

فلا بد ـ مع الوجه الذى ذكرناه ـ إلى قوة المحاضرة ، ولهذا الوجه يتفاضل العلماء بذلك ، فيصح من بعضهم من الخطب والشعر ما لا يصح من غيره ، وإن كان فى العلم ربما ماثل أو زاد .

ثم يقول أيضاً :

« ولابد مع كل ما ذكرناه من تأييد وإلطاف يرد من قبل الله تعالى ، ولذا نجد المتكلم يروم طريقة فى الفصاحة ، فتقرب عليه مرة ، وتبعد أخرى ، وحاله فى العلم لا تكاد تختلف !

«وإنما كان كذلك لأن لطائف هذه الأمور تحصل بغالب الظن ، وإن كان ظاهرها يحصل بالعلم . .

«لأن الله تعالى لم يقرر فى العقول العلوم الضرورية بهذه اللطائف ، وإنما قرر فيها العلوم بالجمل ابتداء ، أو عند الممارسة » .

ونقف من كلام « عبد الجبار » هنا عند قوله : « لأنه قد يجوز أن يتساوى الرجلان فى المعرفة وأحدهما أقوى محاضرة من الآخر» .

فالمحاضرة التى يعنيها «عبد الجبار» هى حضور المعنى فى النفس، وانفعالها به، وفحصها له فحصاً يفصل بين الرغوة والصريح منه .

ولا شك أن الناس يختلفون اختلافاً كبيراً فى هذا ، بحيث يكاد لا يلتقى إنسان مع إنسان فى درجة الإحساس بالمعنى ، والانفعال به .

ونقف أيضاً عند قوله : « لأن الله تعالى لم يقرر فى العقول العلوم الضرورية بهذا اللطائف . . » .

فهو فى هذا القول يكشف عن حقيقة الفن القولى ، وحقيقة الفنون . . الجميلة كلها .

فالفن القولى ، والفنون الجميلة كلها أيضاً ليست مما يكتسب بالتحصيل وحسب ، وإنما يقوم إلى جانب التحصيل والمعرفة الجهد الإنسانى الذاتى ، الذى يفيض عليها فيضاً من وجدانه وينفخ فيها نفخة من روحه .

فإذا كان العلم والمعرفة يقيمان الصور والأشكال فى محاريب الفنون ، فإن هذه الصور وتلك الأشكال ستظل صوراً خامدة جامدة ميتة إذا هى لم تحمل من نفس خالقها ومصوّرها بعضاً من وجداناته وعواطفه، وإن هى لم تتلق من روحه نفحة من نفحات الحياة ، تحيا بها زمناً ، أو تخلد بها على الزمن !

المعجزة القرآنية امتداد لما انتهى إليه جهد العرب من البلاغة :

وبعد أن انتهى «عبد الجبار» من تقرير هذه الحقيقة، وهى أن نظم الكلام يقع فيه التفاوت بحسب علم الناس بمواضعات اللغة ، ثم بما فى نفوسهم من استعدادات ذاتية موهوبة غير مكتسبة ــ بعد أن انتهى من هذا وصل إلى نتيجة كان يمهد لها هذا التمهيد الطويل ، وهى أن النظم القرآنى قد جاء على هذا الاتجاه

الذى يتفاضل فيه الكلام ، ويتقدم بعضه على بعض . . ثم حيث انتهت غايات البيان العربى ، وحيث لم يكن للبلغاء والفصحاء مذهب وراء هذا — أخذ القرآن الكريم راية البيان وسار بها أشواطاً بعيدة .. وأرباب البلاغة والبيان واقفون مشدوهين مأخوذين ، كأنما أمسكت الأرض بهم ، لا يتحركون قِيدَ أُنملة ، يدخلون بها على هذا الحمى ، الذى لا تقوم بينهم و بينه حواجز أو حوائل !

يقول «عبد الجبار» بعد أن ذكر معجزات موسى وعيسى ، وأنها جاءت على سَمْت أقوامهم ، وفى اتجاه منازعهم التى كانوا يتجهون إليها — يقول — :

« وعلى هذا الوجه أجرى الله تعالى عادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أن خصّه بالقرآن ، الذى هو مشاكل لصناعتهم وطريقتهم ، غير خارج عن الأمر الذى يشتد به اهتمامهم ، ويقوى له افتخارهم ، وتظهر فضائلهم ومحاسنهم ، لكى تقل الشُّبَه للعارف المقدَّم ، فيعرف أضرار المباينة ، والأَتْبَاع ، فيعرفون بعجز الرؤساء منهم ، مع توافر الدواعى ، مثل ما يعرفه ذوو البصيرة منهم ، وتقوى دواعيهم إلى النظر حالا بعد حال ، من حيث لا يغيب عن الأسماع على طول الدهر ، ولدخوله فى جملة الباب الذى يقع منهم فيه التنافس .. ولأن وجه الإعجاز فيه لا يتغير على الأيام ، كما أن شريعته لا تزول على الأوقات » .

هل يصح التحدى بالكلام وفصاحته ؟

ويعقد « عبد الجبار » فصلا طويلا يحاول أن يجيب فيه على هذا السؤال : هل يصلح الكلام أن يكون مادة للتحدى ؟ وإذا صلح فهل يتسع هذا التحدى لقيام معجزة ؟

وكأن « عبد الجبار » يريد بهذا أن يكشف شبهة ربما قامت فى بعض العقول ،

وهى « الإعجاز بالـكلمة » .. إذ ما عُرف من المعجزات قبل القرآن كان يقوم على أشياء مادية محسوسة ، تتحدى قوى الناس جميعها ، فتبهرهم بأفاعيلها ، وتخرسهم بآثارها وأعاجيبها.. أما أن يكون الـكلام مادةللتحدّى فذلك مالم يعهده الناس قبل القرآن ، ولم يتصوّروا وقوعه فى الحياة يوماً من الأيام .

يقول « عبد الجبار » : « إن الـكلام الفصيح مراتب ونهايات ، وإن جملة الـكلمات ، وإن كانت محصورة — فتأليفها يقع على طرائق مختلفة من الوجوه.. فتختلف لذلك مراتبه فى الفصاحة ، فيجب ألا يمتنع أن يقع فيه التفاضل ، وتَـبَاين بعض مراتبه من بعض ، ويزيد عليه قدراً يسيراً أو كبيراً . .

« وما هذا حاله ، فالتحدى صحيح فيه .. لأن فيه مقادير معتادة تصح فيها زيادات فى الرتب غير معتادة ، وصار ذلك فى بابه بمنزلة مقادير معتادة ، تصح فيها زيادات فى مراتب غير معتادة ..

« فـكما صح فيما حلّ هذا المحلّ التحدّى به ، فـكذلك القول فيما ذكرناه فى الـكلام . » (١)

يريد « عبد الجبار » أن يقول : يقول : إن الـكلام الفصيح مراتب ، يعلو بعضها بعضاً ، أشبه بالمقادير المحسوسة يزيد بعضها فى جنسه على بعض ، وهى بهذا صالحة لأن يُتحدّى بها ، وذلك كأن يكون المعتاد أن يحمل الناس ماوزنه قنطاراً أو قنطارين ثم يجىء إنسان بمعجزة من عند الله يستطيع أن يحمل بها جبلاً مَثَلا .. فهذه معجزة لا شك فيها .. وكذلك الـكلام ومراتبه . . فإن المجال الإنسانى مدى يتحرك فيه بيانه ، وتجرى فيه بلاغته .. وإذ كان الـكلام فى هذا المجال

(١) المغنى ص ٢١٤

درجات ومنازل ، فإنه من الممكن أن تـكون هناك منزلة لا تنالها قدرة النـاس بحال أبداً .

وفى هذا يقول عبد الجبار أيضاً :

« إن الفصاحة فى الـكلام معقولة ،وأنها تتفاضل،ويكون لها رتب ، ولا تمتنع الزيادة فيها — أى فى هذه الرتب — وأن يكون ذلك الزائد خارجا عن طرق العادة ، كالأفعال العظيمة » (١)

ثم يقول :

« يَبِينُ من ذلك أن أحدنا قد يفعل بعض الأفعال بآلة ، ويصير وقوعه بلا آلة خارجاً عن العادة ، وقدرُ الفعل لا يختلف ، ولهذا صار فلق البحر معجزاً ، لأنه تفريق بلا آلة ، ومثله لا يقع منا إلا بآلة

فالمهم فى المعجزة هى أن تفارق المعتاد من أفعال الناس، وأن تتجاوزه ، وإن كان من جنس ما تعمل قدراتهم فيه »

هل يعتبر الأسلوب الذى جاء عليه نظم القرآن وجهاً من وجوه إعجازه؟

وهنا يورد « عبد الجبار » رأياً من الآراء التى قيلت فى الإعجاز ، ثم يفند هذا الرأى ، ولا يرتضيه وجهاً من وجوه الإعجاز .. يقول :

« فإن قال — قائل — : هلاّ صح التحدى بالقرآن من حيث اختُصَّ بنظم لم تجر العادة بمثله ، لأن الذى كان يعتاده القوم، الشعر ، وما يجرى مجراه . . والخطب ، وما شاكلها من الـكلام المنثور ، فجاءهم بطريقة فى البيان خارجة عما اعتادوه ؟

(١) المغنى ص ٢١٥

قيل له : إنما الغرض أن نبين وجهاً يصح التحدى عليه بالقرآن ، والتقريع بالعجز عنه . .

« والذى قدمناه قد صح [١] ، فإن ثبت ما ذكرته لم يؤثر فيما ذكرناه ، بل يؤكده ، لأنه يزيد فى الوجه الذى يصح عليه التحدى ، وكلما كانت وجوه صحته أكثر ، فهو أبين فيما أردناه .. لكنا نعلم بأن الأمر بخلاف ما ذكرته ..

« لأن من سبق إلى الشعر أولا ، لا يجب أن يكون الذى أتى به داخلا فى الإعجاز ، وإن كان قد اختص بنظم غير معتاد .. لما كان المتعالم [٢] من حال الغير أنه يساويه فى ذلك ، فلم يكن بالسبق اعتبار دون أن ينضاف إليه ما ذكرناه ، من تعذر مثله على غيره ، وخروجه عن المعتاد .

« ولو كان السبق إلى الشعر من باب الإعجاز لكان كل وزن منه ، وكل بحر بقتضى الإعجاز ، ولصح ادّعاء الإعجاز فى كل زمان بابتداع وزن مخالف لما جرت به العادة . .

« فإذاً بطل ذلك.. من حيث لا فرق بين المعتاد من الأمور وبين ما يتمكن الناس من فعله على حدّ العادة ، لأن كلا الوجهين سواء ، فى أن التساوى والاشتراك فيه يمكن .

وإنما يدلّ على النبوة ما يخرج عن طريق العادة فى الوقوع والتمكن . . فكيف يصح اعتبار السبق فى هذا الباب ؟ » [٣]

ثم يقول :

---

(١) يشير الى ما سبق أن قرره من أن إعجاز القرآن كان بتجاوزه الحدود الإنسانية فى البيان .
(٢) أى المعلوم والمعروف المعهود .
(٣) المغنى ص ٢١٧ .

« وليس لأحد أن يقول : إذا كان السبق إلى الشيء مما لم يتقدم وقوعُ مثله، فيجب أن يكون معجزاً ، لأن المعتبر هو بما يخرج عن العادة ، ولا يمكن لأهل تلك العادة فيه المساواة والمشاركة !

« ولو أن ذلك كذلك لوجب فى ابتداء العادات أن يكون من باب الإعجاز ، حتى لا ينفصل حاله من حال انتقاض العادة . . وقد بينا فساد ذلك من قبل » .

والذى يريد أن يقرره « عبد الجبار » هنا هو أن السبق إلى الشيء والمجيء به على غير مثال يعرفه الناس لا يعدّ معجزة ، ولا يدخل فى باب الإعجاز ، لأنه وإن كان جديداً على الناس ، خارجاً على مألوفهم ، إلا أنه واقع تحت قدرتهم ، وأنه لا يلبث طويلا حتى يكون للناس مشاركة فيه ، بل وفى إكمال ما فيه من نقص ، وإقامة ما فيه من عوج . . وذلك شأن جميع « المخترعات » التى تولد فى أول أمرها على يد إنسان من الناس ثم لا يزال الناس يتعهدونها بالتحوير والتبديل ، والزيادة والنقص حتى يقيموها على الوجه السليم لها . . وكذلك الشأن فى جميع النظريات العلمية والمذهبية . .

تجيء من إنسان كأنها شيء لم يعرفه الناس من قبل . . ثم إذا هى بعد قليل فى ملك الناس ، يتداولونها بينهم كما يتداولون السلع . . بيعاً وشراء .

هل يعتبر الإخبار بالغيوب وجهاً من وجوه الإعجاز ؟

ولا يرتضى « عبد الجبار » هذا الوجه أيضاً من وجوه الإعجاز ، ولا يعتدّ به فى هذا الشأن . .

وحجته فى هذا ، أن القرآن قد تحدى العرب أن يأتوا بأية سورة من مثله، من غير تخصيص ، وليس الإخبار بالغيوب واقعاً فى كل سورة ، ولأن القرآن تحدى بجملته ، لا ببعضه ، فكيف يصرف التحدى إلى مايتضمن ذلك ، دون مايتضمن الحلال والحرام ؟

ثم يقول : « ولأنه صلى الله عليه وسلم تحدّى بذلك على الطرائق المقبولة عندهم ، وفى عاداتهم،وإنما اعتادوا التحدّى فى الكلام على الوجه الذى ذكرناه[1] »

وهذا الوجه الذى يردّه « عبد الجبار » ولا يراه من إعجاز القرآن ، هو فى رأينا وجه بارز من وجوه الإعجاز ، وإن لم يكن منظوراً إليه فى وقت التحدّى ، لأن القرآن ليس معجزة موقوتة بالفترة التى نزل فيها ، ولا محصورة فى القوم الذين دُعوا إلى هذا التحدى . . وإنما القرآن معجزة قائمة على الزمن كله ، وعلى الناس جميعاً فى أجيالهم المتعاقبة .

وعلى هذا فليست روعة النظم وفصاحته ، ودقة المعنى وصحته ؛ هى كل مافى المعجزة القرآنية ، وإن كان هذا القدر منها كافياً فى التحدى لأصحاب البلاغة والبيان ، معجزاً لهم عن أن يجروا معه فى هذا الميدان . . ولكن ليس كل الناس أو كل من يعرف العربية يكون على قدر من الفصاحة والبلاغة يدرك بها مافى فصاحة القرآن وبلاغته من أسرار مذهلة معجزة . . فإذا فاته التعرف على هذا الوجه من إعجاز القرآن وجد وجوهاً أخرى معجزة ، تشير إلى الجهة التى نزل منها هذا الكتاب الكريم ، وتحدث عن صدق الرسول، وتشهد له أنه رسول رب العالمين.

فليس الإعجاز وجهاً واحداً كما تصوّره كثير ممن طلبوا مظانّ الإعجاز فى القرآن ، وإنما هو وجوه كثيرة ، تنكشف كلها أو بعضها للناظر فى كتاب الله ، وكل وجه منها معجز قاهر ، لا ينال ! !

ما وجه الإعجاز فى القرآن ؟

ونسأل بعد هذا . . ما الوجه الذى يراه « عبد الجبار » معجزاً فى القرآن ؟

إن « عبد الجبار » كما قلنا من قبل — قد جعل إعجاز القرآن فى جزالة لفظه

(١) المغنى ص ٢٢٠ .

وحسن معناه على وجه لم تبلغه بلاغة البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ولم يعتمد من وجوه الإعجاز ما ذكره العلماء من الإخبار عن الغيوب، أو الانفراد بهذا الأسلوب من النظم الذى جاء عليه ، أو ما كان عليه من الاستواء والسلامة من الاختلاف والتناقض . . فكل هذه — عند عبد الجبار — ليست مناط التحدى بالقرآن ، وإن كان لها شأن فى تثبيت دعائم الإعجاز وترسيخه فى النفوس !

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن « عبد الجبار » لم يجىء فى نظرته إلى إعجاز القرآن بشىء يخالف به رأى الجماعة الإسلامية ، وقد كان المنظور إليه من « عبد الجبار » أن يقول فى هذا المقام قولا تفيض منابعه من رأيه فى الكلام القرآنى ، وأنه مخلوق . . كما يقول بذلك أصحابه من المعتزلة .

كنا نتوقع أن يكون « لعبد الجبار » منزع جديد فى إعجاز القرآن باعتبار القرآن — فى رأيه — كلاما محدثا ، وليس بكلام الله القديم .

ولكن « عبد الجبار » قد عزل عن نفسه هنا هذا المذهب الكلامى فى القرآن : هل هو حادث أم قديم ؟ فنظر إلى القرآن باعتباره نظما من الكلام ، ونهجاً من مناهج القول دون أن يجعل فى حسابه أنه كلام الله ، أو كلام بشر ، ثم وزن هذا الكلام بموازين البلاغة والبيان العربى ، فوجده يرجح كل كلام عرفته العرب ، ويعلو على كل بيان أخرجته فى نظمها ونثرها . . فكان القرآن بهذا الحساب فى مقام تقصر عنه قوى البشر جميعاً ، وكان بذلك معجزة ،ومعجزاً .

* * *

عبد القــاهر الجرجانى

رأيه فى الإعجاز

ينفرد « عبد القاهر الجرجانى »[1] بين علماء البيان بأنه ذو منهج يغلب عليه « الذوق » ، وتستأثر به فيه سلامة الفطرة ، ونقاء الطبع . . فلم تستبد به الصنعة ، ولم تستنفد جهده ،ولم تقتل ذوقه تلك الأساليبُ الفلسفية ، والمذاهب الـكلامية ، التى عرفت فى عصره ، وجرى عليها العلماء عند النظر فى كل أمر ، وفى مواجهة كل موقف ، حتى ولو لم تـكن داعية الحال تدعو إلى تلك الأساليب من قريب أو بعيد!

لقد أفسد الجدل المنطقى، والمذهب الـكلامى الفلسفى، المقاييسَ البلاغية للبيان العربى منذ عصر « عبد القاهر » والعصور التى جاءت بعده، فلم يـكن للذوق ، ولا للطبع مكان فى وزن الـكلام ، وفى المفاضلة بين الجيد والردىء منه . .

ويـكاد عبد القاهر يكون واحداً من آحاد العلماء الذين سلم لهم طبعهم ، وبقيت معهم فطرتهم السليمة النقية إلى حد بعيد ، فى تلك الفترة التى فسد أو كاد يفسد فيها ، الدوق الأدبى .

لهذا ، فقد كان لابد من أن نلتقى بعبد القاهر ، ونستمع إليه ، ونتلقّى عنه ما عنده من رأى فى البيان العربى ، وفى مقاييس فصاحته وبلاغته ! إذ كان لرأيه هنا قدره فى مجال النظر فى « الإعجاز القرآنى » وفى تذوق بلاغته ،وإدراك منزلته .

إن « عبد القاهر » لم يلتق « بالإعجاز » التقاءاً مباشراً ، وإن كان قد طوّف

---

(١) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ، وقد توفى سنة ٤٧١ هـ . ولا يعلم مولده على التحديد .

به ، ودار حوله ، وكأنه بهذا كان يمهد لوقفة خاصة مع « الإعجاز » يريدبعدها أن يلقاه لقاءاً مواجها ، ويفرده بالكتابة والتأليف .

لقد كتب عبد القاهر كتابين هما :

« أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » .

ويُعدُّ كتابه الأول — فى تقديرنا — مقدمة وتمهيدا لكتابه الثانى . . ذلك أنه فى كتاب «أسرار البلاغة» كان يحاول أن يكشف وجوه الحسن فى الكلام ، ويدل على مواقع الحسن منها ، ويحدد المطالع التى جاءت من جهتها . .

أما فى كتابه « دلائل الإعجاز » فقد نحا هذا النحو أيضاً ، ولكنه كان ينظر بعين إلى البيان العربى ، وبعين أخرى إلى الإعجاز القرآنى ، فى حين أنه كان فى كتابه « أسرار البلاغة » ينظر إلى البيان العربى بعينيه جميعاً ! !

وكان على « عبد القاهر » بعد هذا أن ينظر بعينيه معاً إلى «الإعجاز القرآنى».

ونكاد نجزم بأنه قد كان على هذا العزم وهو يكتب كتابيه السابقين . . فما هما إلا تمهيد ومدخل للإعجاز ، وما كتبهما — فيما نرى — إلا ليفتح لنفسه الطريق إلى القرآن الكريم وإعجازه . . نقول هذا وبين يدينا دليل يكشف عن نية « عبد القاهر » هذه . . فلقد بدأ « عبد القاهر » يضع قدمه على أول الطريق الذى مهد له هذا التمهيد الطويل بكتابيه : «أسرار البلاغة» و «دلائل الاعجاز» ، فكتب رسالة سماها : « الشافية» — التى نظن أنها آخر ما كتب — وقد جعل هذه الرسالة لتقرير حقيقة « الإعجاز » وقياما لدلائل على وقوعه . . ولم يحاول أن يكشف فيها عن وجوه الإعجاز . . الأمر الذى يدعونا إلى أن نفترض بأنه كان يريد أن يفرغ أولا من قضية الإعجاز فى ذاته ، وأن يقيم الحجة لها ، فإذا تقرر ذلك نظر فى وجوه الإعجاز وكشف عنها . . وكان ذلك - فيما نرى — هو أمل

« عبد القاهر » الذى رصد له جهده كله ، وأعد له هذه العُدّة . من تلك الدراسات الطويلة المضنية الممتعة ، وهذه النظرات العميقة المتأملة فى مطالع البيان ، وفى مغانى البلاغة ومجانيها . . وذلك فى كتابيه المذكورين !.

ولو تحقق لعبد القاهر هذا الأمل ، وأجرى قلمه فى هذا الميدان لكان لنا من ذلك زاد طيب ، يعيننا على النظر فى كتاب الله ، وفى استجلاء الكثير من عجائبه وأسراره .

ولكن يبدو أن الأجل قد حال دون الأمل ، فلم يُقدّر « لعبد القاهر » أن يصل إلى غايته تلك التى قطع عمره فى الإعداد لها ، والتشوف إليها .

هذا ، وبين أيدينا الآن لعبد القاهر ثلاث مؤلفات تحسب جميعها من مباحث الإعجاز . . وهى :

أسرار البلاغة . . دلائل الإعجاز . . الرسالة الشافية . . وهى كما عرفناها من قبل حلقات فى سلسلة . . يكمل بعضها بعضاً .

فأسرار البلاغة مقدمة لدلائل الإعجاز ، ودلائل الإعجاز مقدمة للرسالة الشافية . . والرسالة الشافية مقدمة لكتاب فى الإعجاز ، كان فى عزم المؤلف أن يفرغ له ، ويتوفر عليه . . ولكن حالت دون ذلك منيّته ، أو شيخوخته !

وواضح من هذا — حسب هذا التصوّر — أن أقرب هذه الكتب الثلاثة إلى موضوعنا الذى نريد الوقوف مع عبد القاهر من أجله هو : « الرسالة الشافية » .

وعلى هذا يمكن أن يكون وقوفنا مع عبد القاهر مقصوراً على هذه الرسالة . . وبذلك لا ننظر إلى كتابيه الآخرين . .

ولكن ذلك يفوّت علينا خيراً كثيراً مما نحرص عليه فى هذا المقام . . فنى

كتابى عبد القاهر - دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة - نظرات بكر فى وجوه البيان ، وفى استجلاء مطالع الحسن فيها ، ومواقع الروعة منها .

لهذا ، فإننا لن ندع هذا الخير يفلت كله من بين أيدينا ، وإن لم يكن من المستطاع فى هذا المقام أن نلتقى بالكتابين معاً ، فلا أقل من أن نلتقى بأحدهما . . وليكن « دلائل الإعجاز » . . فهو واسطة بين أسرار البلاغة ، والرسالة الشافية . .

وإذن فسنلتقى مع عبد القاهر فى كتابيه : دلائل الإعجاز ، والرسالة الشافية . .

ولكن بأى الكتابين نبدأ ؟

أظن أنه من الأفضل أن نتبع حكم الزمن ، ونسير سيره . . فتكون صحبتنا لعبد القاهر .. صحبة لقطعة من حياته .. نستقبل فيها الأيام معه ، ولا نستدبرها . . !

وعلى هذا فإننا سنلتقى مع « عبد القاهر » أولاً فى كتابه « دلائل الإعجاز » ، ثم نلتقى به بعد ذلك فى « الرسالة الشافية » . . . ثانياً .

أولا : دلائل الإعجاز

أول الطريق :

يدخل عبد القاهر الجرجانى إلى مبحث الإعجاز مدخلا بليغاً بأن يتحدث : أولا عن نظم الكلام وخضوع هذا النظم لقواعد مقررة ، اقتضاها وضع اللغة ، وجرى عليها المتعاملون بها ، على حسب ما تواضعوا عليه وتعارفوا . . مثل وجود المسند والمسند إليه ، كى تتم الجملة ويصبح الكلام مفيداً ، ومثل تقدم الفعل على الفاعل ، وسبق حرف الجر المجرور . . وهكذا مما يعرفه ويلتزمه أصحاب اللغة والمتعاملون بها . .

وإذ يقرر الجرجانى هذه الحقيقة من أمر اللغة . . يعقب على ذلك متسائلا :

« إذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا : إذا كانت الأمور والوجوه من التعلق [1] التى هى محصول النظم — موجودةً على حقائقها ، وعلى الصحة ، وكما ينبغى فى منثور كلام العرب ومنظومه ، ورأيناهم قد استعملوها ، وتصرفوا فيها ، وكانوا بمعرفتها ، وكانت حقائق لا تتبدل ، ولا يختلف بها الحال . . إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ ، أو صفة لموصوف ، أو حالا لذى حال ، أو فاعلا أو مفعولا لفعل — فى كلام ، حقيقة ، هى خلاف حقيقته فى كلام آخر .

« فما هذا الذى تجدد بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر ، وقيد الخواطر والفكر ، حتى خرست الشقاشق ، وعدم نطق الناطق ، وحتى لم يَجُرْ [2] لسان ، ولم يَبِنْ بيان ، ولم يساعد إمكان ، ولم ينقدح لأحد منهم زَنْد ، ولم يمض له حد ، وحتى أسال عليهم الوادى عجزاً ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً ؟ » .

هذه هى القضية كما يتصوّرها ويصورها الجرجانى . .

فاللغة — أى لغة — لها قواعد وأصول جرى عليها أصحابها ، وتواضعوا على الأخذ بها ، حتى يمكن أن يقع التفاهم بينهم . . إذ أنه بغير هذه القواعد وبغير التزامها لا يمكن أن يحدث التفاهم بين أهل اللسان . . ذلك أنهم إنما يتفاهمون بما سبق لهم

---

(١) أى تعلق الألفاظ بعضها ببعض ، واستدعاء بعضها بعضاً لتتعانق على هذا الوجه المتواضع عليه بين أهل اللغة .

(٢) يجر : أى يتحرك . . من حار يحار إذا دار المرء حول نفسه متحيراً ، وهى فى الأصل « يجر » وقد صححناها على هذا الوضع .

الاتفاق عليه من ألفاظ وتراكيب ، لكل لفظ مدلوله . ولكل تركيب وضعه الذى تقرر له بين أهل اللسان ، وأصحاب اللغة .

« ولو أن واحداً من أبناء هذا اللسان جاء بكلمات غريبة لم يتواضع عليها قومه، أو جاء بتركيب جديد لم تقرره قواعد لغته ، لما كان لهذا الجديد — سواء فى الألفاظ المفردة أو فى التراكيب — مفهوم عندهم ، ولما استمعوا له ، ولا وضعوا كلامه فى مجال معاملاتهم . . فإما أن يسقطوه جملة ، دون أن يحسبوا له حساباً ، وإما أن يعترضوا عليه ، ناقدين ومخطّئين » . .(١)

والشواهد على ذلك كثيرة ، نجدها حيث وُجد الشعر العربى ، وحيث استمع إليه الناس وعقلوه . .

ومما يروى فى هذا أن « المتلمس » الشاعر الجاهلى أنشد قصيدة جاء فيها قوله :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره   بناجٍ عليه الصَّيعرية مُكْدَمِ(٢)

وكان طرفة بن العبد — وهو أحد أصحاب المعلقات — يسمع إنشاد الشاعر، وكان حَدَثاً صبياً . . فقال : « استنوق الجمل ! » — أى صار ناقة، بهذا الوصف الذى وصفه به المتلمّس ، والذى هو من علامات النوق لا الجمال ، وذلك فى قوله : « عليه الصيعرية » وهى علامة تكون فى عنق الناقة .

وقد ضحك الذين شهدوا هذا الموقف ، وشهدوا لطرفه بدقة الملاحظة ، ووقدة البديهة ، بل إن المتلمّس نفسه شهد له بذلك حين رأى سلاطة لسانه وثَبْت جنانه ، مع صغر سنه فقال : ويل لرأسك من لسانك ! . .

---

(١) دلائل الإعجاز . . « المدخل ص ه وما بعدها »

(٢) احتضاره : أى حضوره ، والناجى السريع ، لأنه ينجو به صاحبه من مطاردة العدو ، والصيعرية : علامة تكون فى عنق الناقة ولا تكون فى البعير ، والمكدم : الموسوم بالكى . وينسب هذا البيت أيضاً للمسيب بن علس .

فأى خروج على الأسلوب الذى جرى عليه اللسان العربى كان يخدش أذن العربى فينفر منه ، ويأبى الإصغاء إليه حتى يستقيم على ما ألف واعتاد .

فاللغة أولاً وقبل كل شىء تعامل بين الناس، ولا يتم التعامل إلا عن تفاهم ، واتفاق على الألفاظ التى يتعاملون بها ، وعلى الأسلوب الذى تجرى عليه المعاملة بهذه الألفاظ . . وذلك أشبه ما يكون بالنقد الذى يتعامل به الناس ويتبادلون به المنافع الدائرة بينهم . . فلكل أمة نقدها ، كما أن لكل أمة لسانها ولغتها . . ولكل أمة سمات خاصة للنقد الذى تتعامل به ، كما أن لها ألفاظها التى تجرى على لسانها . . وإن أى صورة من صور النقد تدخل على الأمة غير نقدها الذى بين يديها والذى تعارفت عليه، يعتبر نقداً زائفاً لا يتعاملون به أبداً ، كذلك كل لفظة لم تتواضع عليها الأمة سلفاً ، ولم تتفق على تداولها على لسانها تكون لفظة زائفة، لا يقبل الناس التعامل بها . . مفردة أو مركبة . .

فإذا كان هذا هو شأن اللغة . . فإن هذا يقضى بأن يكون الناس فى تعاملهم باللغة على درجة سواء ! أى أنه لا يكون هناك تفاضل فى الكلمات التى تجرى على ألسنتهم ؛ لأنها كلمات قد تحددت دلالاتها . بما قومت به عند وضعها . . فكلمة « رجل » فى اللغة العربية مثلا تعنى أى إنسان ذكر من الناس ، بلغ مرحلة الرجولة ، وتخطى دور الصبا .. وكذلك جميع الكلمات من أسماء وأفعال وحروف . قد حمل كل لفظ منها القيمة التى له ، والتى يتعامل بها الناس على هذا الوضع المحدد الذى لا يختلف بين إنسان وإنسان ..

فكما أن قطع « النقد » تحمل كل قطعة منها قيمة محددة .. لا تختلف قيمتها بانتقالها من يد إلى يد .. كذلك كلمات اللغة التى تجرى على لسان أمة من الأمم .. كل كلمة منها ذات دلالة محددة .. لا تختلف دلالتها بانتقالها من فم إلى

فم ! سواء فى حال إفرادها أو تركيبها .. تمـاماً كما لاتختلف قيمة القطعة من النقد إذا جرى بها التعامل وحدها أو مع غيرها من القطع المشابهة لها أو المختلفة عنها فى قيمتها ، زيادة أو نقصاً !

وطبيعى أن يُسلمنا هذا التصوّر لمفهوم اللغة ، إلى القول بأن لا وجه لتفضيل كلام على كلام ، ولا قول على قول .. كما أنه يسلمنا كذلك إلى القول بأن القرآن وهو كلام سبق التواضع عليه فى اللسان العربى — ليس له فضل على غيره من الكلام ، وأن إعجازه الذى عُرف له ليس له فى ذاته ، وإنما الشأن خارج عنه ، بعيد عن ألفاظه ، ومدلولاته .. فى إفرادها وتركيبها !

وهذا هو الذى وقف عنده عبد القاهر ، وتصدّى لتفنيده والردّ على ما فيه من مغالطات .. والذى من أجله ألف كتابيه « دلائل الإعجاز » و « وأسرار البلاغة »

ونستأذن « عبد القاهر » فى أن نسبقه إلى الرد على هذا الرأى ، أو هذا التصور الذى لانظن أن كثيراً من الناس يقع لتفكيرهم هذا المفهومُ للغة على ذلك الوجه !

إنها كلمة نريدأن نقولها إذ وقعت فى خاطرنا قبل أن تذوب خجلا إذاطلعت عليها كلمات « عبد القاهر » .. وعندئذ نبحث عنها فلا نجدها .

والذى نريد أن نقوله، هو أن اللغة — وإن كانت وليدة إرادة المجتمع، وبنت التعاقد الذى تم بين أفراده على قبول الكلمات وتداولها — ليست مجردَ أدوات تتداولها الألسنة كما تتداول الأيدى قطع النقود . . إذ اللغة قبل كل شىء تجسيد لأفكار الناس ، وتصوير لعواطفهم ، ووجداناتهم ، وأن الكلمة حين تتحرك على اللسان ، أو تقع على الأذن تنبعث منها تلك الأفكار ، وهذه المشاعر

والوجدانات ، التى تضمرها فى كيانها . . وهنا تتفاوت منازل الناس ، وتختلف أقدارهم فى استخدام اللغة، وفى استثارة ما يكمن فيها من دلالات عقلية أو عاطفية . . فليس كل إنسان قادراً على أن يحتلب كل ما تحمل الكلمة فى كيانها من مدلولات، وليس كل إنسان قادرا على أن يدير الكلمة على الوجه الذى تمكّنه فيه من نفسها ، وتعطيه أحسن ما عندها . .

فليست اللغة إذن قطعا من « النقود » . . لاتختلف قيمتها من يد إلى يد . . وإنما هى — كما قلنا — أفكار ومشاعر وعواطف ، لاتكون على حال واحدة أبداً . . بل تبدو فى صور وأحوال شتى . . فتضيق وتتسع ، وتظهر أو تضمر حسب الوضع الذى يريدها المرء أن تكون فيه ! بل وبحسب ما فى كيانه من قوّى روحية ونفسية وعقلية .

فالكلمةفى فم إنسان غيرها فى فم إنسان آخر ..

الكلمة تسمعها من رجل جادّ فتقع من نفسك موقعاً، وتسمع الكلمة نفسها من آخر هازل فتقع من نفسك موقعاً بعيداً عن موقعها الأول . . بُعْدَ ما بين الرجلين وما بين الحالين . وتسمع الكلمة من إنسان له قدْره ووزنه فى الناس وفى الحياة فيكون لها فى عقلك حفاوة واحتفاء، وفى وجدانك إثارة وتأثير . . وتسمعها من آخر ممن لا حساب له فى الناس فتذهب مع الريح ، لاتكاد تبلغ غاية سمعك حتى ترتد خاسئة مستخذية !

« الكلمة » وإن كان لها مدلول تواضع عليه أهل اللغة التى تنسب إليها هذه الكلمة ، إلا أن هذا المدلول ليست مصبوبة به فى قالب جامد لاتخرج عنه، بل هو بحيث يتسع إلى أبعد الحدود ، فيكون عالماً رحباً فسيحاً ، ويضيق إلى أقصى غاية الضيق .. فيكون مجرد « كلة » ! مصورة من حروف ، يضرب بعضها بعضاً . .

انظر :

كلمة « الحرب » تخرج من فم رئيس دولة من الدول العظمى التى تملك فى يدها قوى التدمير والإهلاك فتهتز لها الدنيا ، ويتغير من أجلها وجه الحياة !

والكلمة نفسها إذا نطق بها حاكم دولة صغيرة مستضعفة سقطت تحت قدميه فلا تسمعها أُذن ، ولا يَعلق بها خاطر !

إن الجهة التى تصدر عنها « الكلمة » هى التى تعطى هذه الكلمة مدلولها ، فى صورة قوية أو ضعيفة ، ظاهرة أو باهتة ، وإن كانت لاتخرج بها عن المجال الوضعى لها ..

سمع النابغة الذبيانى أن « النعمان بن المنذر » يتوعده بقوله : « سوف أناله » ! فكرب النابغة لذلك أشدّ الكرْب ، وضاقت مسالك الدنيا عليه . .

فبعث إلى « النعمان » يعتذر له ، ويستعطفه ، ويكشف له عن سوء حاله الذى أصاره إليه هذا الوعيد . . فيقول :

أتانى ـ أَبَيْتَ اللّعنَ ـ أنّك لُمْتَنِى　　وتلك التى تصطَكُّ منها المسامعُ

مَقَالةَ أن قدقلتَ :« سوفَ أناله »　　وذلك من تلقاءِ مثلِك ضائع

فبتُّ كأنّى ساورتنى ضئيلة　　من الرقّط فى أنيابها السمُّ ناقع

فإنك كالليل الذى هو مُدركى　　وإن خلتُ أن المنتأَى عن واسع

« سوف أناله » ! !

هذه كلمة كانت من النعمان بن المنذر . . تسندها قوة مَلِك ، وتخدمها جيوش زاحفة ! لا يجد النابغة سبيلا أن يفلت منها !

وهذه القولة ذاتها يقولها الفرزدق الشاعر ، مهدداً بها من يُدْعَى « مَرْبعاً » !

فيهتبلها الشاعر « جرير » فرصة يسخر فيها من الفرزدق ، ويهدر مدلول هذا التهديد ، إذ يقتله قبل أن يجاوز فم صاحبه « الفرزدق » حين يرميه بهذا البيت الساخر الفاضح الذى صار مثلا مضروبا للهزء والسخرية .

زَعم الفرزدق أن سيقتل مَرْبعا   أبشرْ بطول سلامةٍ يا مَرْبَعِ !

وأكثر من هذا . .

الأشياء التى يتعامل بها الناس ، ويتداولونها فيما بينهم . . هى أشياء جامدة لاتحمل شيئاً من ذات أصحابها . . لا من أفكارهم ، ولا من عواطفهم ، ولا من شخصياتهم . . إنها فى يد الناس جميعاً سواء ..

ومع هذا فإنها أحيانا ينظر إليها من الجهة التى جاءت أو تجىء منها !

مثلا .. « قلم » وُقعت به معاهدة صلح بين المتحاربين فى الحرب العالمية الأولى أو الثانية .. هذا « القلم » ترتفع قيمته إلى الحد الذى يجاوز به القيمة التى لمجموع الأقلام التى من نوعه ، وإن بلغت الملايين عداً !

والأمثال لهذا كثيرة لاتحصر ..

روى الجاحظ فى كتابه « البخلاء » نادرة لها دلالتها فى موضوعنا هذا .. وملخص هذه النادرة أن رجلا من بغداد كان يعرض فاكهة فى السوق، وكانت من بواكير ثمره ، وقد سامه الناس فيها أثمانا مختلفة ، وهو يطلب المزيد حتى بذل له أحدهم مئة درهم فى الثمرة الواحدة ، وهو يأباها عليه إلا بمئة وعشرين درهما !

ومر بالسوق فى هذا الوقت رجل من وجهاء بغداد وسُراتها ، فتلقاه صاحب الفاكهة محيياً له ، محتفياً به .. ثم جعل يعرض عليه فاكهته ، ويتودّد إليه فى أن يقبلها ، وأن يسمح له بأن يحملها إلى بيته ! والرجل يُعرض، ويظهر له زهده فيها.. ثم بعد لأيٍ يسأله التاجر : وكم تطلب فيها ؟ فيقول : لقد أُعطيت يا سيدى

فى الثمرة الواحدة مئة درهم . وأطلب المزيد ! فيجيبه الرجل : لا ، بل أعطيك ثمانين درهما ! ويقبل التاجر هذا الثمن فرحاً به ، ويحمل الفاكهة إلى بيت هذا الوجيه ! !

ويدهش بعض من شهد هذه الواقعة .. ويُقبل على التاجر يسأله : أمجنون أنت ؟ يبذل لك الناس فى فاكهتك مئة درهم فى الثمرة فتأبى ، ثم تسخو بها لهذا الرجل بثمانين درهما ؟

فيقول التاجر فى فرحة غامرة : إنك لاتعرف شيئاً ! .. إن هذا الرجل يملك مئة ألف دينار ! ! » .

فإذا كان ذلك واقعاً فى الأشياء المنفصلة عن مشاعر الناس ، البعيدة عن مجال تفكيرهم ،فكيف بأمر يعيش فى كيان الإنسان، وينطلق من مراكز تفكيره، وينفجر من طاقات وجدانه وعواطفه ؟

واللغة هى هذا الأمر الذى نعنيه هنا ، فهى تعيش حقاً فى كيان الإنسان ، وتنطلق من عقله بدفعات من إرادته ، وتنفجر من طاقات وجدانه ، وخلجات شعوره !

وبهذا نستطيع أن نقرر أن اللغة تأخذ الشىء الكثير من الجهة التى تصدر عنها ، وتنطلق منها ! وأن الكلمة لاتخرج من فم صاحبها إلا ومعها أمارات منه ، ودلالات عنه ، ومشابه غير قليلة من شخصيته !

يقول القاضى الجرجانى فى كتاب: « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وذلك فى حديثه عن الشعر واختلاف منازله باختلاف أصحابه — يقول :

« وقد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين أحوالهم ، فيرقّ شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب

اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ! . . فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودمائة الكلام بقدر دمائة الخلقة ..

« وأنت ترى ذلك ظاهراً فى أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت الفظاظة فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته »[1] .

ونحن فى أدبنا العربى مثلا .. نقرأ القصيدة من الشعر فنعرف بيئتها التى جاءت منها .. ونقول : هذا شعر جاهلى ، أو إسلامى ، أو أموىّ ، أو عباسى .. وهكذا .. ونقول هذا شعر شامى ، أو عراقى ، أو مصرى !

بل ونقول أيضاً .. هذا شعر فلان .. أو هو أشبه بشعر فلان ، وذلك دون أن يكون لنا سابق علم بنسب هذه القصيدة إلى صاحبها ، أو عصرها .. وإنما العلم الذى نعلمه هو طابع العصر ، وروح الشاعر .. وكذلك الشأن فى النثر .. نقول هذا أدب مقفّعىّ وأسلوب جاحظى لما نجد فى هذا الكلام من روح الكاتبين : ابن المقفع ، والجاحظ .. وهكذا ..

ونقول مرة أخرى إن الجهة التى تصدر عنها الكلمة تترك فى الكلمة أثراً منها ، أيّاً كان هذا الأثر .. قوياً أو ضعيفاً .. ظاهراً أو باهتاً .. إن « بصمة » صاحبها سارية فى كيانها .

فإذا كانت تلك الجهة من القوة والشموخ بحيث تَبينُ على الناس بفضل فى عقل ، أو خلق ، أو بيان ، كانت الكلمات الصادرة عنها محملة بدلالات كثيرة منها ، تجعل لها فوق الكلام منزلة أشبه بمنزلة صاحبها ، بما اندسّ فيها من عقله وخلقه ، وبيانه وفصاحته !

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٢٣

وبهذا انفرد القرآن بتلك المنزلة الرفيعة العالية من بين سائر الكلام .. إذ كانت كلماته منزلة من السماء .. من رب العالمين !

ففي كل كلمة من كلماته قبسة من نور الحق، ونفحة من نفحات القوة والعزة .. وآية من آيات المجادة والحكمة ..

ولقد وصف الله سبحانه القرآن بصفاته جلّ شأنه .. فقال تعالى :

« يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » .. وقال سبحانه : « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » وقال : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » .. فالحكمة والمجادة، والكرم من صفات الحق جلّ وعلا .. وقد جعلها الله سبحانه وتعالى من صفات كلامه أيضا .

كذلك أضاف الحق جلّ وعلا كلمات القرآن إلى ذاته سبحانه وتعالى في قوله:

« فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ .. وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »(١)

وفي قوله سبحانه : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ »(٢)

وحسب القرآن أن يكون كلام الله، مضافاً إلى ذاته، متصفاً ببعض صفاته!

ولكن لعل سائلا يسأل بعد هذا : المشكلة هي أن نتحقق من أنه كلام الله، فلو ثبت هذا لما كان هناك مكان لمجادلة أو بحث في إعجاز القرآن .. ولكان التسليم بإعجازه مقرراً من قبل أن يُنظر فيه أو يُستمع إليه !

ونقول : إننا لم نقل لهذا المعترض ومن على شاكلته : إنها قضية مسلّمة تلك الدعوى التي ندعيها للقرآن بأنه كلام الله .. ولكنها دعوى ودليل .. دعوى يمكن أن يقدّم عليها دليلها .. ونقول كما يقول رجال القضاء :

« من حيث إن الكلام يشتمل من الصفات على كذا وكذا، مما لا يكون

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٨ (٢) سورة التوبة: آية ٦

إلا للحق سبحانه وتعالى.. فإذن هن كلمات الله.. إذ كانت تلك الصفات لا تكون في كلام بشر، ولا تجتمع له. ولك أن تقول: هذا كلام الله، لأنه يشتمل من الصفات على كذا وكذا، مما هو من بعض صفات الله سبحانه! فتقدم الدعوى على الدليل، ثم تجيء بالدليل، إن كانت الشمس في حاجة إلى دليل، فليس القول بأن هذا القرآن كلام الله بالذي يقطع عليك طريق الاستدلال على حقيقة هذا القول، بل إنه داعية، لأن تطلب له الدليل.. ولكن ليس من خارج هذا الكلام، بل من ذاته هو، حيث تقوم له الشواهد والأدلة من بين يديه ومن خلفه! فأما كيف تطلب الدليل، فذلك يحتاج إلى عقل يعقل الكلام، وقلب يعيه، ووجدان يذوقه، ويفرق بين طعومه.

وأما في أي ناحية تلتمسه؟.. ففي هذا الشموخ والسموّ.. وفي هذا الجمال والجلال.. وفي هذه الروعة والسطوة.. وفي هذه الحكمة والعزة.. وفي كل ما يملأ قلبك من صفات الحق، سبحانه، جلّ وعلا!

فإن أنت طلبت الدليل ووجدته واسترحت إليه فذاك، وإلا فلنا لقاء آخر، ربما يكون حظك منه أوفر، وسعيك معه أنجح! وذلك بعد أن نقف بك وقفات مع رُوّاد سبقونا إلى هذا المطلب، عسى أن نصيب مما عندهم خيراً، وأن نتعلم مما عُلّموا رُشدنا.

ولقاؤنا الآن — إن كنت تذكر — هو مع عبد القاهر الجرجاني، الذي استأذناه من قبل، وقطعنا حديثنا معه، لنقول هذه الخاطرة التي سنحت لنا في معرض حديثه!

ماذا عند عبد القاهر من دلائل الإعجاز؟

هل التعرف على الإعجاز ممكن؟

يبدأ عبد القاهر بحثه في الإعجاز بإثارة هذا التساؤل، وهو: هل يمكن التعرف على وجوه الإعجاز في القرآن؟

وداعية هذا السؤال ، هو أن بعض المتفلسفة يريد أن يقطع النظر عن البحث في إعجاز القرآن ، وطلب وجوه هذا الإعجاز ، وذلك بقولهم : إنه لا حاجة إلى طلب الوجوه التي بها أعجز القرآن العرب وأفحمهم ، وحسبنا دليلا على هذا أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله بعد أن تحدّاهم ، وبعد تكرار التحدى ، وطول التقريع لهم بالعجز عنه ، ولأن الأمر كذلك قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب ، واستوى الناس قاطبة ، فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من أن يكون محجوجاً بالقرآن ! وهذا أمر مجتمع عليه لا خلاف فيه ، أما وجوه الإعجاز فقد وقع فيها كثير من الخلاف ، وخير للقرآن أن ننأى به عن هذا الخلاف .

ويرد الجرجاني على من يذهب هذا المذهب ، بقوله :

« أخبرْنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا عليه السلام بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر — أتعرف له معنى غير أن لا يزال البرهان منه لائحاً مُعرَضاً لكل من أراد العلم به ، وطلب الوصول إليه ، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها ، والعلم به ممكناً لمن التمسه ؟ فإذا كنت لا تشك في أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي له كان معجزاً — قائم[1] أبدا ، وأن الطريق إلى العلم به موجودٌ والوصول إليه ممكن — فانظر أي رجل تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى ، وآثرت فيه الجهل على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها ؟ وكان التقليد فيها أحبّ إليك ، والتعويل على علم غيرك آثر لديك .

ونحّ الهوى عنك ، وراجع عقلك واصدُق نفسك يَبِنْ لك فُحش الغلط فيما رأيت ، وقبح الخطأ فيما توهّمت ! ! »[2]

---

(١) قائم : خبر أن .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٨

إن عبد القاهر إذن يصارحك مقدماً بأنه متجه بك إلى الآفاق التي يطلعك منها على وجوه الإعجاز في القرآن ،وأن التماس هذه الوجوه أمر مطلوب كما هو ممكن..
مطلوب : لأن قيام المعجزة وخلودها على الدهر لا معنى له إلا إذا وقعت موقع المعرفة من الناس ، وقامت دليلا على صدق الدعوى الإسلامية ، وصدق الرسول الذي جاء بها . .

وممكن . . لأنه لو لم يكن التعرف على المعجزة مما يقع في مقدور من يطلبها لما كان لوجودها معنىً ، ولا ثمرة !

ونسأل : هل استطاع عبد القاهر أن يكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن ، وأن يكونَ الدليلَ الموفق إليها ؟

سنرى ! !

على الطريق :

والطريق الذي يسلكه بنا «الجرجاني» طريق طويل متعدد المراحل،والمنازل، ولكنه مع هذا مأنوس دائماً بالطيب من القول ، وبالرائع المعجب من البيان ، يلقاك به الرجل على طول الطريق.. فلا تجد للطريق وحشة ، ولا تستشعر غُربة ! بل إنك دائماً في مجتنىً داني القطوف ، طيب الثمر !

لا جدال في الإعجاز :

وأول ما يستفتح به الجرجاني حديثه معك هو أن يدعوك إلى أن تتفق معه على هذه الحقيقة التي ستصحبه عليها طول الطريق . . وهي أن إعجاز القرآن حقيقة مقررة ، شهد بها التاريخ ، وأشهد العالم عليها : بأن العرب قد أقروا بالعجز عن معارضة القرآن ، ولو في سورة منه .. وسجّل عليهم ذلك في آياته التي تتلى عليهم !

يقول «عبد القاهر» : «لولا أنهم — أي العرب — حين سمعوا القرآن »

وحين تُحُدوا إلى معارضته ، سمعوا كلاما لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رَازُوا أنفسَهم فأحسُّوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه — لـكان محالاً أن يَدَّعوا معارضته ـ وقد تُحُدُّوا إليه، وقُرعوا فيه، وطولبوا به ـ[1] وأن يتعرضوا لِشَبَا الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت ! »[2]

ففيم الحديث بعد هذا .. إذا كان أمر الإعجاز قد تقرر وثبت على هذا الوجه؟

لا . . إن الحديث طويل وطويل غاية الطول ، ولـكنه كما قلنا غير مملول ولا موحش .. إنه حديث عن وجوه الإعجاز .. غايته الـكشف عن هذه الوجوه ما أمكن ، والدلالة على سماتها وملامحها . .

فماذا يقول عبد القاهر فى حديثه هذا ؟

لنسمع !

ماذا أعجز العرب من القرآن ؟

يسأل عبد القاهر هذا السؤال . . لعل أن يكون عندك جوابه . . أو لعلك تبحث عن جواب له قبل أن تستمع إلى الجواب الذى عنده .. لتفيد وتستفيد من هذا الامتحان . وتلك الموازنه .

ماذا أعجز العربَ من القرآن ؟ وعن ماذا عجزوا ؟

« أعن معانٍ من دقة معانيه وحسنها وصحتها فى العقول ؟

« أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ؟

ويدع عبد القاهر الجواب عن السؤال الأول المتجه إلى المعنى . . ويجيب عن السؤال الثانى الذى يتصل باللفظ . . لأن له فى ذلك تدبيراً ستعرفه بعد ، وهو أنه سيجعل اللفظ والمعنى كياناً واحداً للصورة الـكلامية . . فليس عنده فى الـكلام

(١) الواو هنا للحال .. أى محال أن يدعوا معارضة القرآن فى الحال التى يتعرضون فيها لاقتحام موارد الموت .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٢ .

لفظ ومعنى ، وإنما الذى عنده هو الصورة البيانية التى تؤلف بين اللفظ والمعنى ..

ولما كان اللفظ هو الجانب المحسوس من الصورة ، والذى لا اختلاف عليه فى مرأى العين ، وفى منطق الفم ، ومسمع الأذن ، فقد بدأ الحديث به ، وجعل فاتحة القول عنه .

وماذا أعجز العرب من اللفظ أم ماذا بهرهم منه ؟

يقول « عبد القاهر » :

« أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام ، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وبيان . .

« وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعَشْراً عَشْرا[1] ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها ، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك ، أو أشبه ، أو أحرى وأخلق.. بل وجدوا اتِّساقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً وإحكاماً ، لم يدع فى نفس بليغ منهم — ولو حك بيافوخه السماء — موضعَ طمع .. حتى خرست الألسن أن تدعى وتقول ، وخَلَدَت القروم ، فلم تملك أن تصول ..»[2] ولا تحسبن أن عبد القاهر يجعل ذلك القول هو جوابه عما سأل ، وإنما هو تلخيص للجواب الذى سيبسطه لك فيما بعد ، وإنما هو إشارة إلى الجهة التى سيتجه بك إليها لالتماس الجواب ، والوقوع عليه .

لهذا فهو يقول تعقيباً على هذا الكلام :

« وجملة ما أردت أن أبينه لك ، أنه لا بد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده

(١) العشر : ما مقداره عشر آيات من القرآن الكريم .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٢ .

من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة[1] عن ذاك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل . »[2]

بين اللفظ والمعنى :

ومن تدبير عبد القاهر فى حديثه إليك عن الإعجاز ، أنه لا يهجم عليك بكل ماعنده فى هذا الأمر ، ويفرغه بين يديك مرة واحدة ، من غير أن يهىء لذلك مكاناً فى نفسك ، ويفتح له طريقاً إلى عقلك وقلبك ، حتى يضمن بذلك إصغاءك إليه ، وتلقِّيك عنه ، وإفادتك منه !

فهو يطوف بك هنا وهناك ، فيطلعك على أفانين من القول ، ومذاهب من الكلام ، حتى إذا أشرف بك على روضات القرآن وجناته ، لم تستبد بك الدهشة ، ولم تذهب بجنانك الروعة .

وطبيعى أننا لانستطيع أن نرصد هنا جميع الاتجاهات التى اتجه إليها عبدالقاهر فى تطوافه حول الإعجاز . . فذلك لا يكون إلا إذا جعلنا كتابه كله منسوخاً هنا .. وخير من هذا أن ترجع إلى الكتاب نفسه إن أردت طول صحبته ! ..

وإنما نسجل هنا بعض « لقطات » نحسب أنها مراكزَ لدوائر تطوافه وتجواله حول الإعجاز ، الذى يروم الكشف عن وجوهه !

ما البلاغة وما الفصاحة ؟

يعقد عبد القاهر فصلا ممتعاً يكشف به عن المحتوى الذى ينطوى عليه الكلام البليغ الفصيح .. وعن الصفات التى تجتمع له ، ليكون على شرط الفصاحة والبلاغة ..

---

(١) يريد التعبير .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٢

يقول عبد القاهر :

« فصل » فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة ، والبيان والبراعة ، وكل ما شاكل ذلك مما يعبرّ به عن فضل بعض القائلين على بعض ، من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يُعْلِمُوهم مافى نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم ..

« ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وما يجرى مجراها ، مما يُفردفيه اللفظ بالنعت والصفة ، ويُنسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى — غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة . . ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب . .

« ولا جهة لاستعمال هذه الخصال — أى حسن الدلالة وتمامها — غير أن يُؤْتَى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويُختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى أن يكسبه نبلا ، ويُظهر فيه مزية » .

وأنت ترى أن عبد القاهر لايجعل للفظ وحده مزيةَ البلاغة والفصاحة .. فليس اللفظ وإن عذُب جرسه ، وَتَسَاوَقَ نظمه ، بالذى يعطى الصورة البيانية منزلة من منازل الفصاحة والبلاغة ، إلا إذا جاء إلى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته وأخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ..

وللكشف عن هذه الحقيقة يقول :

« وإذا كان ذلك كذلك فينبغى أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التى بها يكون الكلامُ إخباراً ، وأمراً ، ونهياً ، واستخباراً ، وتعجبا ، وتؤدى فى الجملة معنى من المعانى التى لاسبيل إلى إفادتها

إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة ـ هل يُتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ماهى موسومة به .. حتى يقال : إن « رجلا » أدل على معناه من « فرس » على ماسمى به ؟ ! .. وحتى يُتَصور فى الاسمين الموضوعين لشىء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه ، وكشفاً عن صورته من الآخر ؟ فيكون « الليث» مثلا أدلّ على « السبع» المعلوم — من « الأسد » ؟ .. وحتى أنَّا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة « رجل » . أدل « على الآدمى » الذكر من نظيره فى الفارسية ؟ »[1]

والذى يقرره عبد القاهر هنا — كما ترى — هو أن مفردات اللغة لها دلالات موضوعة لها .. ومن هنا فلا يمكن أن يقوم وجه لتقييم هذه المفردات فى ذاتها .. لأنها وُضعت لتدل على ذاتٍ أو معنى ، دون نظر إلى أى اعتبار آخر فى بنائها . فهى من هذه الجهة قد أخذت وضعاً ثابتاً لا يتغير . كأنها رقم من الأرقام العددية !

الكلمة فى انفرادها واجتماعها :

وإذا لم يكن للكلمة فى ذاتها طاقة تتعدد بها دِلالتها ، أو تختلف ، وهى فى حالة انفرادها ، فإنها حين تجتمع إلى كلام آخر ، وتنتظم معه تنطلق منها طاقات ، وتنكشف منها ، أو تختفى جوانب لم يكن من المستطاع أن تنكشف أو تختفى وهى مفردة ، الأمر الذى لا يسمح لها إلا بأن تكون على حال واحدة أبداً ..

وفى هذا يقول عبد القاهر :

« وهل يقع فى وهمٍ ـ وإن جَهِدَ ـ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ـ من غير أن ينظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم ـ بأكثر من أن تكون

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٥

هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشيَّة ؟ أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ، ومما يكدُّ اللسان أبعد ؟ [١]

« وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة ـ إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟

« وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة . وفى خلافه : قلقة ونابية ومستكرَهة ـ إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ؟ وبالقلق ، والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية فى معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية فى مؤداها ؟

« وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى :

« وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِى ماءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى .. وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِىَ الأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ ، وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » [٢]

« فتجلى لك الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ـ أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت [٣] الأولى بالثانية والثالثة وبالرابعة .. وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأن الفضل تَنَاتَجَ ما بينها ، وحصل من مجموعها » .. !!

ألم أقل لك ، إن عبد القاهر لا يريد أن يهجُم بك على آيات الكتاب من

---

(١) وهذا تفاضل لا يعتد به ، ولا يقام له وزن كبير فى تقييم الكلام .

(٢) سورة هود آية ٤٤

(٣) لاقت : أى صلحت من اللياقة ، وهى الاستقرار . . يقال : لاق فلان بالمكان إذا استقر فيه .

أول الطريق ، بل هو يمهد لك ، ويقيم بين يديك الشواهد من قبل أن يُشرف بك على هذا العالم المشرق بآيات الحق وأضوائه ..

وها أنت ذا تجد نفسك بين يدى آية من آيات الله .. آية واحدة .. بعد أن بسط لك ألواناً من القول ، ورفع لعينك منارات من البيان ..

ثم ها هو ذا لا يدعك تلقى الآية الكريمة وحدك .. بل تراه إلى جوارك ، يؤنسك ، ويملأ يديك من موفور خيرها ، وطيب ثمرها ..

يقول لك :

« إن شككت ـ أى فيما لارتباط الكلمات فى الآية الكريمة من فضل فى هذه المزايا التى تجدها فيها ـ فتأمل :

«هل ترى لفظة منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأُفردت، لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهى فى مكانها من الآية ؟

« قل : .. « ابلعى » أو اعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها .. ! وكذلك فاعتبر سائر ما يليها .. !

« وكيف بالشك فى ذلك ؟

« ومعلوم أن مبدأ العظمة ـ فى الآية ـ أن نوديت الأرض ، ثم أُمرت .. ثم فى أنْ كان النداء بـ « يا » دون أى .. نحو يا أيتها الأرض .. ثم إضافة الماء إلى الكاف ، دون أن يقال « ابلعى الماء » ثم أن أُتْبِعَ نداء الأرض وأَمْرُها بما هو من شأنها ـ نداءَ السماء ، وأمرَها كذلك بما يخصها .. ثم أن قيل : « وغيض الماء » فجاء الفعل على صيغة « فُعِل » الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر .. ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله : « وقُضِىَ الأمرُ» .. ثم ذِكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو: «واستوت على الجودىّ» . .

ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة ، والدلالة على عظم الشأن ..
ثم مقابلة « قيل » فى الخاتمة بـ « قيل » فى الفاتحة .. !

ثم يقول :

« أفترى فى شيء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ـ تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب ؟ »[1]

أرأيت كيف طوّف بك عبد القاهر من هذه الآية حول جنات معجبة ، وجاس بك خلالها ، وملأ يديك من ثمارها ؟

وكيف كشف لك عن مكنون جواهرها ، وكريم دررها ؟

إنك لو عدت إلى الآية الكريمة فقرأتها فى صحبة هذه الإشارات التى أشار بها عبد القاهر لوجدت خيرا كثيرا ينثال عليك من كل مقطع من مقاطع الآية .. فإن عبد القاهر لم يقل كلّ شيء .. بل إنه لم يقل شيئاً بالإضافة إلى ما فى الآية من معطيات لا تنفد أبدا !

ثم يعود عبد القاهر فيصل معك الحديث الذى كان فيه ، عن الكلمات ودلالاتها فى أحوال فى إفرادها وجمعها .. فيقول :

« فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاوت من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة .. وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها .. أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلّق له بصريح اللفظ . .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٧

ثم يضرب لذلك الأمثال بعرض كلمة من الكلمات ، تأخذ أوضاعاً مختلفة في الكلام ، فيكون لها مع كل كلام طعم ، وفي كل نظم قيمة ووزن ..

يقول في بعض تلك الأمثال :

« ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء» .. فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع ، وضعيفة مستكرهة في موضع . . وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر ابن أبي ربيعة المخزومي :

ومِنْ مالىء عينَيْه من « شيء » غيره ... إذا راحَ نحو الجمرة البيضُ كالدُّمى [1]

وإلى قول أبي حيّه النُّميريّ :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة ... تقاضاه « شيء » لا يملّ التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول .. ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لو الفلك الدوّارُ أبغضتَ سعيه ... لعوقه « شيء » عن الدوران [2]

فإنك تراها تقلّ وتضئول بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم [3] . »

ثم يعقب على هذا بقوله :

« وهذا باب واسع ، فإنك تجد — متى شئت — الرجلين قد استعملا كلماً بأعيانها ، ثم ترى هذا قد فرع السِّماك ، وترى ذاك قد لصق بالحضيض !

« فلو كانت الكلمة إذا حُسنت حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها ، دون أن يكون السببَ

---

(١) لأنه يتغزل — عفا الله عنه — ببعض الحسان في مواقف الحج ، وعند مرمى الجمرات !!

(٢) يمدح «كافورا» في أسلوب يضمر هجاء ، وأن الحظ هو الذي يخدمه ، ويقيم له ملكا وليس عن ذكاء وعبقرية كان له هذا الملك الذي صار الى يده .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٩

فى ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم — لما اختلف بها الحال ، ولكانت إما أن تحسن أبداً ، أولا تحسن أبداً ! . . »

ثم يزيد هذا المعنى شرحا فيقول :

« وذلك أن نظم الحروف ، هو تواليها فى النطق فقط . وليس نظمها بمقتضًى عن معنى . . ولا الناظم لها بمقتفٍ رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه . . فلو أن واضع اللغة كان قد قال : « ربض » مكان « ضرب » لما كان فى ذلك ما يؤدى إلى فساد . . »

ذلك حكم مفردات اللغة عند عبد القاهر . . لا مزية للمفرادت فى ذاتها ، لأنها وُلدت هكذا بحكم وضع الناس لها ، من غير نظر إلى حسن أو قبح فيها ، وإنما هى دلالات وأسماء لمسميات !

وليس كذلك شأن المفردات حين ينضم بعضها إلى بعض ، فينتظم منها كلام ، وتجتمع من انتظامها معانٍ . .

يقول عبد القاهر :

« وأما نظم الكلِم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى ، وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس . .

« فهو إذن نظمٌ يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء إلى الشىء كيف جاء واتفق !

« ولذلك كان — أى النظم — عندهم — أى عند أرباب البيان — نظيراً للنسج ، والتأليف ، والصياغة ، والبناء ، والوشْى ، والتحبير ، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبارَ الأجزاء بعضها مع بعض ، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضِع — علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكانٍ غيره لم يصلح .

« ودليل آخر .. وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه ، دون أن يكون الغرض ترتيبَ المعانى فى النفس ثم النطق بالألفاظ، لـكان ينبغى ألا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم ، أو غير الحسن فيه ، لأنهما يحسّان بتوالى الألفاظ فى النطق إحساساً واحداً ، ولا يعرف أحدهما فى ذلك شيئاً يجهله الآخر .

ثم يقول :

« وأوضح من هذا كله ، وهو أن النظم الذى يتواصفه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله — صنعةٌ يستعان عليها بالفـكرة لا محالة ..

« وإذا كانت مما يستعان عليه بالفـكرة ، ويستخرج بالروية ، فينبغى أن يُنظر فى الفـكر .. بماذا تلبّس ؟ أبالمعانى ؟ أم بالألفاظ؟ فأى شىء وجدته الذى تلبّس به فـكرك من بين المعانى والألفاظ، فهو الذى تَحْدُث فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك، ونظمك ، وتصويرك .. فمحال أن تتفكر فى شىء وأنت لاتصنع فيه شيئاً وإنما تصنع فى غيره ! ..

« فإن قيل : النظم موجود فى الألفاظ على كل حال ، ولا سبيل إلى أن يعقل الترتيب الذى تزعمه فى المعانى ما لم تنظِّم الألفاظ ، ولم ترتبها على الوجه الخاص — قيل : إن هذا هو الذى يعيد الشبهة جذَعَةً أبداً ! [1]

« والذى يحلها .. أن تنظر : أتتصور أن تـكون معتبراً مفـكراً فى حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله ، وأن تقول : هذه اللفظة إنما صلُحت هنا لـكونها على صفة كذا ؟ أم لا يعقل إلا أن تقول : صلحت هنا لأن معناها كذا ، ولأن معنى ما قبلها يقتضى معناها ؟

« فإن تصورت الأول فقل ما شئت ، واعلم أن كل ما ذكرناه باطل . » [2]

والشبهة التى يريد «عبد القاهر» أن يجلو غواشيها هنا ، هى هذا الترابط الوثيق

(١) أى يعيد القضية كما كانت أولى الأمر ، من غير حل .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤٢

بين اللفظ والمعنى ، الأمر الذى يخيّل لبعض الناس أن الألفاظ هى التى تظهر فى الوجود أولا ، ثم تفهم منها المعانى ثانياً ..

وهذا من خداع الموقف المنحرف الذى يقفه المرء من الصورة ..

فنحن نسمع الكلام أولا .. ثم نعقل المعنى ثانياً .

ونقرأ ثم نعقل ما نقرأ ..

فاللفظ هنا يسبق المعنى !

وهذا نظر مقلوب إلى الصورة البيانية !

فما نسمع أو نقرأ من كلام، إنما هو صورة تامة ، قد تخلقت من لفظ ومعنى ، أو من معنى ولفظ ..

والبحث هنا فى هذه الصورة .. كيف تخلّقت . وكيف صارت كلاماً على لسان صاحبها ، أو قلمه ؟

هذا هو موضوع القضية التى ينظر فيها « عبد القاهر » .. والتى هى مدار البحث فى تقييم الكلام ، ووزنه بميزان الفصاحة والبلاغة .

ويقرر « عبد القاهر » أن الإنسان يفكر أولا ، ثم يطلب لأفكاره الألفاظ التى تناسبها .. فالمعنى إذن هو الذى استدعى اللفظ ليكون الحاملَ لصورته خارج الذهن ، وعلى هذا ، فاللفظ تابع المعنى ، تالٍ له ، مدعوّ من أجله .

ويعود عبد القاهر فيؤكد هذا الرأى الذى يقرره .. فيقول :

« واعلم أن ما ترى أنه لا بد منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص — ليس هو الذى طلبته بالفكر ، ولكنه شىء يقع بسبب الأول — وهو المعنى — ضرورة ، من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعيةَ المعانى ، فإنها لا محالة تتبع المعانى فى مواقعها .. فإذا وجب لمعنًى أن يكون أولاً فى النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا فى النطق !

« أما أن تتصور فى الألفاظ أن تكون المقصودةَ قبل المعانى بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر فى النظم الذى يتواصفه البلغاء فكراً فى نظم الألفاظ ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعانى إلى فكر تستأنفه لأن تجىء[1] بالألفاظ على نسقها — فباطل ، ووهم يُتَخيَّل ، إلى من لا يوفّى النظر حقه »[2]

ونحن وإن كنا نسلم مع عبد القاهر بأنه لا يمكن أن تكون الألفاظ هى المقصودة قبل المعانى بالنظم والترتيب . . ولكننا نخالفه فى القول بأن المعانى تسبق الألفاظ ، بمعنى أن يوجد المعنى فى نفس الإنسان أو فى مسرح عقله ، ثم تجىء الألفاظ بعد هذا لتتجسد فيها المعانى ، وتخرج إلى الحياة منطوقة مسموعة ، أو مكتوبة مقروءة !

ونحن — أعنى البشر — ليس فى طبيعتنا القدرة على إدراك شىء ما ؛ لم يكن مصوراً فى صورة ما . . حتى الذات الإلٓهية مع إيماننا بأنها منزهة عن التصور ، بل وعن الإدراك ، فإننا — لكى نتعامل مع الذات العليا — نصفها بصفات ، ونجعل لهذه الصفات مجالا نراها منه ونتصورها فيه !!

والمعانى الذهنية — مهما دقت ، ومهما بلغت من الشفافية — لا يمكن أن تقوم فى تفكير الإنسان إلا إذا كانت محمولة فى ألفاظ !

فنحن نفكر بمعانٍ وألفاظ معاً .

ذلك أن المعانى التى تعيش فى كياننا إنما هى وليدة التعلم والخبرة ، والاحتكاك بالحياة ، وأنها لم تدخل إلى عقولنا إلا محمولة فى قوالب من الألفاظ . .

فما فى عقولنا من أفكار ليس فى الحقيقة إلا قوالب من الألفاظ مشحونة بشحنات من المعانى . .

---

(١) فاعل « تجىء » ضمير مستتر تقديره أنت .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤٣

وانظر . . !

إن اللغة المحدودة الألفاظ .. لاتجد فى رءوس المتكلمين إلا أفكاراً محدودة أيضاً . . تكاد تُعدّ عداً مع هذه الألفاظ ، وتوزن وزناً بها .. فعلى قدر ما يملك القوم من ألفاظ يكون ما عندهم من آراء وأفكار .. وعلى عكس هذا ، اللغة الغنية فى ألفاظها ، المتسعة فى اشتقاقها . . تجد حصيلة هذه اللغة كلها فى عقل أهلها وعلى ألسنتهم وأقلامهم .. ثراءً فى المعانى على قدر الثراء فى الألفاظ .. سواء بسواء .

والفرد الواحد من أفراد الناس . . تتسع مداركه بقدر ماعنده من محصول لغته التى يتعامل بها . . فإذا حصّل قدراً كبيراً من ألفاظ لغته وتراكيبها ، كان معنى هذا أنه يملك من المعانى بمقدار هذا الذى حصله من الألفاظ والتراكيب..والعكس صحيح كذلك . .

إن الذى يولد أصمّ ، يعيش فى الناس بعقل ضامر ، مع أنه يرى كثيراً من الحقائق المنطلقة من حوله إلى كل صوب .. بل ويرى الوجود كله ، وأشياءه جميعها كما يراها الناس . ولكن آفته تحولُ بينه وبين أن يُدخل هذه الحقائق وتلك الأشياء إلى عقله فى ألفاظ، فتظل بينه وبين العالم عزلة فكرية ، وتظل أشياء هذا العالم خارج ذهنه ، لايدخل منها إلاّ ما يمكن أن يَعرف له لفظاً بأية وسيلة من وسائل المعرفة ؟

ولهذا رفع الله سبحانه وتعالى من قدر آدم ، وأعلى منزلته ، وحاجّ به الملائكة حين أطلعه عليهم ، وقد علمه أن يجعل للأشياء أسماء تدل عليها ..

وفى هذا يقول الله سبحانه :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثم عَرَضَهُمْ[1] عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ :

(١) أى الأشياء « المسميات »

أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. قالوا سُبحانَكَ ، لاَعِلْمَ لَنَا إِلاما عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ..قالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ .. فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ: إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ ، وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ »[1] .

والقدرة التى أودعها الخالق سبحانه فى بنى آدم لنقل المسميات إلى وجودهم الداخلى فى صورة كلمات — هى التى شكلت هذا العقل الذى يعيش به أبناء آدم، والذى به صاروا خلقاً آخر فوق خَلق الحيوان !

فليس إذن فى عقل الإنسان مايسمى بالمعانى ، وإنما الذى يدور فى عقله من أفكار وخيالات ، وتصورات .. هى ألفاظ محملة بالمعانى .

وعلى هذا فإذا فكر إنسان فى أمر ما فإنما يستدعى لذلك معانى مُدرَجة فى ألفاظ ، أو قل إنه يستدعى كلمات .. بمعنى أن الكلمة كائن يظهر فيعرف فى وجهه المعنى الذى يحمل دلالته !

وقد ذهب عبد القاهر مذهب من سبقه من علماء البيان واللغة الذين تأثروا بالتقسيمات المنطقية والمذاهب الكلامية .. فجعلوا الكلام لفظاً ومعنى ، كما جعلوا الإنسان روحاً وجسداً .

وسنجد مذاهب المتكلمين فى إعجاز القرآن ، والباحثين فى وجوه الإعجاز تدور فى هذه الحلقة المفرغة .. يذهب أحدهم إلى أن الإعجاز من جهة اللفظ وحسن صوغه وجمال تنسيقه ،فيلقاه آخر بأن الإعجاز إنما هو من جهة المعنى ومافيه من سمو وحكمة ، ودقة !

---

(١) سورة البقرة :آية ٣٣

على أن الحق يقتضينا أن ننصف « عبد القاهر » .. فنقول : إن الرجل لم يذهب هذا المذهب فى تقسيم هذا الكلام بين لفظ ومعنىً إلا ليردّ على تلك المذاهب الخاطئة التى تهتم بالصياغة ، وتحفل بالأسلوب ، دون إقامة وزن للمعنى .. وإلا فان الرجل ينتهى آخر الأمر بالمزاوجة بين اللفظ والمعنى ، بل والمزج بينهما ، بحيث لا يكون هناك لفظ أو معنى .. ولكن صورة مخلقة من لفظ ومعنى ! كما سنرى فيما يحدثنا به « عبد القاهر » بعد قليل .

فى ثنايا الطريق :

وطريق عبد القاهر الذى يسلكه بنا هو — كما قلنا — طريق طويل .. يعرّج فيه هنا وهناك على مواقف مختلفة من مواقف القول فى البلاغة والفصاحة ، ويعرض وجوهاً من الرأى فى موازين البيان ، وتقييم صورة الكلام ..

ونراه فى بعض مواقفه تلك يلتقى بالجاحظ ، ويفنّد رأيه فى البلاغة اللفظية ، ويحاسبه حساباً عسيراً على هذا الرأى ، الذى يهوّن فيه من شأن المعنى ، ويجعل الفضيلة كلها للصياغة اللفظية فى تقييم البيان ، ووزن البلاغة .

وسنعرض لهذا الموقف عند الحديث عن الجاحظ ورأيه فى الإعجاز .

اللفظ والنظم :

وفى بعض وقفات عبد القاهر نراه يُدير الحديث فى التفرقة بين اللفظ والنظم .. فهو لا ينكر على اللفظ قيمته وقدره فى جمال الصورة البيانية ، وإشراق وجهها .. ولكنه مع ذلك يرى أن هذا الحسن ، وهذا الإشراق ليس هو الذى تقف عنده حدود البلاغة ، وتنتهى إليه منازل البيان .. !

كذلك النظم الذى تأخذه الصورة البيانية ، وبه تترتب المعانى ، وتتعانق الأفكار .. ليس هو غاية البيان ونهاية الفصاحة إذا لم يكن لجمال اللفظ مكانه منه !

فالـكلام عند « عبد القاهر » ثلاثة منازل :

لفظ استقل بجماله ، واستغنى بحسنه . . دون أن يكون للنظم حساب فيه .

ونظم اعتمد على ترتيب المعانى ، وتآخى الأفـكار . . دون أن يسانده التأنق فى اللفظ .

وكلام حوى الحسن من طرفيه .. فجمع إلى جمال اللفظ وإشراف العبارة ، تساوُق المعنى وتلاحم الفـكرة ..

وهذا الأخير هو الذى يُبحث عنه ، ويُطلب التفاضل فيه بين البلغاء ، ومن جهته يكون الإعجاز .

يقول عبد القاهر :

« واعلم أن هذا — أعنى الفرق بين أن تـكون المزية فى اللفظ ، وبين أن تـكون فى النظم — باب يكثر فيه الغلط ، فلا تزال ترى مستحسناً قد أخطأ بالاستحسان موضعَه، فينحَلُ اللفظَ ما ليس له .. ولا تزال الشبهة قد دخلت عليك فى الـكلام وقد حسن لفظه ونظمه ، فظننتَ أن ذلك كله للفظ منه دون النظم . .

مثال ذلك أن تنظر إلى قول ابن المعتز :

وإنى على إشفاق عينى من العِدا لتجمح منّى نظرة ثم أطْرِقُ

فترى أن هذه الطلاوة ، وهذا الظّرف إنما هو لأن جعل النظرَ يجمح ، وليس هو لذلك، بل لأن قال فى أول البيت « وإنى » حتى دخل اللام فى قوله « لتجمح » ثم قوله « منى » ، ثم لأن قال « نظرة » ولم يقل النظر مثلا .. ثم لمـكان « ثم » فى قوله « ثم أطرق » .. ولِلطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف ، وهى اعتراضه بين اسم إن وخبرها بقوله « على إشفاق عينى من العِدا »[1].

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٧

وأنت ترى أن « عبد القاهر » قد وزع الحسن الذى وقع فى نفسك من هذا البيت على كل كلمة فيه ، حيث أخذت مكانها من النظم ، وجاءت حيث يطلبها المعنى ! .. وليس الحسن لألفاظ البيت مجتمعة أو متفرقة ، وإنما الحسن فى تفاعلها مع بعضها ، وتساندها فى تأدية المعنى ، وأخذ كلّ كلمة نصيبها فى البلوغ بالصورة البيانية إلى تلك المنزلة من الحسن والجمال ..

ثم يضرب « عبد القاهر » لذلك مثلا آخر . . فيقول :

« وإن أردت أعجب من ذلك فيما ذكرتُ لك ، فانظر إلى قوله :

سَالتْ عليه شِعابُ الحىِّ حين دعا ... أنصارَه بوجـــوه كالدنانير

« فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تمَّ لها الحسن ، وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخّى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد مَلُحت ولطفت بمعاونة ذلك ، ومؤازرته لها . .

وإن شككت فاعمد إلى الجارّين والظرف ، فأزلْ كلاًّ منها عن مكانه الذى وضعه الشاعر ، وقل : سالت شعاب الحىّ بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره . . ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم أريحيتك التى كانت ، وكيف تذهب النشوة التى تجدها ؟ » .

وينتهى « عبد القاهر » من هذا إلى تقرير رأيه فى كلٍّ من اللفظ والنظم ، ووضع كل منهما بمكانه من الصورة البيانية ، وأثره فيها . . يقول :

« وجملة الأمر أن ها هنا كلاماً حُسْنه للفظ دون النظم . . وآخر حسنه للنظم دون اللفظ ، وثالثاً قَرَى[1] الحسنَ من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين . .

---

(١) أى نال وأخذ .

ثم يقول :

« والإشكال فى هذا الثالث ، وهو الذى لا تزال ترى الغلط عارضك فيه ، وتراك قد حِفْتَ[1] فيه على النظم فتركته ، وطمحت ببصرك إلى اللفظ ، وقدّرتَ فى حُسْنٍ — كان به وباللفظ — أنه للفظ خاصة .

« وهذا هو الذى أردتُ حين قلتُ لك : إن فى الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلاّ من بعد العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته »[2] .

وهنا يقدم عبد القاهر صورة من صور البيان ، ويكشف لك عن حظ كل من اللفظ والنظم فيما اشتملت عليه من روائع البيان ، وآيات الإعجاز !

يقــول :

« ومن دقيق ذلك وخفيّه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : « واشتعل الرأسُ شيباً » لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة . ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا للمزية موجباً سواها . . هكذا ترى الأمر فى ظاهر كلامهم . . وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرفُ العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام — لمجرد الاستعارة . ولكن لأن يُسلَك بالكلام طريقٌ ما يسند الفعل فيه إلى الشىء وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يُسند إليه ، ويُؤتى بالذى الفعل له فى المعنى — منصوباً بعده ، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان لأجل هذا الثانى ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة . وذلك أننا نعلم أن « اشتعل » للشيب فى المعنى ، وإن كان هو للرأس فى اللفظ » .

---

(١) حفت : أى جرت وتجاوزت الحد . . من الحيف وهو الظلم

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٨

ثم يقول :

« يَبِينُ أن الشرف كان لأن سُلِكَ فيه هذا المسلك ، وتُوخِّيَ به هذا المذهب أن تدع[1] هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ وتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول « اشتعل شيب الرأس » – واشتعل « الشيب في الرأس » . . ثم تنظر : هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التى كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب فى أن كان « اشتعل » إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولِمَ بان بالمزية من هذا الوجه تلك البينونة؟ – قلتُ – : فإن السبب أن يفيد – مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو الأصل – الشمول[2] ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعمّ جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا مالا يعتدّ به .. وهذا مالا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب فى الرأس .. وَوِزان ذلك أن تقول : اشتعل البيت ناراً،فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول،وأنها قد استولت عليه ، وأخذت فى طرفيه ووسطه، وتقول اشتعلت النار فى البيت، فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضى أكثرَ من وقوعها فيه ، وإصابتها جانباً منه[3] » .

هذه إحدى وقفات عبد القاهر فى طريقه إلى الكشف عن وجوه الإعجاز فى القرآن ، ودلائل هذا الإعجاز .

وهو فى هذه الوقفة – كما رأيت – لا يرى الكلام لفظاً ومعنى ، وإنما يراه « صورة » شاخصة ، وكائناً حياً تتساند جميع أعضائه وأجهزته على وجوده ، وعلى إعطائه هذا الوجود الذى يعيش فى الناس به .. فإذا انفصلت هذه الأعضاء،

(١) المصدر من أن والفعل وقع فاعلا للفعل « يبين » فى أول هذا الكلام

(٢) الشمول : مفعول به للفعل يفيد

(٣) دلائل الإعجاز ص٧٩

وزايلت أماكنها ، أو تحولت عنها ، أو تبادلت مواضعها فيما بينها اختلّ وجود هذا الكائن ، وفسدت حياته !

ولعلك تذكر ما قلنا عن « عبد القاهر » قَبلًا من أنه لاهتمامه بالنظم يبدو وكأنه يقفو آثار السابقين فى تقسيم الكلام إلى لفظ ومعنى ، وقد دفعنا هذا الوهم ، وقلنا إنه فعل ذلك ليردّ على الذين يحتفلون باللفظ ، ويهوّنون من شأن المعنى ، وعلى رأسهم « الجاحظ » .. وأن الرجل فى صميمه لايرى الكلام إلا صوراً بيانية أشبه بالكائنات الحية يقوم فيها جسد وروح .. وأن الكائن الحى لا يكون كائناً حياً إلا بالجسد والروح معاً .

خاتمة المطاف :

ونحن إذ نصل إلى خاتمة المرحلة، ونبلغ نهاية الطريق التى سلكها « عبد القاهر » للكشف عن وجوه الإعجاز فى القرآن – فإننا نطوى كثيرا من المراحل والمواقف ، دون أن نجعل لها حديثا هنا .. وذلك – كما قلنا – أنه لا يمكن أن نسجل مراحل الرحلة مرحلة مرحلة، ولا أن نقفو خطوات عبد القاهر فيها خطوة خطوة، وإلا نقلنا إليك الكتاب كله .. وهذا ما لم نتجه إليه ، ولم نر لك غِنًى فيه ، إلا أن ترجع إلى كتابه نفسه .. وتنفرد به !

ولعلك تسأل بعد هذا: وماذا أفدنا من هذه الصحبة التى صحبنا فيها « عبد القاهر » فى بعض مراحل الطريق ؟ وهل وضع فى أيدينا شيئًا نمسك به من وجوه الإعجاز ؟ وهذا سؤال كنت أريد أن أسألك إياه ، لتبحث أنت عن جوابه عندك ، فيما وقع لك من حديثه عن الإعجاز فى هذا الحديث الذى سقته إليك على لسانه .. ولكن يجدر بنا أن نستعيد معًا أصداء هذا الحديث ، ونستجمعها قبل أن تنفلت منّا .. فماذا نجد منها ؟

الحق أننا لانجد « عبد القاهر » قد حدثنا حديثاً مباشراً عن أى وجوه من وجوه الإعجاز فى القرآن .. فهو لم يقل: إن القرآن معجز فى ألفاظه أو فى معانيه، أو فى كذا وكذا من وجوه الإعجاز التى تحدث عنها من تحدثوا فى وجوه الإعجاز .. ولم يلق القرآن لقاء مواجها يكشف عن وجه أو وجوه الإعجاز فيه!

ولكنه مع هذا وضع بين أيدينا ميزاناً نزن به الكلام، ونعرف به الجيد والردىء منه، ونفاضل بين الجيد والأجود ..

ولو لم يكن لعبد القاهر من فضل هنا إلا أنه دفع عن البلاغة هذا المفهوم الخاطىء الذى كان يذهب مذاهب الجدل اللفظى، البعيد عن الذّوق الجمالى، الجائر على حظ العاطفة والوجدان منها — لو لم يكن له إلا هذا لكان ذلك فضلا كبيراً يُعرف له ويحمد من أجله!

فإن الذّوق الوجدانى لجمال الكلام، وروعة النظم، هو الذى يكشف بعض الإعجاز القرآنى .. وأن الذى يبحث عن الإعجاز من غير أن يستصحب هذا الذّوق لن يجد بينه وبين القرآن طريقا يصل منه إلى ما فيه من آيات الإعجاز ودلائله .

ثم أحقًّا أن عبد القاهر لم يقل قولا صريحًا فى إعجاز القرآن؟

لقد قال الرجل قولا بليغًا صريحًا فى هذا ..

ولماذا إذن كان الرجل يجهد نفسه، ويكدر ذهنه فى الكشف عن أسرار البلاغة فى الكلام؟

أليس ذلك لأنه يريد أن يفتح بهذا مغالق الطريق للنظر فى إعجاز القرآن؟

إنما انتهى إليه عبد القاهر من أن «النظم» — لا اللفظ ولا المعنى — هو مجال التفاضل بين كلام وكلام — هذا الرأى هو فى ذاته مقطع القول فى مبحث الإعجاز .

فالصورة الكلامية ، أوالبيانية ، هى التى ينبغى أن تكون فى معرض النظر عند الموازنة والمفاضلة بين أساليب القول والبيان !

وبالقدر الذى يكون فى الصورة من صحة المعنى ، ودقته ، وجمال اللفظ واتساقه ، يكون حظها من الفضل والإحسان بين الكلام !

والقرآن الكريم ــ على هذا ــ صور من صور البيان . . !

ولكن أى صور هى ؟ ومامكانها ؟

إن ذلك يحتاج إلى أن تنظر فى القرآن الكريم كله ، آية آية ، لتطلع على وجوه الحسن فيها ، وتفتش عن مواطن الجمال منها .. فى كل كلمة ، بل فى كل حرف .. لتتحقق من أن « الصورة » القرآنية كائن حى ، سوّته يد القدرة على أتم صورة وأكملها .. وقد نظر لك « عبد القاهر » فى بعض آيات الكتاب الكريم ، وأراك ما وعى نظره منها ، وما اهتدت بصيرته إلى وجوه الحسن والروعة فيها .. ثم عليك أنت بعد هذا أن تنظر فى كتاب الله ، وتستحضر له قلبك وعقلك .. وسترى أنك فى جناب خصيب . تتنقل فيه ، من خير إلى خير ، ومن طيب إلى طيب .. لاينفد أبداً !!

ولا نريد أن ندع « عبد القاهر » وكتابه : « دلائل الإعجاز » دون أن نلتقط شيئاً آخر من جَنَى ثمره الذى قدم لنا فيما سبق طرفاً منه .. فإنه وإن بدا لنا أن لا جديد عنده فيما وراء آرائه التى سلفت ، إلا أنه فى كل مرة يعرض فيها رأيا من آرائه يفتح طاقات جديدة من النور ، تزداد بها معالم الطريق وضوحاً واستقامة إلى الغاية التى يريد بلوغها للوقوف على « دلائل الإعجاز » .. فإذا كان « عبد القاهر » قد جعل « النظم » أو الصورة التى يكون عليها الكلام هو الوجه الذى يبدو فيه حسنه ورونقه ، ويُعرف فيه مكانه ومنزلته فى منازل الفصاحة

والبيان ـ فإنه قد ذهب لذلك مذاهب كثيرة ، يقيم بها الحجة لهذا القول ، ويثبت دعائمه .. وهنا نعرض مذهبا من مذاهبه ، وحجة من حججه .. يقول :

« واعلم أنه إذا كان بّيناً فى الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذى عليه حتى لا يَشْكُل ، وحتى لا يحتاج فى العلم بأن ذلك حقه ، وأنه الصواب ـ إلى فكر[1] وروية . فلا مزية ! ، وإنما تكون المزية ، ويجب الفضل ، إذا احتمل فى ظاهر الحال غير الوجه الذى جاء عليه ـ وجهاً آخر .. ثم رأيتَ النفس لا تنبو عن ذلك الوجه الآخر ، ورأيت للذى جاء عليه حسناً وقبولا يَعْدَمُهُمَا إذا أنت تركته إلى الثانى .. »[2]

فهذا وجه جديد من وجوه التفاضل فى نظم الكلام ..

فالكلام إذا لم يكن له إلا مدلول واحد ، لا يحتمل الزيادة أو النقص ، ولا يقبل التحوير أو التبديل ، ولا يَحمل على إعمال الروية والفكر الاستزادة مما فيه ـ أو بمعنى آخر ، إذا كان الكلام يعطيك كل ما فيه للنظرة الواحدة — فمثل هذا الكلام لا مزية فيه ، ولا مكان له فى باب الفصاحة والبلاغة !

وهذا كلام له خطره فى تقييم البلاغة ، ورسم حدودها !

فهو أولا : يفصل بين الحقائق العلمية ، والحقائق الفنية .. أو بمعنى آخر أنه يفصل بين صورتين من صور الكلام .. الصورة التى تحمل حقائق علمية ، وهذه من شأنها أن تعطى الحقيقة كاملة ، من أول فهم لمدلول كلماتها .. ثم لا تسمح بعد هذا بشيء ، ولا تنضح قطرة واحدة .. ! وليس كذلك الصورة التى تحمل الحقائق الفنية .. إنها لا تعطيك كل ما فيها مرة واحدة ، بل تشدك دائما إليها بما تحمل إليك فى كيانها ، وتمنحك إياه حالاً بعد حال ..

(١) الجار والمجرور متعلق بقوله : لا يحتاج

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢١

وهو ثانياً : يفصل بين صورتين من صور الحقائق الفنية .. فهناك من صور البيان مالا يسمح لك بكل ما فيه مرة واحدة ، بل يصرح لك ببعض ، ويلمّح ببعض ، ويعطيك شيئاً ، ويمنعك شيئاً .. حتى تعود إليه مرة ومرة ومرات ، وحتى تعاود النظر فيه ، وتردد الفكر عليه .. وهذا هو شأن الصور الفنية إذا خرجت من صَنَاع عليم .. وهناك صور من صور البيان أيضاً .. ولكنها ضحلة هزيلة ، تأخذ كلّ ما فيها بنظرة واحدة ! ثم لا شيء بعد هذا ، وإن يكن شيء فهو تافه لا نفع فيه .

ويضرب عبد القاهر للحقائق الفنية الرفيعة مثلا لآية من آيات الله المودعة فى كتابه الكريم ، وهى قوله تعالى :

« وجَعَلُوا لله شُرَكاءَ الجِنَّ » .. ثم يقول :

« ليس بخافٍ أن لتقديم الشركاء حسناً ، وروعة ، ومأخذاً فى القلوب .. أنت لا تجد شيئا منه إذا أخّرت فقلت : « وجعلوا الجن شركاء لله » .. وإنك لترى حالك حالَ من نُقل عن الصورة المبهجة ، والمنظر الرائق ، والحسن الباهر ، إلى الشيء الغفل ، الذى لا تحظى منه بكثيرٍ طائل ، ولا تصير النفس به إلى حاصل » .

ثم يقول :

« والسبب فى أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم — هنا — فائدة شريفة ، ومعنى جليلاً ، لا سبيل إليه مع التأخير .

« بيانه : أنا وإن كنّا نرى جملة المعنى ومحصولَه ، أنهم جعلوا الجنّ شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصولَه مع التقديم —

فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغى أن يكون له شريك .. لا من الجن ، ولا من غير الجن ! .

« وإذ أخِّر فقيل : جعلوا الجنّ شركاء لله . . لم يفد ذلك ، ولم يكن فيه أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى . . فأما إنكار أن يعبدوا مع الله غيره ، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن ، فلا يكون فى اللفظ – مع تأخير الشركاء – دليلٌ عليه . »[1]

ثم يضرب « عبد القاهر » مثلا آخر من آيات الله أيضاً . . وهو قوله تعالى : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ على حياةٍ »[2] . . وذلك فى شأن اليهود . .

ويقول « عبد القاهر » عن هذه الآية :

« وإذا أنت راجعت نفسك ، وأذكيت حسك ، وجدت لهذا التنكير ، وأنْ قيل : « على حياة » ولم يقل : « على الحياة » – حُسْناً[3] وروعة ، ولطفَ موقع ، لا يُقَادَرُ قدره ، وتجدك تعدم ذلك مع التعريف ، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما . .

« والسبب فى ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة ، لا الحياة من أصلها ، وذلك لا يحرص عليه إلا الحى ، أما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ، ولا على غيرها .

« وإذا كان كذلك صار كأنه قيل : ولتجدنهم أحرص الناس – ولو عاشوا ما عاشوا – على أن يزدادوا إلى حياتهم فى ماضى الوقت وراهنه حياةً فى الذى يُستقبل . . فكما أنك لا تقول هاهنا ، أن يزدادوا إلى حياتهم الحياةَ بالتعريف . .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢١

(٢) سورة البقرة : آية ٩٦

(٣) مفعول به للفعل : وجدت

وإنما تقول حياة — إذ كان التعريف يصلح حيث تراد الحياة على الإطلاق ، كقولنا : كل أحد يحب الحياة ، ويكره الموت — كذلك الحكم فى الآية[١] . »

ويختم عبد القاهر هذا الفصل معقباً عليه بقوله :

« واعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومأ إليه من الحسن واللطف ،أصلا[٢] ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويَعْرَى منها أخرى ، وحتى إذا عجّبتَه عَجِب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه . . !

« فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبداً على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة ، وإلا إعراباً ظاهراً ، فما أقل مايجدى الكلام معه »[٣] !

وأخيرا . .

وأخيراً نلتقى مع « عبد القاهر » وهو يواجه موضوع التحدى فى القرآن ، ويكشف عن الوجه الذى تحدّى القرآنُ العربَ به . . أألفاظه ؟ أم معانيه ؟ أم مفرداته ؟ أم نظمه ؟

وفى الإجابة على هذه الأسئلة يلخص « عبد القاهر » القضية كلها ، وموقفَه منها ، ورأيه فيها . . فلنسمع ، ولنزِنْ . .

يقول عبد القاهر :

« أيجوز أن يكون الله تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتحدى العرب

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٣

(٢) خبر أن

(٣) دلائل الإعجاز ص ٢٢٥

إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله ؟ .. ولابد من « لا » . . لأنهم إن قالوا : يجوز ــ أبطلوا التحدى . . من حيث أن التحدى ــ كما لا يخفى ــ مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالَب ، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضاً ، وذلك لأنه لا يُتَصَوَّر أنه يقال : إنه كان عجزٌ حتى يَثْبت معجوز عنه معلوم . . . »

ثم يقول :

« ثم إن هذا الوصف ينبغى أن يكون وصفاً قد تجدد فى القرآن ، وأمراً لم يوجد فى غيره ، ولم يعرف قبل نزوله .

« وإذا كان كذلك فقد وجب أن يُعلَم أنه لا يجوز أن يكون فى الكلم المفردة .. لأن تقدير كونه فيها يؤدى إلى المحال . . وهو أن تكون الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة قد حدث فى حَذَاقة حروفها وأصدائها أوصافٌ[1] لم تكن تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختُصت فى نفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها[2] إذا كانت متلوة فى القرآن ــ لا يجدون لها تلك الهيئات و الصفات خارج القرآن ! ــ وهذا محال ــ

« ولا يجوز أن تكون فى معانى الكَلِم المفردة التى هى لها .. بوضع اللغة .. لأنه يؤدى إلى أن يكون قد تجدد فى معنى « الحمد » و « الرب » ، ومعنى « العالمين » و « المالك » و « يوم » و « الدين » وهكذا ــ وصف لم يكن من قبل نزول القرآن .. وهذا ما لو كان هاهنا شىء أبعد من المحال وأشنع ، لكان إياه !

« ولا يجوز أن يكون هذا الوصف ــ أى موضع التحدى ــ فى تركيب

(١) فاعل الفعل : حدث . (٢) أى على تلك الهيئات والصفات .

الحركات والسكنات ، حتى كأنهم تحدّوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على توالبها فى زنة كلمات القرآن ، وحتى كان الذى بان به القرآن من الوصف فى سبيل بينونة بحور الشعر بعضها عن بعض ، لأنه يخرج إلى ماتعاطاه «مسيلمة» من الحماقة فى قوله : « إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وهاجر » . . .

« وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذى تُحدُّوا إليه ،هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل كالذى تراه فى القرآن ، لأنه ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل فى الآى كالوزن فى الشعر ، وقد علمنا اقتدارَهم على القوافى، كيف هو ؟

ثم يعقب على هذه الوجوه التى نقضها كلها بقوله :

« ومَنْ هذا الذى يرضى من نفسه أن يزعم أن البرهان الذى بان لهم — أى للعرب — والأمر الذى بهرهم ، والهيئة التى ملأت صدورهم ، والروعة التى دخلت عليهم فأزعجتهم . حتى قالوا : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمُغدق ، وإن أعلاه لمثمر » — إنما كان لشىء راعهم من مواقع حركاته ، ومن ترتيبٍ بينها وبين سكناته ، أو لفواصل فى أواخر آياته ؟ من أين تليق هذه الصفة وهذا التشبيه بذلك ؟ أم ترى أن « ابن مسعود » حين قال : فى صفة القرآن : « لا يَتْفَه ولا يُتَشانّ »[1] ! ، وقال : « إذا وقعتُ فى آل حم وقعتُ فى روضات دَمِثات أتأنق فيهن »[2] — قال ذلك من أجل أوزان الكلمات ؟ ومن أجل الفواصل فى أخريات الآيات ؟

ثم يخلُص من ذلك كله إلى القول :

(١) تفه : من التفاهة وهى صغر الشأن ، ويشان : أى يضمر وييبس

(٢) أى أتتبع محاسنهن

« فإذا بطل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن فى شىء مما عددناه لم يبق إلا أن تكون الاستعارة ،ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل فى الإعجاز ، وأن يُقصد إليها ، لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز فى آيٍ معدودة . . فى مواضع من السور الطوال مخصوصة . .

« وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون فى النظم والتأليف ، لأنه ليس من بعد ما أبطلنا ، أن يكون فيه[1] إلا النظم !

« وإذا ثبت أنه فى النظم والتأليف ، وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخِّى معانى النحو[2] وأحكامه فيما بين الكلم ، وأنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة مسلكا ينظمها ، وجامعاً يجمع شملها ، ويؤلفها ، ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخى معانى النحو وأحكامه فيها — طلبنا ما كلُّ محال دونه ! ! »[3] .

ويعود الجرجانى فيزيد هذا المعنى وضوحاً . . فيقول :

« فإذا ثبت الآن أن لاشك ولا مِرْية فى أن ليس النظم شيئاً غير توخى معانى النحو وأحكامه ، فيما بين معانى الكلم — ثبت من ذلك أن طالبَ دليلِ الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه فى معانى النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ، ولم يعلم أنها معدنه ومعانُه[4] ، وموضعه ومكانه ، وأنه لا مستنبَط له سواها ، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها — غارٌّ[5] نفسَه بالكاذب من الطمع ، ومسلم لها إلى الخُدع . وأنه إن أبى أن يكون — أى النحو — فيها ، كان قد أبى أن يكون

(١) أى فى القول بالإعجاز

(٢) يقصد بالنحو هنا النحو بمعناه الشامل أى ما للغة فى مفرداتها من معان فى أصل الوضع ، وما للنحو من قواعد فى نظم الكلام .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣١٧

(٤) أى منزله .

(٥) أى خادع نفسه ، وهو خبر أن فى قوله : أن طالب

القرآن معجزاً بنظمه ، ولزمه أن يُثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به . . وأن يَلْحَق بأصحاب الصرفة ، فيدفع الإعجاز من أصله ! »[1] .

وأنت ترى أن عبد القاهر يقرر هنا فى صراحة ، أن إعجاز القرآن هو من جهة نظمه ، وما فى هذا النظم من إحكام يجمع بين المعنى فى أروع وأصدق أحواله الداعية إليه ، وبين اللفظ فى أجمل وأليق أوضاعه لأداء المعنى المراد .

* * *

وندع موقفنا مع عبد القاهر فى كتابه « دلائل الإعجاز » لنلتقى معه فى كتابه « الرسالة الشافية » .

* * *

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٠٤

« الرسالة الشافية للجرجانى »[1]

فى هذه الرسالة يُعنى «عبد القاهر» عناية خاصة بتقرير « الإعجاز » فى ذاته ، وإقامة الأدلة القاطعة على وقوعه ، مستشهداً لذلك بالقرآن الكريم وما حمل من آيات سجلت تحدّيه للعرب ، مرة بعد مرة ، ودعوتَهم إلى معارضته ، بعشر سور ، ثم بسورة واحدة .. وذلك بأسلوب قاهر مستعلٍ .. فلما لم يقوموا له ، سجّل عليهم عجزهم هذا ، فى آيات تُتلى أبدَ الدهر ..

ولا يقف عبد القاهر عند هذا ، بل يستجلب شواهد الحال التى كان عليها العرب وما تحمل نفوسهم من حميّة تلقى كل تحدٍّ بمثله ، أو بما هو أشد منه .. بل إن هذه الحمية تدعوهم فى كثير من الأحيان إلى استجلاب الأسباب الداعية إلى المصاولات والمصادمات ، لتكشف عن قوتهم ، واحتمالهم ..

ويبدأ عبد القاهر حديثه عن الإعجاز بتقرير حقيقة مقررة ، وهى وقوع التفاضل بين الكلام .. إذ ليس الكلام على درجة واحدة فى أى مقام من مقاماته ، ولا فى أى معنى من المعانى المصوَّرة به ، وإلا لما كان الشعراء ، والكتاب ، والخطباء ، والعلماء — درجاتٍ ومنازل .. ولكان الناس جميعاً « نسخة » واحدة من كتاب مطبوع أو شىء مصنوع ! !

يقول « عبد القاهر » :

« اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو أخص به وأولى ، وضرباً

---

(١) « الرسالة الشافية » لعبد القاهر .. مطبوعة ضمن « ثلاث رسائل فى الإعجاز » . هى واحدة منهن .. تحقيق الأستاذين محمد خلف الله أحمد ، ومحمد سلام .

من العبارة ، هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى .. ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أدعى ، والنفس إليه أميل

يريد عبد القاهر أن يقرر هنا أن المعنى قد تتغير صورته ، وتفسد معالمه ، إذا لم يتوازن معه اللفظ الذى يليق به ، ويقدر على حمله بكل ما فيه من ألوان واضحة أو خفية . وبهذا يتفاضل الكلام ، فتتقدم بعض صوره على بعض بحسب ملاءمتها للمعنى ، وموازنتها له . .

ثم يقول عبد القاهر :

« معلوم أن سبيل الكلام سبيلُ ما يدخله التفاضل .. وأن التفاضل فيه غاياتٍ ينأى بعضها عن بعض ، ومنازلَ يعلو بعضها بعضاً ، وأن عِلْم ذلك علم يخص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه العرب ، ومن عداهم تبع لهم ، وقاصر فيه عنهم .. وأنه لا يجوز أن يُدَّعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبى صلى الله عليه وسلم — الذى نزل فيه الوحى ، وكان فيه التحدى — أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كملوا فى علم البلاغة وتعاطيها لما لم يكملوا له . .

« وإذا ثبت أنهم الأصل والقدوة ، فإن علمهم العلم ، فعلينا أن ننظر فى دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تُلى القرآن عليهم ، وتُحُدُّوا إليه ، وملئت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ، ومن التقريع بالعجز عنه ، وبتّ (١) الحكم بأنهم لا يستطيعونه ، ولا يقدرون عليه .

« وإذا نظرنا وجدناها تُفصح بأنهم لم يشكّوا فى عجزهم عن معارضته ، والإتيان بمثله ، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى معارضته سبيلا على وجه من الوجوه .

« أما الأحوال فدلّتْ — من حيث كان المتعارف من عادات الناس التى

---

(١) بت : أى قطع .

لا تختلف ، وطبائعهم التي لا تتبدل — ألا يسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا ينتحلوا العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم !

« كيف ؟ وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذى هو فيه من يَبْأَى[1] بنفسه ، ويدِل بشعر يقوله ، أو خطبة يقوم بها ، أو رسالة يعملها — فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل مالديه من المُنَّة[2] ، حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل ، وبنوع من التمحل . هذا ، وهو لم يرَ ذلك الإنسانَ قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ، ويهيج على تلك المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض .. وإن كان المدَّعِي ذلك بمرأى منه ومسمع كان ذلك أدعى إلى مباراته ، وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصرُ عنه ، أو أنه منه أفضل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مماتنته[3] ، ويحركه لمقاولته ، فذلك الذى يُسْهِد ليله ، ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهوده ، فى جوابه ، ويبلغ أقصى الحد فى مناقضته .. وقد عرفت قصة جرير والفرزدق[4] ، وكل شاعرين جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما يهيج على المقاولة ، ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة — كيف جدّ كل واحد منهما فى مغالبة الآخر ، وكيف جعل ذلك كل همه وكده ، وقَصَرَ عليه دهرَه ؟ هذا وليس به[5] ، ولا يخشى إلا أن يُقضَى لصاحبه بأنه أشعر منه ، وأن خاطره أحدّ ، وقوافيه أشرد ، لا ينازعه مُلكا ، ولا يفتات عليه — بغلبته له — حقاً ، ولا يلزمه به أتاوة ، ولا يضرب عليه ضريبة ! » .

---

(١) يبأى : أى يفخر (٢) المنة : القوة

(٣) مماتنته : أى مباراته ومجاراته

(٤) يشير إلى ما كان بينهما من مهاجاة ، ومناقضات استمرت سنين طويلة ، يقال أنها بلغت أربعين سنة .. وجمع منها شعر كثير لها عرف « بالنقائض » .

(٥) أى لا يهمه .

وبعد أن يكشف « عبد القاهر » عن هذه الغريزة المتمكنة من الناس ، فى منافسة بعضهم بعضاً ، وتحدى بعضهم بعضاً ، يدير النظر إلى هذه الغريزة فى الأمة العربية ، واستبداد هذه الغريزة بهم — بعد أن يكشف عبد القاهر هذه الحقيقة يتحدث عن الأمة العربية وموقفها من القرآن حين تحداها . فيقول :

بين العرب والقرآن :

« وإذا كان ذلك واجبا بين نفسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجرى على الألسن من ذكره بالفضل فقط .. فكيف يجوز أن يظهر فى صميم العرب .. فى مثل قريش ، ذوى الأنفس الأبية ، والهمم العالية ، والأنفة والحمية — من يدّعى النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبىّ بعده ، إلى آخر ما صدّع به النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول — أى النبى — : وحجّتى أن الله تعالى قد أنزل علىّ كتاباً عربياً مبينا ، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ، ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جَهِدتم جَهْدكم ، واجتمع معكم الجن والإنس — ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ، ويبينوا سَرَفه فى دعواه ، مع إمكان ذلك ، ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله ، أو قريب منه ؟ هذا ، وقد بلغ بهم الغيظ من مقالته — أى النبى — ومِنَ الذى ادعاه ، حداً تركوا معه أحلامهم الراجحة ، وخرجوا عن طاعة عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، وَلَقُوه بكل أذى ومكروه ، ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكلّ من تبعه ، بضروب المكايدة ، وأرادوهم بأنواع الشر .

« وهل سُمع قط بذى عقل ومَسكة ، استطاع أن يخرس خصما قد اشتط فى دعواه

بكلمة يجيبه بها ، فترك ذلك إلى أمور يُسَفَّه فيها ، ويُنسَب معها إلى ضيق الذرع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة ، وعزّ عليه المخلَص ؟

« أم هل عرف فى مجرى العادات ، وفى دواعى النفوس ، ومبنى الطباع أن يدَع الرجل ذو اللب حجته على خصمه فلا يذكرها ، ولا يفصح بها ، ولا يجلى عن وجهها ، ولا يريه الغلط فيما قال ، ولا الكذب فيما ادعى ، ولا يدّعى أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ؟ بل يجعل أول جوابه له ، ومعارضته إياه التسرعَ إليه، والسفهَ عليه، والإقدام على قطع رَحِمِه ، وعلى الإفراط فى أذاه ؟

« أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ولهم دين ، ونِحْلة ، فيؤلّب عليهم الناس ، ويدبر فى إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفى قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبى ذراريهم وأولادهم ، وعمدته التى يجد بها السبيل إلى تألف من يتألفه ، ودعاء من يدعوه — دعوى له[1] ، إذا بطلت بطل أمره كله ، وانتقض عليه تدبيره — ثم لا يعرض له فى تلك الدعوى ، ولا يشتغل بإبطالها ، مع إمكان ذلك ، ومع أنه ليس بمتعذّر ولا ممتنع ؟ . . »[2]

ثم يعرض « عبدالقاهر » بعد هذا لأمرٍ ربما كان مِظنَّة تهمة الإعجاز عند بعض الناس ، أو مدخلا للشك فى وقوع المعجزات عند بعض آخر .. وهو مايقع فى الحياة بين الحين والحين من ظهور النوابغ والعباقرة ، والمخترعين .. فى العلوم والفنون ..

فهؤلاء الأعلام يكونون عند ظهورهم قِمَماً شامخة بين أبناء عصرهم ، بل ربما كانوا كذلك بين أبناء العصور السابقة أو اللاحقة .. فيأتون من الأعمال أو الأقوال مايعجز عنه أبناء جيلهم أو أبناء أجيال كثيرة قبلهم أو بعدهم .. ومع هذا فلم يكونوا من الأنبياء ، ولم يدّعوا هم أو يدّعِى لهم أحد أنهم من الأنبياء أصحاب المعجزات .

---

(١) دعوى له : خبر المبتدأ « وعمدته »

(٢) ثلاث رسائل فى الإعجاز ص ١٠٧ وما بعدها

فما تأويل هذا عند من يؤمنون بالأنبياء ، ويؤمنون بما حملوا من معجزات ؟ وما الفرق بين ظهور النبيّ فى عصره ، واحتلاله بالمعجزة التى بين يديه قمّةَ الحياة — وبين العبقرى أو النابغة حين يظهر فيحتل بعلمه أو عمله قمة أشبه بهذه القمة ؟

هذا مايعرض له « عبد القاهر » ويتولى تفنيده ، والرد عليه . .

يقول « عبد القاهر » :

«واعلم أن هاهنا باباً من التلبيس ، أنت تجده يدور فى أنفس قوم من الأشقياء ، وتراهم يُؤمِئون إليه ، ويهمسون به ، ويستهوون الغرَّ الغبيّ بذكره . وهوقولهم : قد جرت العادة أن يبقى فى الزمان من يفوت أهله حتى يسلّموا له ، وحتى لا يطمع أحد فى مداناته ، وحتى ليقع الإجماع فيه أنه الفرد الذى لا ينازع . ثم يذكرون « أمرأ القيس » والشعراء الذين قُدِّموا على من كان معهم فى أعصارهم . وربما ذكروا « الجاحظ » وكل مذكور بأنه كان أفضلَ مَن كان فى عصره . . ولهم فى هذا الباب خبط وتخليط لا إلى غاية . وهى نفثة نفثها الشيطان فيهم ، وإنما أُتوا من سوء تدبرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل . .

« وذلك أن الشرط فى المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر ، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ، وتخرس الألسنة عن دعوى المداناة ، وحتى لا تحدّث نفسٌ صاحبَها بأن يتصدّى ، ولا يجول فى خَلَدٍ أن الإتيان بمثله يمكن ، وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه فى بعضه مثلَ ذلك فى كله . . »[1]

وهذا الذى يقرره « عبد القاهر » هو مقطع القول فى هذا الأمر . . إذ ليس الذى يأتى به العبقرى أو النابغة من قول أو عمل ، بالشيء الذى يقطع على الناس سبيل النظر فيه ، أو المساماة له ، أو الغلبة عليه . . فلم تشهد الحياة أبداً لإنسان أنه انقطع بعمله أو قوله عن منازعة الناس له ، والدخول معه فيما قال أو عمل . . فيقصّرون

(١) الرسالة الشافية ص ٧٧٧

عنه فى جانب ويعلون عليه فى جانب آخر فيما خيِّل إلى الناس أنه انفرد به !
وستجد لهذا الرأى حديثاً لنا ، فى موقف آخر من هذا الكتاب !

ثم يقول « عبد القاهر » :

« وأما تقدُّمُ واحد من أهل العصر سائرَهم ففى معنى تقدم واحد من أهل مصر من الأمصار غيرَه ممن يضمه وإياه ذلك المصر . لا فضل فى ذلك بين الأمصار والأعصار إذا حققتَ النظر .. إذ ليس بأكثر من أن واحداً زاد على جماعة معدودين فى نوع من الأنواع ، فكان أعلمهم ، أو أكتبهم ، أو أشعرهم ، أو أحذقهم فى صنعة ، وأبهرهم فى عمل من الأعمال .

« وليس ذلك من الإعجاز فى شىء . .

« إنما المعجز ما عُرف أنه فوق قوى البشر وقُدَرِهم ، إن كان ما يقع التفاضل فيه من جهة القُدر ، أو فوق علومهم ، إن كان ما يتفاضل فيه الناس بالعلم والفهم !

ثم يضرب لهذا مثلا بالجاحظ ، وما بلغه من مكانة فى الأدب فيقول :

« وإذا كنا نعلم أن استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب ، والبلغاء الذين تقدموا فى الأزمنة ، ولولا أنهم فَجّروا لهم ينابيع القول فاستقَوْا ، ومثلوا لهم مُثُلاً فى البلاغة فاحتذوْا — إذن لم يبلغوا شأو ما بلغوا ، ولم يدرّ لهم من ضروع القول .. ما درّ ولو أن طباعا لم تشرب من مائهم ، ولم تغذ بجناهم ، ولم يكن حالهم فى الاكتساب منهم ، والاستمداد من ثمار قرائحهم ، وتشمّم الذى فاح من روائحهم — حالَ[1] النحل التى تتغذى بأريج الأنوار وطيب الأزهار ، وتملأ أجوافها من تلك اللطائف ، ثم تمجها أرْيا ، وتقذفها مَذِياً[2] إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ فى عداد عامة زمانهم الذين لم يرووا ، ولم يحفظوا ، ولم يتتبعوا كلام الأولين من لدن ظهر الشعر ، وكانت الخطابة إلى وقتهم الذى هم فيه ، ولم يعرفوا إلا ما يتكلم به آباؤهم ،

(١) حال : خبر يكن المذكورة قبل هذا . (٢) الأرى والمذى من أسماء عسل النحل .

وإخوانهم ومساكنوهم فى الدار والمحلة ، أو كانوا لا يزيدون عليهم — إن زادوا — إلا بمقدار معلوم .

« فمن أعظم الجهل ، وأشد الغباوة أن يجعل تقدم أحدهم لأهل زمانه من باب نقض العادة ، وأن يُعَدّ معدّ المعجز ! » .(١)

وهكذا يفرق عبد القاهر بين النبىّ ومعجزته ، وبين العبقرى وما تجود به عبقريته ، من آثار ، يخرج بها على عصره ، ويعلو بها على نظرائه من أبناء جيله ، فيبدو وكأنه على قمة الإنسانية ، تلك القمة التى آثرت بها السماء الأنبياء ، واحتفظت لهم بها .. من دون غيرهم من الناس .

* * *

وأحسب أننا قد أطلنا وقوفنا مع « عبد القاهر » على حين أننا على موعد مع كثيرين غيره .. ولولا ذلك لما زايلنا موقفنا هذا ، ولانطلقنا معه ، نستمع إليه ، ونقطف من ثمراته الطيبة الذاتية القطوف . .

فالواقع أننا لم نقض حق عبدالقاهر فى تصوير آرائه التى نثرها فى مؤلفاته . . . وإنما كل ما أمكننا أن نصنعه هو قطوف من هنا وهناك ، نجد فيها أنفاس عبدالقاهر ، ونعرف منها الطريق إليه . . ليسلكه من يريد أن يرى الرجل عيانا ، ويشافهه مشافهة ، حين يجمع بين يديه . أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، والرسالة الشافية ، ويخلو بها ، ويعيش زمناً طويلا معها . .

فليأذن لنا عبد القاهر أن نتركه الآن ، وليغفر لنا إن كنا قد أسأنا الفهم عنه ، أو أخطأنا الأخذ منه . .

* * *

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ١٢٣

الزمخشرى

ورأيه فى الإعجاز

والزمخشرى[1] ينحو نحو المعتزلة ، ويأخذ بالكثير من آرائهم ، ولكنه كان حرّ الرأى ، بعيداً عن التعصب والهوى ، ولهذا لم يجنح به الجدل إلى المهاترة ، وإلى العناد ، طلباً للغلبة ، وانتصاراً للمذهب ، وإنما كان الرجل على بصيرة من أمره ، وعلى حرص على دينه، وعلى احترام لعقله .. لا يقبل من الرأى إلا ما اطمأن إليه قلبه ، وسكنت إليه نفسه ، وثَلَج به فؤاده . . ولهذا كان له احترامه ومكانته بين علماء السُّنة والمعتزلة جميعاً . .

ولو كان « الزمخشرى » على غير تلك الصفات لمال به الهوى إلى متابعة أصحابه المعتزلة فى كل مالهم من آراء ، وخاصة فيما يتصل بصفات الله وقولهم بنفيها ، ، ثم ما يترتب على ذلك من نفى صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى . . ثم ما يتبع ذلك من القول بأن القرآن ليس كلامَ الله . . ثم القول بأن القرآن حادث . . مخلوق ! . ثم أخيراً القول بأن إعجاز القرآن ، إنما كان من جهة الصرفة ، وأن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثله ، ولكن الله صرفهم عن أن يعارضوه . . وهذا ما قال به « النظام » شيخ الجاحظ ، وقال به « الجاحظ » أيضاً على نحو من الأنحاء ، وقال به غيرهما كثير من المعتزلة :

« الزمخشرى » وإن يكن قد أخذ بقول أصحابه المعتزلة فى نفى الصفات عن ذات الله ، ومن بينها صفة الكلام ، إلا أنه لم يأخذ بقولهم فى إعجاز القرآن بأنه

---

(١) هو محمود بن عمر الزمخشرى . . فقيه ، لغوى ، أديب ، يعد رأساً من رؤوس المعتزلة ومع هذا فقد كان موضع احترام أهل السنة ، لاعتدال آرائه ، واستقامة طريقته . . توفى سنة ٥٣٨ هـ .

كان « بالصرفة » . إذ هو يرى أن القرآن معجز فى ذاته من حيث هو كلام منظوم . . قد علا ببلاغته على كل كلام يقوله بشر !

وقد رأينا — من قبل — أن عبد الجبار — وهو « معتزلى » يقول بخلق القرآن ، ولكنه لا يرى مايراه كثير من المعتزلة من القول بالإعجاز بالصرفة ، بل يقرر أن إعجاز القرآن هو فى هذا النظم البديع ، وفى هذه المعانى الكريمة التى ضُمَّ عليها هذا النظم . .

* * *

ولم يؤلف « الزمخشرى » مؤلفاً خاصاً بالإعجاز ، وإنما قام بمحاولة فى هذا الباب ، لم يسبقه إليها أحد، ولا نظن أنه جاء من بعده من جرى معه فى هذا الطريق ، ذلك أنه أراد أن يقيم أدلة الإعجاز وشواهده من آيات القرآن الكريم ، وأن يجعل القرآن كله مجالا للناظرين فى الإعجاز ، والباحثين عن مواقعه فى كتاب الله . .

ولهذا فقد جعل تفسيره المعروف باسم : « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل »[1] لتحقيق هذه الغاية التى جعلها كل همه وغايته ، وهو ينظر فى كتاب الله ، ولم يأخذ الطريق الذى سار فيه المفسرون من قبله ، وهو شرح مفردات القرآن أو إعرابه أو استخلاص الأحكام الشرعية منه ، أو بيان أسباب النزول ، أو التعريف بالناسخ والمنسوخ . إلى غير ذلك من مذاهب المفسرين ومناهجهم ، فى تفسير القرآن ، وفى غاياتهم التى يقيمون عليها وجهة نظرهم فى التفسير .

كان منهج «الزمخشرى» فى تفسيره هذا ، أنه استعرض القرآن الكريم كلّه

---

(١) وقد اشتهر هذا التفسير باسم « الكشاف » ويقول « الزمخشرى » إنه ألفه وهو مجاور لبيت الله الحرام بعد أن كبرت سنه ، كما يقول إنه أتم تأليفه فى زمن يقدره بمدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وهى سنتان وبضعة أشهر .

من أوله إلى آخره ، سورة سورة ، كما يفعل المفسرون ، ولكنه ما كان يقف عند كل آية ، وإنما كانت عينه دائماً — كما كان قلبه — متطلعة إلى ما عسى أن ينكشف له من إعجاز النظم القرآنى وأسراره فى المفردات والتراكيب على السواء . كما سنرى ذلك عند النظر فى نماذج من تفسيره .

لماذا اختار الزمخشرى هذا المنهج ؟

ولعله من المناسب هنا أن نكشف عن السبب الذى من أجله اتجه « الزمخشرى » هذا الاتجاه فى التفسير ، فسلك فيه مسلكا لم يطرقه أحد قبله !

وأول ما يلقانا من « الزمخشرى » ونحن نتلمس سبباً أو أسباباً لهذا المنحى الذى انتحاه فى التفسير — على مذهب المعتزلة . . والمعتزلة — كما نعلم — مفارقات كثيرة خرجوا فيها عن طريق الجماعة ، وساروا فى اتجاهات منحرفة — مقاربة أو مباعدة — من الوجهة العامة التى سارت عليها الجماعة الإسلامية !

فهل لنا أن نحسب هذا الضرب من التفسير خطة معتزلية ، اختطها « الزمخشرى » كما كان لأصحابه أقوال ، ومتجهات ، انفرد فيها كل واحد منهم بقول أو متجه ؟

وقد يكون هذا الاستنتاج مسلماً به لو أن « الزمخشرى » أغرب فى التأويل لآيات الله ، فذهب بها مذهبا لا يرضاه المسلمون كما فعل « الباطنية » فى تفسيرهم لكتاب الله ، ولكن « الزمخشرى » لم يخرج فى تفسيره عن الدلالات اللغوية لكلمات القرآن ، ولم يتجاوز المضمون البيانى لآياته ، كما يقع فى مفهوم أهل اللغة وأصحاب البيان . . وكل ما كان من « الزمخشرى » فى تفسيره إنما كان فى « المنهج » الذى انتهجه ، وفى الخطة التى سار عليها حيث لم يقف عند كل كلمة ، أو كل آية ، وإنما كان همه البحث عن مظان الإعجاز فيما ينكشف له من روائع البيان ، وعجيب النظم . . فى تقديم كلمة على كلمة ، أو اختيار كلمة بدل كلمة ، أو حرف مكان حرف . .

إلى غير ذلك مما تثقل به موازين الكلام فى مجال البلاغة والبيان ..

ولو كان «الزمخشرى» معتزليًا وحسب ، لأخذنا بهذا الرأى ، ولقلنا إن مذهبه هذا فى التفسير ، هو أثر من آثار النظر ، وتقليب الرأى .. الأمر الذى يدين به المعتزلة ، وينشَّئون عليه .

ولكن «الزمخشرى» كان أديبًا ضليعًا ، ذواقة لطعوم الكلام . بصيراً بمواقع الحسن ومواطن الجمال فيه .. لم تذهب مذاهب الكلام والجدل بشخصية الأديب الذى فى كيانه ، بل ظل محتفظا بطابعه الأدبى المركوز فى فطرته ، لم يفتقده فى حال من أحواله أبداً .

فهو حين يؤلف فى اللغة ، يختط منهجًا خاصًا به ، يوائم ذوقه الأدبى ، ويجرى مع فطرته فيه ، فلا يذهب مذهب أصحاب المعاجم والقواميس، فى التعويل على شرح المدلول اللغوى للكلمة ، وعرض الوجوه التى تستعمل فيها ، والمعانى التى تؤديها ، وانما هو — إن فعل شيئًا من ذلك فعله عرَضًا لا عن قصد .. ثم قصد إلى الكلمة فجاء بها منظومة ، فى مَثَلٍ سائر أو حكمة بالغة ، أو تشبيه مصيب ، أو استعارة مشرقة ، أو كناية لطيفة .. وهكذا .. وذلك ما نجد عليه كتابه «أساس البلاغة» فهو كتاب أدب ، وإن عدّ فى حساب كتب اللغة !

وأكثر من هذا ، فإن «الزمخشرى» قد ألف فى النحو كتابه «المفصل» فجاء به فريداً بين كتب النحو ، إذ لم يخرجه هذا المخرج الجاف المجدب الذى أخرجه عليه أهله ، بل إنك لتنظر فيه ، وكأنك مع كتاب بلاغة وأدب .. لم يستفرغ جهده فى هذا الجدل العقيم الذى تقوم عليه أغلب قضايا النحو ومسائله ، بل وجّه جهده إلى ما تنبض به الأساليب العربية من دلالات تُرى فى ضوئها القواعدُ العامة التى تنتظم البيان العربى ، وتحكم أساليبه .

وعلى هذا ، فإن تفسير « الزمخشرى » للقرآن الكريم على هذا النحو الذى ذهب إليه فى تفسيره هو مما أملته عليه طبيعته ، وهداه إليه ذوقه ، ومكّنه منه علمه بأساليب البيان ، وتمكنه من اللغة ، وإحاطته بمفرداتها ، وتراكيبها ، وفنون منظومها ومنثورها .

وندع هذا لننظر فيما عند الزمخشرى فى إعجاز القرآن ، فذلك هو الذى دعانا إلى السعى للقائه هنا ، بعد أن طوّفنا بحماه مستأنسين ، وطرقنا بابه مستأذنين .

ماذا عند الزمخشرى فى إعجاز القرآن ؟

قلنا من قبل إن الزمخشرى لم يتحدث حديثاً صريحاً محدداً فى إعجاز القرآن ، كما فعل أكثر الذين كان لهم حديث فى هذا الباب ، حيث يقولون مثلا : وجه إعجاز القرآن فى بلاغة نظمه ، وعلو معانيه » أو يقولون : « وجه إعجازه فى الأخبار الغيبية التى جاءت فيه » ونحو هذا — لم يتحدث « الزمخشرى » فى إعجاز القرآن حديثاً على نحو هذه الأحاديث ، وإنما فسر القرآن كله تفسيرا عرض فيه روائع النظم القرآنى ، وما ينكشف وراء هذه الروائع من أسرار ، تنبىء عن فضل هذا الكلام وعلوه على سائر الكلام . . ثم جعل لك أنت أن تصوّر وجوه الإعجاز على ما ترى من هذه الأسرار . .

إن وقوع الإعجاز أمر لاينكره أحد ، ولكن وجوه الإعجاز كثيرة ، لاتكاد تضبط ، ولهذا وقع فيها الخلاف ، وتعددت حولها الآراء .

ولقد نأى « الزمخشرى » بنفسه عن هذا المقام ، واتخذ لنفسه أفقا بعيداً ، أشرف منه على الباحثين عن وجوه الإعجاز ، فأطلع عليهم من « كشافه » نوراً مرسلا من كل آية من آيات الله ، تشير إلى معجزة ، وتتحدث عن إعجاز !

وقوع الإعجاز بعد التحدى :

ويتحدث الزمخشرى فى مقدمة تفسيره ، عن وقوع الإعجاز ، فيقول عن القرآن الكريم ، المنزل من رب العالمين :

« الحمد لله الذى أنزل القرآن كتاباً مؤلفاً منظماً ، ونزّله بحسب المصالح منجّماً ، وجعله بالتحميد مفتتحاً ، وبالاستعاذة مختتماً[١] ، وأوحاه على قسمين : متشابهاً ومحكماً ، وفصله سُوَراً ، وسوّره آيات ، وميز بينهن[٢] بفصول وغايات ، وما هى إلا صفاتُ مبتَدأ مبتَدع ، وسِمَات مُنْشَأ مخترع[٣] . فسبحان من استأثر بالأولية والقِدم[٤] ، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم . .

---

(١) يفهم من قول الزمخشرى : « وجعله بالتحميد مفتتحاً ، وبالاستعاذة مختتماً » أن ترتيب السور فى القرآن على هذا النحو الذى رتب فى المصحف توقيفى ، أى أن ذلك الترتيب كان عن أمر النبى بما تلقى من وحى فى هذا . . لان « التحميد » الذى افتتح به القرآن هو سورة « الحمد » وهى فاتحة الكتاب . ولأن « الاستعاذة » التى ختم بها القرآن هى ما فى المعوذتين : الفلق والناس .

والقول بأن ترتيب السور فى القرآن على هذا النحو الذى عليه فى المصحف — القول بأنه أمر توقيفى فيه خلاف .. والرأى الراجح أنه اجتهادى ، ونحن نرى أنه توقيفى . .

(٢) الضمير هنا للآيات . . والفصول والغايات : هى الفواصل التى تختم بها الآيات .

(٣) الضمير فى قوله : ما هى إلا صفات مبتدأ مبتدع يعود إلى الآيات ، ومبتدأ مخترع على زنة اسم المفعول ، ومراده به أن القرآن مخلوق أى أن الخالق سبحانه ابتدأه وابتدعه ، وأنشأه واخترعه . . وعلى هذا فإن الزمخشرى يرى رأى أصحابه المعتزلة فى أن القرآن مخلوق محدث ، وليس قديماً . .

(٤) وقوله : سبحان من استأثر بالاولية والقدم ، تعريض بالقائلين بأن القرآن قديم . . وأنه صفة من صفات الله سبحانه .

ثم يقول :

« أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانُه ، قاطعاً برهانُه ، وحياً ناطقا ببينات وحجج ، قرآناً عربياً غير ذى عِوَجٍ ، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية ، مصدِّقا لما بين يديه من الكتب السماوية ، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان ، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان ، فى كل مكان . . أفحم به من طواب بمعارضته من العرب العرْباء ، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء ، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم . على أنهم كانوا أكثر من حَصَى البطحاء ، وأوفر عدداً من رمال الدهناء ، ولم ينبض منهم عِرْق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط فى المضادة والمُضارّة ، ولقائهم الشَّراشر[1] على المعازة والمعارة ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الفَرَط[2] ، وركوبهم فى كل ما يرومونه الشطط . . إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر ، وإن رماهم بمأثُرة رمَوه بمآثر . . وقد جرد لهم الحجة أولا ، والسيف آخرا ، فلم يعارضوا إلا السيف وحده . على أن السيف القاضب مخراق لاعب ؛ إذا لم تُمْضِ الحجة حدّه . . فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطمّ على المراكب[3] ، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب » .

---

(١) الشراشر : النفس ، يقال : ألقى عليه شراشره إذا حرص عليه وأحبه وفنى فى حبه ، والمعازة الارض الصلبة ذات الحجارة ، والمعارة الجدب والقفر ، والمعنى أنهم يستهلكون أنفسهم بالإلقاء بها فى مواقع الشدة والضيق فى غير مبالاة .

(٢) فى الاصل : « الخطط » ولا مفهوم له هنا . . والفرط — على وزن فرس : التعجيل والمبادرة بالمكروه كقوله تعالى : « إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » ، والفرط أيضاً السبق إلى الموت .

(٣) فى الاصل الكواكب . . وهو تصحيف .

هذا ما يقوله « الزمخشرى » فى وقوع الإعجاز بالقرآن وقيام الحجة به على العرب ، إذ تحدّاهم أن يأتوا بأقصر سورة منه فما استجابوا لهذا التحدى ، لعلمهم بأن الأمر فوق قدرة البشر ، ولو كان ذلك أمراً واقعاً فى إمكان الناس ، وفى مجال المحاولة لحاولوا ذلك فى لجاج وعناد .. فهـم أصحاب الأنفة والحمية .. لو تحداهم الدهرُ لصاولوه وقاوموه .. ولـكن ذلك الذى رأوه فى القرآن قد قطع آمالهم دونه ، وملأ قلوبهم يأساً من أن يقوموا له .. فلم يقوموا ..

إشارات إلى وجوه الإعجاز :

وإذا كان الزمخشرى ـ كما قلنا ـ لم يتجه إلى البحث عن وجوه الإعجاز بحثاً علمياً ، يضع المقدمات ويستخلص النتائج ـ فإنه مع هذا ـ فوق منهجه فى التفسير ـ قد أشار إشارات تـكشف عن رأيه فى الجهة التى جاء منها الإعجاز ، الذى أذهل العرب وأفحمهم . .

يقول فى مقدمة « الـكشاف » :

« اعلم أن متن كل علم ، وعمود كل صناعة ـ طبقات[1] العلماء فيه متدانية ، وأقدام الصُّناع فيه متقاربة أو متساوية ، إن سبق العالِمُ العالِمَ لم يسبقه إلا بخطى يسيرة ، أو تقدم الصانعُ الصانعَ لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة . . »

يريد الزمخشرى أن يقول : إن مبادىء العلوم والصناعات قسمة مشتركة بين أربابها ، لا يكاد يفضُل فيها أحدهم الآخر .. وإنما التفاضل فيما وراء هذه المبادىء من دقائق وخفايا ، ينفضها العالم أو الصانع من ذات نفسه ، على تلك المبادىء ، وهذه الأصول ، فإذا هى خَلْق آخر من خلقه هو ، ومن نفخة روحه هو .

---

(١) خبر لأن .

يقول الزمخشرى :

« وإنما الذى تباينت فيه الرتب ، وتحاكت فيه الركب ، ووقع فيه الاستباق والتناضل ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل ، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد ، وترقى إلى أن عُدّ ألف بواحد — ما فى العلوم والصناعات من محاسن النكت والفِقَر ، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث الفكر ، ومن غوامض أسرار ، محتجبة وراء أستار ، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، وإلا واسطتهم وفصهم ، وعامتهم عُماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم ، عُناة[1] فى يد التقليد ، لا يُمنُّ عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم .. »

والزمخشرى يكشف هنا عن أصالة طبعه الفنى ، وسلامة حسه الأدبى ، إذ يجعل للجانب الإنسانى — الذاتى — مكانه وأثره فى مجال الآداب والفنون . . فهذه الأسرار المودعة فى روائع الآداب والفنون لا تعتمد على قواعد ثابتة مقررة ، من قواعد العلم والفن بقدر ما تعتمد على الروح الإنسانى ، المنطلق فى تلك المخلوقات ، التى يخلقها الأديب أو الفنان ، والتى يخلع عليها من ذات نفسه ، تلك الحياة التى تتجلى بها روائعها وعجائبها .

ثم يقول :

« ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح[2] من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق مسبكها — علم[3] التفسير ، الذى لا يقوم لتعاطيه ، وإجالة النظر فيه ، كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن ..

---

(١) جمع عان ، وهو الأسير . (٢) القوارح : جمع قارح ، وهو من ذوات الحافر ما شق نابه وطلع . . والمراد به هذا ما استكملت قوتها .. (٣) خبر إن .

« فالفقيه وإن برّز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، وإن كان من « ابن القِرِّيّة » أحفظ ، والواعظ ، وإن كان من « الحسن البصرى » أوعظ ، والنحوى ، وإن كان أنحى من « سيبويه » ، واللغوى ، وأن علَكَ[1] اللغات بقوة لَحيَيه - لايتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما : علم المعانى ، وعلم البيان . . وتمهلَ فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة ، فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرصٌ على استيضاح معجزة رسـول الله . . وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقّادها ، يقظان النفس ، درّاكا لِلّمحة وإن لطف شأنها ، منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها . . . »

فعـلم التفسير - كما يرى الزمخشرى - وهو فى منهجه علم غايته البحث عن أسرار القرآن ومواقع إعجازه - هـذا العلم لا يستجيب إلا لمن أوتى حظاً كبيراً من علمى المعانى والبيان ، مع فطرة سليمة ، وبصيرة نافذة ، ونفس يقظى . .

وإذن فمظانّ الإعجاز فى القرآن ، هى ما ضُمّ عليـه نظمه من دقيق المعانى ، ولطيفها ، وما تحمل ألفاظه فى كيانها من أسرار محجبة لا ترى إلا لمن أوتى حظا من ذوق الـكلام ، وفهم مرامى البيان . .

أمثلة من تفسير الزمخشرى :

ونقطع هذا الحديث ، ليصله « الزمخشرى » نفسه بما فى تفسيره من تطبيق عملى لهذا المنهج الذى رسمه لمن يدعو نفسه إلى تفسير القرآن . .

---

(١) علك : مضغ .

١ — فى قوله تعالى :

« وَابتلوا اليَتامى حتَّى إذَا بَلَغوا النـكاحَ ، فإنْ آنَسْتُمْ مِنهُمْ رُشداً فادْفَعُوا إلَيهِمْ أموالَهم ، ولا تأكلوهَا إسْرافاً ، وَبِداراً أنْ يكـبَرُوا »[١] .

يقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : « وابتلوا اليتامى » : واختبروا عقولهم ، وذوقوا أحوالهم ، ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ ، حتى إذا تبينتم منهم رشدا ، أى هداية ، دفعتم إليهم أموالهم من غير تأخير عن حدّ البلوغ . .

« وبلوغ النـكاح ، أن يحتلم ، لأنه يصلح للنـكاح عنده[٢] ، ولطلب ما هو مقصود به ، وهو التوالد والتناسل . .

« والإيناس : الاستيضاح ، فاستعير للتبين . .

ثم يقول : فإن قلتَ : مامعنى تنـكير الرشد ؟ قلتُ : معناه نوعا من الرشد ، وهو الرشد فى التصرف والتجارة ، أو طَرَفاً من الرشد ومَخيلةً من مخايله ، حتى لا ينتظر به تمام الرشد » .

٢ — فى قوله تعالى :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فى الأرْضِ ، وَلاَ طَائرٍ يَطيرُ بجناحَيْهِ إلاَّ أُمَم أمْثَالُـكُمْ ، مَا فَرَّطْنا فى الـكتابِ مِنْ شَىْء . . ثم إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »[٣] .

يقيم الزمخشرى اعتراضاً بقوله : فإن قلت : كيف قيل : « إلا أمم » مع إفراد الدابة والطائر ؟ قلت : لمَّا كان قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر » دالاً على معنى الاستغراق ، ومغنياً عن أن يقال : وما من دواب ولا طير ، حُمل قوله — تعالى — « إلا أمم » على المعنى !

---

(١) سورة النساء : آية ٦

(٢) الضمير راجع إلى الاحتلام ، أى عند الاحتلام

(٣) سورة الأنعام : آية ٣٨

ثم يقيم اعتراضاً ثانياً فيقول : فإن قلت : هلاَّ قيل : « وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم » ؟ وما معنى زيادة قوله : فى الأرض ، ويطير بجناحيه ؟ قلت : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط فى جو السماء من جميع مايطير بجناحيه ، إلا أمم أمثالكم ، محفوظة أحوالها ، غير مهمل أمرها . .

ثم يورد اعتراضاً ثالثاً . . فيقول : فإن قلت : فما الغرض فى ذكر ذلك ؟ قلت : للدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لها ، قائم عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان » .

٣ — فى قوله تعالى :

« وَإِنَّ لَكُمْ فى الأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائغاً للشاربين »[1] .

يقول الزمخشرى : « من بين فرث » أى يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم ، يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله ، لا يبغى أحدهما عليه ، بلون ولا وطعم ، ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله . .

« قيل : إذا أكلت البهيمة العلف ، فاستقر فى كرشها . طبخته ، فكان أسفله فرثاً ، وأوسطه لبناً ، وأعلاه دما ، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة ، تقسمها ، فتجرى الدم فى العرق ، واللبن فى الضروع ، وتبقى الفرث فى الكرش . . فسبحان الله ! ! ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته لمن تفكر ، وتأمل ! !

---

(١) سورة النحل : آية ٦٦

« وسئل « شقيق » عن « الإخلاص » فقال : تمييز العمل عن العيوب ، كتمييز اللبن من بين فرث ودم !

« سائغاً » سهل المرور فى الحلق ، ويقال : لم يغص أحد باللبن قط . . وقرىء « سيِّغاً » بالتشديد ، و « سَيْغاً » بالتخفيف ، كهين ، ولين » .

ثم يورد الزمخشرى — بعد تفسير الآية على هذا الوجه — اعتراضاً ، ويردّه .

يقول : فإن قلت : أى فرق بين « من » [1] الأولى والثانية ؟ قلت : « الأولى للتبعيض ، لأن اللبن بعض مافى بطونها ، كقولك أخذت من مال « زيد » ثوباً ، والثانية لابتداء الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء ، الذى منه يبتدأ ، فهو صلة لنسقيكم ، كقولك سقيته من الحوض ، ويجوز أن يكون حالا من قوله « لبناً » ـ مقدما عليه ، فتعلق بمحذوف ، أى كائنا من بين فرث ودم ، ألا ترى أنه لو تأخر ، فقيل : لبناً من بين فرث ودم كان صفة له ؟ . وإنما قدم لأنه موضع العبرة فهو قَمِنٌ بالتقديم .

وقد احتج بعض من يرى أن المنىّ طاهر على من جعله نجساً ، لجريانه فى مسلك البول ـ بهذه الآية ؛ وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر ، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً » .

* * *

هذه أمثلة من منهج « الزمخشرى » فى تفسير القرآن . . وهو منهج ـ كما ترى ـ قائم على النظر فى مواقع الروعة والإعجاز ، فيما ينكشف للناظر فى كتاب الله ، من دلالات روعته وإعجازه . .

---

(١) « من » الأولى هى : « من » فى مما فى بطونه ، و « من » الثانية هى : « من » فى « من بين فرث ودم » .

فإذا لم يكن « الزمخشرى » قد بحث فى إعجاز القرآن بحثاً علمياً « موضوعياً » كما فعل كثير غيره ممن حاولوا تلك المحاولة — فإنه — كما قلنا ، وكما رأيت — قد جعل القرآن كله ، آيات معجزة ، تطلع من كل حرف من حروفه، ومن كل كلمة من كلمه ، وفى كل آية من آياته . .

وبهذا يرى الناظر فى كتاب الله وجوهاً لا تنتهى حصراً وعدًّا من وجوه الإعجاز ، تختلف فى صورها ، وفى ملامحها ، وتتفق فى قهرها وإعجازها . .

وهذا هو أعدل منهج وأقومه ، لمن يريد أن يشهد مشاهد الإعجاز فى القرآن ! حيث يظل القرآن هكذا جنة سماوية ، فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة . . فحيث كان الناس من القرآن الكريم ، فهم فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، « كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل » .

* * *

القاضى عياض

٤٧٦ — ٥٤٤ هـ

١٠٨٣ — ١١٤٩ م

كلمة عنه :

هو القاضى عياض بن موسى بن عياض بن عمر الْيَحْصُبىّ السَّبْتى .. عالم المغرب، وإمام أهل الحديث فى وقته . . كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، وَلِى قضاء « سبتة » ، ومولده فيها . . ثم قضاء غرناطة . وتوفى بمراكش . . ومن تصانيفه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » و« طبقات المالكية » ، و« شرح صحيح مسلم » و « مشارق الأنوار » فى غريب الحديث ، وكتاب فى التاريخ (١) .

رأيه فى الإعجاز :

وقد عرض القاضى عياض فى كتابه : الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ـ لإعجاز القرآن ، من حيث كان هو المعجزة الخالدة للرسول الكريم .

ويحصر القاضى عياض وجوه إعجاز القرآن فى أربعة أوجه :

الوجه الأول :

« حُسن تأليفه ، والتئام كَلِمه وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب .

« وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وفرسان هذا الكلام ، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم مالم يُخَص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذَرابة اللسان

(١) الأعلام لخير الدين الزركلى جزء /٢ ص ٧٤٩
« نقلا عن وفيات الأعيان »

مالم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب . . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة . . يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويُدلون به إلى كل سبب . . فيخطبون بديهًا فى المقامات ، وشديد الخَطْب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . . فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويُذهبون الإحَن ، ويهيجون الدِّمن ، ويجرِّئون الجبان ، ويبسطون يد الجَعْد البنان ، ويصيرون الناقص كاملا ، ويتركون النبيه خاملا . . منهم البدوى ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوْهَرِىّ ، والمنزع القوى . . ومنهم الحضرى ، ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل والمتصرف فى القول ، القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية .

« ولهم الحجة البالغة ، والقوة الدامغة ، القِدح النابح ، والمهيع الناهج . . لا يشكّون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قد حوَوْا فنونها واستنبطوا عيونها ، ودخلوا من كل باب من أبوابها ، وعلَوْا صرحة لبلوغ أسبابها ، فقالوا فى الخطير والمهين ، وتفننوا فى الغث والسمين ، وتقاولوا فى القُلّ والكُثْر ، وتساجلوا فى النظم والنثر[1] .

« فما راعهم إلا رسول كريم ، بكتاب عزيز ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .. أحكمت آياته ، وفُصِّلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتظافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه . وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان جوامعه

---

(١) لعلك تلحظ فى هذا القول أثر الجاحظ ، الذى سبق بمثل هذا الرأى .

وبدائعه ، واعتدل على إيجازه ، حسن نظمه ، وانطبق على كثرة فوائده ، مختار لفظه ، — وهم — أى العرب — أفصح ما كانوا فى هذا الباب مجالا ، وأشهر فى الخطابة حالا ، وأكثر فى السجع والشعر ارتجالا ، وأوسع فى الغريب واللغـة مقالا . . بلغتهم التى بها يتحاورون ، ومنازعهم التى عنها يتناضلون ، صارخا بهـم فى كل حين ، ومقرعا لهم بضعة وعشرين عاما على رءوس الملأ أجمعين :

« وإن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مما نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنا فأتُوا بسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فاتَّقُوا النَّارَ التِي وَقُودُها الناسُ وَالحجارَةُ أُعِدَّتْ لِلكافرينَ »(١)

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ على أَنْ يأتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يأتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً »(٢)

« قُلْ فأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ »(٣)

ذلك أن المفترى سهل ، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب . . واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح ، كان أصعب .

« فلم يزل يقرعهم صلى الله عليـه وسلم أشد التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويذم آلهتهم وإياهم ، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم فى كل هـذا ناكصون عن معارضته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتـكذيب ، والإغراء بالافتراء ، وقولهم :

« إن هذَا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ » و « سِحْرٌ مُسْتَمِر » و « إفْكٌ افْـتَرَاهُ » و « أساطِيرُ الأوَّلِينَ » . .

---

(١) سورة البقرة . آية ٢٤ (٢) سورة الإسراء : آية ٨٨ (٣) سورة هود : آية ١٣

والمباهتة والرضا بالدنيئة ، كقولهم :

« قُلُوبُنَا غُلْفٌ » و « فى أَكِنَّةٍ مما تدعُونا إِلَيْهِ » و « فى آذَاننا وَقْرٌ » و « مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » و « لاتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآن والْغَوْا فِيه لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »(١)

هذا وجه من وجوه الإعجاز كما يراه القاضى عياض . . وهو — كما ترى — ليس من وجوه الإعجاز ، وإنما هو شاهد من شواهد الإعجاز ، ودليل من أدلته !

وقد بقيت هناك وجوه أخرى سيحدثنا عنها القاضى عياض . . فماذا يقول فيها ؟.. سنرى . .

الوجه الثانى :

وعن هذا الوجه يقول القاضى عياض :

« صورة نظمه العجيب ، والأسلوب القريب ، المخالف لأساليب العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفت مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته إليه ، ولم يوجد قبله ، ولا بعده ، نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شىء منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلّهت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم ، أو سجع ، أو رجز أو شعر » . .

وهذا الوجه الذى يقول به القاضى عياض من وجوه الإعجاز هو ما عليه أكثر الذين نظروا فى إعجاز القرآن ، وحاولوا الكشف عن بعض وجوهه . . وهو هذا الأسلوب الذى انفرد به القرآن ، وجاء فيه على صورة من النظم لم تقع للعرب ، وإن جمعت الطيب الحسن من كل أسلوب . .

(١) سورة فصلت : آية ٢٦

الوجه الثالث :

أما الوجه الثالث من وجوه الإعجاز – كما يرى القاضى عياض – فهو ما انطوى عليه – القرآن – من الإخبار بالمغيبات ، وما لم يكن ، وما لم يقع ، فوُجد كما ورد على الوجه الذى أخبر .

كقوله تعالى :

« لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ »[1] وقوله تعالى : « وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون »[2] . وقوله : « لِيظهرَهُ عَلَى الدِّينِ كله » . وقوله : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ، كما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا »[3]..وقوله : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » .

فكان جميع هذا كما قال .. فغلبت الرومُ فارسَ فى بضع سنين، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فما مات النبى صلى الله عليه وسلم وفى بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين فى الأرض ، ومكّن فيها دينهم، وملّكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « زُويت لى الأرض ، فأُريتُ مشارقَها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوى لى فيها . . »

والإخبار بالمغيبات التى يقول بها القاضى عياض – كما قال بها غيره – ليس وجهاً من وجوه الإعجاز يمكن أن يقطع الخصم عن المعارضة ، ويمسك به عن العناد واللجاج ، إذ كثير من الكهان كانوا يرجمون بالغيب ، فيصيبون ويخطئون ، ولو كان القرآن حين تحدى العرب – قد أشار إلى هذا الوجه من التحدى

---

(١) سورة الفتح : آية ٢٧ (٢) سورة الروم : آية ٢ (٣) سورة النور : آية ٥٥

لمَا أقروا بالعجز عنه ، ولما شهدت عليهم الحياة به ، بل لكان لهم على هذا الوجه سبيل إلى المجادلة والمحاجّة والمعارضة ، ولاستدعوا إليهم كهنتهم وأصحاب الرؤى عندهم . . ولكان لهم قول إلى جانب هذا القول الذى جاء به القرآن . . ولأن بَعُدَ ما بَيْن القولين فى مقام الصدق واليقين ! ولكن الخصم العنيد المتجبر لا يستسلم حتى يرمى بآخر شىء فى يده ، حتى ولو كان عوداً من الحطب يقاوم به السيوف والرماح !

الوجه الرابع :

والوجه الرابع من وجوه إعجاز القرآن ـ كما يقول للقاضى عياض ـ هو : « ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة، مما كان لا يَعْلَمُ منه القصةَ الواحدة إلا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب ، الذى قطع عمره فى تعلّم ذلك . . فيورده النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه ، ويأتى به على نصه . فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله لم ينله بتعليم ، وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أمىّ لا يقرأ ، ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة[1] ، ولم يغب عنهم ، ولا جهل حالَه أحد منهم . . »[2]

وهذا الوجه هو فى رأينا كسابقه . . لا يمكن أن يكون معجزة قائمة للتحدى القاطع المفحم . . وإن كان هو وسابقه مما يضفى على إعجاز القرآن جلالا وروعة، ومما يزيده إشراقاً وألقاً .

هذا : وقد أخرج القاضى عياض وجهاً من وجوه الإعجاز عن هذه الوجوه الأربعه التى حصر فيها الإعجاز القرآنى، وكأنه يرى أن هذا الوجه نافلة ، وليس أصلا فى باب الإعجاز .

---

(١) المثافنة . المجالسة، والمراد بها هنا مجالسة العلماء للتلقى عنهم .

(٢) الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى، للقاضى عياض ـ الجزء الأول ص٢١٧ ومابعدها.

يقول القاضى عياض وهو يعدد وجوهاً أخرى من وجوه الإعجاز التى لم يرها أصلا فى هذا الباب .. : « ومنها — أى من وجوه الإعجاز — الروعةُ التى تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته ، لقوة حاله ، وإنافة[1] خطره ، وهى على المكذبين به أعظم ، حتى كانوا يستثقلون سماعه ، « ويزيدهم نفورا » كما قال تعالى[2] . . ويودّون انقطاعه لكراهتهم له .

« رُوى عن نصرانى مرّ بقارئ يقرأ ، فوقف يبكى ، فقيل له : لِمَ بكيت ؟ قال : للشجا ، والنظم !

« وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام ، وبعده ، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة ، وآمن به ، ومنهم من كفر ..

« فحكى فى الصحيح عن جُبَير بن مُطعِم قال: « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور — أى سورة الطور — فلما بلغ هذه الآية :

«أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ » — كاد قلبى يطير للإسلام . !

« وفى حديث إسلام أبى ذرّ ، وقد وصف أخاه « أُنيساً » فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخى « أنيس » .. لقد ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية .. أنا أحدهم ، وأنه انطلق إلى مكة ، وجاء إلى أبى ذر بخبر النبى صلى الله عليه وسلم . . يقول أبو ذر : قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر .. كاهن .. ساحر .. ولقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر

---

(١) إنافة خطره : أى علو قدره .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن ، أنسجد لما تأمرنا .. وزادهم نفورا » — الفرقان : آية ٦٥ .

فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ! وإنه لصادق ، وإنهم لـكاذبون ! »[1] .

وهذا الوجه هو فى رأينا عمدة وجوه الإعجاز فى القرآن ، إن لم يكن هو وحده وجه إعجاز القرآن ..

فالروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعه ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته هى مناط إعجازه ، وهى المعجزة القائمة فيه أبدَ الدهر ! كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وكما يكون ذلك من حديثنا فى إعجاز القرآن بعد هذا . إن شاء الله .

وقد رأيتَ أن القاضى عياض قد جعل هذا الوجه حاشية فى وجوه الإعجاز ، وهو الوجه الذى من حقه ـ فى رأينا ـ أن يكون وجه الإعجاز وحده !

* * *

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٢٠

ابن عطية

لم يؤلف ابن عطية[1] فى إعجاز القرآن كتابا مستقلا ، وإنما حين ألّف تفسيره المعروف للقرآن الكريم ، جعل بين يدى هذا التفسير مقدمة ، تحدّث فيها عن القرآن وفضائله ، وعن الآراء التى قيلت فى جواز تفسيره أو عدم جوازه .. ثم عرض لإعجازه وللوجوه التى قيلت فى هذا الباب .

ويغلب على الظن أن ابن عطية كان ناقلا لتلك الآراء التى ذكرها فى إعجاز القرآن . . وخاصة أن علماء الأندلس ـ وابن عطية منهم ـ كانوا ـ بصفة عامة ـ يرقبون علماء المسلمين فى الشرق، ويرصدون أقوالهم وآراءهم . . ومن جهة أخرى فإن هذه الآراء ـ كما سترى ـ ليس فيها جديد فى جملتها ، وإنما هى آراء قد سبقه إليها غيره كالجاحظ ، والخطابى ، والباقلانى وغيرهم .

ولكن آثرنا أن ننقل ما سجله فى مقدمة تفسيره هذا ، إذ لا يخلو الأمر من لمحات وإشارات فيها شىء من الجدّة ، قد ألقى بها الرجل بين ثنايا هذه الآراء التى سُبق إليها .

ما المعجز من القرآن :

يرى ابن عطية أن إعجاز القرآن هو بنظمه وصحة معانيه، وتوالى فصاحة ألفاظه. وهو بهذا الرأى يجمع وجوهاً من آراء من سبقه من العلماء . . فليس النظم

---

(١) هو عبد الحق بن أبى بكر بن عبد الملك الغرناطى بن عطية ، هكذا ورد اسمه فى المقدمة التى نشرها المستشرق الدكتور « آرثر جفرى » ولكن الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم محقق كتاب البرهان ينقل عن « الديباج المذهب » أن اسمه هو : عبدالحق بن غالب ابن عبدالرءوف .. (انظر البرهان فى علوم القرآن جزء ١ هامش ص ٨) توفى سنة ٥٤٦ هـ . وهو أندلسى ، تفرد بالعلم والأدب ، وله تفسير جليل: سماه : «الجامع المحرر الصحيح الوجيز فى تفسير القرآن العزيز» . .

وحده هو وجه الإعجاز عنده كما يرى ذلك الجاحظ ، وليست صحة المعانى وتوالى فصاحة ألفاظه وحدها هى وجه إعجازه كما يرى ذلك عبد القاهر ، وغيره . . وإنما هو يجمع هذه الأمور ويجعلها وجهاً واحداً للإعجاز .

وهو بهذا الذى يقول به ، يلتقى مع جميع الذين سبقوه ممن نظروا فى الإعجاز — إلا القائلين بالصرفة — إذ الجاحظ — ومن تبعه ممن قالوا بإعجاز القرآن من جهة النظم — لاينكر ما لصحة المعانى فى القرآن من أثر فى صحة النظم نفسه .. إذ ليس النظم شيئاً ، والمعنى شيئاً آخر ، وإنما هما كيان واحد . . وكذلك الرأى عند عبد القاهر !

يقول ابن عطية فى مقدمة تفسيره المعروف : « بالجامع المحرر » :

« اختلف الناس فى إعجاز القرآن . . بم هو ؟ فقال قوم : إن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات .. وأن العرب كُلّفت فى ذلك مالا يطاق .. وفيه وقع إعجازها » .

« وقال قوم :إن التحدى وقع بما فى كتاب الله من الأنباء الصادقة، والغيوب المسدودة » .

ويُبطل ابن عطية هذين الرأيين ، ويصرح بفسادهما ، فيقول :

« وهذان القولان إنما يَرَى الإعجازَ فيهما مَن تقررت الشريعة ونبوّة محمد فى نفسه .

وأما من هو فى ظلمة كفره ، فإنما يُتَحَدَّى فيما يتبين له بينه وبين نفسه عجزُه عنه ، وأن البشر لا يأتى بمثله ، ويتحقق مجيئه من جهة التحدى ! » .

ونحن نرى أن هذا الرد غير مقنع ، ولا متكافىء مع الدعوى المدّعاة .

فالذى يرى أن الإعجاز وقع بالكلام القديم ، الذى هو صفة من صفات الله

سبحانه ، وأن العرب كلفت فى ذلك مالا يطاق ، — الذى يرى هذا الرأى ، يدعى دعوى ، لا يسندها الظاهر الذى يقوم عليه نظم القرآن ، وألفاظه .

فما جاء القرآن بكلام لم تعرفه العرب ، ولم تألفه من قبل ، وإنما هو مما دار على ألسنتها ، ونظمت منه أشعارها ، وخطبها ، ومساجلاتها ، ومحاوراتها .

وليس فى كلمات القرآن كلمة لم ترد على لسان العرب من قبل أن تدخل فى نظم القرآن . . فكيف يقال إن العرب كلفت فى ذلك مالا يطاق ؟

وقد ضربنا لكلمات القرآن مثلا بعصا موسى .. وقلنا إن عصا موسى ليست إلا واحدة من العصىّ التى يتخذها الناس من فروع الأشجار . وما أنكر فرعون وقومه من أمر هذه العصا شيئاً .. حتى إذا ألقى بها موسى من يده فعلت هذه الأفاعيل العجيبة المعجزة .

وكذلك كلمات القرآن . . هى كلمات الناس التى تداولوها فيما بينهم .. ثم أفاض الله سبحانه عليها هذا الفيض ، ونفخ فيها من روحه كما نفخ فى عصا موسى ! .. ولكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التى يعرفها الناس منها ، كما أبقى على عصا موسى طبيعتها كذلك .. وهذا هو سر الإعجاز وعظمته.. كلمات هنّ من كلام الناس ، ثم يفعلن هذا الأمر العجيب فى النفوس ، ويُقمن هذا السلطان القاهر على القلوب . . وعصا موسى هى من عصىّ ، الناس ثم تفعل ما تفعل من آيات ومعجزات ! !

وما لنا نذهب بعيداً .. ؟ النبى ذاته — صلى الله عليه وسلم — من هو ؟ وما طبيعته ؟ أليس إنساناً من الناس ؟ وُلد لأبوين كما يولد الناس ؟ يأكل ، ويشرب ، ويصحّ ، ويمرض ، ويجوع ، ويشبع ، وينام ويصحو . . وهكذا تلبسه أحوال الناس حالا حالا ، لايختلف عنهم فى شىء ، ولا يخرج على طبيعتهم

فى قليل أو كثير . . ثم هو مع ذلك ما هو من عظمة وسمو ، حتى إنه ليطول السماء ، ويتعامل معها ! !

وأما القول بأن التحدّى وقع بما فى كتاب الله من الأنباء الصادقة والغيوب المسدودة .. وبهذا فقد كُلّف العرب بما لاطاقة لبشر به ـ فهو قول مردود أيضاً ، لأن العرب لم يطالَبوا فى القرآن بأن يأتوا بأنباء من الغيب ، بل صرح القرآن نفسه بأن يجيئوا ولو بأحاديث مفتراة مختلقة . . « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات» !

ثم يقول ابن عطية بعد هذا :

« فكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن وصف القرآن ، أو نظمه وفصاحته متلقًّى من قِبَل محمد عليه السلام ، فإذا تُحدِّيت بمثل ذلك وعجزت عنه، عَلِم كل فصيح ضرورةً أن هذا نبى ، يأتى بما ليس فى قدرة البشر الإتيانُ به، إلا أن يخص الله من يشاء من عباده » .

ثم يقول : « وهذا القول هو الذى عليه الجمهور ، والحذّاق ، وهو الصحيح فى نفسه ، وأن التحدىَ إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه » .

هذا هو وجه التحدى كما يراه ابن عطية،متابعاً فى هذا غيره من جمهور النظار فى هذا الأمر . . ثم يشرح ابن عطية هذا الوجه . . فيقول :

« وجه إعجازه أن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته — سبحانه — أىّ لفظة تصلح .. ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره . .

« البَشَر : منهم الجهل ، والنسيان ، والذهول . . ومعلوم ضرورةً أن بشراً لم يكن قط محيطاً .

« فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة » . .

وهذا الذى يقرره ابن عطية ليكشف به عن سرّ الإعجاز فى نظم القرآن ، هو رأى دقيق حكيم ، نرى أن ابن عطية قد سَبَق إليه ، وأن « الرافعى » قد انتفع به انتفاعاً عظيما فى استطلاعاته حول الإعجاز فى كتابه : « إعجاز القرآن » .

فإحاطة الله — سبحانه — بكل شىء علماً ، وإحاطته بجميع الألفاظ التى تجرى على ألسنة أرباب اللغة ، هى التى أعطت القرآن الكريم هذا النظم الرائع المعجب المعجز . . فوضعت اللفظ المناسب للمعنى المناسب ، فى دقة وإحكام ، بحيث لايمكن أن يدخل عليها تقويم أو تعديل بعدها . .

أما البَشَر : فإن جهدهم محدود ، وطاقاتهم تقصُر عن أن تنفذ إلى أعماق الأمور كلها ، وتتناولها جميعها من أطرافها ، ومجال نفوسهم أضيق من أن يتسع لأكثر من حال واحدة تتلبس به فى زمنٍ ما ، ولهذا فإن ما يخرج من أيديهم يخرج وفيه هذا النقص، ومعه هذا القصور الذى يَحكمُ الطبيعة البشرية ويتحكم فيها !

ثم يردّ ابن عطية على رأى القائلين بالإعجاز بالصرفة . . فيقول :

« وبهذا المنطق يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل هذا القرآن ،فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرفوا[1] عن ذلك وعجزوا عنه».

ثم يقول :

« والصحيح أن الإتيان بمثل هذا القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين . . ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جُهده، ثم لايزال ينقحها حولا كاملا، ثم تُعطى لأحد نظيره ، فيأخذها بقريحة خاصة، وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل . وكتاب الله لو نُزعت منه لفظة ، ثم أُدير لسان العرب فى أن يوجد أحسن منها لم يوجد[2]».

---

(١) فى الأصل « حرفوا » وهو تصحيف .

(٢) مقدمة ابن عطية ص ٢٧٨ « ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز » .

وهذا الذى يقرره ابن عطية — كما قرره الجاحظ ، وكما قرره عبد القاهر من قبله — من أن إعجاز القرآن هو فى هذا النظم المحكم الذى وقعت فيه كل لفظة موقعها الذى لا يرى لها موقع أحسنُ منه ، ولا أكثر ملاءمة ، وأن نظم القرآن قد سلم من أن يعاد فيه النظر ، وأن يستأنف معه الرأى ، أو يراجع القول فى التعديل والتبديل فى كلماته أبدَ الدهر ، إذ ليس فى الإمكان أبدع مما كان — هذا الرأى من أمر الإعجاز فى القرآن هو فى الواقع أوضح أمارة من أمارات الإعجاز ، وأظهر شاهد من شواهده .

فإنه ما عمل إنسان عملاً ثم استأنف النظر فيه بعد حين — يطول أو يقصُر — إلا انكشف له كثير من جوانب النقص فيه، فأجرى عليه من التعديل والتبديل ما يحسب أنه قد بلغ به الغاية من الجودة والإتقان . . ثم إذا استأنف النظر فيه بعد هذا بدَا له من النقص ما كان خافياً .. وهذا فى كل مرة يرجع المرء فيها إلى أى عمل عمله أو قول قاله ، يجد أن هناك شيئاً أو أشياء قد وقعت فى غير موقعها ، وأن غيرها كان أولى بهذا المقام .

والقرآن الكريم ، قد نزل آية آية ، وسورة سورة ، فى مدى بضع وعشرين سنة . . وعيون العرب متطلعة إليه ، وآذانهم معلقة به ، وكيانهم كله متجه إلى كشف عيوبه، والوقوع على سقطة أو سقطات فيه .. فلم يقع لهم من ذلك شىء ، ولم تمكنهم منه فرصة . . ثم ظل هكذا على الصورة التى نزل عليها إلى يوم الناس هذا .. لم تُبدَّلْ منه كلمة ، ولم يغيَّر منه حرف .. ثم هو مع هذا على الكمال والتمام .. لا مكان فيه لكلمة تبدل ، أو حرف يغير ، فهو الكمال كله ، والتمام جميعه ، ولو أن يداً أثيمة ، أو لساناً سفيهاً أراد أن يغير حرفاً مكان حرف ، أو يبدل كلمة مكان كلمة من كتاب الله ، لافتضح أمره ، وضبط ملتبساً بهذا العمل

المفضوح ، إذ أن القرآن ينفى الخبث عن كيانه ، ولا يقبل ماليس منه ، كالجسم السليم المعافَى يطرد الجراثيم الخبيثة ، أو يقتلها . . وبهذا حفظ الله سبحانه كتابه، وتولى حراسته .

« إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] .

وكان هذا الحفظ موكولا إلى تلك القوى الروحية التى أودعها الله سبحانه كتابه الكريم ، ليدفع بها عن نفسه كل سوء يراد به ، ويردّ كل كيد يساق إليه ، وهذا مما تشير إليه الآية الكريمة :

« وإنّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لايأتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[2] .

(١) سورة : الحجر آية ٩ (٢) سورة فصلت : آية ٤١ — ٤٢

الرافعى

والإعجاز (١)

رحم الله « مصطفى صادق الرافعى » لقد كان من أول من دخل هذه الحلبة من أبناء هذا العصر، وأفسح له مكانا مع رجالها من علماء السلف فى هذه الأمة . .

فلقد كادت هذه السلسلة تنقطع ، وكاد العصر ينقضى دون أن يقوم فيه رجل يحمل الراية فى هذا الميدان ، ويؤدى للقرآن حقه الذى له على كل جيل من أجيال المسلمين . .

إن الذين كتبوا فى إعجاز القرآن كتابة متخصصة قلة معدودة . . وأغلب هؤلاء النفر القليل كان يدخل هذا الميدان خائفاً . . يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تهيباً للموقف المهيب ، وتخوفا من التقصير عن الوفاء بحق هذا المقام الكريم . . وكان آخر من دخل هذه الحلبة هو « جلال الدين السيوطى » رحمه الله ، وكان ناقلا أكثر منه باحثاً ومؤسساً . . وهو على أىٍّ محمود ، مقدور !

وجاء الرافعى . . فكان مقداما جريئاً ، يحمل قلب مؤمن ، وعقل عالم ، وقلم أديب ! وبهذه القوى استطاع أن يثبّت أقدامه ، وأن يحفظ توازنه ، وأن يمدّ يداً قوية ثابتة إلى مجانى القرآن ، فيقطف من ثمراته شيئاً موفوراً ، يقدمه للدارسين لكتاب الله ، والمتوسمين فى آياته !

وليس من شك فى أن « الرافعى » قد أفاد كثيراً من أولئك الرواد الذين

---

(١) هو الأديب مصطفى صادق الرافعى ، صاحب القلم البليغ ، والأسلوب الجزل ، خلف وراءه تراثاً عظيما طيبا من مباحث الأدب والبلاغة . . عاش من (١٨٨٠ — ١٩٣٧ م)

سبقوه إلى هذا المطلب الكريم ، كالجاحظ والجرجانى ، والباقلانى ، والزركشى ، والبقاعى، والسيوطى ، وغيرهم ممن كتبوا فى تفسير القرآن ، وفى علوم القراءات .

والذى نراه على « الرافعى » فى إعجازه أنه أراد أن يرتفع بالأسلوب إلى مستوى يليق بالموضوع الذى يعالجه ، ويتسق معه . . فهو إذ يكتب فى إعجاز القرآن ، ويقف بين يدى آيات الإعجاز فيـه ، ويستقى من عيونه المتدفقة ــ حمله ذلك على أن يُدخل على نفسه شعوراً بأنه لن ينال من القرآن شيئا ذا بال إلّا إذا مدّ إليه يداً ملففة فى أردية من الفصاحة والبلاغة ، وقلماً مملولا من فصاحة البادية ، وبلاغتها ، وكان لهذا التدبير أثره فى الخروج على الطبع ، وفى استكراه كثير من الكلمات والأساليب على أن تأخذ مواضعا غير مواضعها . . ومن هنا كان مايجده القارىء لـكتاب الرافعى ، من استغلاق فى كثير من عباراته ، ومن غموض فى كثير من آرائه .

ولو أن الرافعى جرى على طبيعته ، وأخذ من خاطره ما ينضح به دون أن يعتصر ذهنه اعتصاراً ، لـكان ذلك أجدى وأنفع ، وأبلغ ، فى بلوغ الغاية التى يريد .

ولـكن « الرافعى » أبى إلا أن يكون بليغا حتى لـكأنه ــ من غير شعور ــ يعارض ببلاغته القرآن ، ويطاول بالذُّبالة التى تعبث بها الريح فى يده ، الشمسَ فى رائعة النهار !

ونستطيع أن نستعير هنا كلمة « للرافعى » قالهـا عن كتاب « إعجاز القرآن » للباقلانى فنقولهـا نحن له عن كتابه هو « إعجاز القرآن » للرافعى ، إذ يقول :

«على أن كتاب الباقلانى ، إن كان فيه الجيد الـكثير ، كان الرجل قد هذبه وصفاه ، وتصنّع له ، إلا أنه لم يترك فيه بادرة عابها هو من غيره . . ولم يتحاش وجها من التأليف لم يرضه من سواه »[1] !

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧١

وقد عاب « الرافعى » على الباقلانى وقوفه بالإعجاز القرآنى عند حدّ الكلام ـ أى النظم ـ و « الرافعى » لم يخرج فى مداره حول الإعجاز عن هذا الوجه الذى ذهب إليه « الباقلانى » ، وإن كان الرافعى قد جمَّل هذا الوجه ، وألقى عليه بعض الألوان والأصباغ ، فى براعة ولطف ، وحسن صنعة ! فالرافعى لم يخرج فى حديثه فى إعجاز القرآن عن هذا الوجه الذى جرى عليه من سبقه من القائلين بأن النظم هو سرّ الإعجاز فيه . .

وقد حسب الرافعى أنه بهذه المزايا الكثيرة التى أظهر بها ذلك الوجه ، قدغيرت منه ، أو عددت فى صوره وأشكاله فجعلت منه وجوها . . ولهذا تراه يقول :

« بيد أن القرآن كتاب كل عصر ، وله فى كل دهر دليل من لدهر على الإعجاز ، ونحن قد قلنا فى غير الجهات التى كتب فيها مَن قَبلَنا ، وسيقول من بعدنا فيما يفتح الله به . . « إن ذلك على الله يسير »[1] .

فهل قال الرافعى حقًا فى إعجاز القرآن غيرما قال غيره ؟ وهل ذهب إلى وجه غير الوجوه التى ذهبوا إليها ؟

لقد عرفتَ الجواب على هذا مما قلنا من قبل ، وسترى بيانا شارحا لهذا الجواب فيما سنعرض من آراء « للرافعى » فى الإعجاز !

مع الرافعى فى إعجازه :

وها نحن أولاء نلتقى « بالرافعى » فى إعجازه . فماذا نجد عنده ؟

ولكن قبل أن نبدأ صحبتنا له ينبغى أن نحدد اتجاهنا معه أولا . . فلقد كان « للرافعى » اتجاهات كثيرة فى هذا البحث الذى أداره حول الإعجاز . . إذ عرض لموضوعات كثيرة لاتتجه اتجاها مباشراً إلى الإعجاز ، وإن كان لها مسلك إليه ومدخل فيه . . كتاريخ القرآن وجمعه وتدوينه ، واللغة التى نزل بها ، والحروف

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٣

التى قرىء عليها ، وكتأثير القرآن فى اللغة ، والجنسية العربية فى القرآن ، وآداب القرآن . . ونحو هذا . . ونحن إذ نريد رأى « الرافعى » فى الإعجاز . . فلنقصد إلى موضع هذا الرأى فى الكتاب . .

ما الإعجاز ؟

يرى الرافعى أن مرد الإعجاز إلى شيئين : « ضعف القدرة الإنسانية فى محاولة المعجزة ومزاولتها ، على شدة الإنسان واتصال عنايته . ثم استمرار هذا الضعف على تراخى الزمن وتقدمه . . وكأن العالم كله فى العجز إنسان واحد ، ليس له غير مدته المحدودة ، بالغة ما بلغت . . . فيصير ــ هذا الإنسان ــ من الأمر المعجز إلى ما يشبه ــ فى الرأى ــ مقابلة أطول الناس عمراً بالدهر على مداه كله . . فإن المعمَّر دهر صغير ، وإن لكليهما ــ المعمَّر والدهر ــ مدةً فى العمر هى من جنس الأخرى، غير أن واحدة منهما استغرقت الثانية . . فإن شاركتها الصغرى إلى حد ، فما عسى أن تشركها فيما بقى ؟ » (١) .

هذا هو رأى الرافعى فى الإعجاز ؟ . . وهو حقيقة المعجزة . . فلا تكون المعجزة معجزة حتى تعجز قدرة الناس كلهم عنها جيلا بعد جيل . . مع بقائها هكذا تتحدى قدرة الناس أبد الدهر !

الرافعى والآراء التى قيلت فى الإعجاز :

ثم يأخذ الرافعى فى عرض آراء العلماء السابقين فى الإعجاز ، ويستنفد جهداً كبيراً فى عرض هذه الآراء ومناقشتها . . ثم ينتهى به المطاف إلى رفض هذه الآراء جميعها ، صحيحها وسقيمها ، فإذا انتهى من هؤلاء العلماء ، وقضى فيما خلّفوا وراءهم من مباحث فى الإعجاز ــ هذا القضاء ؛ لم يدع الباب يغلق على فراغ ، بل حاول أن يسد هذا الفراغ . . وأن يقدم الرأى الذى يراه صحيحاً فى الإعجاز .

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٥٦ .

إعجاز القرآن عند الرافعي :

يقول الرافعي : « أما الذى عندنا فى وجه إعجاز القرآن ، وما ثقفناه بعد البحث ، وما انتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء ، وإطالة الفكر ، وإنضاج الروية ، وما استخرجناه من القرآن نفسه فى نظمه ، ووجه تركيبه واطراد أسلوبه ، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة ، وا كتناه الروح التاريخية فى أوضاع الإنسان وآثاره ، وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء فى الأغراض التى يُقصد إليها ، والجهات التى يعمل عليها ، فى رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوى ، التى مرجعها الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حى من الألفاظ يطابق سنن الحياة ، فى دقة التأليف ، وإحكام الوضع ، وجمال التصوير ، وشدة الملاءمة حتى يكون أصغر شىء فيه كأبرز شىء فيه — نقول إن الذى ظهر لنا بعد ذلك واستقر معنا أن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن . . ! !

« فهو — أى الإعجاز القرآنى — أمر لاتبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً ، وليس إلى ذلك مأتًى ولا جهة ، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية ، يشاركها فى إعجاز الصنعة ، وهيئة الوضع ، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغاً من ذَوْب هذه المواد كلها . . وما نظنه إلا الصورة الروحية للإنسان — إذ كان الإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله .

« فالقرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز فى أثره الانسانى ، ومعجز كذلك فى حقائقه . . وهذه وجوه عامة لاتخالف الفطرة الإنسانية فى شىء ، فهى باقية ما بقيت . . »[1] .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٥

وأنت ترى أن الرافعى قد جعل وجوه إعجاز القرآن هى :

١ ــ تاريخه . ٢ ــ أثره الانسانى . ٣ ــ حقائقه .

أما تاريخ القرآن ، ويريد به الرافعى نزول القرآن فى تلك الفترة من حياة الأمة العربية ، والتى بلغ فيها شأن اللغة عندهم غايته ،ووصل أثر الكلمة فى النفس الإنسانية مداه . . فكان مجىء القرآن فى هذه الفترة بالذات ، وعلى هؤلاء القوم بأعيانهم ، هو وجه بارز من وجوه الإعجاز !

يقول الرافعى :

« بلغ العرب فى عَقْد[1] القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يُعرف فى تاريخهم من قبل . فإن كل ما وراءه ــ أى ما وراء هذا العهد ــ إنما كان أدواراً من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها مع سنن الاجتماع . . فكانوا قد أطالوا الشعر وافتنّوا فيه ، وتوافر عليه من شعرائهم أفراد معدودون ، كان كل واحد منهم كأنه عصر فى تاريخه ، بما زاد من محاسنه ، وابتدع من أغراضه ومعانيه ، وما نَفَض عليه من الصيغ والرونق . .

« ثم كان من تهذيب اللغة واجتماعهم على نمط من القرشية ، يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن أن يكون وأخذهم فى هذا السمت ــ ما جعل (الكلمة) نافذة فى أكثرها ــ أى أكثر القبائل ــ لا يصدها اختلاف من اللسان ، ولا يعترضها تناكر فى اللغة ، فقامت فيهم لذلك دولة الكلام . . ولكنها بقيت بلا مَلِك حتى جاءهم القرآن ! »

ثم يقول :

« وكل من يبحث فى تاريخ العرب وآدابهم ، وينفذ إلى ذلك من حيث تنفذ

---

(١) العقد جمعه عقود ، وهى من الأعداد أولها عشرة ، فعشرون، فثلاثون إلى التسعين . والمراد به هنا الزمن ، أو لعل الكلمة محرفة عن عهد لأن الكتاب ملىء بالأخطاء المطبعية .

به الفطنة ، وتتأتى حكمة الأشياء ، فإنه يرى كل ما سبق على القرآن من أمر الكلام العربى وتاريخه ، إنما كان توطيداً له ، وتهيئة لظهوره ، وتناهياً إليه ، ودُرْبة لإصلاحهم به .

« وليس فى الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هذه الجزيرة .. فما كان فيهم كالبيان آنقَ منظراً ، وأبدع مظهراً ، وأمد سببا إلى النفس ، وأردّ عليها بالعافية ، ولا كان لهم مثل ذلك البيان أزكى فى أرضهم فرعا ، وأقوم فى سمائهم شرعا ، وأوفر فى أنفسهم رَيْعاً ، وأكثر فى سوقهم شراء وبيعا ! !

« وهذا موضع عجيب للتأمل ، ما ينفد عجبه ، على طرح النظر وإبعاده ، وإطالة الفكر وترداده !

« وأى شىء فى تاريخ الأمم أعجب من نشأة لغوية تنتهى بمعجزة لغوية . ؟ ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمة ، مما تنطوى عليه هذه المعجزة ، وتأتى به على أكمل وجوهه وأحسنها ، وتُخرج به الدهر خيرَ أمة كان عملها فى الأمم صورة أخرى من تلك المعجزة ؟ »[1] .

وهذا الوجه الذى يكشف عنه الرافعى من وجوه الإعجاز . . ليس جهة من الجهات التى قامت عليها المعجزة . . بل هو أقرب شىء إلى أن يكون قرينة على أن هذه الرسالة رسالةٌ سماوية حيث جاءت على هذا التدبير الحكيم ، وحيث التقت ذلك اللقاء الذى جمع هذا الجمع الفريد بين الزمان والمكان ، وأبناء الزمان والمكان ، على تلك الصورة التى ألفت منها جميعاً وَحدة واحدة كأنها جسد واحد ، ينبض بالقوة ويفيض بالحياة . . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » أى يضعها حيث تقتضى حكمته . . فى الإنسان ، والزمان ، والمكان .

ثم يتحدث الرافعى بعد ذلك عن أثر الرسالة وقوة فاعليتها فى الأمة العربية ،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٧ .

وإخراجها الناسَ عن أنفسهم ، وسلخهم عن طباعهم ، وإعادة خلقهم خلقاً جديداً . . يقول :

« هذا على أنه — أي القرآن — كما علمتَ — أنشأهم على الكِبَر[1] ، ولم يجر معهم على المألوف من مذاهب تربية الأمم ، ولا هو كان طِبَاقاً لروح الأخلاقية التاريخية فيهم ، التي تُظهرها[2] العادات على كل دين ، وشريعة ، وسياسة ، إذ كانت ميراث الدهر ، وكانت مستقرة في كل عِرْقٍ سارٍ ، وفي كل شبهة نازع ، وكانت روح الجماعة لا تكون إلا منها ، ولا تُعرف إلا بها ، ولا تظهر إلا فيها — فما عدا القرآن أن سفّه أحلامهم ، ونكّس أصنامهم ، وأزرى عليهم وعلى آبائهم الأولين ، وقام على رءوسهم بالتقريع والتأنيب ، وهم أهل الحميّة والحِفاظ ، وأهل النفوس التي تُصَبُّ كالمعاني في الألفاظ ، ثم ذهب بطريقة كانت لهم معروفة ، وعادات كانت لهم مألوفة ، وأرسلهم في طريق العمر إلى الفناء ، فكأنما طاع بهم من أولها ، وكأنهم بعد ذلك على آدابه نشأوا وهم أغفال وأحداث ، بل كأنهم سلالة أجيال كان القرآن في أوليتهم المتقادمة ، فكانوا هم الوارثين لا الموروثين ، والناشئين لا المنشّئين ، مصداقاً للحديث الشريف : « خير القرون قرني ثم الذي يليه » .

ثم يقول : « ولعمرك إن هذا لعجيب . . وليس أعجب منه إلا أن أول جيل أُنسل من هؤلاء القوم كان هو الذي تناول مفتاح العالم فأداره في أقفال الأرض ، وقد خرج للغاية التي جاء بها القرآن ، وكأنه دار معها في الأصلاب دهراً طويلا حتى أحكمته الوراثة الزمنية ، وردّت عليه من الطباع مالا يتهيأ إلا في سُلالة بعد سلالة ، وجيل بعد جيل ، من قوم قد مرَّنوا منذ أولهم في أدوار الارتقاء على سَنَن واضح ، وطريق نَهْج ، لم ينتقض لهم في أثناء ذلك طبع من طباع الاجتماع ، ولا رَذَلَت شيمة ،

---

(١) أي جاءهم القرآن وقد قطعوا في الحياة عمراً طويلا .

(٢) أي تجعل لها الغلب والاستعلاء .

ولا التوت طريقة ، ولا سقطت مروءة ، ولا ضلّ عقل ، ولا غوت نفس ، ولا عرض لهم بغى ، ولا أفسدتهم عادة !.

« وأين ذلك كله من قوم كانوا بالأمس عاكفين على الأوثان ، يأكل بعضهم بعضاً ، ولهم العادات المرذولة والعقائد السخيفة ، والطباع الممزوجة إلى غيرها ، مما يَحْمِلُ عليه الإفراط فيما زعموه فضيلة ، كحمية الأنْف ، واستقلال النفس ، ومما كان من عكس ذلك كالتسليم للعادة ، والانقياد لطبيعة التاريخ ، والمضىّ على ما وجدوا ، ثم الموت على ما وُلدوا[1] .

ثم يقول : « لاجرم أن ذلك سر من أسرار الفطرة ، فلولا أنّ كِبْرَ الأمر بينهم كان للفصاحة وأساليبها بما استقام لهم من الفطرة اللغوية وما بلغوا منها .. حتى صارت هذه الأساليب كأنها أعصاب نفسية فى أذهانهم ، تنبعث فيها الإرادة بأخلاق من معانى الكلام الذى يجرى فيها ، وتعتزّهم — أى تغلبهم — على أخلاقهم ، وطباعهم ، فتصرّفهم فى كل وجه ، كأنها إرادة جبار مُعْتَزِم ، لايلوى ولا يستأنى ، ولا يتئد .. »[2] !

وأنت ترى أن الرافعى يريد أن يقيم وجهاً آخر من وجوه الإعجاز للقرآن ، بما ترك القرآن فى العرب من آثار ، وبما غير وبدّل من طبائعهم وموروثات عاداتهم ، ومألوف حياتهم ..

ونحن لانسلِّم بما يقول « الرافعى » عن العرب ، وما كانوا عليه من سوء وفساد وأنهم كانوا يسيرون فى اتجاه مضاد للحياة حتى أشرفوا على الفناء ، وأن الإسلام دفع بهم إلى هاوية الفناء التى أشرفوا عليها ، ثم طلع بهم على الحياة من جديد .. لانسلِّم بهذا القول على إطلاقه .. إذ كان العرب على الفساد الذى ركبهم أقربَ

---

(١) أى الموت على ما ولدوا عليه .

(٢) إعجاز القرآن ص ١٧٩

الناس إلى الخير ، وإلى قبوله ، وإذ كان هذا الفساد لم يصبهم فى مروءاتهم ، وفى نخوتهم وقوة نفوسهم .. إنهم ما زالوا أرضاً طيبة .. نبت فيها الشوك ، وشوّه وجهها الجدب .. أما صميم الأرض فهو طيب .. إذا أصابها غيث اخضرّت وازهرت وأخرجت من كل زوج بهيج .. فلم يكن من إعجاز القرآن هنا إلا أنه غرس مبادىء الإسلام وشريعته فى منابت مهيأة للغرس والثمر .

ولو سلمنا بهذا القول الذى يقوله الرافعى ، لمَا كان هذا من وجوه إعجاز القرآن .. إذ لا يصح أن يكون شاهد المعجزة متراخياً فى الزمن عنها ، واقعاً فى أعقابها ، فذلك وضع لا يستقيم أبداً .. وشاهد لا تنتفع به المعجزة إلا بعد أن تَثْبُت أولا .. فإذا طلع بعد هذا شاهد جديد كان ذلك توكيداً لها ، وشاهداً يراه من لا يرى شواهد الإعجاز فى وجه المعجزة !

نعم .. يمكن أن ترى الأجيال التى جاءت بعد عصر النبوّة ، أو فى أواخر عصر النبوّة هذه الآثار التى أقامها القرآن فى الحياة ، وأخرج ثمراتها للناس .. فيتأكد فى قلوبها الإيمان ، وترسخ العقيدة ؛ ويكون فى هذا مايقيم للقرآن حجة على من لا يرون الإعجاز فى آياته وكلماته .. وإنما يرون المعجزات الحسية التى تُلمس باليد ، وتُرى بالعين !

ولكن الإعجاز الذى وقع به التحدّى هو إعجاز فى ذات القرآن .. فى آياته ، وكلماته ..

فلقد تحدى القرآن الإنسَ والجن على أن يأتوا بمثله .. ذلك ، وهو مجرد آيات تُتْلى ، وكلمات تُقرأ وتسمع .. لم تكن تلك الكلمات قد اختلطت بالحياة ، ودارت دورتها فى الناس وأقامت دولة ، وأنشأت نظاماً !

هذا الإعجاز ، هو الذى ينبغى أن نبحث عنه ، وأن ننظر إلى شواهده فى آيات

القرآن وكلماته ، كما كان ينظر إليها أولئك الذى سمعوا كلمات الله لأول مرة . .
قبل أن يدخلوا فى الإسلام ، فبهرهم القرآن ، وملك وجودهم ، وأخرس ألسنتهم .

إن النظر إلى سير الدعوة الإسلامية ، وإلى هذا الانقلاب الذى أحدثته تلك الدعوة فى الحياة ، ليس إلا أموراً عارضة لا تتصل بالصميم من المعجزة الخالدة . . إذ قد يستقيم الناس على دعوة القرآن فيَخْرجون للحياة على أكمل صورة ، وأعدل حكومة . . كما كان ذلك فى الصدر الأول للدعوة ، وقد لاتستقيم خطاهم مع دعوة القرآن فتلتوى بهم المسالك ، وتتقطع بهم السبل ! كما كان ذلك فى كثير من أحوال المسلمين فى مختلف الأوطان والأزمان . .

فلو أن معجزة القرآن كانت قائمة على هذا الوجه الذى يقول به الرافعى وهو تلك الفاعلية المذهلة التى تركها فى المجتمع الإسلامى الأول ، ولو أن هـذا الوجه قد استقام فى حال فلن يستقيم فى جميع الأحوال ، ويكون شاهد حياته هو شاهد موته ، وكما يكون حجة للقرآن ، فقد يكون حجة عليه ، كما نسمع كثيرا من السفهاء والمضللين يقولون : إن الإسلام ، وبالتالى القرآن ، هو سبب تأخر المسلمين اليوم ، وإنه لا سبيل إلى الخلاص من هـذا التخلف واللّحاق بركب الحياة إلا إذا خلع المسلمون دينهم هذا ، وألقوا ذلك الـكتاب الذى فى أيديهم !

ويقول « الرافعى » بعد هذا !

« ولولا أن القرآن الـكريم قد ملك سرّ هـذه الفصاحة ، وجاءهم منها بما لا قِبَلَ لهم بردّه ، ولا حيلة لهم معه ، مما يشبه على التمام أساليب الاستهواء فى علم النفس ، فاستبدّ بإرادتهم ، وغلب على طباعهم ، وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلافه ، حتى انعقدت قلوبهم عليـه ، وهم يجهدون فى نقضها ، واستقاموا لدعوته ، وهم يبالغون فى رفضها ، فكانوا يفرونّ منه من كل وجه ، ثم لا ينتهون

إلا إليه ، إذ يرونه أخَذَ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات النفس العربية . . والمكابرةُ فى الأمور النفسية لا تتجاوز أطراف الألسنة ، فإن اللسان وحده هو الذى يستطيع أن يتبرأ من الشعور ويكابر فيه ، إذ هو أداة مغلَّبة تتعاورها الألفاظ ، والألفاظ كما يُرْمى بها فى حق أو باطل ، لا تمتنع على من أرادها لأحدهما ، أو لهما جميعاً . .

ثم يقول :

« لو لا أن ذلك على وجهه الذى عرَّفتَ ، لما صار أمر القرآن إلى أكثرَ مما ينتهى إليه أمر كل كتاب فى الأرض ، بل لما كان له فى العرب أمر ألبتة ، لأنهم قوم أميون ، قد تأثلت فيهم طباع هذه الأمية . .

ويقول أيضا :

« فلو أن هذا القرآن غيرُ فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة فى أساليبها التى ألقيت إليهم لَمَا نال منهم على الدهر منالا ، ولخلا منه موضعه الذى هو فيه ، ثم لكانت سبيله بينهم سبيلَ القصائد والخطب ، والأقاصيص . . وهو لم يخرج عن كونه فى الجملة كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه قبل أن يوجد بألفاظه وأساليبه . . ثم لنقضوه كلمة كلمة ، وآية آية ، دون أن تتخاذل أرواحهم ، أو تتراجع طباعهم . ولكان لهم وله شأن غيرُ ما عرف ، ولكن الله بالغ أمره ، « وكان أمر الله قَدَراً مقدورا[1] » .

هنا يكشف الرافعى عن رأيه صريحاً فى إعجاز القرآن . . وهو أن فصاحة القرآن هى آية إعجازه . .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٨٠

والفصاحة ـ كما يراها الرافعى ـ ألفاظ وأساليب ، وليست معانىَ وحقائق ، إذ المعانى ـ كما يقول ـ ليست غريبة على العرب ، بل إن القرآن كان كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه . . أما الجديد عليهم ، وأما الذى أخذ بعقولهم وقلوبهم، وملك أسماعهم وأرواحهم ، فهو نظم هذه المعانى على هذه الصورة المعجزة من الألفاظ والأساليب !

وأنت ترى أن هذا الرأى ليس جديداً ، وإنما هو الرأى الذى يكاد يكون موضع اتفاق بين الذين نظروا فى إعجاز القرآن ، والتمسوا وجوه الإعجاز فيه . . فهو رأى الجاحظ ، والجرجانى ، والباقلانى ، وغيرهم ممن كان لهم اتجاه فى هذه السبيل .

« والرافعى » يؤكد هذا المعنى الذى ذهب إليه فى إعجاز القرآن ، فيقول فى موضع آخر بعد أن يذكر أثر القرآن فى البيئة العربية ، والمجتمع العربى . . يقول :

« وهذا الذى وصفناه أمر لو ذهبتَ تلتمسه فى تاريخ الأرض كلها ، ما رأيت أسبابه الفطرية فى غير أولئك العرب ، ولا رأيت تحقيقه فى العرب إلا من ناحية القرآن وإعجازه ، بنظمه وأساليبه وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة التى أقل ما توصف به أنها السحر ، بل السحر بعضها »[1] .

أسلوب القرآن :

وحين ننظر فى الميزان الذى يزن به « الرافعى » أسلوب القرآن ونظمه الذى به كان الإعجاز ـ نراه لا يخرج كثيراً عن مقولات من سبقوه ممن يقولون بالإعجاز من هذه الجهة ، فهو يرى أن استقرار الحرف فى الكلمة ، وتوازن

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٨٠ .

الكلمة مع الكلمة فى الجملة ، وتجاوب الجملة مع الجملة فى الآية . . كل هذا من شأنه أن يقيم أسلوباً فريداً فى النظم . . تتوهمه العرب ولا تحققه ، وتتظناه ولا تقع على ظله .

يقول الرافعى :

« وهذا الأسلوب : فإنما هو مادة الإعجاز العربى فى كلام العرب كله ، ليس من ذلك ــ أى أسلوب القرآن ــ شىء إلا وهو معجز ، وليس من هذا ــ أى كلام العرب ــ شىء يمكن أن يكون معجزاً .

« وهو ــ أى أسلوب القرآن ــ الذى قطع العربَ دون المعارضة ، واعتقلهم عن الكلام فيها ، وضربهم بالحجة من أنفسهم ، وتركهم على ذلك يتلكئون . . ثم هو الذى مثّل لهم اليأس قائماً لا يتصل به الطمع ، وصوّر لهم العجز غالباً لا تنال منه القدرة . . »

« وقد كانوا يتساجلون الكلام ، ويتقارضون الشعر ، ويتناقضون فى أغراضه ومعانيه ، حين لم يكن من الفرق عند فصحائهم بين فن وفن من القول ، إلا ما يكون من تفاوت المعانى ، واختلاف الأغراض ، وسَعة التصرف ، وكان أسلوب الكلام قَبِيلا واحداً ، وجنساً معروفاً ، ليس إلا الحُرَّ من المنطق ، والجزلَ من الخطاب ، وإلا اطرادَ النسق ، وتوثيق السَّرد ، وفصاحة العبارة وحسن ائتلافها .

« فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما أَلِفُوه من طرق الخطاب وألوان المنطق ، ليس فى ذلك إعنات ولا مُعاياة [1] ، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه فى كلماته ، وكلماته

---

(١) المعاياة : من العى والعجز عن الإبانة عما فى النفس .

في جملها ، ونسق هذه الجمل في جملته ـ ما[1] أذهلهم عن أنفسهم . من هيئة رائعة ، وروعة مَخُوفة ، وخوف تقشعرّ منه الجلود ، حتى أحسُّوا بضعف الفطرة القوية ، وتخلُّف المَلَكة المستحكمة ، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ماهم فيه ، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم .. بل هو السرّ الذى يُفشى بينهم نفسه ، وإن كتموه . . . »

ثم يقول: « ولما كان مرجع تقدير الكلام فى بلاغته وفصاحته إلى الإحساس وحده ، وخاصة فى أولئك العرب الذين من أين تأملتهم ورأيتهم كأنما خُلقوا خلقاً لغوياً ، وكأن القرآن الكريم قد جمع فى أسلوبه أرق ما تحسّ به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ، ومذاهب النفس إليه ـ فقد أحسّوا بعجزهم عما امتنع مما قِبَله ، وكان كل امرىء منهم كأنما يحمل فى قرارة نفسه برهان الإعجاز ، وإن حمل كل إفك وزور على طرف لسانه ! »[2] .

ثم يعقد الرافعى بعد ذلك مباحث فى تركيب الكلمات القرآنية وبِنْيتها من الحروف ، ثم تركيب الجمل من الكلمات ، ثم بناء جملة القرآن من هذه الجمل ، ويرى فى كل مرحلة من تلك المراحل ، أو فى كل جزيئة من هذه الجزئيات كمالا معجزاً فى ذاته ، مستغنيا عن أية إضافة ، فإذا اجتمع الكمال إلى الكمال كان آية ، وكان قرآنا . .

وإذا كان الرافعى لم يأت بجديد فى هذه المقولات ـ كما رأيت ـ وكان مسبوقاً فيها جميعها ، فإنه قد بسط القول ، وعمّق الفكرة ، ونظّمَ بناءها ، بحيث تكاد تكون نظرية من النظريات العلمية ـ ولكنه مع هذا لم يَخْلُ من التعميم

(١) ما اسم موصول . . مفعول به للفعل (ورد)

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢١٧

وإرسال الـكلمات المطلقة ، والعبارات الشعرية . . وهو لايستطيع غير ذلك فى هذا المقام ، كما لايستطيع أحد يقف هذا الموقف أن يكون على غير تلك الحال . .

فكل من يجىء إلى القرآن ، يجىء وهو عند نفسه قادر على أن يكشف هذا السرّ المضمر الذى اشتمل عليه القرآن ، فأعجز الخلقَ أن يأتوا بمثله ، ولـكن ما إن يقف المرء تُجاه القرآن حتى تأخذه الروعة منه ، وتستبدّ بمشاعره هذه القوى الروحية السارية فيه . . فإذا هو شاعر ، يتملّى من هذا الجمال ، ويسبّح بحمد هذا الجلال ، إن لم تستقم بحور الشعر وقوافيه على لسانه ، فإنها قد تخلّقت واستقامت فى مشاعره ووجدانه !

فالرافعى معذور ـ كغيره ـ إذا هو لم يستطع أن يستملى قلمه من غير هذا المداد الشِّعرى ، الذى استملى منه مَن سبقوه ، وسيستملى منه كل من يجيئون بعده ، ممن كتبوا أو يكتبون فى إعجاز القرآن ، ويحاولون الـكشف عن وجه هذا الإعجاز .

* * *

فريد وجدى

ورأيه فى الإعجاز

لم يؤلف « محمد فريد وجدى » كتاباً خاصاً فى الإعجاز القرآنى ، وإن كانت حياته الأدبية والعلمية كلها تكاد تكون عملا متصلا ، وجهاداً خالصاً تحت راية القرآن ، فما قرأ أو كتب إلا وهو فى صحبة هذا الشعور، وعلى هذا النيَّة فى الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، وعن كتابها ، وعن رسولها ، وعن لغتها .

ولقد كانت حياة « فريد وجدى » حياة مباركه خصبة ، تركت فى الأمة الإسلامية ثروة عظيمة من علمه الغزير الذى أودعه بطون الكتب ، بعد أن جال به فى مجال النظر والمناظرة فى المجتمع الإسلامى أكثر من نصف قرن . . فى مقالات ومناظرات ، ومعارضات ومحاضرات ، تطلع كل يوم على آفاق الإسلام ، فيلقاها هذا المجتمع حَفِيًّا بها ، متشوقا إليها ، مقدراً لها . . إذ أخذ الرجل منذ يومه الأول فى ميدان العلم مكاناً رفيعاً ، يزداد على الأيام رفعة ، ورسوخاً ، وتقديراً حتى لقى ربَّه راضياً مرضيًّا .

ولسنا هنا فى مقام الكتابة عن سيرة هذا العالم المجاهد — وإن كنا نتمنى على الأيام أن تمنحنا العزم على كتابة هذه السيرة الطيبة — ولكن الذى نريد أن نقوله هنا هو أن « محمد فريد وجدى » فى كتاباته الإسلامية لم يبحث هذا البحث « التقليدى » فى إعجاز القرآن ، وإفراده بدراسة خاصة مستقلة به . . ومع هذا فقد كان له رأيه فى « الإعجاز » . . وهو رأى واضح صريح جرىء . . قد كاد يخرج على مألوف الآراء التى وقف عندها الباحثون فى أمر الإعجاز ، وعَرْضِ وجوهه .

فالرأى الغالب عندالعلماء — فى الإعجاز — كما رأينا — هو النظم القرآنى ، وما اشتمل عليه هذا النظم من خصائص وصفات انفرد بها عن مألوف النظم الذى عرفته العرب ، وكان تَفَرُّده هذا، إلى الحد الذى يعجز عنه البشر ، لو حاولوا أن يَجْروا معه فى تلك الحلْبة .

هذا هو الرأى الغالب ، وهو الوجه الظاهر عند الناظرين فى الإعجاز ، وإن قامت إلى جانبه وجوه أخرى .

ولكن « فريد وجدى » جعل أمر « النظم » هذا فى موضع غير موضع الصدارة أو «البؤرة» فى مقام الإعجاز، بل إنه كاد يُجْليه عن هذا المقام ، ويخرجه من هذه القضية كلها . !

يقول فى هذا :

« حصر المتكلمون فى إعجاز القرآن كلّ عنايتهم فى بيان الإعجاز من جهة بلاغته ، فكتبوا فى ذلك فصولا ضافية الذيول ، وبعضهم خصها بالتأليف . وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة ، إلا أننا نرى أنها ليست هى الجهة الوحيدة لإعجازه ، بل ولا هى أكثر جهات إعجازه سلطانا على النفس ، فإن للبلاغة على الشعور الانسانى تسلطاً محدوداً ، لايتعدى حدّ الإعجاب بالكلام والاقبال عليه ، ثم يأخذ هـذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئاً فشيئا بتكرار سماعه ، حتى تستأنس به النفس ، فلا يعود يُحْدِث فيها ما كان يحدثه فى مبدأ توارده عليها .

« وليس هذا شأن القرآن ، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً ، ولكنه تسلّط على النفس والمدارك ، فوجب على الناظر فى ذلك ، أن يبحث عن وجه

إعجازه فى مجال آخر ، يكفى لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى ، الذى كان للقرآن قلوب الملحدين » .

وأنت ترى أنه ينكر على الكلمة أن تحيا حياة خالدة متجددة فى أى صورة من صور النظم ، وسنناقش هذا الرأى بعد أن نستكمل عرضه ، على الوجه الذى صوَّره به صاحبه . .

ثم يقول : « العلة فى نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل . . وهى أن القرآن » رُوح » من أمر الله تعالى . .

قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ » (٥٢ : الشورى) .

« فهو يؤثِّر بهذا الاعتبار تأثيرَ « الروح » فى الأجساد ، فيحركها ، ويتسلط على أهوائها ، وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حدَّ إطرابها ، والحصول على إعجابها .

« فقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة ، تتلألأ فى نورها الإلهى ، وتتألق فى جمالها القدسى . . ذلك لمّا كان القرآن روحا من أمر الله ، فلا جَرَم كانت له « روحانية » خاصة ، هى عندنا جهة إعجازه ، والسبب الأكبر فى انقطاع الانس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهى !

« نعم إن جهة إعجاز الكتاب الالهى الأقدس هى تلك (الروحانية العالية)

التى قلبت شكل العالم ، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد[1] خلافة الله فى أرضه ، وأرغمت لهم معاطس الجبابرة ، والقساورة ، ووطّأت لهم عروش الأكاسرة والقياصرة ، حتى صاروا ملوك الملوك ، وإخوان الملائكة ، فى مدة لا يصعب عدّ سنيها على الأصابع . . « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » .

فجهة إعجاز القرآن — كما يرى « وجدى » — هى روحانيته ، التى تُشهَد آثارُها ، ولا يُعلم كنهها . . إنها أمر من أمر الله ، وروح من روحه . .

ونحن ـ وإن كنا نتفق مع « وجدى » فى أن للقرآن سلطانا آسرا يملك النفوس ، ويستولى على العقول ، وأن فيه روحاً علويا ، هو الذى يبسط له هذا السلطان ، ويمكّن له منه — إلا أننا نرى أن هذا الروح لابد أن يلبس تلك الألفاظ التى نُظمتْ قرآنا ، كما تلبس الأرواح الأجساد ، فتبعث فيها الحياة ، وتخلع عليها خِلَع الحسن والجمال . .

إن أجمل جمال وأكمله فيما تراه العين ، هو هذا الجمال الحىّ ، الذى تموج فيه تيارات الروح ، وتنطلق منه مسارب الحياة ، فتُطل علينا منه لمحات ومخايل ، نرى فيها خلجات المشاعر ، ونبضات الوجدان ، وحديث الخواطر ، ومكنون السرائر

ولو أن هذا الروح قد زايل الكائن الحىّ لبرد ، وتحوّل إلى رماد !

المرأة الجميلة الرائعة . . والفراشة المتألقة الحالمة .. والعصفور النشوان الغرِد .. والزهرة المشرقة الناضرة — إنها تشد إليها الأنظار ، وتجذب نحوها القلوب ما كان روحُ الحياة متلبساً بها ، مشرقاً فى كيانها . . فإن هى تعرّت من هذا الروح ازورّت عنها العين ، وعافتها النفس ، وتحوّلت إلى عالم الغثاثة والركام !

والكلام مادة من مواد الحياة . . كالحجر ، والتراب ، والذهب ، والورق ،

---

(١) يقصد العرب .

والشجر . . ونحوها . . إذا انتظم فيه روح أشرق ، وأزهر ، وأثمر ، فكان جمالاً في العين ، وبهجة فى النفس ، وروحاً للروح . . وإلا فهو أشياء ساكنة خابية . . لا يقف عندها نظر ، ولا يُشغل بها قلب !

وكما يستطيع الإنسان أن يطلق من روحه شرارات تبعث فى الجماد وجوداً ، له على النفوس والقلوب تأثير وسلطان — حين يقيم من الحجر تمثالا معجباً ، أو صرحاً ممرداً ، أو حين يؤلف من الصوت نغماً متجانساً ، أو يشكل من الألوان صوراً نابضة ناطقة — فإنه كذلك يستطيع أن يقيم من الكلام بياناً آخذاً ساحراً . . إننا نوافق « وجدى » ونخالفه فى آن . .

نوافقه فى أن فى القرآن رُوحاً ، هى التى تطلع منه على الناس فيَعجَبون ، ويَدْهشون . . ويعجزون . ونخالفه فى أن هذا الروح شىء منفصل عن كلمات القرآن ، قائم من بين يديها أو من خلفها ، وإنما يسرى هذا الروح فى كلمات القرآن ، ويُشعل فيها وقدةً مشرقة ، يرى الناس منها آيات الإعجاز فى ذلك النظم الرائع المعجز الذى نظمته القدرة وأحكمت نظمه ، كما يَروْن سمات الجمال وآيات الحسن ، فيما أبدعت قدرة الخالق وحكمته من ألوان الحسن والجمال المنبثّ فى هذا الوجود . .

فليست هذه الرُّوحانية التى يجدها الذين يتصلون بالقرآن ـ قارئين أو مستمعين ـ شيئاً منفصلا عن كلمات القرآن . . وإلا كانت معجزةً بذاتها ، وكان للناس أن يطلبوا شهادة حسية تشهد لها ، وإلا كان القول بها دعوى ، أو ادعاء !

وندع هذا الآن — لنصل الحديث مع « فريد وجدى » فإنه ما زال لحديثه بقية ، من الخير أن نستمع إليه ، وننظر فيه . .

يقول « وجدى » :

« لا مُشاحَّة فى أن القرآن فصيح ، قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة ، وقادة الخطابة ، وسادات القوافى ، وملوك البيان .

« وهو حكم . . بهر سماسرة الحكمة والفلسفة ، وأدهش أساطين القانون والشريعة، وحيَّر أربا كينَ النظام والدستور . . وهو حق . . ألزم كل غالٍ[1] الحجة ، ودل كلَّ باحث على المحجّة ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهو هدى ورحمة ، وشفاءٌ لما فى الصدور . .

« كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور ، والعواطف والميول ، فتتحكم فيها ، تحكُّمَ الملِكِ فى مُلكه ،ولكنه فوق ذلك كله (روح من أمر الله)، تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيّالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر .

« هذه الروحانية تنفذ إلى سرّ سريرة الإنسان ، وسويداء ضميره ، وتستولى منها على أصل حياته، ومهبّ عواطفه وإحساساته ، وتخلقه خلقاً جديداً ، وتصوّره بصورة لا يتخيلها ، ولو قيلت له لما أدركها .

« ألا ترى كيف فعلت بأولئك العرب الذين لبثوا ألوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحولون عنها ، ولا يسأمون منها ، فنفحتهم بروح عالية ، فقاموا بواسطتها يحمّلون الملوك سلطتهم ، ويطوّقون القياصرة سطوتهم ، ولم يتموا جولتهم هذه ، حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها إلى أقصاها ..

ثم يقول :

« أى برهان أكبر على تبدل أرواحهم من هذا ؟ كانوا بالأمس ممزقين مشتتين، لا تجمعهم رابطة سياسية ، ولا قومية ، بل ولا دينية . . فى أخشن مواقع الأرض

---

(١) الغالى : واحد « الغالية » وهى فرقة من الفرق المنحرفة عن سواء السبيل .

وأجدبها ، وأبعدها عن النظام والحكمة والآمال العظيمة ، والفتوحات — يقومون بعد سنوات قليلة من بَعثة نبيهم ، ينشرون الفضل والفضيلة ، والكمال ، فى أرجاء هذا العالم المضطرب ، ووسط هذه الفتن المزعجة !

«أى حجة أكبر من هذه الحجة على أن القرآن روح إلهى ، وأمر سماوى ؟

« وأى وجه من وجوه إعجازه بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم — أوقعُ فى النفس وأنفى للشك . وأولى بالقبول من وجه روحانيته ؟ »

« إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان ، روحانيةً يدركها من لاحظّ له فى فهم الكلام وتقدير الحكمة ، وإدراك البلاغة . .

« ألا ترى أن الطفل والعامىّ كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن . . حتى أنهما ليكادان يُفرّقان بين ما هو قرآن ، وما ليس بقرآن لو أراد التالى أن يغشّهما ؟

« هذه روحانية تظهر جليًّا عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس فى صفحة كبيرة . . فإنك ترى تلك الآية تتجلّى لك من بين السطور ، وخلال التراكيب ، كأنها شمس فى رابعة النهار ، مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ .

« هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها . .

« أما ظهورها للعارف فبيّن لا يحتاج لبيان . .

« وأما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية فبتأثيرها ونتيجتها » .

وحق ما يقول به « وجدى » هنا من : « إن الطفل والعامى يعتريهما تهيُّب عند تلاوة القرآن . . ولو بغير صوت حسن . . »

وذلك مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن روحانية القرآن ممسكة بألفاظه ، سارية فى نظمه ، وأنه إذا كان الطفل والعامىّ يقع لهما من ذلك الروح القرآنى شىء يبعث فى نفسيهما تهيُّباً وخشية ، فإنهما كذلك يكون شأنهما إزاء كل رائعة من رائعات الحسن والجمال . .

وإذن فليست شهادةً لإعجاز القرآن تأثرُ الطفل والعامى بكلماته ، وتهيبهما عند تلاوته ، وإن كان ذلك مدخلا إلى الإعجاز ، حين يقف منه العالمون موقف النظر والتأمل !

ثم يقول :

« هذا رأينا فى جهة إعجاز القرآن . .

« وهو فيما نعلم يَحُلُّ مشاكل هذا البحث ، ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع .

« أما ما وَلِع به الناس من أن القرآن معجز لبلاغته ، وتجاوزه حدود الإمكان ، حتى وقف ذلك الإعجاز ببلاغته دون وجوه إعجازه الأخرى — فلم نقف له على أثر فى ذات القرآن ، مع أنه قد ورد ذكر القرآن فى آيات عدة ، فلم نر فى واحدة فيها ما يوافق ما يذهب إليه الآن الكثيرون . . فقد وصف الله كتابه فقال :

« وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » . . « هَـذا بيانٌ للنّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » . . « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ » . . « وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » . . « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ » . . « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ . . هُدًى وَرَحْمَةً

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » . . « إن هَذَا القرآنَ يَهْدِى للّتى هِى أَقْوَمُ . . » [١] .

ويقول :

« وصف الله كتابه فى هـذه الآيات الـكريمة بأوصاف كثيرة ، وليس من بينها واحد يشير إلى بلاغته اللفظية . . ذلك أن البلاغة من الصفات الثانوية التى لايصح أن يتمدح بها الله فى كتابه . . ولوكانت البلاغة فى أساس تحدّيه للـكفار بالإتيان بسورة من سُوَره ، أما كان يشير إلى تلك البلاغة ولو فى آية واحدة ، وقد أتى بعشرات منها فى التنويه بحقيقته وحكمته وروحانيته . . ؟

« أليس فى هذا إشارة إلى أن وجه إعجازه غير البلاغة اللفظية »! [٢] .

هـذا ما يقرره « وجدى » فى إعجاز القرآن ، وفى الوجـه الذى كان منه إعجازه . .

ونقول : لماذا لايكون نظم القرآن وبلاغته هو وجه إعجاز؟ ولماذا لاتـكون روحانية القرآن منتظمة فى هذا النظم ، متلبسة به ؟

ألا تستطيع الـكلمة أن تحمل الروح ، كما تستطيع الأجساد والأشياء حملَها ، وإبداءَ المـكنون من أسرارها ؟

إن « وجدى » — فيما يخيل إلينا — يعدل عن هذا الطريق الذى لاتقوم به حجة الإعجاز إلا على العرب وحدهم، ومن يحسنون اللسان العربى ، ويدركون أسرار البيان العربى — إلى طريق آخر تقوم به الحجة على العرب وغير العرب،

---

(١) وردت أخطاء كثيرة فى الآيات القرآنية ، وقد نقلناها على الوجه الصحيح لها .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين . لمحمد فريد وجدى . . مادة قرأ . . المصنف الأول من المجلد ٧ ص ٦٧٧ وما بعدها ومقدمة تفسير القرآن لوجدى . .

ممن يحسنون اللغة العربية ومن لايحسنونها، ومن يدركون أسرارها ومن لايدركون . . إذ الروحانية — التي يقول بها — لاتحمّل على لغة، ولا تؤدّى ببيان وبلاغة، وإنما هى سر يتبع القرآن فى كل حال، ويغشى كل قلب، كما يغشى ضوء الشمس كلّ عين!

ولا شك أن هذا حكم فيه تحكّم وغلو . . إذ لو كان من شأن القرآن أن يجعل روحانيته معجزةً يقيمها حجة على العرب وغير العرب لما جاءت تلك المعجزة باللسان العربى، ولجاءت فى صورة مشتركة الفهم عند الناس جميعاً .. ولما كانت الكلمة هى محمل هذه المعجزة، ولما اختُصّ العرب بهذه المعجزة دون سائر الناس، ولكان من الطبيعى أن تكون معجزة الرسالة العامة أمراً عاما يشهده الناس جميعاً .

والذى نراه، هو أن الإعجاز القرآنى إنما هو تحدّ للعرب، وحجة عليهم وحدهم.. حجة قهر وإلزام . . ولهذا لم يقبل الإسلامُ من العرب إلا الدخولَ فى الإسلام، أو القتل، على حين قبل من غير العرب الجزية دون القتل إذا أبَوا الدخول فى الإسلام .. أما غير العرب فالحجة عليهم حجة ضمنية، إذ أن عجز أرباب البيان عن لقاء هذا البيان السماوى يشهد للمعجزة شهادة قاطعة عند من لايحسن العربية، وذلك حين يرى مصارع الأبطال فى حومة الوغى، ويأخذ الحكمة من رأس الذئب الطائر ! !

وأما القول بأن القرآن لم يذكر شيئاً عن وجه الإعجاز الذى به كانت معجزته على تعدد الأوصاف التى وُصف بها فى آيات كثيرة — فإنا نظن أن فيه قصوراً، حيث لم يتناول الآيات التى وصف فيها القرآن الكريم بالبلاغة والبيان، والإحكام .. فمن ذلك قوله تعالى :

« تلك آياتُ الكِتَابِ المُبين إنّا أنزَلناهُ قُرْآناً عَرَبيًّا لعلكم تعقلون »[1].

فالبيان هنا ، هو صفة هذا القرآن ، و « المبين » مبالغة فى البيان . . والبيان إنما يجىء من إحكام النظم وبلاغته ، ولهذا ذكر بعده : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » أى نزل بلسانكم ، وجرى على أساليب بيانكم ، لعلكم تعقلون أسراره ، وإعجازه ·· ومثل هذا قوله تعالى :

« نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ على قلبِكَ لتَكونَ من المُنذِرينَ ، بلسَانٍ عَرَبِىٍّ مبين »[2] .

ومن ذلك قوله تعالى :

« أفَلَا يَتَدَبرون القرآنَ . . وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غيرِ اللهِ لوَجَدُوا فيهِ اختلافاً كَثيراً »[3] .

وقد تحدث العلماء عن وجوه هذا الاختلاف التى كانت تقع فى القرآن لو أنه كان من قول بشر . . ومن هذه الوجوه اضطراب النظم ، وتفاوت الأسلوب . فلا يكون على وجه واحد ، ولا على درجة واحدة ، فى إحكام النظم ، وعلو الأسلوب . . أمّا وقد جاء القرآن على حال سواء فى إحكام نظمه ، وروعة بيانه ، وعلوّ أسلوبه ، مع هذا الامتداد الطويل فيه ، وفى أزمان نزوله وأحواله — فإن ذلك دليل على أنه ليس لبشر إليه سبيل ، وأنه تنزيل من رب العالمين » .

---

(١) سورة يوسف آية ٢

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ — ١٩٥

(٣) سورة النساء آية ٨٢

ومن ذلك أيضاً قول الرسول الكريم : « أنا أفصح العرب . . بيد أنى من قريش » ، وقوله : « إن من البيان لسحرا » . . فإن فى هذا مايدل على أن « الكلمة » يمكن أن تحمل المعجزة ، وأن يتعلق بها مناط الإعجاز ، إذا بلغت فى البلاغة حداً تقصر عنه بلاغة البلغاء ، ويستخزى أمامه بيان الأبيناء . . وذلك لا يكون إلا بنظم كلامى ، تنظمه يد القدرة ، وتحكمه حكمة الحكيم العليم . . « ذلكم الله رب العالمين » .

* * *

آراء متفرقة .. فى وجوه الإعجاز

ولا بأس من أن نثبت هنا بعض الآراء التى قيلت فى إعجاز القرآن لعلماء لم يكن لهم اتجاه مباشر إلى هـذا البحث ، وإن تـكن قد جرت على ألسنتهم أو بأقلامهم كلمات عن إعجاز القرآن فى معرض بحوث أخرى .. فى التفسير أو الأدب ، أو اللغة .. ونحو هذا .

وها نحن أولاء نثبت بعض هذه الآراء ، ونعلّق على ما تستدعى الحال التعليقَ عليه منها ..

أبو حيان التوحيدى [1] :

يقول أبو حيان : سئل بندار الفارسى عن موضع الإعجاز من القرآن ، فقال : هذه مسألة فيها حَيْفٌ على المعنى .. وذلك أنه شبيه بقولك : ما موضع الإنسان من الإنسان ، فليس فى الإنسان موضع من الإنسان ، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ، ودَلَلْت على ذاته .

« كذلك القرآن ، لشرفه لا يشار إلى شىء منه إلا وكان ذلك الشىء آيةً فى نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وهدى لقائله .

« وليس فى طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله فى كلامه ، وأسراره فى كتابه .. فلذلك حارت العقول . وتاهت البصائر عنده » [2] .

---

(١) هو على بن محمد بن العباس المعروف بأبى حيان التوحيدى ، توفى سنة ٣٨٠ هـ يقول عنه « ياقوت الحموى » كان متفننا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة، وكان « جاحظيا » يسلك فى تصانيفه مسلكه ويشتهى أن ينتظم فى سلكه . فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة .. (معجم الأدباء جزء ١٥ ص ٥)

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جزء ٢ ص ١٢٠

وأبو حيان وإن يكن يَرْوِى هذا الرأىَ رواية ، وينسبه إلى غيره . فهو فى الواقع رأيه هو . . أو أنه أخرج هذا الرأى على الوجه الذى يرضاه ، وبأسلوبه الفلسفى الذى عُرف به .

وعلى أىّ فإن أبا حيان إن لم يكن قائل هذا الرأى فهو راض عنه ، معتقد له .

والرأى الذى يذهب إليه « أبو حيان » ، أو بندار الفارسى — فى إعجاز القرآن - هو أن القرآن معجزة فى ذاته ، فلا يمكن أن يقال : أين المعجزة فيه ، أو منه ؟ فكأن القائل بهذا يقول : أين المعجزة فى المعجزة ؟ أو أين الإنسان فى الإنسان ؟

ولا شك أن هـذه مغالطة من أبى حيان . . فإن كون القرآن هو معجزة بذاته لا يمنع أن يَعرف الناس وجهَ الإعجاز فى المعجزة ، وذلك فيما يبدو للناس منها ، حسب وقعها عليهم . . إذ أنهم لا محالة حين يواجهون المعجزة القرآنية — يعرفون أين مكان « الضغط » منها على قلوبهم وعقولهم ؟ وطبيعى ألا يكون ذلك مكاناً واحداً ولا جهة واحدة ، بل هو أمكنة لا تعد ، وجهات لا تحصى . . ولهذا اختلفت الآراء فيها وتعددت ! ومع هذا الاختلاف وهذا التعدد فإن الإعجاز مطلب لا يفتر الناس أبدا عن البحث عنه ، والتهدّى إليه ، إذ يجدون دائماً آثاره مشتملة عليهم ، كلما قرءوا شيئاً من كتاب الله ، أو استمعوا له .

الراغب الأصفهانى :

يقول الراغب الأصفهانى [1] فى تفسيره :

« الإعجاز المتعلق بنفسه . . إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته ، أو بمعناه . .

«أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذى هو اللفظ والمعنى .

---

(١) هو أبو القاسم محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ، صاحب كتاب مفردات غريب القرآن وله كتاب فى تفسير القرآن ، توفى سنة ٣٩٦ هـ

« فإن ألفاظه ألفاظهم . . قال الله تعالى : « قرآناً عربياً » . . بلسانٍ عربيٍّ مبين » . . ولا بمعانيه ، فإن كثيراً منها موجود فى الكتب المتقدمة .

قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ » .

« ولا بما هو فى القرآن من المعارف الإلـهية ، وبيان المبدأ والمعاد ، والإخبار بالغيب . فإعجازه من هذا الوجه ، ليس براجع إلى القرآن ، بل لكونها حاصلة بغير تعليم وتعلم ، ويكون الإخبار إخباراً بالغيب ، سواء أكان بهذا النظم أو بغيره ، مؤدًّى باللغة العربية ، أو بلغة أخرى ، بعبارة أو إشارة » .

يريد الأصفهانى أن يقرر هنا أن الإخبار بالغيب معجزة فى ذاته ، وليس فى ذات القرآن ، لأن من يخبر بالغيب بأية وسيلة من وسائل الإخبار يكون معجزاً . . وإذن فليس للقرآن هنا فضل على غيره من حيث هو كلام ، وإنما الفضل للأخبار الغيبية التى فيه .

ثم يقول الأصفهانى :

« فإذن ، النظم المخصوص صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره .

« وباختلاف الصور يختلف حكم الشىء واسمه . . لا بعنصره .

« كالخاتم والقُرط والسِّوار ، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها . . لا بعنصرها ، الذى هو الذهب أو الفضة أو الحديد » .

وواضح من هذا أن الأصفهانى يجعل إعجاز القرآن فى نظمه على تلك الصورة التى جاء بها ، والتى تبدو أكثر ما تكون فى بنائه على آيات ، مختتمة بفواصل ذات نظم خاص ، تختتم بها الآيات ، وتترابط ، وتتوازن .

ثم يقول :

« وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام ، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه . . فنقول :

« مراتب تأليف الكلام خمس :

١ — ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض ، لتحصل الكلمات الثلاث : الاسم ، والفعل ، والحرف .

٢ — تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض ، لتحصل الجملة المفيدة ، وهو النوع الذى يتداوله الناس جميعاً فى مخاطباتهم وقضاء حوائجهم . . ويقال له المنثور من الكلام .

٣ — ضم بعض هذه الكلمات إلى بعض ضمًّا له مبادٍ ومقاطع ، ومداخل ، ومخارج ، ويقال له المنظوم .

٤ — أن يعتبر فى أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له السجع .

٥ — أن يجعل له مع ذلك وزن ، ويقال له الشعر . .

« والقرآن جامع محاسن الجميع ، على نظم غير نظم منها . . »[1] .

فالأصبهانى إذ يكشف عن وجه الإعجاز فى القرآن ، يراه فى هذا النظم الذى تفرد به ، على نظام لم تألفه العرب فى كلامها من شعر ، ونثر ، ونظم ، وسجع . . بل حواها جميعها ، وجاء بها على أعدل الوجوه وأتمها .

ولاشك أن مجرد مخالفة العرب فى أساليب كلامها لايجعل الكلام معجزاً . ولا يَخلُص إليه من تلك المخالفة ـ مجرد المخالفة ـ مزايا تعلو به على سائر الكلام . فقد تكون هذه المخالفة ـ كما قلنا من قبل ـ إلى ما هو أحسن ، أو إلى ما هو أسوأ .

ولكن المخالفة التى بان بها القرآن على سائر الكلام مخالفة فى الأسلوب ؛

---

(١) نقلا عن الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جزء : ٢ ص ١١٩ .

تقترن بها أمور كثيرة ، تجعل لهذه المخالفة تلك المنزلة العالية التى انفرد بها القرآن الكريم . . مثل روعة الأداء ، وسموّ المعنى ، وروحانيته ، إلى غير ذلك من المقامات التى تتدرج فيها مراتب الكلام ، وتتفاوت منازله .

السكاكى :

يقول السكاكى[1] فى « المفتاح » :

« اعلم أن الإعجاز يدرك ، ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن .. تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة .. وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذى الفطرة السليمة »[2] .

وما يقوله السكاكى عن إعجاز القرآن هنا هو مقطع القول كله فى هذا الأمر .. إذ ليس الإعجاز الذى رآه الناس من أمر القرآن إلا روعة تملكهم ، وإلا جلالا يحيط بهم .. وما كان لكلام أن يصوّر حقيقة الروعة ، أو يمسك مواقع الجلال .. إنها معانٍ تُدرك ، وتستشعر ، ولا توصف !

ولهذا فإن الناس من القرآن الكريم على منازل ودرجات وحظوظ . . كل ينال منه بقدر ما عنده من استعداد للتجاوب العقلى ، والروحى ، والنفسى معه .. !

إنه كما يقول الرسول الكريم : « مأدُبة الله » .. ينال كل منها بقدر ما تصل إليه يده ، وتمتد إليه عيناه ، وتشتهيه نفسه !

الفخر الرازى :

يقول « الفخر الرازى »[3] :

---

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى صاحب كتاب مفتاح العلوم فى البلاغة — توفى سنة ٦٢٧ هـ

(٢) نقلا عن كتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جزء / ٢ ص ١٣٠

(٣) هو الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى صاحب التفسير المسمى « مفاتيح الغيب » توفى سنة ٦٠٦ هـ

« إن وجه الإعجاز فى القرآن : الفصاحة . وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب » .

وهذا تعميم ، وإطلاق للحكم ، بحيث يدخل مع القرآن غيره من كل كلام بليغ ، فما هى حدود الفصاحة التى إذا تجاوزها الكلام وعلا عليها كان معجزاً ؟

وما هى مواطن الحسن فى غرابة الأسلوب حتى تنتهى به إلى الإعجاز ؟ فهل كل أسلوب غريب يكون بليغاً ؟ ثم معجزاً ؟ ولقد تكون غرابة الأسلوب داعية إلى سقوطه ، كما تكون وجهاً جديداً من وجوه البيان ، ولوناً متفرداً من ألوان البلاغة !

ثم ما هى العيوب التى إذا سلم منها الكلام كان بليغاً ؟

وهل تكفى السلامة من العيوب ليكون الكلام على درجة من البلاغة تُوفى به إلى مطالع الإعجاز ؟

كنا نود أن يكون « للرازى » صولة وجولة فى هذا المجال ، فهو خير من يقوم لهذا المقام ، ويحسن القول فيه .. ولكن يبدو أنه لم يشأ أن يُشغَل بهذا عن القرآن نفسه ، وأن يفتح بابا للجدل حول معانى القرآن وألفاظه فيعيد بذلك الحرب جَذَعة فى القول : بأن القرآن مخلوق ، أو غير مخلوق .

حازم :

ويقول « حازم »[1] فى « منهاج البلغاء » :

« وجه إعجاز القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه ، استمراراً لا يوجَد له فَتْرة[2] ، ولا يقدر عليه أحد من البشر .

« وكلام العرب ، ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة فى جميع

(١) هو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى الأنصارى القرطبى ، توفى سنة ٦٨٤ هـ

(٢) أى فتور وتخاذل .

أنحائها فى العالى منه إلا فى الشىء اليسير المعدود . . ثم تعرض الفترات الإنسانية ؛ فينقطع طيب الكلام ورونقه ، ولاتستمر الفصاحة لذلك فى جميعه ، بل توجد فى تفاريق وأجزاء منه » .

وهذا كلام قد سبق به « الجاحظ » ثم تابعه فيه من جاء بعده ممن تكلموا فى الإعجاز . .

ثم إن هذا الوجه من وجوه الإعجاز لاينكشف إلا بعد النظر فى القرآن الكريم كله ، وهو لايكون إلا بعد أن يتم نزوله جميعه على الرسول الكريم.. ولقد تحدّى القرآن الكريم العربَ وأعجزهم ولم يكن قد نزل منه إلا قدر يسير .

فالمعجزة والإعجاز قائمين فى القرآن الكريم فى أقصر سورة منه .

المراكشى :

يقول المراكشى[1] فى « شرح المصباح » :

« الجهة المعجزة فى القرآن تُعرف بالتفكير فى علم البيان ، وهو ما يحترز به عن الخطأ فى تأدية المعنى ، وعن تعقيده ، ويعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال . .

لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظ . . وإلا لكانت قبل نزوله معجزة ولا مجرد تأليفها ، وإلا لكان كل تأليف معجزاً .

ولا إعرابها .. وإلا لكان كل كلام معرب معجزاً .

ولا مجرد أسلوبه[2] ، وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً .. ولكان هذَيان مسيلمة معجزاً .

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى المعروف بابن البناء توفى سنة ٧٢١ هـ

(٢) يقصد بالأسلوب هنا ما جاء عليه النظم القرآنى من تفرده بهذا الأسلوب فى النظم وتقسيم الكلام الى آيات ، وختم كل آية بفاصلة .

« ولأن الإعجاز يوجد دون الأسلوب فى نحوه : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا » « فاصدع بما تؤمر »[(١)] . .

« وليس إعجازه بالصرف عن معارضتهم ، لأن تعجبهم كان من فصاحته . ولأن مسيلمة وابن المقفع والمعرّى وغيرهم قد تعاطَوْها ، فلم يأتوا إلا بما تمجّه الأسماع ، وتنفر منه الطباع ويُضحَك منه .

« وإنما إعجازه فى أحوال تركيبه ، وبتلك الأحوال أعجز البلغاء ، وأخرس الفصحاء ، فعلى إعجازه دليل إجمالى ، وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها ، فغيرها أخرى . .

ودليل تفصيلى : مقدمته . . التفكر فى خواصّ تركيبه ، ونتيجته . . العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شىء علما »[(٢)] .

و « المراكشى » فى هذا الرأى يعدُّ من القائلين بأن الإعجاز هو فى نظم القرآن ، وأن هذا النظم جاء على صورة فريدة معجزة مفحمة .

ولا يقصد « المراكشى » بالنظم مجرد الصورة اللفظية ، وما تقوم عليه من براعة الصياغة ، وجودة السبك ، وتجانس اللفظ ، وتوازن النغم — وإنما يقصد هـذا ، ويقصد أمراً آخر وراءه ، وهو محاميل هـذا النظم ، وما ينطلق منه من إشارات مضيئة تشير إلى ألوان من المعانى . . تعلن بعضه ، وتكتم بعضه . . وهذا ما يشير إليه المراكشى بقوله : « المعجزة فى القرآن تعرف بالتفكير فى علم البيان ، وهو ما يحترز به عن الخطأ فى المعنى ، وعن تعقيده ، ويعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال » .

فوجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال هو المجال الذى تتحرك فيه بلاغة البلغاء . . فما طابق مقتضى الحال من الكلام فهو بليغ ، وما أضاف

(١) حيث أنه ليس فى هذا النظم فاصلة قرآنية كما هو الشأن فى معظم آيات القرآن .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن جزء ٢ ص ١١٩

إلى ذلك حُسنا بعد هذا فهو أبلغ .. ثم ما أضاف حُسناً فهو أبلغ .. وهكذا إلى أن ينتهى الجهد البشرى عند حد لا يتعدّاه . . ثم تأتى بعد ذلك درجة فترتفع فوق هذه البلاغة ارتفاعاً يبدو أنه دانٍ قريب . . ولكنه بعيد .. بعيد . . لا تناله قدرة البشر جميعاً ، وإن كان بينهم وبينه شعرة أو ما هو أدق من الشعرة .. أو خط وهمى . . فإن هذا القرب القريب جداً هو بعد بعيد جداً . . بعد ما بين الحق والباطل ، ذلك البعد الذى يكون أحياناً خطاً هندسياً ، أو خطاً وهمياً . . !

الزملكانى(١) :

أما الزملكانى فإن وجه الإعجاز القرآنى عنده راجع إلى التأليف الخاص ، لا مطلق التأليف . . بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ، وعَلَت مركَّباته معنى ، بأن يوقع كل فن فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى » .

وهذا تعميم أيضاً . . إذ ما هو التأليف الخاص ، وما حدوده ؟ وهل كل كلام اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة يحوز البلاغة كلها ، ويستولى على زمام البيان . . ثم الإعجاز ؟

وواضح من هذا الرأى أن اللفظ والمعنى معاً قد كانا مناط الإعجاز فى القرآن ، حيث ارتفع بهما النظم القرآنى إلى المرتبة العليا التى لا ينالها أحد .

الزركشى(٢) :

يرى « الزركشى » صاحب « البرهان فى علوم القرآن » أن إعجاز القرآن وقع بجميع تلك الوجوه التى تحدث عنها العلماء الباحثون فى الإعجاز ، وليس بوجه واحد منها .

---

(١) هو الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم المعروف بابن الزملكانى — توفى سنة ٧٢٧ هـ .

(٢) هو الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشى .. صاحب كتاب البرهان فى علوم القرآن توفى بمصر فى رجب سنة ٧٩٤ هـ .

فإعجاز القرآن ليس وجها واحدا ، وإنما هو وجوه كثيرة . . منها الروعة التى له على قلوب سامعيه وأسماعهم ، سواء المقرّ والجاحد . . ومنها أنه لم يزل ، ولايزال ، غضًّا طريًّا فى أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين . . ومنها جمعه بين صفتى الجزالة والعذوبة ، وهما كالمتضادين . . لايجتمعان غالباً فى كلام بشر » .

والزركشى إذ يقول هذا إنما ينظر فى جميع الأقوال التى قيلت فى الإعجاز ، ويراها فى جملتها أوصافاً للأحوال النفسية التى يجدها الناس حين يستمعون إلى القرآن أو يقرءونه .

* * *

القول بالإعجاز بالصرفة

عرضنا فيما سبق وجوهاً من الإعجاز بالصَّرْفَة ، وهى جميعها تتفق على رأى أن العرب قد تُحُدُّوا بالقرآن ، وأنهم قد أرادوا القيام لهذا التحدى ، وحاولوا أن يقابلوا هذا النظم بنظم مثله ، فوجدوا أن كل كلام يقولونه لا يقام له وزن مع كلام القرآن ، فاستخزوا ، وصمتُوا . .

ومع هذا فقد ذهب بعض الناظرين فى إعجاز القرآن مذهباً يخالف ما يكاد ينعقد عليه إجماع العلماء من أن الإعجاز فى القرآن كان فى أمور قائمة فيه ، يعجز الناس عن مجاراتها ، أو مساماتها .. كإحكام نظمه ، وروعة أسلوبه ، ودقة معانيه .. إلى غير ذلك من الأمور التى عدّها العلماء وجوهاً لإعجازه ..

وهذا المذهب المخالف لآراء العلماء هو مذهب من يقول « بالصَّرفة » بمعنى أن العرب إنما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، أو بسورة من مثله ، لأن الله سبحانه قد صرفهم عن ذلك ، وأمسك بهم أن يقوموا له .. ولو قاموا له وقالوا لكان فى وسعهم أن يقولوا مثل قوله .. لأنه من جنس الكلام الذى جرى على ألسنتهم .. شعراً ، ونثرا ..

وأول من فتح الطريق إلى هذا القول ـ فيما نعلم ـ هو « النظام[1] » الرأس البارز فى المعتزلة ، وشيخها ..

يقول صاحب « الملل والنحل » : « وزعم النظام أن إعجاز القرآن « بالصرفة »

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام أحد رءوس المعتزلة ، وإليه تنسب فرقة النظامية ، وهو شيخ الجاحظ ، وعنه أخذ الجاحظ مذهبه فى الاعتزال .. توفى سنة بضع وعشرين ومئتين .

أى أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم ، لكن عاقهم أمر خارجى »[١].

وقد قال بهذا القول « الشريف المرتضى » .. وعدّ الصرف فى ذاته أمراً خارقاً للعادة يشهد للرسول وصدقه كما تشهد سائر المعجزات .. يقول : — أى الشريف المرتضى — :

« بل صرفهم — أى الله — بأن سلبهم العلوم التى يُحتاج إليها فى المعارضة ، فهذا الصرف خارق للعادة ، فصار كسائر المعجزات » .

ويعلق الشهرستانى على هذا بقوله : « وهذا قول فاسد ، بدليل قوله تعالى :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا »[٢].

فإنه — أى قول الله سبحانه فى هذه الآية — يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سُلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى »[٣] .

ونقول : إن القرآن ، وهو كلام الله ، لا يمكن أن يوازن به كلام ، فهو لهذا معجز فى ذاته ، ولو كان قد أعجز الناس بقوة خارجة عنه لما كان كلامَ الله ، ولما كان معجزة ، وإنما كانت الصرفة هى المعجزة التى استند إليها . . ولكان بهذا فى عداد المعجزات الحسية ، التى تأخذ على حواس الناس وعلى عقولهم ، فتصيبهم بالشلل العقلى والحسى معاً ..

ولو كان القرآن على تلك الصفة لكان للعرب فيه قولٌ غير الذى قالوا فيه ، ولما أخذتهم منه هذه الروعة التى جاءتهم منه حين سمعوه وعقلوه ..

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٢ .

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

(٣) الملل والنحل هامش ص ١٤٣ .

فالعرب قد سمعوا كلاماً مألوفاً عندهم ، ولـكنه فوق ما سمعوا . . جلالا ، وروعة ، وجمالا . . لفظاً ومعنى !

ولو أن القرآن جاء على هذا الوجه الذى يمسك العرب إمساكا ملزماً عن أن يقوموا له لعجبوا لذلك أشد العجب ، ولعرفوا أن الأمر ليس من جهة هذا القرآن الذى وصفوه بما وصفوه به من أنه « سحر يُؤثَر » وأن فيه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . . وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر .

ولو أن القرآن جاء معتمداً على هذا الإعجاز الحسىّ لما كان لمجيئه على تلك الصورة الـكلامية ، ولا على هذا الامتداد الطويل — معنى ، ولـكان يمكن أن يُستغنى عنه بأهون شىء يقطع ما بين النبىّ وبين قومه من جدل ومعاناة !

كان يكفى أن يضع الله سبحانه وتعالى بين يدى نبيه حصاة من حصى مكة ، أو حجراً صغيراً من أحجارها ، ثم يأمر نبيه أن يدعوَ قريشاً إلى حمل هذه الحصاة ، أو إلى زحزحة هذا الحجر ، ثم يكون من تدبير الله تعالى أن يأخذ على أيدى القوم فلا تمتد إليه ، أو يأخذ على قواهم فلا تقدر عليه !

فليس قول أسقط من القول بالصرفة فيما قيل من أقوال حول إعجاز القرآن : إنه قول لا معقول له .. إذ كيف يقف العرب أمام آيات القرآن هذه السنين الطويلة ، وهم ينظمون خلالها شعراً ، ويقولون نثراً ، وكان شعرهم الذى نظموه ، ونثرهم الذى قالوه أو كتبوه لا يقل روعة وجمالاً عما كان لهم من ذلك كله فى جاهليتهم — كيف يقف العرب أمام آيات القرآن عشرات السنين ، ومئاتها ، وهم يجدون قواهم كاملة ، ومَلَـكاتِهم التى كانت لهم لم يذهب منها شىء ، ثم يقال بعد هذا إن قوة قاهرة غير منظورة قد أمسكت بهم ، ولوت أعناقهم عن أن يتصدّوا للقرآن ، ويعرضوا له ؟؟

و « النظام » الذى ابتدع هذه البدعة ماذا يجد فى نفسه من آثار هذه

«الصرفة»؟ أَسُدَّت عليه منافذ القول،وطمست أمامه سبل البلاغة فلم يقل قولًا ، ولم يذهب مذهباً ؟ وكيف ؟ وقد صال وجال، وحاجّ وجادل بأسلوب عربى مبين رصين ؟ ! وكيف ؟ وهو يرى ويسمع فى مجالس العلماء والمتكلمين والشعراء فى عصره — من آيات البلاغة والبيان ما حفظ التاريخ الكثير منه بين أيدينا ؟ فأين كانت الصرفة ؟ وكيف لم تُمسك بهذه الألسنة أن تصاول وتقاول ؟

بل إن الأمر لأكثر من هذا ، فلقد أمدّ القرآن العرب بصور من البيان ، وألوان من البلاغة ، أشرق بها بيانهم ، وسمت بها بلاغتهم ، واتسعت بها لغتهم ، فولَدَتْ كثيراً من العلوم والفنون ، وأثمرت هذه الثمرات الطيبة التى لم يكن للعرب قبل الإسلام عهد بها ، ولا اتجاه إليها .

فكيف يساغ مع هذا أن يقال إن شيئاً وراء القرآن قد أمسك العرب عن القول ، وختم على عقولهم وقلوبهم ؟

الجاحظ والقرآن بالصرفة :

ومن عجيب القول فى إعجاز القرآن قولُ الجاحظ فى بعض أقواله: إن الإعجاز الذى وقع للقرآن كان بالصرفة . . إذ المعروف أن الجاحظ كان دائماً من القائلين بإعجاز القرآن ببلاغته ونظم بيانه ..

وقد تحدث الجاحظ بهذا الرأى فى معرض الاحتجاج على الذين يُشكّكون فى أن يكون « سليمان » ـ عليه السلام ـ قد وهب الله له ملكا لم يكن لأحد من بعده ، وأن الجن كانت فى بعض ماملك، ثم هو مع هذا يجهل مَلِكةسبأ ومُلكها، حتى دلّه عليها وعلى ملكها الهدهد ! فكيف يصح هذا ؟

ويرد الجاحظ على هذا بما حدث لموسى بن عمران ومن كان معه فى التيه.. فقد كانوا أمة من الأمم يكسعون أربعين عاماً فى مقدار فراسخ يسيرة ، ولا يهتدون

إلى المخرج ،وما كانت بلاد التيه إلا من ملاعبهم ، ومتنزهاتهم ، ولا يُعدَم مثلُ العسكر الأدلاء ، والجمالين ، والمكارين ، والرسل ، والتجار . . ولكن الله صرف أوهامهم ، ورفع القصد من صدورهم » .

ثم يأتى « الجاحظ » بشاهد آخر فيقول :«ومثل ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بشره الله بالظفر وتمام الأمر ، وبشر أصحابه بالنصر ونزول الملائكة . ولو كانوا لذلك ذا كرين فى حال ـ لم يكن عليهم من المحاربة مئونة ، وإذا لم يتكلفوا المئونة لم يؤجروا . . ولكن الله تعالى بنظاره إليهم رفع ذلك فى كثير من الحالات عن أوهامهم ، ليحتملوا مشقة القتال ، وهم لايعلمون : أيَغلِبُون أم يُغْلبون ، أو أيَقْتلُون أمْ يُقْتَلُون ؟

ثم يأتى لذلك بشاهد ثالث فى شأن القرآن . . فيقول :

« ومثل ذلك ما رفَعَ من أوهام العرب، وصَرَف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحدّاهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلّفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعَظُمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء وأشباه النساء ،ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال . . فقد رأيت أصحاب مسيلمة إنما تعلقوا بما ألّف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه ، وأخذ بعضه ، وتعاطى أن يقارنه ، فكان لله ذلك التدبير الذى لايبلغه العباد ، ولو اجتمعوا له »[1] .

والجاحظ هنا لايقول بالصرفة على إطلاقها ، ولكنها صرفة عن أمر هو معجز فى ذاته . . فالقرآن فى رأى الجاحظ معجز فى ذاته ، ولكن الصرفة حمته من أن

---

(١) الحيوان للجاحظ جزء / ٤ ص ٣١ .

يتكلف للمعارضة بعض المتكلفين ، فيشوش على القرآن . وذلك من شأنه أن يوقع فى نفوس الأغرار والجهلة اضطرابا . .

ولا شك أن هذه من إحدى مغالطات الجاحظ وخِلابته ، بما أوتى من قوة الحجة وسطوة البيان . .

ولو أراد « الجاحظ » أن ينقض هذا الرأى الذى أقامه على القول بالصرفة ، لنقضه بغمزة من قلمه ، دون أن يكد ذهنه ، أو يطلق العنان لقلمه !

فليس الذى صرف العرب عن معارضة القرآن أمراً خارجاً عنه ، بل إن مافى القرآن ذاته من بُعد بعيد بينه وبين كل قول يقال هو الذى حجز العرب عن أن ينزلوا معه فى تلك المعركة التى يعلمون علماً محققاً ، لا شك فيه أنهم إن فعلوا فضحوا أنفسهم ، وألقى بهم من حالق ! وأما من استبد به الجهل ، وركبه الغرور ، وضلّ عن وجوده ولم يعرف قدر نفسه ، فألقى بها فى هذا المعترك ، فقد لقى جزاءه ، هُزْءًا على الزمن ، وسخرية ، وخزياً ، ولعنات أصابت كل من حوله ، وكل من بعده من ولد وولد ولد !

لقد وُجد فى الناس السفهاء الذين سولت لهم سفاهتهم أن يطاولوا السماء ، وأن ينزلوا منازل الشمس ، فجرت على ألسنتهم سجعات مرذولة كأنما كانت قيئاً خرج من جوف أصحابها فجرى على ألسنتهم فى تلك المقاطع الباردة الغثة .. وحسبك أن تقرأ فقرات من « قرآن » مسيلمة الكذاب ، أو من قرآن طلحة ، أو من قرآن سجاح لترى أن القوم لم يكونوا معارضين ، وإنما كانوا ساخرين ، أو هازلين ، أو مجانين ، ولو جَدّ هؤلاء المعارضون لقالوا كلاماً أقل ما فيه أنه كلام عربىّ ، عليه سيما البلاغة والفصاحة ، شأن العرب الخُلَّص ، ولو عقل هؤلاء القوم لواروْا هذا الهراء كما يوارى العاقل سوءته ! .

ولقد صرف « الجاحظ » نفسه لا عن معارضة القرآن ، بل حتى عن البحث

عن أسرار إعجازه ، إذ كانت من الدقة والخفاء بحيث لا يطولها عقل ، ولا يدركها فهم ، والجاحظ خير من يدرك هذا من البيان القرآنى على وجه لم يدركه إلا القليل، من العالمين .

إن الذين صُرفوا عن معارضة القرآن لم يصرفهم صارف غير القرآن ذاته ، وغير ذلك المدى البعيد الذى بينه وبين بلاغة البلغاء ، وفصاحة الفصحاء . . ولو أن ذلك المدى كان قريباً مُطمِعاً لكان لكثير من الناس مواقف فى معارضته وإن لم ينالوا شيئاً ، أو يبلغوا غاية . . فلقد جُبِلت النفوس على أن تطمع حيث لا مطمع ، وأن تغامر فيما لا ينال . . لكن لعل وعسى !

أما حيث ينقطع الأمل ، وحيث لا يجد المرء مكاناً لمسبح أمله حتى فى « لعلّ وعسى » فإنه عندئذ تموت فى نفسه كل دواعى الهمّ إلى هذا الأمر المؤيس !

وليس الإنسان وحده هو الذى يذهب هذا المذهب ، بل إن الحيوان أيضاً ليَتهدّى بغريزته إلى ما هو مؤيس فلا يُفرغ له جهداً ، ولا يلقاه بشىء من حوله أو حيلته ! إذ كان يعلم مقدّماً أن ذلك أمر لا ينال ، أو شىء لا يرد !

وإن امرأ القيس حين وصف فرسه ، بأنه « قيد الأوابد » لم يصفه وصفاً مجازياً قائماً على المبالغة ، ولكنه كان فى ذلك يترجم عن تجربة مشاهَدة .. فإن ذلك الجواد فى سرعته وشدة انطلاقه إذا طلع على الحيوانات التى يراد صيدها به . . من ظباء ، وبقر وحشى ، وغيرها — كان إذا طلع عليها تقيدت فى مكانها فلم تفرّ من وجهه ، لأنها بإحساس صادق من غريزتها تدرك أن سعيها غير منجح ، وأنها فى يد هـذا الجواد منذ انطلق نحوها . . فلن ينفعها الفِرار ، ولن يفلتها من بين يديه أى متجه تتجه إليه !

وليس هذا شأن جواد امرىء القيس مع الحيوانات التى ينطلق إليها — وحدها ، وإنما هو شأن كل قوتين غير متكافئتين من قوى الحيوان . . القوىّ يمسك الضعيف ، ويقيده من قبل أن يمسكه أو يلحق به !

إن الحيات والثعابين تصطاد كثيراً من الحيوانات بأعينها ، حين تفتحها عليها فتشلّ حركتها ، وتسد وجوه النجاة فى وجهها ، فتستسلم لها بلا مقاومة !

وأكثر من هذا ، إن علماء الحيوان ليحدّثون عن « الأسد » أنه إذا طلع على فريسته لم تفقد حركتها إلى الفرار وحسب ، بل إنها لتتحرك ، ولكن لا إلى الفرار من وجهه ، بل إلى حيث تلقى بنفسها بين أنيابه ومخالبه . . ولهذا قيل :

* كالعير يقبل من ذُعر على الأسد *

فالذين صُرفوا عن معارضة القرآن إنما قيّدهم عن ذلك اليأسُ المطبق ، الذى لا تلوح فيه بارقة أمل فى الدنو من مقام القرآن . . وذلك بعد أن رأوا فيه شاهدَ ذلك العلو الذى لا يُطاوَل ، وهذا الشموخ الذى لا يُنال .

وليس شىء خارج القرآن ، أو قوة من ورائه ملكت على العرب ألسنتهم فلم تنطق بمعارضته ، أو صرفت نوازعهم وهممهم عن أن تتجه إلى تلك المعارضة . . بل إن الواقع ليشهد بأن كثيراً من العرب قد نازعتهم نوازعهم إلى لقاء هذا التحدى الذى تحداهم به القرآن ، فقال قائلهم كما حكى القرآن عنه : « سأُنْزِل مثلَ مَا أنزل الله » . . وكما حكى عن جماعات منهم قولهم : « لَوْ نَشَاءَ لَقُلْنا مثلَ هَذَا » . .

ولم يقف الأمر عند مجرد القول ، بل لقد أراد بعضهم أن يحقق هذا القول فعلا . . فى عهد النبىّ ، وبعد عهد النبى . . فكان « مسيلمة الكذاب » ، وطُليحة ابن خُويلد الأسدى ، وقد ادعيا النبوّة فى عهد النبى ، وأخرجا للناس قرآناً يتحديان به القرآن . . فجاء قرآنهما المروىّ عنهما أسخف وأسمج كلام جرى على لسان عربى ! . . ثم كان بعد هذا من حاول المعارضة ثم حين بان له أنه إنما هو قزم يطاول السماء ، وأنه إنما يمد إلى الشمس يداً شَلَّاء — استخزى ودس الخزى الذى معه فى التراب ! . . ويذكرون فى هذا المقام ابن المقفع ، والمتنبى ، وأبا العلاء

المعرّى! وإن كان هؤلاء القوم — فيما نرى — إن صح ما قيل عنهم — لم يكونوا معارضين معارضة التحدى ، وإنما هى معارضة الرياضة على هذا المستوى الرفيع من البلاغة والبيان ، ليكسبوا دُربة ، وليفيدوا بلاغة وبياناً من الاحتكاك بالقرآن ، ومحاذاته ، كما يفعل ذلك كثير من الشعراء والكتاب ، بمعارضة من سبقهم من فرسان هذا الميدان ، وهم لا يريدون من تلك المعارضة التحدى — حيث لا مُتَّجه له فى هذا المقام — وإنما يريدون — كما قلت — مقابلة أنفسهم بأولئك الذين رأوهم المثل الأعلى عندهم ، فى هذا الأمر الذى عارضوهم فيه .

أما أولئك الذين سوّلت لهم أنفسهم أن يخرجوا على الناس بقرآن يعارضون به القرآن ، ويدّعون به النبوّة ، كما فعل مسيلمة ، وسجاح ، والأسود العنسى، الذين سجعوا سجعاً سموه قرآناً ، وادعوا أنهم يتلقون ذلك من السماء — أما هؤلاء فإن ما جاءوا به من كلام فقد كان فضيحة لهم ، وخزياً قائماً عليهم أبد الدهر . . إذ لم يكن لهذا الكلام وجه يُعرف به بين وجوه الكلام العربى . . وإنما هو هَذْر ، وسَخَف وهذيان ! !

ابن سنان الخفاجى والقول بالصرفة[1]

ومن القائلين بالصرفة « ابن سنان الخفاجى » فهو يرى أن أسلوب القرآن لم يَبعُد كثيراً عن فصيح الكلام المختار من كلام العرب . . وأن الإعجاز الذى وقع من العرب إزاء القرآن إنما جاء من جهة أنهم سُلبوا العلوم التى كانوا يتمكنون بها من معارضته . . يقول « ابن سنان » وهو يعارض رأى « الرمانى » الذى يرى أن إعجاز القرآن راجع إلى فصاحته ، وبلاغته ، وتلاؤم نظمه . . يقول :

« ولا فرق بين القرآن ، وبين فصيح الكلام المختار فى هذه القضية .. ومتى

(١) هو الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى ، أديب وشاعر ، أندلسى — توفى سنة ٤٦٦ هـ

رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد أن فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه !

ثم يقول :

« ولعل أبا الحسن [الرمانى] يتخيل أن الإعجاز لايتم إلا بمثل هذه الدعوى الفاسدة[1] !! والأمر بحمد الله أظهر من أن يعضده بمثل هذا القول الذى ينفر عنه كل من عَلِق من الأدب بشىء ، أو عرف من نقد الكلام طرفا » .

وهذا قول غريب من ابن سنان يخرج به عن إجماع العلماء ، وأهل الذكر فى هذه القضية !!

فالمعروف أن العرب قد خرسوا أمام فصاحة القرآن ، وبُهروا من روعة نظمه ، وجلال طلعته ، ووقع كلماته على القلوب .. وأنهم أداروا نظم القرآن على كل وجه فلم يستقم معهم على أى ادعاء ادعوه فيه .. قالوا : « إنه قول شاعر » فردّهم عن ذلك نظمه الذى لا يلتقى مع الشعر فى وزن ولا قافية ، وقالوا : « قول كاهن » .. فصرخ فى وجههم صارخ الواقع من هذا البعد البعيد بين سجع الكهان ، وثِقله ، وتكلفه ، وبين نظم القرآن وسلاسته ، ورشاقته .. وقالوا ، وقالوا .. فما صدقتهم أنفسهم فى قول قالوه ، أو مدّعى ادعوه ..

ثم يقول ابن سنان :

« وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرفَ العرب عن معارضته ، بأن سُلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك :

« وإذا كان الأمر على هذا — أى على أن العرب صرفوا عن معارضة

(١) أى القول بأن إعجاز القرآن راجع إلى فصاحته وبلاغته وتلاؤم نظمه .

القرآن صرفًا — فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه — الرمانى — من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم !

« ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة ، وادعينا أنه أفضل من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم يفتقر فى ذلك إلى ادعاء ما قاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة فى الفصيح من كلام العرب . . وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحًا ، وإنما الفصاحة لأمور عِدّة تقع فى الـكلام ، من جملتها التلاؤم فى الحروف وغيره . . . » .

ولا شك أن هذا الرأى الذى يدفع به ابن سنان إعجاز القرآن من جهة فصاحته رأى فائل متهافت ، لأنه يقيمه على قصور الحجة التى احتج بها غيره على فصاحة القرآن من تلك الجهة ، فجعل هذا القصور الذى تخيله من كلام « الرمانى » حجة على القرآن نفسه !

وهذه الحجة التى يقول بها الرمانى لم تـكن هى كل ماقال فى وجوه الإعجاز، ولم يجعل الفصاحة فى سلامة الحروف من التنافر وحسب ، كما أنه لم يجعل الفصاحة وحدها هى الوجه المعجز فى القرآن . . بل إنه عدّد وجوهاً منها هذا الوجه ، بل ومنها القول بالصرفة أيضا ! ![1] وهى التى يقول بها ابن سنان نفسه ! !

ويعود ابن سنان فيقول :

« فبِمَ يُنكر على هذا أن يكون تأليف الحروف فى القرآن وفصيح كلام العرب واحداً ؟ ويكون القرآن فى الطبقة العليا ، لِما ضامّ تأليف حروفه من شروط الفصاحة التى التأليف جزء يسير منها ؟

« فقد بان بأنه على كلا القولين لا حاجة بنا إلى ادعاء ما ادعاه — الرمانى — مع وضوح بطلانه وعدم الشبهة فيه ! !

---

(١) انظر ص ١٠١ من ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن .

« ثم يقال : أليس التلاؤم معتبراً فى تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرناه فيما تقدم ؟ فلابد من نعم ! فيقال : فما عندك من تأليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفرادها ؟ أهو متلائم فى الطبقة العليا أم فى الطبقة الوسطى ؟ فإن قال فى نفس الطبقة . . قيل له : أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ؟ ولولا ذلك لم يكن القرآن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته .. فقد أقررت الآن أن فى كلام العرب ما هو متلائم فى الطبقة العليا وهو الألفاظ المفردة ، ولم يتوجه عليك فى ذلك ما يفسد وجه إعجاز القرآن . . فهلا قلتَ إن فى كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضا كذلك ، فإن عِلْم الناظر بأحدهما كعِلْمه « بالآخر » .

وهذه مغالطة أخرى من ابن سنان ! إذ يسوِّى بين الكلام مفرداً مبعثراً فى كل وجه وبين الكلام منظوماً مؤتلفاً ! وهذه تسوية ظالمة غير قائمة على منطق من الحق ، أو شاهد من الواقع . .

فلو صح هذا المذهب لما كان هناك تفاوت بين قول وقول، وبين شاعر وشاعر أو كاتب وكاتب . . إذ كانوا جميعاً إنما يبنون ما يبنون من أساليب البيان من كلمات معروفة لهم جميعاً . . إنما تتفرق بهم السبل، وتختلف المنازل ، فيعلو بعضهم ويُسِفّ بعضهم حين ينظمون هذا الكلم المفرد فى أساليب من القول ! وحين يبنون من هذه الكلمات ما يدور فى عقولهم من معانٍ ، وما يختلج فى صدورهم من مشاعر وعواطف !

وقد كان لابن سنان إذ قال : إن نظم القرآن وفصيح كلام العرب على حد سواء — كان له أن يقول : إن جميع الكلام الذى يتكلم به أهل اللسان الواحد على درجة واحدة من الفصاحة والبيان . . فلا فاضل ولا مفضول ، إذ أنهم جميعاً يغترفون من نبع واحد ، وينسجون كلامهم من مادة واحدة . . وهذا قول لا يستقيم له وجه ، ولا يستساغ له طعم .

إن كل ذى لسان له مَقُوله ، وله منطقه، وله الأسلوب الذى يحمل عنه آراءه، وتصوراته . . ولا يكاد يلتقى إنسان مع إنسان فى هذا ، فإذا ارتفع الناس إلى منازل الفصاحة والبلاغة تباينت منازلهم ، واختلفت طعوم كلامهم ، وإن خفى ذلك على من لم يكن من أهل الصناعة وأربابها . ولكنه عند الذين لهم حاسة الذوق الفنى لا خفاء فيه ، ولا لبس بين الفاضل والمفضول منه !

إن الإنسان ليس جماداً ، يخضع خضوعاً مطلقاً محكماً لمؤثرات الحياة المسلطة عليه ، فلا يملك معها من أمره شيئاً . . كلا بل الإنسان ، وكل كائن حىّ إنما يتفاعل بالقوى الحيوية المودعة فيه مع مؤثرات الحياة التى تتصل به . . فتجىء من هذا التفاعل مواليد مختلفة الصور والأشكال ، متعددة الملامح والسّمات ، بتعدد الأحياء ، فرداً فرداً ، وإن وقعوا جميعاً تحت مؤثرات خارجية واحدة . .

هذه حقيقة قائمة فى الحياة ، وسنة من السنن الكونية فى الأحياء . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ ، وَنَخِيلٌ . . صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ . . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »(1) .

ذكرت الرُّواة أن جريراً مرّ بذى الرُّمّة(2) ، وقد عمل قصيدته التى أولها :

نَبَتْ عيناك عن طَلَلٍ بِحُزْوَى عَفَتْه الريح ، وامتنح القِطارا(3)

فقال له جرير : ألا أنجدك بأبيات تزيد فيها ؟ فقال : نعم . . فقال جرير :

يَعُدُّ الناسبون بنى تميم بيوتَ المجد أربعةً كبارا

---

(1) سورة الرعد : آية ٤

(2) هو شاعر فحل من شعراء العصر الأموى ، معاصر لجرير .

(3) نبت عيناك : أى انصرفتا ، وحزوى : مكان ، والقطار : المطر .

يعدّون الرباب وآل تيم وسعداً ، ثم حنظلة الخيارا
ويسقط بينها المرئىّ لغوا كما ألغيت فى الدّيه الحوارا

فوضعها ذو الرمة فى قصيدته ، ثم مر بالفرزدق ، فسأله عما أحدث من شعر . . فأنشده القصيدة ، فلما بلغ الأبيات قال له الفرزدق : ليس هذا من بحرك ! ! ما ضغها أشد لحيين منك ! »[1] .

فهذا قول ، وذاك قول . . وإن جاء على وزنه ، وبحره !

فتسوية « ابن سنان » بين أسلوب القرآن ، والأساليب العربية الفصيحة أمر لا يستقيم على وجه من وجوه الرأى أبداً . .

ولا نريد أن نذهب فى مناقشة هذا الرأى الذى يقول «بالصرفة» إلى أكثر من هذا ، فهو رأى — كما رأيت — متهافت ، ليس له وجه يرى فيه مايرضِى أو يُقنع .

ونرى أن نختم هذا الفصل بكلمة للباقلانى يردّ بها على القائلين بهذا الرأى . . يقول الباقلانى .

« ومما يبطل القول بالصرفة : أنه لو كانت المعارضة ممكنة ومُنع منها — لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون بالمنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه »[2] .

وهذا — كما قلنا — لا ينسحب على القرآن وحده ، بل ينسحب على كل كلام ، فلا يكون هناك حسن وقبيح ، أوفصيح وغير فصيح ، أو بليغ وأبلغ منه . . وهذا كلام لم يقله أحد ، ولو قاله لما كان هناك من يستمع إليه ويستجيب له !

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٢٢ ، وقد وردت كلمة ما ضغها هكذا : (مضيفها) وأظنه تصحيف وقد صححتها على هذا النحو .

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١١٨ .

وبعد ، فإنه واضح من النظر فى هذه الآراء والمذاهب التى قيلت فى إعجاز القرآن أنها متشابهة متقاربة — فيما عدا القول بالصرفة — وأنها جميعها تفيض عن نبع واحد ، هو — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — هذا الرأى الذى صدر عن « الجاحظ » فى وجه الدفاع عن « النظم » الذى كان قد أخذ الناس ينصرفون عنه إلى العناية بالمعنى ، وذلك فى مجال الحياة الأدبية . . من شعر ونثر .

وإنه منذ جعل « الجاحظ » لنظم الكلام هذه المنزلة فى معايير البلاغة والبيان ، سلك الناس هذا المسلك ، ودخلوا به إلى إعجاز القرآن ، فأقاموه على هذا الوجه ، وأخذوه من هذا الجانب ، وكان ذلك داعية من دواعى هذا التشابه الذى بين آراء السابقين واللاحقين من الناظرين فى إعجاز القرآن .

على أنه إن يكن هناك اختلاف بين رأى ورأى فى تلك الآراء، فهو اختلاف فى درجة الإحساس التى يجدها الناظرون فى كلام الله ، وإن كانت جميع هذه الإحساسات تقع تحت سلطان الجلال والروعة والروحانية التى تطلع على الناظر فى الكتاب الكريم ، أو المستمع لآياته . . وذلك ما يجعل لهذه الآراء طعوماً ومذاقات مختلفة ، وإن صيغت من مادة واحدة ، وفاضت عن ينبوع واحد . . لأنها قد تلونت بلون الإناء الذى حملها ، وعرضها للناظرين .

* * *

والآن وقد أخذنا بحظنا من النظر فى آراء مَن سبقونا من أهل النظر فى كتاب الله ، وفى مواقع الإعجاز فيه — فإنه قد آن لنا أن نولّى وجهنا شطرَ السبيل التى تسلك بنا المسلكَ الذى ننظر منه إلى القرآن بما أرانا الله ، وبما انتفعنا به من نظرات السابقين ، عسى أن نجد جديدا ، أو نجدد دارساً ، أو نُحدث فى القلب منه ذكراً .

* * *

الباب الرابع

شبهات .. ودعاوى .. ومفتريات

وها نحن أولاء نسعى إلى القرآن الكريم ، ونستفتح الطريق إليه !

ويرتفع للنظر — فيما بيننا وبين القرآن — مسالك ودروب قد ألقى فيها ذوو الجهالات ، وأصحاب الأهواء كثيراً من الأشواك التى قد تطمس معالم الطريق ، أو تدمى قدم السالكين فيه ! ! فلابد إذن — والأمر كذلك — من وقفة نرسل فيها من جنود الحق ريحاً تقتلع هذه الأشواك ، وتلقى بها فى مكان سحيق .. وإذ ذاك نأخذ طريقنا إلى كتاب الله .. طريقاً مستقيما ، مطمئناً ، لاتسمع فيه الأذن هذا الطنين المريب ، ولا تقع للقلب منه هذه الرِّيَب المضللة ، فنرى ما نرى بعين مبصرة ، وأذن واعية ، وقلب جميع سليم ..

وقفة :

حين يرتفع الكلام إلى منازل الفصاحة والبيان ، توزن أجزاؤه بموازين دقيقة ، أدق مما يوزن به الذهب ، والجوهر النفيس .. وليس كذلك الكلام المردَّد على الأفواه فى لغة التخاطب .. إذ الكلام هنا لا وزن له ، ولا حساب فيه .. إنه يكال كَيْلَ التراب ..

ولقد علا القرآن الكريم هذا العلوّ الشامخ ، وارتفع ذلك الارتفاع البعيد عن متناول البلغاء والفصحاء ، بهذا الإحكام المعجز فى تصميم بنائه ، وفى وضع كل حرف ، وكل كلمة ، وكل عبارة ، مكانها الذى لا يمكن أن يكون غيرها قائماً

مقامها فيه والذى إن زُحزحت عنه تغيّر وجه الكلام ؛ وربما فسد نظامه ، وانفرط عقده !

أرأيت إلى العين مثلا . ؟ لقد أبدعها الخالق على هذا التركيب العجيب ، الذى يحيّر الألباب ، ويخلب القلوب ! وهى بهذا الوضع تؤدى وظيفتها كاملة على الوجه الذى أرادها الخالق له .

ثم أرأيت لو أن يد الطبيب البارع الحاذق امتدت إليها ، وأزالت شيئاً منها عن موضعه ، فجعلت السواد مكان البياض مثلا .. أ كان لهذه العين أن تظل كما هى ، قائمة على وظيفتها ، مؤدية لها ؟

ذلك — ولله ولكلامه المثل الأعلى — مَثَلُ كلام الله ، قد أحكم الحكيم العليم آياته ، فكانت على تلك الصورة البالغة غايةَ الكمال ، الجامعة له من جميع أطرافه .. إذا تبدل منه حرف ، أو تغيرت منه كلمة بان ذلك وظهر !

هذا ، ولقد حاول بعض الحمقى والسفهاء أن يغمز القرآن ، وأن يقول فيه قولا ليقال عنه : إنه هناك ! ! ، وإنه من أصحاب الرأى والنظر . . . وما هو — لو علم أو عقل — فى العير ولا فى النفير !

ما يضرّ البحرَ أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر !

فمن تخرصات المتخرصين ، ورميات الطائشين على القرآن القولُ بأن نظم القرآن قد جاء على غير الدرجة العالية من البلاغة والفصاحة . . وأنه لم يسلم من الاضطراب فى مواضع كثيرة منه ! !

ويضربون لهذا مثلا بالتكرار الذى وقع فى قصص القرآن ، ويقولون : إن تكرار القصص القرآنى على هذا الوجه الذى تتكرر فيه القصة الواحدة مرات — ليس وراءه غرض بلاغى ، وإنما هو أشبه بالإفلاس والاستغلاق ، حين لا يجد المتكلم طريقاً إلى الكلام ، فيُبدِئ ويعيد فيما يقع له !

كما يذكرون فى هذا المجال التكرارَ اللفظى لبعض الكلمات التى وردت فى

سورة : الذاريات ، والرحمن ، والمرسلات .. ويعدُّون هذا التكرار إفلاساً أيضاً !

ويأخذون على القرآن أيضاً أنه لم يتخير ألفاظه وأساليبه من الأنماط العالية التي جرى عليها الفصحاء البلغاء ، من الشعراء والخطباء ، وأنه في كثير من الأحيان كان ينزل إلى مستوى دون هذا المستوى البليغ الفصيح .

ومن مواطن الغمز واللمز للقرآن ـ الحديثُ في النسخ الذي قيل إنه قد جاء في القرآن ، وكذلك ما يقال عن المحكم والمتشابه فيه . .

وكل هذه المقولات لاتنال شيئاً من عظمة القرآن ، ولا يرتفع غبارها إلى سمائه العالية التي تنقلب عنها الأبصار خاسئة حَسْرَى !

وكل هـذه المقولات أيضاً إنمـا هي من مواليد الجدل العقيم السقيم ، ومن نَفَثات الصدور المريضة المحمومة .. قد وُلدت لغير رِشدة ، لأنها ليست لأصحاب الحق في الكلام عن القرآن ، والنظر فيه . . إذ أنهم ليسوا على شاكلة أولئك الذين تحدّاهم القرآن وهم أرباب البلاغة وأصحاب البيان ، وأهل الحكومة في وزن الكلام ، ومعرفة الفاضل والمفضول منه . . فخشعوا له ، وسجدوا بين يديه ، وعرفوا أين يقع كلامهم منه !

فليست إذن المقولات التي تتطاول على القرآن ، وتحاول أن تنال منه بالتي يُلتفت إليها ، أو يُعمل حساب لها ، بعد أن سلم له أرباب البيان بالإعجاز ، وبعد أن عرضوه على كل وجه ، وقلبوه من كل جانب ، فلم يروْا إلا مطالع الحسن ، ووجوه الكمال تلقاهم من حيث نظروا منه ، وقلّبوا فيه . .

ومع هذا ، فإننا سنعرض هذه المقولات ، ونكشف عن وجهها .. وإن يكن قد سبقنا إلى ذلك كثير من العلماء . . أحسن الله إليهم ، إذ أحسنوا القول ، وجَلَوْا وجه الحق ، وأزالوا دخان الشبهات والمفتريات .

وها نحن أولاء نجرى على سَنَنِهم ، ونأخذ مأخذهم في موقف الدفاع عن كتاب الله .. إذ هو دفاع عن الحق ، ودفع للزور والبهتان .

* * *

القرآن .. لفظه ومعناه

« القرآن » ـ هذا اللفظ ـ الذى صار « علَماً » على هذا الكتاب الكريم، والذى حمل شريعة الإسلام ـ ما معناه فى لسان العرب ؟ وهل هو عربىّ أم معرب ؟ وهل هو اسم مشتق أو جامد ؟ وإذا كان مشتقاً، فما هو فى المشتقات ؟

لقد وقع خلاف كثير بين العلماء فى الإجابة على هـذه الأسئلة، وعلى كثير غيرها مما يتصل بهذا اللفظ . .

ونحن نجمل القول فيها، فيما يلى :

ما معنى « قرآن » ؟

١ ـ قال « قتادة » : القرآن معناه التأليف . . يقال : قرأ الرجلُ إذا جمع وألّف قولا، وبهذا فسرّ « قتادة » قوله تعالى : « إنّ علينا جَمْعهُ وقرآنه » أى تأليفه . . وهذا نحو قول الشاعر :

ذِرَاعَىْ عَيطَلٍ أدْماء بِكرٍ هِجَان اللون لم تقرأْ جنينا[1]

أى لم تجمع فى بطنها ولدا .

٢ ـ وقيل : القرآن . . مصدر من قولك قرأ الرجل إذا تلا . . يقال : قرأ يقرأ قرآنا، وقراءة، وحكى أبو زيد الأنصارى « قَرْءًا » أيضاً . .

ومن هذا قول حسان بن ثابت يرثى عثمان بن عفان رضى الله عنه :

ضَحّوا بأشْمَطَ عنوانُ السجود به يقطِّعُ الليلَ تسبيحاً وقرآنا

أى قراءة[2].

---

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم .

(٢) مقدمة التفسير لابن عطية ص ٢٨٢ رسالتان

٣ — وقيل هو اسم علَم غير مشتق، خاص بكلام الله تعالى، فهو غير مهموز، وبه قرأ ابن كَثِير « قُرَان » ـ من غير همز ـ وهو مروى عن « الشافعى » .

٤ — وقال قوم منهم الأشعرى : هو مشتق من قرنت الشىء بالشىء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به القُران . . ـ من غير همز ـ

٥ — وقال « الفراء » هو مشتق من القرائن لأن الآيات منه يصدّق بعضها بعضاً ، ويشابه بعضها بعضاً ، وهى قرائن ، وهو غير مهموز .

والذى نراه .. أن «القرآن» مصدر للفعل قرأ قراءة وقرآنا ، أى حرّك لسانه بالكلام .. وقد كان أول ما نزل على الرسول الكريم من القرآن قوله تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ »[1] .. وهذه التسمية أوْلى ، لأنها أول كلمة نزلت من القرآن ، فناسب أن تكون عنوانا له .

هل لفظ قرآن عربى أو معرب ؟

من عجب أن يدعى أصحاب « الشطحات » من المستشرقين أن كلمة « قرآن » ليست عن أصل عربى ، وإنما هى معربة عن العبرية أو الحبشية ، أو النبطية . . إلى غير ذلك من المغربات التى يحاولون أن يظهروا بها فى الناس أنهم يعلمون دقائق العلم وخباياه ، والحق أنهم إنما يتخرصون تخرصات أشبه بتخرصات الكهان ! إنها رميات طائشة . . قد تصيب ، وقد تخيب أكثر مما تصيب !

وأعجب من العجب أن يتلقى كثير منا هذه الأقوال ، بل ويتلقفوها فى لهفة وحرص ، كأنهم عثروا على ذخيرة من ذخائر العلم ، أو مكنون من مكنوناته ، ظانين أن كشوف العلم لا تجىء إلا من بعيد .. من أوربا أو أمريكا ، حتى ولو كان هذا العلم علم العرب ، ولسان العرب ، ودين العرب !! إن ذلك هو الخزى والخسران !

(١) سورة العلق : آية ١ — ٢

ونسأل : هل ضاقت اللغة العربية كلها عن أن تجد الكلمة التى تجعلها عنواناً لكتابها المبين ؟ وإذا عجزت اللغة العربية عن أن تقدم كلمة واحدة هى رايتها ، والشارة الدالة عليها ، فكيف تستطيع أن تحمل هذه اللغة معجزة ، أساسها الكلمة ، وبيّنتها الكلام ؟ هل يعقل هذا ؟

لقد كانت كلمة « قرأ » ومشتقاتها من أكثر الكلمات جرياناً على الألسنة ، فى الوقت المعاصر للرسالة النبوية الكريمة ، وكانت قريش قد بدأت تظهر عناية خاصة بأمر القراءة والكتابة . . فلما نزل القرآن تلقاه المسلمون فى صدورهم ، وجعلوا يتلونه ويقرءونه مما حفظت صدورهم ، وكان المسلم حيث كان ، يردّد ما حفظ من آيات الله . . قارئاً لنفسه ، أو مقرئاً غيره . .

وقد أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على الناس ما ينزل من كلمات الله :

« وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ »[1]

أفبعد هذا يستقيم لقائل أن يقول إن لفظة « القرآن » غير عربية ؟ إن ذلك القول بأن لفظ القرآن غير عربى أشبه بقول من يقول : إن لسان العرب غير عربى إذ القرآن هو معجزة هذا اللسان ، وإذ لفظة « القرآن » هى عنوان هذا القرآن ؟

* * *

ولا نقف عند هذا السَّخف أكثر من هذه الوقفة ، لِنَدحَض تلك الفرية الداحضة ، ولنفضح هذا البهتان العظيم !

* * *

(١) سورة الاسراء آية ١٠٦

شخصية القرآن

ونَعْنِي بشخصية القرآن ما يسمى فى هذا العصر « بطاقة تحقيق الشخصية » التى تكشف عن حقيقة الإنسان وتدل عليه . .

وشخصية القرآن بهذا المعنى أوضح وأصدق شخصية يعرفها التاريخ .. إذ قامت عليها شواهد كثيرة تؤكد صحتها ، وسلامتها من التحريف أو التبديل .. وذلك :

أولا : التاريخ القرآنى الذى يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يُملى على أصحابه ما ينزل عليه من آيات الكتاب أولا فأولا وأن أصحابه قد تلقوا ما نزل من الوحى فحفظوه فى صدورهم بعد أو قبل ما كتب كتّاب الوحى ما نزل منه . .

وثانياً : كان النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يقرءون فى الصلاة المكتوبة ، والنوافل ، بالليل والنهار ، كل يوم قدراً كبيراً من القرآن ، بل وكثير منهم كان يقرأ كل ما نزل من القرآن فى يوم أو بعض يوم . .

وثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى . . قد وعد بحفظ القرآن من أن يطرأ عليه خلل أو نقص وذلك فى قوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[1] » .

وفى قوله سبحانه :

« لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ[2] » .

ورابعاً : كان اليهود ، وهم أهل كتاب ، وأصحاب علم ودرس ـ كانوا يرصدون حركات النبى ، ويتوفرون على التماس السقطات والزلات فى أصل الوحى ، وصلة الرسول بالسماء ، فيما كان ينزل عليه من قرآن .. ولو أنهم وجدوا سقطة لطاروا بها ، ولملأوا الدنيا تشنيعاً وتهويلا ، وهم مَغيظون مُحْنَقون يحسنون الكيد والدس

---

(١) سورة الحجر آية ٩ (٢) سورة القيامة آية ١٦ — ١٧

ولم يسجل التاريخ — تاريخ اليهود أنفسهم — أنهم قالوا فى القرآن الكريم قولا على كثرة ما كان من القرآن من ذمهم وتقريعهم ، وكشف معايبهم وفضح نواياهم الخبيثة . . ثم جاء نصر الله والفتح ، فأجلاهم الإسلام عن الجزيرة العربية كلها . . وكان مجال القول والتشنيع أمامهم فسيحاً ، ولكن الله أخرسهم ، وضرب على ألسنتهم فلم يقولوا فى القرآن كلمة يطعنون بها على « شخصيته » ، فى صورته التى هو عليها ، من يوم أن نزل إلى يوم الناس هذا .

وخامساً : الفرق الإسلامية الكثيرة التى قامت منذ صدر الإسلام وقد اشتد بينها الخلاف ، وكثر الجدل . وطلبَ كل فريق وجه الغلَب بأى سبيل ، فكثر لذلك التقول على رسول الله ، كما كثرت مذاهب التأويل لآيات الكتاب تأويلا يذهب إلى أبعد غايات الكفر والإلحاد .

ومع هذا فلم يكن من بين هذه الفرق حتى تلك التى خرجت من الإسلام فى شطحاتها وتأويلاتها — لم يكن لأى منها أن يجرؤ على أن يزيد كلمة أو حرفاً فى آى الكتاب الكريم ، فضلا عن آية أو سورة . .

وليس ذلك إلا لأن القرآن كان من وضوح الشخصية وتحديد معالمها بحيث لا يمكن أن يجد أحد سبيلا إلى زيادة حرف ، فضلا عن كلمة ، وفضلا عن آية !

وصدق الله العظيم الذى صدق وعده ، وحفظ كتابه :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

فإذا جاء بعد هذا من يدخل فى دعوى يدعيها على القرآن استناداً إلى رواية مختلفة ، أو خبر مكذوب ــ فإنه يجب أن يُرَدّ رَدَّ الكافرين المفترين ، إذ مضى أصحاب الشأن الذين كان لهم أن يسجلوا على القرآن مثل هذا الادعاء فى حينه وكان فى يدهم كل وسائل الإذاعة والتسجيل ، والتشهير ــ وأعنى بهم اليهود ــ ولكنهم لم يفعلوا ، ولن يفعلوا ، فسقطت بهذا دعوى كل مدع ، وافتراء كل مفترٍ أثيم .

شبهة وضلال :

هذا ، ومما يستند إليه بعض الطاعنين فى القرآن الكريم وفى صحة جمله هذا القول الذى ينسب إلى ابن عمر — رضى الله عنه، وهو : « لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله ، فقد ذهب منه قرآن كثير ، ولكن ليقل أخذت منه ما ظهر لى » .

وفى تأويل الضالين لهذا القول بأن قرآنا كثيراً قد ضاع وذهب افتراء على الله ، وتحريف للكلم عن مواضعه ، وحاشا ابن عمر أن يقول ذلك فى القرآن ، وهو يقرأ قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .. ولو صح نسبة هذا القول إلى ابن عمر لكان معناه ينصرف إلى معنى القرآن لا إلى لفظه ، وأن الضمير فى ذهب منه يعود إلى قائل هذا القول ، وهو أنه أخذ القرآن كله ، بمعنى أن قائل هذا القول قد ذهب منه قرآن كثير لم يدرك معناه كاملا ، ولم يأخذ كل ما تعطيه آياته وكلماته .. فمعانى آيات القرآن وكلماته لا تنفد أبداً، وأن توارد المسلمين فى جميع الأزمان على القرآن الكريم لا يستنفد المعانى التى يحملها . ولا يقطع الثمرات الشهية التى يجنونها منه ، فالقرآن كلام الله لا يخبو نوره أبداً .. وهذا ما يشير إليه قول ابن عمر « ولكن ليقل أخذت ما ظهر لى » أى ما انكشف لبصيرتى من معانيه ، وهذا من شأنه أن يجعل أهل القرآن على صلة دائمة به يردون موارده ، ويطعمون من ثمره كلما طافوا به أو نزلوا بساحته .

نظم القرآن

يَحكى « الخطابى[1] » فى كتابه : « بيان إعجاز القرآن » وجوهاً منكرة لتلك المقولات المفضوحة التى تطعن فى فصاحة القرآن وعلو مقامه فيها .. ثم يتولى تفنيدها ودحضها . .

يقول الخطابى :

« فإن قليل » : إنا إذا تلونا القرآن ، وتأملناه ، وجدنا معظم كلامه مبنياً ومؤلفاً من ألفاظ مبتذلة فى مخاطبات العرب ، مستعملة فى محاوراتهم . وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليلة .. وعدد الفِقَر والغُرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومياسيره عدد يسير .

« فكيف يُتوهم عليهم ــ أى على العرب ــ العجزُ عن معارضته ، والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء ، مقتدرون على التصرف فى أودية الكلام ، عارفون بنظوم قصيده ، ورجزه ، وسجعه ، وسائر فنونه ؟

« وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى فى نفوسهم ، وأجدى عليهم فى مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ، ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه ، وكراهة لمطاولته على القول ، ومعارضته بالكلام الذى يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه ، والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين ! فمالوا إلى هذا الرأى قصداً إلى اجتياحه واستئصاله إذ كانوا فيما يرون مستظهرين عليه مستعلين بالقدرة » !

---

(١) الخطابى هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى ، صاحب الرسالة فى بيان إعجاز القرآن (٣١٩ — ٣٨٨) .

هذا ضرب من ضروب الافتراء على القرآن ، والتطاول عليه فى المقام الذى تطاول به ، وقهر العرب من جهته . . وهو الفصاحة والبيان !

وأنت ترى كيف بلغ هـذا اللجاج فى العنت ، واستـكراه الباطل على أن يلد باطلا ؟ . .

وأى زور وبهتان وافتراء على الواقع والتاريخ بعد هذا الزعم بأن العرب لم يعجزوا عن معارضة القرآن ، ولو أنهم اتجهوا إلى ذلك لـكان فى متناول أيديهم وأنهم إنما عدلوا عن معارضة القرآن بالقول إلى معارضته بالسيف ، لأن السيف فيه حسم للأمر الذى بينهم وبين محمد ، ولأنهم كانوا مستظهرين بالقوة معتزين بها ، مقتدرين على الغلب ! أى بهتان وأى زور هذا ؟

ونسأل : لماذا لم تلجأ قريش إلى السيف من أول يومها مع النبىّ ؟ ولماذا تطاوله عشر سنين فى مكة . . من مبعثه إلى هجرته ؟ وهل كان وهو بين يديها فى مكة أقوى منه وهو فى المدينة بين المهاجرين والأنصار ؟

إن قريشاً لم تحتكم إلى السيف ، لأن فيه القضاء عليها ، وتمزيق وحدتها . .

ولقد حاولت أن تحمل النبىّ على ترك دعوته بكل وسيلة . . وعرضت عليه المال الـكثير من مالها ، ونزلت له عن سلطانها ليـكون هو صاحبَ السلطان عليها . . وأنها لم تحمل السيف إلا حين أعجزتها كل حيلة فى صرف النبىّ عن أمره !

ولقد كان الاتجاه إلى معارضة القرآن ، والنزول إلى الميدان الذى دعاها النبىّ إليه ، وتحداها به — كان ذلك أقربَ شىء إلى إنهاء الخلاف الذى بينها وبين النبىّ ، ولـكنها وجدت أنها لن تصمد فى هذا الميدان ، ولن تخرج منه إلا ومعها الخزى والهزيمة ! فعدلت عنه حفظاً لـكرامتها ، وإبقاء على كبريائها . .

ونستمع إلى رأى الخطابى فى الرد على بعض هذه المفتريات .. يقول :

« وأما ما ذكروه من قلة الغريب فى ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ،

فليست الغرابة مما شرطناه فى حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشى الغريب فى كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام ، وتنزيله ، والتخير له » .

ثم يذكر الخطابى زعماً آخر من تلك المزاعم . . فيقول :

« فإن قيل إننا لا نسلّم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة فى القرآن إنما وقعت فى أفصح وجوه البيان وأحسنها ـ وذلك ـ لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة ، وأهل المعرفة بها .

كقوله تعالى: «فأكله الذئب» وإنما يستعمل فى مثل هذا ـ فى فعل السباع خصوصاً ـ « الافتراس » .

« وأما قولهم: لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل ، لكان أحسن نظماً ، وأكثر فائدة ونفعاً !

« فالجواب : أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعانى فى السورة الواحدة ، وفى الآى المجموعة القليلة العدد ـ لتكون أكثر افائدته ، وأعم لنفعه ، ولو كان لكل باب منه قبيل ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر فائدته . . ولكان الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة به إلا فى النوع الواحد ، الذى تضمنته السورة الواحدة فقط .

فكان اجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظاً ، وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد »[1] .

وهذا رد ـ فيما نراه ـ كفيل بإسقاط هذا الادعاء . . وإن كان يمكن أن يقام لهذا التدبير القرآنى فى مجيئه على تلك الصورة المنجمة ـ وجوه أوجه

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٤٩ .

وأوفى من هذا الوجه . . ولـكن الدعوى أهون من أن يوقف عندها ، أو يُلتفت إليها . .

ولهذا فإنا لانقف عند هذا الهذيان ، ولا نُلقى إليه بالًا ، ولا نضيع معه وقتاً ، وها نحن أولاء نجاوزه إلى غيره من مقولات القوم . . لنرى ما يقولون ! !

يقولون : « افترسه السبع » . . هذا هو المختار الفصيح فى معناها . . فأما الأكل فهو عام ، لايختص به نوع من الحيوان دون نوع » . يريدون بذلك أن استعمال كلمة « أكله الذئب » غير مناسبة للمعنى ، وأن المناسب أن يقال : افترسه الذئب .

ويرد الخطابى على هذا بقوله :

« إن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل . . حَسْبُ ، وأصل الفَرْس دق العنق . . والقوم — أى أبناء يعقوب — إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه ، وأعضائه ، فلم يترك مَفْصِلًا ، ولا عظماً . .

وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بأثر باق منه ، يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا « الأكل » ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة . .

« والفَرْسُ » لايعطى تمام هذا المعنى ، فلا يصلح — على هذا — أن يعبّر عنه إلا « بالأكل » .

ويجىء « الخطابى » بمقولات كثيرة من هذه المدعيات ، منها : قولهم فى قوله تعالى : « أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ »[1] . . فهم يقولون :

« إن المشى فى هذا ليس أبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك « امضوا » أو « انطلقوا » لـكان أبلغ وأحسن » ! .

---

(١) سورة : ص آية ٦

ويردّ الخطابى على هذا بقوله : [بل المشى فى هذا المحل أولى، وأشبه بالمعنى، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ، ولزوم السجية المعهودة ، فى غير انزعاج منهم ، ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أن المشى أشبه بالثبات والصبر المأمور به فى قوله تعالى : « واصبروا على آلهتكم » والمعنى: كأنهم قالوا : امشوا على هيئتكم ، وإلى مَهوَى أموركم ، ولا تعرّجوا على قوله،ولا تبالوا به] .

وفى قوله : امضوا ، وانطلقوا ، زيادة انزعاج ليس[1] فى قوله [امشوا] والقوم لم يقصدوا ذلك ، ولم يريدوه[2] .

ويعرض « الخطابى » أشباهاً لهذه المزاعم ، ثم ينقضها ، وهى فى حقيقتها مُنْهارة من قبل أن يُعمل فيها معاولَ الهدم ، ولهذا فنحن لانقف عند هذا الهذيان ، ولا نلقى إليه بالا، ولا نضيع معه وقتاً . . وها نحن أولاء نجاوزه إلى غيره من مقولات القوم ، لنرى ما يقولون ! !

* * *

(١) اسم ليس ضمير مستتر تقديره هو يعود على قوله « لزيادة لزعاج » والجار والمجرور خبرها .

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن — رسالة الخطابى — ص ٣٩ بتصرف .

التكرار فى القرآن

وقعت فى القرآن الكريم صور من التكرار اللفظى لبعض الجمل ، أو الكلمات أو الأحداث . . كالقصص ، ونحوها — وبعض هذا التكرار يمر دون أن يجد منه القارىء أو السامع شيئاً يلفته إليه ، إذ يقع التكرار على نحو مألوف للأذن ، على ما جرت به الأساليب البيانية فى اللغة ، وذلك كأن يتكرر اللفظ ، أو الجملة ، لغرض التوكيد .. كقوله تعالى :

« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . . » . . وكقوله تعالى : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ، ومَا أدراك ما الحاقَّةُ . . »

فمثل هذا التكرار لا يجابه حاسة السمع بجديد لم تألفه الأذن من إعادة الجملة أو بعض أجزائها ، بصورتها كاملة ، أو بتغيير بعض حروفها أو حركاتها .. فذلك — كما قلنا — مما وقع كثيراً فى أساليب الخطاب ، فى لغتنا العربية .

وقد يجىء التكرار فى القرآن على صورة غير مألوفة ، فيبدو واضحاً أن لهذا التكرار مقصداً غير مقصد التوكيد ، إذ يمتد ، ويطول فى سلسلة تنتظم السورة كلها ، وتأخذ بها من جميع أطرافها . . كما فى سورة القمر ، وفى سورة الرحمن ، وسورة المرسلات .. فلقد تكررت مقاطع خاصة فى هذه السور الثلاث مرات . وبصورة واحدة ، دون تحوير أو تبديل فيها .

ففى سورة « الرحمن » تكرر قوله تعالى : فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكذِّبان » إحدى وثلاثين مرة ، وكان هذا المقطع آية مستقلة من بين آيات السورة التى تبلغ ثمانياً وسبعين آية .

وفى سورة « المرسلات » تكرر قوله تعالى : « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » إحدى عشرة مرة ، واعتبر هذا المقطع آية بذاتها من بين آيات السورة ، وهى خمسون آية .

وفى سورة « القمر » أيضاً حدث هـذا التكرار فى قوله تعالى : « فكيف كان عَذَابِى وَنُذُرِ » أربع مرات . . كما يذكرون فى هـذا الباب أيضاً سورة « الكافرون » وما وقع فيها من تكرار .

ولقد كان هذا التكرار على تلك الصورة المرددة مدخلا يدخل منه أصحاب الأهواء ، ومرضى القلوب — على كتاب الله ، ليخوضوا فيه ويتخرصوا على نظمه ، وليطعنوا فى بلاغته بهذا التكرار المتتابع ، وليقولوا إنه بهذا التكرار قد أدخل الاضطراب على الأسلوب ، وجعله ثقيلا على اللسان والسمع معاً ! . . وعلى هذا فإن أسلوب القرآن ليس على المستوى الرفيع من أساليب البلاغة ، وأن هذا الخلط الذى وقع فيه إنما هو أثر من آثار الأحوال النفسية التى كانت تنتاب « محمداً » فتخرج به عن وعيه ! !

وتلك رميات طائشة ، وأحكام منقوضة ، لم تصدر عن رأى وفهم ، ولم تجىء من جهة لها فى هذا الأمر قدم ، أو لها فيه وزن وحساب !

إن الذين يقولون مثل هذا القول ، أو يحكونه عن غيرهم أعاجم ، أو أشباه أعاجم ، لم يذوقوا البلاغة العربية ، أو يتصلوا بأسرارها . . ولو أنهم رزقوا شيئاً من هذا لما طاوعتهم ألسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ولردهم الحياء أن يقولوا قولا لم يقع فى حساب « قريش » وهى تتصيد التهم والمفتريات على القرآن الكريم حتى لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجدت زوراً من القول لقالته فيه ، ورمته به . . ولكن الزور نفسه أعياها أن تمسك به فى وجه هذا الحق المشرق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

وإذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول ، وهى مرجع الفصاحة والبلاغة

وموطنهما ، فكيف يساغ هذا القول من أعاجم أو شبه أعاجم ؟ إن ذلك هو الضلال البعيد !

وبعد ، فما هذا التكرار الذى وقع فى القرآن ؟ وما مقام هذا التكرار ووزنه فى معايير البلاغة والبيان ؟

التكرار فى القرآن :

هو إعجاز من إعجازه ! ووجه جديد من وجوه البلاغة ، لم ينطق به من قبل القرآن لسان ، فيجد فيه تلك الطلاوة والحلاوة ! . . على هذا الوجه الذى جاء به الكتاب الكريم .

ذلك أن كل كلام يتكرر يثقل ، ويسمج ، ويسقط !

أما التكرار الذى وقع فى القرآن فإنه كان فى المواضع التى جاء فيها نغماً جديداً من أنغام الحسن الرائع .. أضيف إلى تلك الأنغام السارية فى القرآن كله .

* * *

اقرأ هذه المقاطع . . أولا :

« فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبان »

« وَيلٌ يومئذٍ للمكَذِّبين » . .

« فكيف كان عذابى ونُذرِ » . .

اقرأ المقطع الأول ، أو الآية الأولى . . وهى التى تكررت إحدى وثلاثين مرة فى سورة « الرحمن » ورددها مرات متتابعة ، من غير فاصل يفصل بينهما . .

ماذا تجد ؟

أتحسّ ثِقلًا على السمع ؟

أتجد اضطرابا فى اللسان ؟

إن كنت موسيقيا . . فليس لى معك حديث فى هذا الأمر .. فأنت خبير به عليم .. وما عليك إلا أن تدندن بالآية الكريمة ، وتحرك لسانك بحروفها حرفا حرفاً ، كما تحرك أصابعك على أوتار العود .. وسينتهى بك ذلك إلى أن تجدنفسك فى نشوة نغم علوىّ سماوى لم يقع لأذنك من قبل !

وإن لم تكن من أصحاب الموسيقى فرتل الآية الكريمة ترتيلا قرآنيا .. مرة ومرة ، ومرات . . واملأ فمك بكلماتها ، وافتح أذنيك لرنينها . . وسترى أنك تنطق بلحن موسيقى يفيض رحمة ، وينبض جلالاً وقوة .. يهتف بالنفوس الشاردة أن ترجع إلى ربها ، وبالقلوب الضالة أن تفر إلى خالقها .. وإلا فالويل والثبور !

* * *

واقرأ الآية الثانية : « ويل يومئذ للمكذبين » ، واصنع معها صنيعك مع الآية الأولى .. تجد فيها ماوجدت فى سابقتها من تساوق النغم ، وتجاوب الكلمات وتجاذب الحروف . . فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقل . . ولكن تعاضد ، وتساند ، واتساق ، وتعانق .. بين الحروف والحروف ، والكلمات والكلمات !

وأحسبك قد وقعت على ما تكشَّف لك من اختلاف بين النغم الموسيقى هنا والنغم الموسيقى هناك . . حيث اختلف المقام . . فكان لكل مقام مقال ، أو لحن !

« ويلٌ يومئذٍ للمكذبين » .

ليس فى هذا المقطع كله نبرة حنان ، ولا حرف لين . .

إنه بناء من صخر ، وجلمد ، اجتمعت حروفه على تلك الصورة فكانت قذيفة منطلقة . أو شهاباً منقضا .. تقع على رءوس المكذبين الضالين !

* * *

واصنع بالآية الثالثة ، صنيعك بأختيها السابقتين . .

إنك تجد المعدن واحداً . .

« فكيف كان عذابى ونُذُرِ ؟ » .

تماسك بين الحروف ، وتجاذب بين الكلمات . . وتساوق فى النغم المنطلق منها . فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقل . .

ثم هى كيان واحد . .

هدير الرعد . . ودمدمة الصواعق . . . ثم سكون كسكون القبور ! !

* * *

ثم ماذا ؟

وهل قلنا فى هذه الآيات الثلاث كل ما ينبغى أن يقال ؟ إننا لم نَلْقَ الآيات إلا من جانب ضيق من جوانبها الفسيحة التى لا حدود لها .. والتى لو درنا حولها الزمن كله ما بلغنا لها مدى ، ولا انتهينا منها إلى غاية . !

اقرأ الآيات الثلاث معاً . . على هذا الترتيب السابق . . الأولى ، فالثانية ، فالثالثة . .

هل وجدت شيئاً من هذا الجمع بينها على تلك الصورة ؟

اقرأها مرة أخرى . .

إنك تجد أمراً عجباً ، وتدبيراً عجيباً !

الآية الأولى . . سؤال . . « فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان ؟ »

والآية الثانية . . جواب عن هذا السؤال : « ويل يومئذ للمكذبين » .

والآية الثالثة . . سؤال وجواب معاً : فكيف كان عذابى ونُذُرِ » .

فالسؤال فى الآية الأولى يتوعد المكذبين بآيات الله ونعمه ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح . .

وفى الآية الثانية ويل وعذاب وبلاء يلقى المكذبين الذين كذبوا بآلاء الله !

وفى الآية الثالثة بيان للحال التى تكشف عنها البلاء والويل والعذاب الذى أحاط بالمكذبين والضالين ، وأذاقهم عذاب السعير !

* * *

والآيات الثلاث لم تقع فى القرآن على هذا الترتيب . . وإنما كل واحدة منها آية فى سورة . . فالأولى — كما عرفت فى سورة « الرحمن » ، والثانية فى سورة المرسلات ، والثالثة فى سورة القمر . .

وسورة الرحمن مدنية . . وقيل إنها مكية !

والسورتان الأخريان مكيتان . . بلا خلاف !

وقد يكون تخريجنا لهذه الآيات على هذا الوجه بعيداً عن الواقع ، قائماً على الشطط والتعسف فى التأويل ! وذلك للفواصل البعيدة التى تفصل بين السور الثلاث ، زماناً ، ومكاناً ، ثم لهذه الفواصل التى تفصل الآيات الثلاث من سورها ، وترتيبها هذا الترتيب .

وذلك أمر لا ننكره !

ولكن ساقنا إليه — عرضاً — إحساسنا بما فى القرآن من أسرار ، فوقع لنا هذا الخاطر على غير انتظار أو تدبير ، فصورناه خاطراً مرسلا . لا رأياً محكما وقد ينقدح من الخاطر المرسل مالا ينقدح من الرأى المحكم !

* * *

وقد كان حديثنا معك عن هذه الآيات المكررة حديثاً خاصاً بها ، من حيث أنها فى ذاتها نغم موسيقى ، يلذ السمع ، ولا يثقل على اللسان ، وإن تكرر عشرات المرات فى صورة مفردة !.. ولقد رأيت كيف كان هذا ، وكيف صدقتك التجربة . فيما حدثتك عنه من شأنها على هذا الوجه .

ولكن هذه الآيات لم تجىء منقطعة هكذا عن غيرها ، ولا مَسُوقةً هذا المساق المنفصل . . بل هى آية فى سورة ، فإذا نظرت إليها مكررة ، قلت إنهن آيات فى سورة . .

وأنت إذ تقرأ هذه السور الثلاث ، تجد لهذه الآيات فى سورها موقعاً غير الموقع الذى وجدته حين قرأتها ، وحدها بعيدة عن الجو الذى يحيط بها ، فيما بين يديها وما خلفها من آيات ! وهنا يتجلّى لك إعجاز القرآن ، ويبدو لك من هذه الآيات ـ فى روعة نظمها ، وحسن نغمها ـ ما لم يبد لك من قبل .

ولا أريد أن آخذ عليك الطريق إلى كتاب الله الكريم لتتلو فيه هذه السورة . . فتقرأ السورة كلها ، وتتأمل وضع الآية المكررة فيها ، وتتحسس فى نفسك ما يدخل عليك من هذا التكرار ، من روعة . وقهر وسطوة . . !

ولكن هذا لا يردنى عن أن أسبقك إلى كتاب الله ، فأقتطف منه بعضاً من كل سورة من تلك السور ، لنرتلها معاً . . ثم تعود أنت فتنفرد بنفسك ، وترتل ما شاء الله أن ترتل . .

لنقرأ مطلع سورة الرحمن .

« الرَّحْمنُ . . عَلَّمَ القرآنَ . . خَلَقَ الإنْسَانَ . . عَلَّمَهُ البيانَ . . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان . . أَلاَّ تَطْغَوْا فى الميزانِ . . وأَقِيمُوا الْوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا الميزانَ . . والأَرْضَ وَضَعَهَا للأنامِ . . فيها فاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذاتُ الأكمامِ . . والحبُّ ذُو الْعَصْفِ والرَّيْحانُ . . فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبانِ خَلَقَ الإنسانَ من صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبانِ رَبُّ المشرِقَيْنِ وَرَبُّ المغرِبَيْنِ . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبان . . مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ . . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ . . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ

والمرْجَانُ . . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ . . وَلَهُ الجوارِ المُنْشَئَاتُ فى البحرِ كالأعْلامِ . . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ . . »(١)

انظر كيف يطلع هذا المطلع على تلك الصورة الرائعة الفريدة من النظم . . فأنت بين يدى خمس آيات تلاحمت، وتماسكت، دون أن يقوم بينها حرف عطف. إن ما بينها من إلف يجعلها فى غنى عن أن يُستجلب لها عاطف يعطف بعضها على بعض ! !

ثم انظر كيف بُنيت فواصل السورة من أول أمرها على النون قبلها ألف ممدودة . . هى نفس الفاصلة التى قامت عليها الآية المكررة « فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ » !

وانظر مرة أخرى إلى هذا التدبير الحكيم الذى تطلع به عليك هذه المقدمة من الفواصل المتتابعة المتماثلة مع فاصلة الآية المكررة . . . الرحمن . . القرآن . . الإنسان .. البيان .. بحسبان .. يسجدان .. الميزان .. الميزان .. الميزان. للأنام .. الأكمام .. الريحان .. ثم بعد هذا كله تجىء الفاصلة « تكذبان » . حيث لم تدخل الآية المكررة فى السورة إلا بعد اثنتى عشرة فاصلة فى اثنتى عشرة آية .. كلها من نغم الفاصلة المكررة ، وعلى وزنها .. وهذا من شأنه أن يقيم الأذن على هذا النغم ، ويربطها به.. فإذا تكررت لفظة بعد ذلك لم تجد الطريق إلى السمع مسدوداً عليها ، بل إن الأذُن تنفتح لها ، وتدعوها إليها ، وتجذبها نحوها..

وانظر مرة ثالثة .. فلقد سُبق هذا التكرار المنتظر بتكرار يمهد له ، ويُعِدّ السمع واللسان لاستقباله ..

وذلك بأن تكررت كلمة «الميزان» ثلاث مرات فى ثلاث آيات متتابعة دون

(١) سورة الرحمن الآيات من ١ إلى ٢٥

أن تفصل بينها آيات أخرى . . ولا شك أن هذا تمهيد بليغ للتكرار الذى سيجىء بعد هذا مباشرة : « فبأىِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان » .

« إنَّ فى ذلكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلبٌ ، أوْ ألقَى السَّمْعَ وَهوَ شَهيدٌ » ![1] .

* * *

وفى سورة المرسلات . . يجىء مطلعها هكذا :

« وَالمُرْسَلَاتِ عُرْفاً ، فالعاصِفَاتِ عَصْفاً . . والنَّاشِرَاتِ نشْرًا . . فالفارِقاتِ فَرْقاً . . فالمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . . عُذْراً أو نُذْراً . إنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ . . فإذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ، وإذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ، وإذا الجِبَالُ نُسِفَتْ ، وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ . لأىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . . لِيَوْمِ الفَصْلِ . . ومَا أدرَاكَ ما يَوْمُ الفَصْلِ . . »[2]

هذه أربع عشرة آية من أول السورة ، لم تذكر بينها الآية المكررة . . ثم بعدها مباشرة تجىء هذه الآية ، وتتتابع . . هكذا :

« ويلٌ يومئذٍ للمكذّبينَ » .

* * *

« ألمْ نُهْلِكِ الأوَّلِينَ » . .

« ثم نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ » . .

« كذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمينَ » . .

وَيلٌ يَوْمَئذٍ للمكذِّبين

* * *

« ألَمْ نَخلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ » . .

---

(١) سورة ق آية ٣٧ .

(٢) سورة المرسلات الآيات من ١ الى ١٣

« فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ .. »
« إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ .. »
« فَقَدَرْنَا ، فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ » .
« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »

* * *

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً .. »
« أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً .. »
« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ » .
« وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً » .
« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

وهكذا تمضى الآية إلى آخر السورة على هذا النسق العجيب من النظم .. !

فعلى رأس كل آيتين أو ثلاث آيات ، أو أربع ، أو خمس .. تجىء الآية المكررة وكأنها خاتمة المقطع « السيمفونية » الموسيقية ..

وأنت ترى أن هذه السورة الكريمة لم تتحد فيها فواصل الآيات كما رأينا ذلك فى سورة « الرحمن » مما كان له أثره العظيم فى تجاذب الآيات، وتعانق فواصلها..

ولكن الذى فات هذه السورة من اتحاد الفاصلة استعيض عنه بتقسيم السورة إلى مقاطع ، كل مقطع منها يمثل وحدة من النغم .. فى توازن الآيات ، وتماثل الفواصل ! فكان هذا العمل المحكم عاملا حاسماً فى إقرار الآية المكررة بين آيات السورة فى وضع مطمئن مكين .

ومن التدبير الذى قامت عليه هذه السورة أن آياتها الأولى، وهى أربع عشرة آية ، لم تذكر فيها الآية المكررة ـ هذه الآيات لم تجىء على نسق واحد من النظم،

ولا على وحدة واحدة من الفواصل . . بل جاءت على مقاطع ، كل مقطع منها يمثل حالا من أحوال النظم ، على نحو ما ستكون عليه صورة النظم بعد أن تدخل عليه الآية المكررة . . حين جاء على مقاطع ، كل مقطع يمثل وحدة من وحدات النغم الموسيقى للسورة كلها ..

فسبحان من هذا كلامه !

* * *

وسورة القمر !

جاءت على نظم عجيب فريد ..

توازن فى الآيات ، ووحدة فى الفاصلة ..

فلقد جاءت الآيات كلها على وزن يكاد يكون واحدا . . أشبه بشطر البيت من الشعر ..

وجاءت الفواصل كلها على صورة واحدة .. أشبه بالقافية فى الشعر .. حرف الروىّ فيها هو الراء ، مسبوقة بحرفين متحركتين قبلها ..

انظر :

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ » ..

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا : وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ »

« وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ »

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مافِيهِ مُزْدَجَرٌ »

« حِكْمَةٌ بالِغَةٌ : فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ » .

« خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » .

« مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ . . يَقُولُ الْكافِرُونَ . هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ . . »

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وازْدُجِرَ . . »

« فَدَعا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ . . »

« فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ . . »

« وَفَجَّرْنا الأرضَ عُيُوناً ، فالْتَقَى الماءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . . »

« وَحَمَلْناهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . . »

« تَجْرِى بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ . . »

« وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »

« فَكَيْفَ كانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ؟ »

« وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرآنَ لِلذِّكْرِ .. فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »

« فَكَيْفَ كانَ عَذَابِى وَنُذُرِ »

فهذا التوازن بين الآيات ــ وإن لم يكن على صورة الشعر فى تعادل التفعيلات بين صدر البيت وعجزه — قد جعل النغم الموسيقى ممسكا بها جميعها فى لحن واحد متساوق الإيقاع ، يجرى قويا متدفقاً كتدفق السيل ، حتى يقع على « القرار » فيستقر عنده ، ويسكن إليه !

وانظر . . أى قرار يحمل هذا البحر المتدفق ويحويه فى صدره ؟ إنه حرف واحد هو حرف « الراء » .. وهو أقوى حرف فى حروف اللغة العربية ، وأشدها تماسكا .. فإذا وقف عليه بالسكون انبعج فى رخامة ، ولين ، وصار أشبه بالوادى العميق الرحب ، بين يدى جبل تنهمر عيونه ، وتتدفق سيوله !

وانظر أيضاً :

فإنك لترى أن الآية المكررة هنا : « فكيف كان عذابى ونذر » لم تدخل على السورة إلا بعد أن جاء منها خمس عشرة آية .

وترى أيضاً ، ما أشرنا إليه من توازن الآيات ، ووحدة الفواصل .

وتمضى السورة على هذا النغم ، إلى آخرها . . حتى تعانق الآيةُ الأخيرة سورةَ « الرحمن » التى عرفتَ أمرها من قبل ، وما فيها من تكرار الآية «فبأىِّ آلاء ربِّكما تكذبان» إحدى وثلاثين مرة . .

وسورة «القمر» هذه على ماجاءت عليه من هذا التوازن فى الآيات ، وهذا التوافق فى الفواصل تعتبر مقدمةً طبيعية لسورة الرحمن ، وانتقالاً من نغم عاصف هادر إلى نغم ملاطف موادع . . حيث تبدأ سورة القمر مزمجرة مدمدمة . . ثم تختتم هذا الختام الرضىّ الودود . .

« إن المتقين فى جنّاتٍ ونَهَرٍ . . فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ . . »

وبهذا يمكن أن يوصل بين السورتين كأنهما سورة واحدة . .

« الرحمنُ . . عَلَّمَ القرآن . . خلَقَ الإنسان . . عَلَّمَهُ البَيَانَ » . .

* * *

هذا مَثَلٌ للتكرار الذى جاء فى القرآن ، والذى نظر إليه بعض الناس نظراً مقلوباً ، فرأوه : اختلالاً فى النظم ، واضطرابا فى الأسلوب ، وإسفافا فى البيان . على حين أنه مذهب من القول لم يكن فى مقدور العرب أن يَرْقَوْا إليه ، وضرب من البلاغة حاوله البلغاء فوقفوا دونه . فلما جاء به القرآن على هذا الوجه ، رأوا فيه وجه الإعجاز سافراً . ، فخشعوا له ، وخرُّوا ساجدين تحت قدميه !

وماذا يكون منهم غير الخشوع والسجود فى هذا المقام : ؟ وإذا هم لم يخشعوا ويسجدوا لهذا الجلال ، وهذا الإعجاز ، فلأى جلال وإعجاز يخشعون ويسجدون !

لقد تحدَّاهم القرآن بالنظم السمح السهل المألوف فعجزوا عن مطاولته عجزَ استيئاس واستسلام . . وتحداهم بالجزل الفخم من النظم فأعياهم أن يرتقوا هذا المرتقى ، وأن يطّلعوا هذا المطلع ، وأقاموا على ماهم فيه من يأس واستسلام . .

ونسج لهم نسجاً جمع بين السمح السهل والفخم الجزل فزادتهم تلك الصورة من النظم حيرة .. وحسرة ! ثم لقيهم بهذا النظم الفريد العجيب .. فنسج لهم من الآية الواحدة سورة .. يعيد فيها الآية ويكررها بلفظها . . شأن الألكن العاجز .. تتكسر الكلمة على فمه وتتكرر .. وإذا بهذا الكلام المكرر المعاد هو الفصاحة كلها ، حواها من أطرافها ، وإذا هو الحسن كله ، جمعه من جميع وجوهه !

« فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنونَ ؟ وإذا قُرِئَ عليهم القرآنُ لاَ يسجدون ؟ » !

هذا ، وقد كانت هذه الظاهرة القرآنية ـ ظاهرة التكرار ـ موضع نظر كثير من علماء السلف ، وكان لكل منهم رأيه الذى استراح له ، واطمأن إليه فى حكمة هذا التكرار ، وفى أثره البلاغى فى نظم القرآن وإعجازه . .

يقول الزركشى فى كتابه . . « البرهان فى علوم القرآن » :

« إن عادة العرب فى خطاباتها إذا اهتمت بشىء إرادةً لتحقيقه ، وقرب وقوعه ، أو قصدت الدعاء عليه ـ كررته . . توكيداً ، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسَم عليه أو الاجتهاد فى الدعاء عليه ، حيث تقصد الدعاء » .

« وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم فى عجزهم عن المعارضة » !

ثم يقول :

« وعلى ذلك يُحمل ماورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد ـ فى القرآن ـ لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة ، وكلها داعيه إلى الشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع . . قال تعالى :

« ولقد يسَّرنا القرآنَ للذّكر » . . قال فى الكشاف : « سهلناه للادّكار والاتعاظ ، بأن نسجناه بالمواعظ الشافية ، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد » . .

ثم يقول الزركشى متحدثا عن التكرار وأثره :

« وفائدته العظمى التقرير .. وقد قيل : الكلام إذا تكرر تقرر » .

وقد أخبر الله سبحانه عن السبب الذى لأجله كرر الأقاصيص والأخبار فى القرآن، فقال : «وَلَقَدْ وصَّلنَا لَهُمُ القولَ لعلَّهُم يَتَذَكَّرُون » .. وقال : «وَصَرَّفنا فيه من الوعيد ، لعلَّهم يتّقون أو يُحْدِثُ لهم ذكراً »[1] .

وكنا نحبّ أن يكشف لنا الزركشى عن هذا المعنى الذى تحدث عنه من شأن التكرار ووزنه فى الكلام — فيعرض صوراً من التكرار القرآنى ، ويجلّى روعة هذا التكرار ، وما كان له من أثر فى تقرير المعنى وتوكيده ، دون أن يجور على النظم القرآنى ، أو يأخذ شيئاً من اتساقه وتجاوب كلماته ومقاطعه !

ولكن الزركشى وقف بنا عند رأيه فى أن التكرار القرآنى هو أسلوب من أساليب البيان العربى ، وأن القرآن جرى فى هذا على ما كان للعرب من أساليب التكرار فى مواقف التوكيد ، والدعاء ، والتقرير . . وذلك فى جسيمات الأمور ، وعظائمها !

والقرآن الكريم وإن سلك هذا المسلك المألوف فى التكرار إلا أنه خرج به عما كان يلحقه عادة من قلق النظم ، واضطراب الأسلوب ، وضعف الترابط بين أجزاء الكلام ، فيبدو وجه الكلام جافياً . . كالحاً .

وهذا — كما قلنا — إعجاز آخر من إعجاز القرآن ، إذ أقام من الأسلوب القلق المضطرب، المفكك — أسلوباً متساوقاً متجانسا ، متماسكا . . فى أروع نظم ، وأحكم بيان !!

وفى «أمالى المرتضى » مجلس خاص من مجالس الشريف المرتضى يشرح فيه ظاهرة التكرار فى القرآن ، ويعرض آراء العلماء فيها ، فيردّ بعضها ، ويقبل بعضها ،

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى — جزء ٣ ص ٩ .

ويجرح رأياً ، ويعدل آخر .. ثم يدلى برأيه الذى ارتضاه لتفسير هذه الظاهرة :

يقول المرتضى فى معرض التكرار الذى جاء فى سورة : الكافرون » :

« إن سأل سائل فقال : ما وجه التكرار فى سورة الكافرون ؟ وما الذى حسَّن إعادة النفى لكونه عابداً مايعبدون ، وكونهم عابدين مايعبد ، وذكر ذلك مرة واحدة يغنى ؟

ثم يجىء برأى ابن قتيبة جواباً على هذا السؤال ، وبالطعن الذى وجه إلى هذا الرأى .. ثم يقول :

وعن هذا السؤال ثلاثة أجوبة كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة :

أولها : ما حكى عن أبى العباس ثعلب أنه قال : إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنىً ليس هو تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام : « قل يأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون» الساعة وفى هذه الحال «ولا أنتم عابدون ماأعبد» فى هذه الحال أيضاً ، فاختص منه أى — من النبى — ومنهم — أى من الكافرين — بالحال .. وقال من بعد : «ولا أنا عابد ما عبدتم» فى المستقبل « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فيما تستقبلون .. فاختلفت المعانى ، وحسن التكرار لاختلافها .

ثم يعلق على هذا الجواب بقوله « ويجب أن تكون السورة على هذا الجواب مختصة بمن المعلوم من حاله أنه لا يؤمن[1] .. وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت فى أبى جهل والمستهزئين[2] ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد .. وهم العاص

---

(١) وذلك لأن المفهوم من هذا المعنى تأييد النفى ، فالكافرون الموجه إليهم الخطاب فى هذه السورة محكوم عليهم أنهم لايعبدون ما يعبد النبى أبداً لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال بل يمضى معهم كفرهم إلى قبورهم .

(٢) المستهزئون هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون القرآن عضين » .

ابن وائل السهمى والدليد بن المغيرة والأسود بن المطلب والأسود بن عبديغوث ، وعدى بن قيس » .

وبعد أن يعرض المرتضى الجوابين الآخرين عن التكرار فى سورة الكافرون، يعرض للتكرار الذى وقع فى سورة الرحمن .. فيقول :

« وأما التكرار فى سورة الرحمن فإنما حسن للتقرير بالنعم المعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ، ووبخ على التكذيب بها .. كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن منه التكرار ، لاختلاف ما يقرره به .. وهذا كثير فى كلام العرب وأشعارهم .. قال مهلهل ابن ربيعة يرثى أخاه كليباً :

على أنْ ليس[1] عدْلا من كليب إذا طُرِد اليتيم عن الجزُور

على أن ليس عِدْلا من كليب إذا ما ضِيمَ جيرانُ المُجير

على أن ليس عِدلاً من كليب إذا رجَفَ العِضاه من الدَّبُور[2]

وقد تكرر هذا اللفظ ثمانى مرات فى ثمانية أبيات . .

ثم ذكر رثاء ليلى الأخيلية فى « توبة بن الحمير » وقد كررت « نِعْمَ الفتى » أربع مرات ، فى أربعة أبيات ، كما كررت شطر البيت : « لعمر المرء أبكى لفقده » أربع مرات فى أربعة أبيات » :

ثم يقول : « فخرجت فى هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار ، لاختلاف المعانى الذى عددناها ، على نحو ما ذكرناه » !

---

(١) اسم ليس هنا ضمير يعود على جساس بن مرة ، وهو الذى قتل كليباً غدراً . . أى أنه ليس معادلا لكليب فى هذه الأمور التى ذكرها .

(٢) رجف : تحرك حركة قوية راجفة من البرد الشديد . والعضاه شجر له شرك ويريد بهذا كناية عن الجدب الذى يقع فى وقت البرد حين يجىء الشتاء وترجف أشجار العضاه من البرد !!

وقال الحارث بن عباد (يرثى ابنه ، ويتأهب لطلب ثأره من قاتله المهلهل ابن ربيعة) :

قرّبا مربطِ النعامة[1] مِنّى   لَقِحتْ حربُ وائلٍ عن حِيَالِ

وكرر قوله : « قربا مربط النعامة منى » فى أبيات كثيرة من القصيدة ، للمعنى الذى ذكرناه .

« وهذا هو الجواب عن التكرار فى سورة المرسلات فى قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » .

« فإن قيل : إذا كان الذى حسن التكرار فى سورة الرحمن ما عدده من آلائه ونعمه ، فقد عدد فى ذلك ما ليس بنعمة ، وهو قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .

وقوله : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وليس هذا من الآلاء والنعم ؟ قلنا : الوجه فى ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة فذكره ووصفه ، والإنذار به ، من أكبر النعم لأن فى ذلك زجراً عما يستحق به العقاب ، وبعثاً على ما يستحق به الثواب ، فإنما أشار بقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » بعد ذكر جهنم والعذاب فيها — إلى نعمته بوصفها — أى جهنم — والإنذار بعقابها ، وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة[2] ! !

هذه هى سبيل التكرار فى القرآن . . لا يجىء متكلفاً ، ولا يصدر عن عجز عن تناول اللفظ الذى يصلح المعنى عليه ، وإنما يجىء حين يجىء ليخدم المعنى ، ولا يخل بتساوق النظم بل يمد النغم الموسيقى بلون جديد يزداد به النغم روعة وقوة ! !

---

(١) النعامة : اسم لفرس له .

(٢) أمالى المرتضى جزء ١ ص ١٢٠ وما بعدها .

ولكن لسائل أن يسأل : أما كان من الممكن أن يجىء القرآن بألفاظ مختلفة لهذا المعنى الذى حمله اللفظ الذى تكرر ؟ وألم يكن فى اللغة مرادف أو مرادفات لقوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟ أو لقوله : « ويل يومئذ للمكذبين »؟ إن ذلك لو حدث لخفف من حدة هذا اللون الصارخ فى التكرار .

والجواب على هذا أن القرآن لو أراد أن يعدل عن هذا الأسلوب الذى أراده على تلك الصورة لوجد أكثر من اتجاه يتجه إليه ، ليجىء باللفظ الذى يؤدى المعنى المراد ، ولأقام السورة على نظم غير هذا النظم ، ولأخرجها على نسق غير ذلك النسق .. مع احتفاظها بالمعنى المؤدى بها على صورتها التى جاءت بها ، سواء أكان ذلك فى سورة الرحمن أم سورة المرسلات أم فى غيرهما من المواضع التى وقع فيها التكرار . . .

ولكن هذا الأسلوب الذى جاءت عليه الألفاظ التى تكررت كان عن قصد ، وعن تدبير . . يبدو لنا منه — فيما نرى — :

أولا : إيقاظ المشاعر ، وإلفات العقول بهذا الخروج على المألوف من الخطاب وذلك لما يقتضيه الموقف من يقظة ووعى ، وحذر من أن يفلت من بين يدى الإنسان ما ينبغى أن يلقى به هذا الموقف من استعداد نفسى ، وعقلى ، حتى ينتفع بما فيه من عبرة وعظة . . ولو جاء عرض هذا الموقف بأسلوب مألوف فلربما غفل عنه كثير من الناس ، ولربما التفت إليه من التفت منهم،بنفس فاترة،وعقل شارد !

وسورة الرحمن التى تكرر فيها لفظ : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » — معرض متكامل لنعم الله ، ولقدرة الله ، ولرحمة الله ، ولجلال الله وعظمته . . فإذا طوف بالإنسان فى هذا المعرض ، ولم يكن معه الدليل الذى يشير له إلى كل ما ضم عليه هذا المعرض من خير ، وينبهه إلى ما ينبغى أن يتزود به من هذا

الخير — فلربما طاف ما طاف ثم خرج صفر اليدين . . لم يحمل من المعروضات إلا صوراً وخيالات . . لا تلبث أن تزول . .

فكأن قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » هو الدليل الذى يصحب قارىء السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها . . كلما عرضت آية من آيات الله ، أو تجلت نعمة من نعمه ، طلع عليه هذا الدليل يقول له هذا القول الكريم : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » دون أن يتغير وجهه ، أو صوته ، حتى يكون ذلك آلف لقارىء السورة أو سامعها .. فإنه طوال هذه الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل ، ولا صوته .. وفى ذلك ما فيه من تأثير نفسى ، واطمئنان قلبى .. لا يجده المرء لو طلع عليه فى كل خطوة من رحلته تلك — وجه جديد ، وصارخ جديد ! !

وكذلك الشأن فى مواقف الوعيد التى جاءت فى سورة المرسلات ، وما يطلع وراء كل موقف من صارخ يصرخ . . « ويل يومئذ للمكذبين » . . فإن امتداد هذا الصوت من أول السورة إلى آخرها دون أن يتغير وجه الصارخ ، أو تختلف نبراته ، فيه تمكين قوى لهذا الصوت أن يزلزل النفوس ، ويملأ القلوب فزعاً وهلعاً من هذه المواقف التى تعرضها الآيات ، فيفر منها إلى أى وجه يباعد بينه وبينها . . ولو أن صوت هذا الصارخ تغير من موقف إلى موقف لما كان هذا الصوت ذلك الواقع الشديد من التأثير على النفس ، ولو وجد السامع لكل صوت حالا تنقله من حالته التى هو فيها .. وهذه الخلخلة تذهب بكثير من الأثر النفسى للصوت الواحد الممتد ، وتجعله قطعاً ممزقة ، يجد المرء فى خلالها شيئاً من الراحة والأمن ، وإن استقبل بعدها أشد الأصوات إزعاجاً وإرعاداً !

وكذلك أيضا التكرار الذى جاء فى سورة القمر .. فهو زجر بعد زجر ، وعذاب فوق عذاب .. فهذه المثلات التى نزلت بالضالين المكذبين لرسل الله ،

وماساق الله إليهم فيها من مهلكات — هى أو مثلها نذر للضالين المكذبين بمحمد وهى ليست ببعيدة منهم ، إذ قد أصابت إخوة لهم من قبل :

« كذّبتْ عاد . . فكيف كان عذابى ونذر »

فهذا السؤال الذى يقع مكرراً فى أعقاب هذه المثلات التى أصابت قوم نوح وعاد ، وثمود — ليس متوجها إلى أولئك الذين أبيدوا وأهلكوا ، وإنما هو إلى أولئك المعاندين المكذبين بمحمد ، فلينظروا فى مخلفات هؤلاء الأقوام ، وليأخذوا الجواب منها وهناك يجدون الجواب حاضراً طوفاناً يأخذ كل شىء وريح تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وصيحة تتمزق منها الأجساد ، فإذا الناس كهشيم المحتظر !

ثانيا : إن تفرد القرآن بهذا اللون من الأسلوب . . مع احتفاظه بمستواه الذى عرف له من روعة النظم ، وجماله ، واتساق نغمه — هو شهادة قائمة تشهد للقرآن بالإعجاز .

فالمعروف عن التكرار أنه إذا وقع فى كلام الناس نزل بالكلام عن درجة البلاغة ، وأخل بمقتضيات الفصاحة ، وكسا الكلام برودة وسماجة .

ولم يقع التكرار فى الأدب العربى إلا فى ندرة ، وفى الشعر خاصة لأن الوزن والقافية يعملان عملهما فى تلطيف غثاثة التكرار ، أو تخفيف ثقله : أما إذا وقع التكرار فى النثر — خطابة أو كتابة — فإنه يسقط الكلام ، ويذهب به ، فلا يحسب فى الأدب ، ولا يضاف إليه .

ومن عجيب أمر القرآن فى هذا : أنه جعل التكرار الذى جاء به فى سورة الرحمن ، وفى سورة القمر ، وفى سورة المرسلات ، جعله آية مستقلة : تعقيبا على آية سابقة فكأنها بالنسبة الآية التى قبلها المصراع الثانى للبيت من الشعر أو الفاصلة فى الآية على حين أن الذى تكرر فى الشعر كان يجىء دائما صدراً البيت ومصراعا أول له : وذلك ليخفى القافية هذا العيب الناجم عن التكرار : ولو أن التكرار كان فى الشطر الثانى من الأبيات التى وقع فيها التكرار لفسد النظام واضطرب ! :

فانظر كيف جاء التكرار فى القرآن متخيراً المواطن التى تجنبها العرب فراراً من الثقل ، وخوفاً من السقوط . . فلم يجيئوا به فى النثر ، وجاءوا به فى الشعر ، وفى الشطر الأول من البيت .

وجاء القرآن به فى غير ثوب شعرى ، وفى غير الصدر من الآية . . فكان ذلك إعجازاً من القرآن ، إذ أقام النثر فى التأثير بما لم يقم به الشعر ، كما احتمل نظمه هذا التكرار من غير أن يستعين على تخفيفه بوزن الشعر وقافيته ، فجاء أخف وقعاً وألطف مدخلا على الأذن من الشعر بجميع ما فيه من ألوان النغم والموسيقى .

ثالثاً : أن هذا التكرار فى ذاته يخدم غرضا أصيلا من أغراض الدعوة وهو تثبيت القلوب على الحق ، وإقامتها على الشريعة التى تحملها تلك الدعوة .

فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التى تحملها العبارة المكررة ، ويمكن لها فى كيان الإنسان ، ويقيم منها خاطراً ملحا يتردد فى صدره ، ويهمس فى ضميره . وقد يعلو همسه حتى يكون صراخاً ، أو هتافاً ، أو دوياً .

انظر فى أساليب الدعاية اليوم إنها تقوم على هذا الأسلوب ، الذى عرف له قدره وأثره ، فى التمكين لفكرة ، أو التوجه لرأى أو مذهب :

فإذا أرادت دولة أن تدعو لسياسة معينة ، أو تنصر رأيا خاصا لجأت إلى هذا الأسلوب . ففتحت أفواهها كلها ، وأبواقها جميعها : صباح مساء : تبدى القول وتعيده ، عشرات المرات ومئاتها :

ومع أن « البضاعة » التى تدعو لها ، وتنادى عليها كثيراً ما تكون بضاعة كاسدة ، أو فاسدة ، والأصوات المنطلقة بالدعاية لها كثيراً ما تكون أصواتا كاذبة منافقة — ومع هذا فإن هذا الأسلوب يحقق دائماً بعض النتائج التى يهدف إليها ، وإن كانت نتائج مؤقتة لا يكتب لها البقاء طويلا . .

فكيف إذا كانت الدعوة قائمة على الحق والخير ، والدعاة الذين يدعون لها

لا يريدون إلا وجه الحق والخير ! — إن أسلوب التكرار هنا يثمر أطيب الثمرات ويأتى بأعظم الآثار :

يقول صاحب كتاب « الحضارة الإسلامية » فى صدد الحديث عن التكرار فى القرآن ، والرد على الذين يعيبون القرآن من هذا الوجه : « يجب ألا يعزب عن البال أن « محمداً » كان يبغى أن يعلم وأن يصلح[1] : والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما فى ذاته إلى التكرار ، بل التكرار بنفس الألفاظ تقريبا .

« ونحن الذين لانقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا ، ولا ابتغاء التهذيب الخلقى لنفوسنا : تساورنا آمال خاطئة حين ننظر فى كثير من فقرات الكتاب فإن كثيراً من آيات الكتاب لم يكن قصدالنبي من نقله إلى الناس هو الاستثارة الذهنية بل توطيد معايير جديدة للتقوى والأخلاق[2] » .

ويخطىء المؤلف إذ يقدر أن القرآن الذى وقع فيه التكرار إذا قرأه القارىء غير المسلم ، لا ليطلب فيه التهذيب الخلقى لنفسه ، بل لمجرد قراءة لكتاب أدبى — تساوره آمال خاطئة فى بلاغة القرآن الذى وقع فيه التكرار — يخطىء المؤلف أفدح الخطأ فى هذا التقرير ، فإن التكرار الذى وقع فى القرآن مع صرف النظر عما فيه من تهذيب نفسى وخلقى ، هو فى ألفاظه — مجردة عن المعانى الكريمة التى فيه — نغم موسيقى متناسق ، متساوق ، يلذ السمع ، ويهز القلب ، وينعش الروح !

وحسن من المؤلف أن يعترف هنا بالأثر النفسى للتكرار وبموقعه من القلب وأنه تدبير حكيم فى مقام الدعوة لإصلاح النفوس ، وإحياء القلوب : فهذا مقصد أصيل — كما قلنا — من مقاصد التكرار فى القرآن .

---

(١) ليس القرآن من عمل «محمد» ولا من مقترحاته . . وإنما هو مبلغ لما أنزل إليه ، كما نزل ، لا يملك أن يزيد فيه حرفاً أو ينقص منه حرفاً .

(٢) حضارة الإسلام لجر ونيباذم ص ١٠٩ .

إن داعية التكرار قائمة في المواقف التي يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر في الحياة الروحية والنفسية ، فتقتضي الحال أن يقابل هذا الموقف بما ينبغي له من الحضور النفسي والعقلي ، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه لهذا الموقف ، والدعوة له ، والهتاف به . . والتكرار — كما قلنا — أداة فعالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه . . نجده في الأذان حيث يدعى الناس إلى أهم أمر من أمور الإسلام ، وهو الصلاة ، فيؤذن فيهم مؤذن الحق : حي على الصلاة .. حي على الصلاة .. حي على الفلاح .. حي على الفلاح . !

ولما كان التكرار ذا أثر قوي في مقام التذكير بالله ، والإنابة إليه ، كان الرسول الكريم إذا حدث بحديث أعاده على سامعيه ثلاث مرات . . كما روى ذلك البخاري وغيره من أصحاب الصحاح .

كذلك كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع نفسه . . فكان صلوات الله وسلامه عليه إذا أهمه أمر لهج به ، وحرك به لسانه ، وألقى به على سمعه مرات كثيرة.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة ، فقام بآية يرددها ، وهي :

« إنْ تعذبهم فإنهم عبادُك ، وإن تغفر لهم فإنك أنتَ العزيزُ الحكيم » .

وكذلك كان يفعل صحابة رسول الله في المواقف التي يشعرون إزاءها بالرهبة والقهر . . فإذا حضرهم فيها من كلام الله شيء أمسوا ليلة أو بعض ليلة يرددونه على ألسنتهم . .

فقد روى أن « تميما الداري » رضي الله عنه قام ليلة بالآية الكريمة :

« أم حَسِبَ الّذين اجْترحُوا السيئات أن نجعَلهم كالّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ، سواء محياهم ومماتهم .. ساء ما يحكمون » . (1)

ورُوي أن سعيد بن جُبَير — رضي الله عنه — قام ليلة بالآية الكريمة : « وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا المُجْرِمُون » . (2)

---

(1) سورة الجاثية آية ٢١ (2) أي قام الليلة كلها بهذه الآية يتلوها ، ويردد تلاوتها

وعلى هذا فإن التكرار فى القرآن قد كان أسلوباً من أساليب التمكين للدعوة الإسلامية، وترسيخ الأصول الأخلاقية التى تدعو إليها .. إلى ما كان فيه من تحد معجز بهذا الأسلوب الذى كان يتجنبه البلغاء، ويخشون الدنو منه، حيث كان داعية من دواعى سقوط الأسلوب، واضطرابه وفساده ؟

تكرار القصص فى القرآن :

هذا، وفى القرآن ظاهرة أخرى من ظاهرات التكرار، وهى ماوقع منه فى القصص القرآنى ـ فقد تكررت معارض القصة الواحدة فى أكثر من موضع منه.

وكانت هذه الظاهرة أيضاً مما لفت أنظار العلماء إليها، وحرك أقلامهم وألسنتهم لها . . فهذا أبو بكر البلاقانى يقول عنها فى كتابه إعجاز القرآن :

« إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحداً — من الأمر الصعب، الذى تظهر فيه الفصاحة، وتبين البلاغة .

« وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوته، ونُبّهوا — أى العرب ـ بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله ـ مبتدأ به ومكررا » :

ويكشف صاحب البرهان عن سر التكرار فى قصص القرآن فيقول :

« ومنه » ـ أى من التكرار ـ تكرار القصص فى القرآن، كقصة إبليس فى السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء : « قال بعضهم : ذكر الله موسى فى القرآن فى مئة وعشرين موضعاً، وقال ابن العربى : ذكر الله قصة نوح فى خمسة وعشرين، وقصة موسى فى سبعين آية :

ثم يقول :

« وإنما كررها ـ أى القصة ـ لفائدة خلَتْ عنه فى الموضع الآخر : وهى أمور :

أحدها : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً : ألا ترى أنه ذكر الحية فى عصا موسى عليه السلام، وذكرها فى موضع آخر ثعباناً ؟

الثانية : أن الرجل ـ وذلك فى صدر الإسلام وقبل أن يكمل نزول القرآن ـ كان يسمع القصة من القرآن ، ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ـ أى عن القرآن ـ ما نزل بعد صدور[1] الأولين ، وكان أكثر من آمن به ـ بالقرآن ـ مهاجريا . فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين . وكذلك سائر القصص . فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة لقوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين ، وهم الحاضرون .

الثالثة : تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم بما اتفق للأنبياء مثله . . مع أممهم .. قال تعالى : « وكلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ من أنباَء الرُّسُلِ ماتُثَبِّتُ به فؤادَكَ »[2]

الرابعة : أن إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

الخامسة : أن الله تعالى أنزل هـذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . . ثم بَيَّنَ وأوضح الأمر فى عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا[3] » .

وتدبير القرآن فى هذا يكشف لنا عن وجه جديد من وجوه الإعجاز فيه . . إذ قد وضع القصة بهذا الموضع منه ، وأنزلها تلك المنزلة فيه ، وأناط بها هذه المهمة العظيمة ، فجعلها عبرة وعظة ، وفجر من جنباتها ينابيع الحكمة والموعظة الحسنة ؟ .

فلقد كان القصص المألوف فى الحياة العربية قبل القرآن قصصاً خيالياً خرافياً ، يساق للهو وبزجى للترفيه عن النفس وللتخفيف من قسوة الحياة فى البادية أو الهروب منها ، حيث لا متنفس للناس فى هذه الحياة الجافية القاسية إلا الأوهام والخيالات ،

(١) أى بعد رجوع الجماعات التى أخذت حظا من القرآن ثم عادت إلى أهلها أو هاجرت

(٢) سورة هود آية ١٢٠

(٣) البرهان فى علوم القرآن جزء / ٣ ص ٢٧

يتخذونها مركبا تنتقل بهم لحظات إلى عالم الأمانىّ والأحلام، ثم يَصحُون بعدها كما يصحو النائم من حلم .. لايمسك منه بشىء !

هكذا كان القصص العربى، قبل القرآن، لايستدعى العقلَ، ولايتجه إليه .. إذ كان كله تقريبا حديثا جاريا على ألسنة الحيوان، أو الجنّ .. وهذا من شأنه أن يدعو المرء إلى أن يلقاه فى غفلة من عقله حتى يمكن أن يستمع إليـه، وتقبل أذنه ما فيه من شطحات ومفارقات !

ومثل هذا القصص لا يمكن أن يتلقّى منه الإنسان عبرة أو عظة، كما لا يمكن أن يلتقى به الإنسان إلا على لهو أو ما يشبه اللهو، ولا يأخذه مأخذ الجدّ بحال .

أما قصص القرآن فقد جاء على غير هـذا الضرب من الأحاجى الواهية، والحكايات المهلهلة .

جاء هذا القصص معرضاً حيًّا لكثير من أحداث الحياة الماضية ووقائعها ..

فلقد تخَيَّر من تلك الأحداث والوقائع التى غَبَرت ـ ما كان فيه موضع عبرة وعظة فبعثها من مرقدها، بمشخصاتها كلها، بأحوالها، وأزمانها، وأمكنتها، حتى لكأنها لأول مولدها فى الحياة .. لم يغب منها شىء، ولم يذهب الماضى بشىء من جدّتها وحيوتها ..

إنك تقرأ القصة من كتاب الله فإذا أنت فى حياة غير الحياة التى أنت فيها، وفى زمن غير زمانك، وفى مكان غير مكانك .. إنك فى الحياة التى عاشت فيها تلك القصة، وفى زمانها، ومكانها، ومع أهلها، وما يتقلبون فيه من حياة !

تقرأ قصة موسى وفرعون .. فإذا بك قد انتقلت من القرن العشرين الذى تعيش فيه، إلى ما قبل الميلاد بعدد عديد من القرون .. وإذا أنت فى مصر، ومع فراعنة مصر .. وإذا أنت مع الأحداث التى وقعت بين موسى وفرعون .. تراها، وتسمعها وتشارك فيها، وتنفعل معها .

وتقرأ قصة أصحاب الكهف .. وقد انطوى فيها عنصر الزمن ، فلم يكن فى القصة ذكر لحدث تاريخى ، أو لشخص من أشخاص التاريخ يشير إلى حدود الزمن فى هذه القصة ـ ومع ذلك فأنت تشم من القصة ريحاً ينبعث من أعماق الماضى السحيق .. ريحاً يشير إلى مهابّ ذلك الزمن ومطلعه .. !

إن ما تقرره القصة من اختلاف الناس فى أشخاص أصحاب الكهف، وعددهم، وهذا اللغط الكثير الذى يدوّى فى سمع الحياة عنهم ـ هو إشارة بليغة إلى حدود الزمن الذى عاشوا فيه .. وأنه كان لعهد نزول القرآن بقصتهم زمناً بعيداً ، قد اتسع مداه ، حتى دارت أخبار هؤلاء النفر فى الحياة ، وطوّفت فى الدنيا كلها .

ومكان القصة ، وأشخاصها ؟ ..

أين هذا المكان ؟ ومن هم أولئك الأشخاص ؟

المكان هو الدنيا كلها .. حيث يكون الخير والشر .. والهدى والضلال .

والأشخاص هم فى كيان الناس جميعاً ، وفى ضمير المجتمع الإنسانى كله .. حيث تقع الناس على مواقع الخير والشر ، وحيث يتجه الناس إلى وجهات الهدى والضلال .

وأنت تجد من هذا التدبير أن عنصر المكان ووجه الأشخاص ليس له أثر فى اتجاه الغاية التى تهدف إليها القصة . . إذ كانت غايتها متجهة إلى الناس جميعاً فى كل مكان !

أما عنصر الزمن وإن جاء متخفيا فقد كان مجيئه على هذا الوجه مقدورا بقدر الحاجة إليه . . ذلك أنه وإن يكن هدف القصة غير مقيد بزمان ، ولا محدود بمكان ، فإن للزمن أثره فى إضفاء لون من الإكبار والأجلال على الأحداث التى ضمّت عليها القصة ، وبالتالى يعظم فى النفس موقع العبرة والعظة منها[1]

---

(١) تجد تفصيلا وافيا ، وتحليلا كاملا للقصص القرآنى فى كتابنا « القصة فى القرآن » (بحث الطابع)

المحكم والمتشابه

وكما أنه ليس فى القرآن أعلى وأسفل ، كذلك ليس فيه محكم ومتشابه ، إذ جميع آياته محكمات . . كما يقول الله سبحانه وتعالى فى وصفه لكتابه الكريم :

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »(١) .

أما قوله سبحانه وتعالى :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ . . فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ »(٢) .

فليس معنى المتشابه هنا المغلق الذى عُمّيت سبله ، وطُمست معالم الفهم منه ، إنما هو ما احتمل أكثر من وجه من وجوه الرأى والنظر..وذلك خلاف المحكم الذى لا يحتمل إلا قولا واحدا ، ولا تتباعد فيه المسافات بين مطارح النظر . .

وفى الآية تدبير محكم يكشف عن معنى دقيق ، يُلحظ لحظاً ، ويستشف استشفافا فالقراءة المتفق عليها فى الآية هى الوقوف عند قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » ثم تستأنف القراءات بعدها بقوله « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به . . كل من عند ربنا . . »

وعلى هذه القراءة يكون مفهوم الآية أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، وبهذا ينقطع نظر الناس عنه ! وهنا يقوم استفهام : لماذا هذا المتشابه من الآيات؟ إنها آيات معطلة . . تُتلى ولا تفهم ، وتحسب فى القرآن وكأنها ليست منه . . فما حكمة وجوده

---

(١) سورة هود : آية ١   (٢) سورة آل عمران : آية ٧

فى القرآن ؟ وما داعية وضعها بهذه الصفة فيه؟وقد تجد الجواب على هذا سابقاً لهذا السؤال فى الآية نفسها ، على هذا المفهوم الذى فهم من قوله تعالى :«وما يعلم تأويله إلا الله » وذلك فى قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » . فهذا المتشابه إنما كان ــ على هذا الفهم ــ ابتلاء وامتحاناً للمؤمنين،والذين فى قلوبهم زيغ .. فأما الذين آمنوا فيقولون:« آمنّا به كل من عند ربنا » وأما الذين فى قلوبهم مرض فيتبعون هذا المتشابه ، ويتأولونه على ا جه الذى ترضاه قلوبهم المريضة .

ولكن يمكن أن يكون للآية مفهوم آخر إذا أنت وصلت القراءة فعطفت قوله تعالى « والراسخون فى العلم» على قوله تعالى «وما يعلم تأويله إلا الله » ويكون ذلك من عطف النسق ، وتُتْلى الآية الكريمة هكذا : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم» من غير وقف على لفظ الجلالة،ويكون قوله تعالى: «يقولون آمنا به » حال من « الراسخين فى العلم » أى والراسخون فى العلم يعلمونه كذلك قائلين « آمنا به » كإيماننا بالحكم ، إذ كل من عند ربنا .

وهذا التفسير قال به كثير من المفسرين .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : يخبر الله تعالى أن فى القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب ، أى بينات واضحات لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة عند كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه فيه الواضح منه وحكّم مُحكَمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ! ! لهذا قال تعالى:«هن أم الكتاب»أى أصله الذى يُرجع إليه عند الاشتباه

« وأخر متشابهات » أى تحمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئا آخر ، من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد .

ثم يورد ابن كثير آراء السلف فى تأويل المحكم والمتشابه ،فيَروى عن ابن عباس أنه قال : المحكمات كقوله تعالى :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1] » .

وقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً » إلى ثلاث آيات بعدها[2] .

وقيل : «المتشابهات» : أى المنسوخة ، والمقدّم والمؤخر والأمثال والأقسام[3] وما يؤمن به ولا يعمل به .. ويروى عن ابن العاص عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » .

« وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : « ومايعلم تأويله » أى الذى أراد ما أراد « إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » ، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المُحْكمة ، التى لاتأويل لأحد فيها إلا تأويل

---

(١) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) أى ما قسم الله تعالى به من مخلوقاته .

واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدّق بعضُه بعضاً ، فنفذت الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر » .

وروى الإمام أحمد فى موطئه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع قوماً يتدارءون[1] فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، فضربوا كتاب الله بعضَه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدِّق بعضه بعضاً ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فَكِلُوه إلى عَالِمِه[2] » . . أى الله سبحانه وتعالى .

ويقول الشريف المرتضى فى أماليه : « إن سأل سائل عن قوله تعالى » :

« فَأَمَّا الذينَ فى قلوبهم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفتنةِ وابْتِغاءَ تأويلِهِ وما يعلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ ، والراسخونَ فى العِلمِ يقولونَ آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا ، وَما يَذَّكرُ إلاَّ أولوا الألْبَابِ[3] » .

الجواب . . قلنا : ذُكر فى هذه الآية وجهان مطابقان للحق :

أحدها : أن يكون الراسخون معطوفين على اسم الله تعالى ، فكأنه قال :

« وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، وإنهم مع علمهم « يقولون آمنا به » فوقع قوله : « آمنا به » فى موقع الحال ، والمعنى أنهم يعلمونه قائلين «آمنا به كل من عند ربنا » وهذا غاية المدحة لهم لأنهم إذا علموا ذلك بقلوبهم وأظهروا التصديق به على ألسنتهم فقد تكاملت مدحتهم ، ووصفهم بأداء الواجب عليهم . .

والوجه الثانى : أن يكون قوله : « والراسخون فى العلم » مستأنفاً ، غير معطوف على ما تقدم ، ثم أخبر عنهم بأنهم « يقولون آمنا به » ويكون المراد بالتأويل — على هذا الجواب — المتأول ، لأنه قد يسمى تأويلا . قال تعالى :

---

(١) أى يتجادلون ويتخاصمون
(٢) تفسير ابن كثير — الجزء الثانى
(٣) سورة آل عمران / آية : ٧

« هل ينظرون إلا تأويلَه يوم يأتى تأويلُه[1] » والمراد بذلك لا محالة المتأول الذى لا يعلمه العلماء ، وإن كان الله عز وجل عالماً به كنحو وقت الساعة ومقادير الثواب والعقاب وصفة الحساب ، إلى غير ذلك ، فكأنه قال : « ومايعلم تأويل مجمله على المعنى الذى ذكرناه إلا الله ، والعلماء يقولون آمنا به[2] » .

ويقول « ابن قتيبة » فى الكشف عن حكمة ما ورد فى القرآن من آيات يبدو فيها التشابه عند من لا يُحكم النظر إليها ، أو يردّد البصر فيها :

« وأما قولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه فى القرآن من أراد بالقرآن لعباده الهدى ؟ والجواب : هو أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها فى الإيجاز والاختصار ، والإطالة ، والتوكيد ، والإشارة إلى الشىء ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليها إلا اللقن[3] ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خفى .

« ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر !

« ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة ! !

« ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً لم يكن عالم ، ولا متعلم ، ولا خفى ولا جلى ، لأن فضائل الأشياء ، تعرف بأضدادها ، فالخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلو بالمر ، والقليل بالكثير ، والصغير بالكبير ، والظاهر بالباطن . .

وعلى هذا المثال كلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكلام صحابته والتابعين وأشعار الشعراء ، وكلام الخطباء . . ليس منه شىء إلا وقد يأتى فيه المعنى اللطيف الذى يتحير فيه العالم المتقدم ، ويقر بالتقصير النقاب المبرز[4] » .

---

(١) سورة الأعراف : ٣

(٢) أمالى الشريف المرتضى : ١ ص ٤٣٩

(٣) يظهر عليها : أى يطلع على أسرارها ، واللقن : الفطن الذكى

(٤) مشكل القرآن ، لابن قتيبة ص ٣٩

ويكشف ابن قتيبة هنا عن وجه مشرق من وجوه البلاغة ، وسر دقيق من أسرار البيان ، وهو عرض المعانى متخفية فى سُتُر رقيقة تشفّ عن مضمونها ، ولا تفضح مكنونها . .

وهذا الملحظ البارع من ابن قتيبة يقوم على الاعتراف بالأثر النفسى ، الذى يحدثه حب الاستطلاع لما وراء المستور ، حيث تلوح من وراء الستر مخايل تثير الخيال ، وتحرك الشعور ، وتستدعى الرغبة إلى كشف المجهول !

فما جاء فى القرآن الكريم من متشابه إنما هو من هذا القبيل ، الذى يُلوّح ولا يصرِّح ، ويشفّ ولا ينكشف ! فتظل النفوس أبداً عالقة به ، والأبصار دائماً شاخصة إليه ، والعقول حائرة فيه ، والقلوب مجتمعة عليه ! !

ويقول « عبد الجبار » فى كتابه المغنى فى تفسير قوله تعالى : « وَما يَعْلَمُ تأويلَه إلا الله » . . الآية :

« اعلم أن الأولى فى معنى قوله تعالى : « وما يَعْلَمُ تأويلَه إلاَّ الله والراسخونَ فى العلم » أن يكون عطفاً على ما تقدم ، ودالاً على أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله ، بإعلام الله إياهم ، ونصبِ الأدلة على ذلك ، فيكون قوله تعالى : « يقولون آمنا به » دلالة على أنهم برسوخهم فى العلم يجمعون بين الاعتراف والإقرار ، وبين المعرفة ، لأن الله تعالى مدحهم بذلك ، ولا يتكامل مدحهم إلا بضم الإيمان والتصديق وإظهار ذلك إلى المعرفة بتأويله . .

« يبيّن ماقلناه أنهم لو كانوا لايعترفون تأويله ، لكان حالهم وهم راسخون فى العلم كحال غيرهم ، أنهم يعترفون بأنه من عند الله ، ويؤمنون به فلا تكون لهم مزية على غيرهم ، والكلام يدل على أن لهم مزية ، ويبيّن ذلك قوله تعالى : « هو الذى أنزلَ عليك الكتاب ، منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتابِ » ، فكيف

صح في المحكم أن يكون أصلاً للمتشابه ، وليس له معنى يُستدل بالمتشابه عليه ، فلابد أن يكون له تأويل يدل عليه المحكم»(١)

ويقول « الزركشي » في تفسير هذه الآية : « ومنهم — أي العلماء — من رجّح أنها — أي الواو — للعطف . . وضعف الأول — أي ضعف هؤلاء العلماء الرأي الأول القائل بأن الواو للاستئناف — لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ، ويدل به على معنى أراده .

« فلو كان المتشابه لايعلمه إلا الله لمالزمنا ، ولا يسوغ لأحد أن يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم المتشابه ، فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله : « وما يعلم تأويله إلا الله » جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ، والمفسرون من أمته .. ألا ترى أن ابن عباس كان يقول : « أنا من الراسخين في العلم » ويقول عند قراءة قوله تعالى في أصحاب الكهف « ما يعلمهم إلا قليل » أنا من أولئك القليل !!

وقال مجاهد في قوله تعالى : « وما يَعْلَمُ تأويلَه إلاّ الله، والراسخون في العلم » يعلمونه « ويقولون » آمنا به « ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ من المتشابه إلا أن يقولوا « آمنا به » لم يكن لهم فضل على الجاهلين، لأن الكل قائلون ذلك . . ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية — أي هذا الوقت — توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا متشابه لا يعلمه إلا الله بل أمرّوه — أي المتشابه — على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة » .

* * *

وقال الراغب الأصفهاني في تفسيره : وذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوما ، وإلا لأدّى إلى رفع فائدة الانتفاع به ، وحملوا قوله تعالى :

(١) « المغني » لعبد الجبار جزء ١٦ ص ٣٧٨ .

« والراسخون » بالعطف على قوله « إلا الله » وقوله « يقولون » جملة حالية[١]

ويعقب الزركشى على الآراء التى ذهب إليها المفسرون فى هذه الآية فيقول: من عبّر بخطابه عن حقيقة المراد ، قال تعالى :

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لتبين للناس ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[٢]

ثم قال : « إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ »[٣]

« أى على لسانك ، أو ألسنة العلماء من أمتك .

لأن المعانى إذا دقت تداخلت وتشابهت على من لا علم له بها كالأشجار إذا تقارب بعضها من بعض تداخلت أفنانها[٤] واشتبهت على من لم يمعن النظر فى منبت[٥] كل فَنَن[٦] . قال تعالى :

« وَهُوَ الذى أنشأ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وغيرَ معروشات ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مختلفاً أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً ، وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ »[٧] .

وهو على اشتباكه غير متشابه .

وكذلك سياق معانى القرآن العزيز، قد تتقارب المعانى، ويتقدم بعض الخطاب ويتأخر بعضه عن بعض ، لحكمة الله فى ترتيب الخطاب والوجود ، فتشتبك المعانى وتشكل إلا على أولى الألباب ، فيقال فى هذا الفن متشابه بعضه ببعض .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جزء ٢ ص ٧٣
(٢) سورة النحل آية : ٤٤
(٣) سورة القيامة آية : ١٩
(٤) فى الأصل « أمثالها » وهذا لا يستقيم مع السياق
(٥) فى الأصل « منبعث » وهو تصحيف صححناه على هذا النحو
(٦) فى الأصل « فن » وهو تصحيف صححناه على هذا النحو
(٧) سورة الأنعام آية ١٤١

وأما المتشابه فى القرآن العزيز فهو يشابه بعضه بعضاً فى الحق والصدق والإعجاز والبشارة والنذارة ، وكل ما جاء به ، وأنه من عند الله »[١] .

ويقول صاحب كتاب المعانى : « القرآن محكم من جهة النظم والإعجاز كما قال تعالى :

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »[٢] .

وقوله تعالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً »[٣] .

فكله متشابه . . من تشابه ألفاظه بعضها ببعض وبعضه محكم من جهة احتماله وجهاً واحداً ، لا يُرتاب فيه ، وبعضه متشابه من احتماله وجوها كثيرة لا يقطع على واحد منها قاطع ، كما أنه فى بابه عَلَم ساطع .

« وذلك لقوله: « منهُ آياتٌ مُحكمَات هُنّ أمُّ الكتَاب وَأُخَرُ مُتَشَابهات»

فاللائى هن أم الكتاب مثل قوله : « قُلْ تعَالَوْا أتلُ مَا حَرّمَ رَبُّكم عليكم[٤] » وقوله : « قل هو الله أحَدٌ ، الله الصَّمدُ » وقوله :« هو الله لَا إله إلاّ هُو المَلِكُ القُدُّوس » إلى آخر السورة .[٥] » .

وأما المتشابه فإنه مثل قوله تعالى: «أن تَقُولَ نفسٌ ياحَسْرَتَى عَلَى مَافرّطتُ فى جَنْبِ الله »[٦] وقوله : « هل يَنْظُرون إلا أن يأتيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَام والملائكةُ » وقوله : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ » وما أشبهها .

لم هذا المتشابه ؟

فإن قيل: ولأية علة أنزل المتشابه ، وهو يحتمل التأويلات .. فهلا جعله كله

(١) البرهان فى علوم القرآن جزء ٢ ص ٧٠
(٢) سورة هود آية ٢ (٣) سورة الزمر آية ٢٣
(٤) سورة الأنعام الآيات / ١٤١–١٥٢–١٥٣
(٥) سورة آية ١٠٦ الحشر / ٢٢ – ٢٤ – ٢٤ (٦) سورة الزمر / ٥٦

محكما دالاً على ما أراده ، ليكون أكشفَ للحق ، وأقمع للشبهة مع قوله تعالى :
« لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ بَيِّنة » .

وإذا لم يكن فى المتشابه المأخوذ منه المراد لَبْس ولا خفاء فهو إلى التشكك أقرب وكان متناقضا،ولم يكن من عند حكيم،والكلام المبين الذى لاتتداخل فيه الشكوك أشبه بكلام الحكيم الذى يريد هداية عبيده ؟

والجواب على هذا :

« أن الله سبحانه احتج على العرب بالقرآن إذ كان فخرُهم ورياستهم بالبلاغة وحسن البيان . والاختصار والإطناب ، وكان كلامهم على ضربين:أحدهما الواضح الموجز ، الذى لايخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره ، والآخر على المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات ، وهذا الضرب هو المستحلَى عندهم ، الغريب من ألفاظهم ، البديع فى كلامهم . . فلما قَرَّعهم الله سبحانه فعجّزهم عن المعارضة بمثل سوَرٍ أوسورة منه ، أنزله على الضربين،ليصح العجز منهم ، وتتأكد الحجج ولزومها إياهم ، فكأنه قال عارضوا « محمدا » صلى الله عليه وسلم فى أى الضربين شئتم . . فى الواضح أو فى المشكل ، ولم يقدروا عليه .

ولو أنزله كله واضحاً محكما بحيث لايخفى على أحد سمعه لوجد المشركون مقالا ، وا لقالوا : ما باله لم ينزل بالضرب المستحب عندنا والمستحلَى فى طباعنا؟ لأن مافيه الإشارة والكناية والتشبيه والتعريض كان أفصح وأعرب . مع أن غاية الفصاحة ، ونظم البلاغة شَوْبَ التعريض بالتصريح ، والمجاز بالحقيقة ، لتصريف القول فى كل فن من فنون البلاغة . . !

فكان قوله تعالى : « آمِنُوا بالذى أُنزِلَ عَلَى الذين آمَنُوا وجْهَ النّهَار » أذهبَ فى معنى البلاغة من أن يقول فى أول النهار،وقوله :«وعنده أمُّ الكتاب» أبلغ من أن يقول « أصل الكتاب » وقوله :

« فقدِّموا بين يدىْ نجواكم صدقةً » .

أبلغ من أن يقول : قدموا قبل نجواكم صدقة .

وقوله : « أنّ لهم قَدَمَ صِدقٍ عِندَ رَبِّهم » .

أبلغ من أن يقول : لهم ثواب عمل صالح .

وقوله : « فأَتَى اللهُ بُنْيانَهم منَ القَواعد » .

أفصح من أن يقول : فأتى أمر الله بنيانهم من القواعد » .

وكذلك قول الله : « فأتاهم اللهُ منَ حيثُ لَمْ يَحْتَسِبوا » .

أحسن من أن يقول : « فأتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا » .

وقوله : « ياحَسْرَتَىْ على ما فَرَّطْت فى جَنْبِ الله » .

أفصح من أن يقول : فرطت فى أمر الله ، أو طاعة الله .

« وأمر آخر :

وهو أن يشغل أهل العلم برد المتشابه إلى المحكم فيطول بذلك تفكيرهم ، ويظهر بالبحث عنه اهتمامهم ، ولو أنزله كله محكما لاستوى فيه العالم والجاهل . . فشغل العلماء به ، ليعظم ثوابهم ، وتعلوا منزلتهم ، ويكرم عند الله مآبهم . .

« وأمر آخر .

هو أن الله سبحانه وتعالى لو أنزل الكتاب كله ليس فيه مايحتاج إلى استخراج ولانظر عالم ، لكان يستوى فيه العالم وغيره ، وكان ذلك يحملهم على ترك التدبر لمعانيه والإقبال عليه ، إذ ييأسوا من أن يكون فى باطنه غير ما فى ظاهره . فشغلهم باستخراج حكمه الباطنة فصاروا لا يشبعون منه ، لما يهجمون عليه فى كل وقت ، يتدبرون من عجائب حكمه ، وغرائب فرائده .

ويجوز مع ذلك أنه لو كان — أى القرآن — تنقطع منه الفوائد لاجتازوا عند المصير إلى انقطاع فوائده إلى الضجر منه ، والاستخفاف بحقه .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف القرآن : « هو الذى لا يَخْلُق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه »[1] .

وإذن فالرأى الذى ينبغى أن نراه فى القرآن هو أن كل ما فيه من حروف ، وكلمات وآيات هو محكَمٌ ، بمعنى أنه غير محجوب عن أنظار الناظرين ولا محجوز عن فهم المتدبرين والمتذكرين .

« كِتاب أنزَلْنَاهُ إليك مُبارَكٌ ليدَّبَّرُوا آياتِه ، وليتَذَكَّرَ أولوا الألباب »

وهذا الفهم لكلام الله على هذا الوجه هو الذى يحفظ وحدة هذا الكتاب ، ويجعل منه آية واحدة من آيات الله ، التى تشيع الحكمة من كل جانب منها ، وتتفجر ينابيع الهدى من كل جهة من جهاتها .

أما إذا قيل إن من القرآن ما هو متشابه لا يدنو منه نظر ، ولا يتجه إليه عقل فإن ذلك من شأنه أن يمزق وحدة القرآن ، وأن يقيم فيه الحواجز والسدود ، وأن يجعل بعضه قرآنا ، وبعضه أصواتا ، تُنطق ولا تفهم ! وقد ذم الله اليهود إذ ذهبوا بالكتاب الذى بين أيديهم مذهباً يُعملون فيه بعضه ، ويهملون بعضه — فقال تعالى :

« أفتُؤمِنُون ببعض الكتابِ وتَكفُرُون ببعض فما جزاء من يَفْعَل ذَلِكَ منكم إلاَّ خِزْيٌ فِى الحياة الدُّنيا ويومَ القِيامة يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذَاب .. وما الله بِغَافِلٍ عمَّا تَعْمَلُونَ »[2]

وإذا كان الذين يقولون بوجود المتشابه فى القرآن لا يكفرون به ، بل يؤمنون به كما يؤمنون بالمحكم ، فإن إيمانهم هذا على وجه واحد ، وعلى درجة واحدة — إيمان عجز واستسلام . . أما الإيمان بالمحكم فإيمان قائم على نظر ، وفهم ، وإقناع ، على أن الإيمان بالمتشابه إيمان قلق مذعور ليس له جذور وتمسك به فى قلب صاحبه .

* * *

(١) كتاب المبانى ص ١٧٦ وما بعدها .

(٢) البقرة / ٨٥ .

القرآن .. قديم أو حادث ؟

كانت هذه المسألة فى فترة من فترات المسلمين مثار فتنة عاصفة، كادت تذهب بوحدة الجماعة الإسلامية ، وتمزّق شمل المسلمين . .

ولقد وُلدت هذه الفتنة من احتكاك المذاهب الكلامية التى ظهرت فى العصر العباسى، فكان المعتزلة أول من أثاروا المعارك، وأداروا الجدل بخلق القرآن ، وأنّ هذا الكلام الذى نقرؤه ونسمعه من كتاب الله ليس كلام الله القديم ، وإنما هو مخلوق لله كسائر المخلوقات . .

وهذه ليست بنتَ يومها هذا الذى ظهرت به فى شدتها وحدتها أيامَ الخليفة العباسى ، المأمون . . وإنما كان « الجعد بن درهم » أولَ من فتح فمه بهذا الشر الأعمى . . أيام هشام بن عبدالملك ، الخليفة الأموى، الذى بعث به إلى « خالد ابن عبدالله القَسْرى » أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ، فكان ذلك سبباً فى لوم هشام له والعزم عليه بقتله، فذبحه خالد ذبح الشاة .. وذلك فى يوم عيد الأضحى بعد أن صلى بالمسلمين صلاة العيد، ثم قال لهم: أيها الناس انصرفوا وضحوا ، يقبل الله منكم ، فإنى مُضحٍّ بالجعد بن درهم » .. ولم تمت هذه البدعة بموت صاحبها . . فتلقاها عنه « الجهم بن صفوان » و « حفص الفرد » وغيرهما حتى صارت بعد ذلك قولا ومذهباً لفرقة كبيرة من أصحاب الكلام وهم المعتزلة ، الذين جهروا بهذا القول ، ووقفوا به فى وجه الجماعة الإسلامية كلها . وقد تصدّى لهم أهل السنة ، والتحمت معارك الكلام بين الفريقين ، ثم تطور هذا الصراع إلى معارك مادية انتصر فيها الخلفاء العباسيون وخاصة « المأمون » للمعتزلة ، وقد اشتد البلاء فى تلك الفترة على الذين عارضوا القول بخلق القرآن، وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه

أحد الذين ابتُلُوا فى أنفسهم من أجل هذا ، فعُذِّب وسجن ، وأهين . .

ولقد اتسعت مذاهب القول فى هذه الفتنة ، وعاش المسلمون زمناً فى صراع دائم متصل . . لا حديث لهم،إلا فى هذا الأمر،ولا شأن يعنيهم من الحياة غيره . يكفّر بعضهم بعضاً ، بل ويقتل بعضهم بعضاً . . إلى أن خمدت ريح هذه الفتنة فى أيام الخليفة العباسى « المتوكل » ثم لم تقم لها قائمة إلى اليوم . والحمد لله رب العالمين . .

ونحن إذ نعرض لهذا الأمر اليوم ، فإنما نعرض له لأنه يمثل وجهة من النظر فى كتاب الله ، ولأنه « مفهوم » وقع لبعض الناظرين فى القرآن . . وإن يكن هذا النظر منحرفا مضطربا ، وإن يكن هذا المفهوم خاطئاً زائغاً . .

إنه على أى حال جانب من النظر فى كلام الله ، ورأى وقع عند جماعة لها وزنها ولها خطرها فى التفكير الإسلامى . . هم جماعة «المعتزلة» الذين هم أصحاب لَسَنٍ وفصاحة ، ومنطق . .

منشأ هذا القول :

ومنشأ القول بأن القرآن مخلوق لله ، وحادث غير قديم ، يرجع إلى مفهوم المعتزلة لصفات الله . . من إرادة ، وقدرة ، وسمع وبصر ، وكلام ، ونحوها . .

فأهل « الحديث » يرون أن هذه الصفات قديمة،لأنها قائمة بالذات..يقولون: إن الله مريد بإرادة قائمة بالذات ، وليست عين الذات ولا غيرها ، وهكذا فى سائر الصفات. والمعتزلة يريدون أن القديم واحد لايتبعض، ولا يتجزأ ... وبهذا نَفَوْا ما أثبت أهل الحديث من صفات الله ، ونزهوه سبحانه عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام،وقالوا : إن الله ـ سبحانه ـ قادر بذاته ، مريد بذاته . . متكلم بذاته . .

ومن هذا نشأ الخلاف حول الـكلام القرآنى : أهو قديم ، لأنه صفة لله عزّ وجل ؟ أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات ؟ وبهذا القول قال المعتزلة:

فالقرآن عند المعتزلة ليس صفة لله ، بل إن الله سبحانه خلق هذه الحروف والأصوات فى جسم محدَث ، يسمعه النبىّ منه ، وهذا هو الوحى عندهم ، ومن احتجاجهم لهذا قولهم : حقيقة المتـكلم مَن فَعَل الـكلام . . فهو فاعل الـكلام فى محلّ . . بحيث يُسمع ، ويُعلم أنه كلام ضرورة ، لأنه لو كان المتكلم من قام به الـكلام ، لوجب أن يكون كلامه إما قديماً ، وإما حادثاً، وإن كان قديماً ففيه إثبات القديمين . . ومما يختص بهذه المسألة من الاستحالة أنه لو كان — الكلام القرآنى — قديماً ، وهو أمر ونهى ، لزم أن يكون — هذا الكلام — كلاماً مع نفسه من غير مأمور ، ولا منهىّ . . ومن المحال الذى لا يُتَمارى فيه أن القول بأنا « أرسلنا نوحاً إلى قومه[1] » ولا نوح ولا قومه — إخبارٌ عما ليس كما هو.. فهو مع استحالته كذب ، ومع كذبه محال . . وقوله : « اخلعْ نَعْلَيْكَ[2] » لموسى ، ولا موسى ولا الطور ، ولا الوادى المقدس طوى — خطاب لمعدوم ، والمعدوم كيف يخاطب ؟ . . وكذلك جميع مافى القرآن من الأوامر والنواهى والأخبار .. فوجب أن يكون الـكلام يحدث عند حدوث المخاطب ، فى الوقت الذى يصل الـكلام إليه ، فيـكون الـكلام حادثاً »[3] .

* * *

هذا لون من ألوان الاحتجاج للقول بخلق القرآن . . قابله علماء السُّنة بالرّد والجحد . . فـكانت معركة طاحنة ، اشتبك فيها المسلمون جميعاً ، عامة وخاصة ، محكومين وحاكمين .

---

(١) سورة الأعراف / ٦٥ (٢) سورة طه / ٢١

(٣) النهاية للشهرستانى ص ٥٩

الخليفة المأمون يقود هذه المعركة :

ومما جعل لهذه القولة من أقوال المعتزلة أثراً فى الحياة ، وصدى فى التاريخ ، أن الخليفة العباسى « المأمون » قد جعل نفسه طرَفاً فى هذه القضية ، فقاد هذه الحملة الداعية إلى القول بخلق القرآن . ودعا الناس إلى متابعته ، والأخذ بهذا الرأى الذى وافق المعتزلةَ فيه .

وقد أعلن « المأمون » رأيه هذا فى سنة ٢١٢ هـ ، وكان يظن أنه متى أعلن رأيه للعلماء ، وفقهاء الأمة أن يجيبوه ، وأن يروا ما رأى . . ولكن حدث غير ما كان يتوقع ، فإنه ما كاد يجهر بهذا الرأى حتى قامت قيامة الناس، وغلا غليانهم وركب كثير منهم طريق العناد ، وأخذت كثيراً منهم الحميَّةُ والغيْرة فذهبت بهم مذهباً بعيداً فى الخلاف ، ودخل فى رُوع كثير منهم أن الأمر أمر جهاد فى سبيل الله ، ودفاع عن دينه وحماية لكتابه .. فكفّر بعضهم بعضاً ، وأراق بعضهم دم بعض ، وعرّض كثير منهم نفسه للتلف والهلاك . .

وقد كان الأمر أهون من هذا ، لولم ينزل الخليفة إلى ميدان المعركة ، ولو لم تأخذ المسألة طابعاً ذاتياً ، وشخصياً ، فى كثير من المواقف ، دفاعا عن مركز مرموق عند العامة ، فى جانب ، أو عند الخليفة ، فى الجانب الآخر . .

فليس لهذا الخلاف كبيرُ أثرٍ فى شأن القرآن ، وفى شأن الأحكام التى جاء بها ، والشريعة التى حملها . . إنه من عند الله ــ على أى حال ــ وكونه قديماً أو حادثا ، غير مخلوق ، أو مخلوق ، لا يغير من هذا شيئا . .

ولكن الأمر ــ كما قلنا ــ كان بابا من أبواب الجدل ، التى فتحت على المسلمين فى تلك الفترة ، والتى وُلِدَت منها المعتزلة وما تولّد منها من فرق .

* * *

ولا بأس من أن نلقى نظرة على هذه المعركة ، ونقف وقفات عند تلاحم القتال واشتداد الصراع بين طرفى النزاع، ففى هذا ما يكشف لنا عن بعض ماعند الفريقين من آراء وتصورات لهذه القضية . .

فى المعركة :

مرت أربع سنوات من إعلان المأمون رأيه فى خلق القرآن دون أن يجد لهذا الرأى صدًى عند العلماء والفقهاء ، إلا أن يكون ذلك الصدى عن أصوات الاستنكار ، والاستهجان ، والاستخفاف، والتهجم .. تلك الأصوات التى انطلقت من أفواه العلماء والفقهاء والعامة جميعا ..

عندئذ رأى « المأمون » أن يستعين بسلطانه فى سَوْق الفقهاء إلى رأيه ، وحملهم — بهذا السلطان — على متابعته .. وخاصة أولئك الفقهاء الذين يَلُون مناصب الفُتيا والقضاء فى الدولة .. فلا يكون الخليفة على رأى ، ويكون وُلاته على خلاف هذا الرأى !

وهكذا تصوَّر المأمون الأمر ، حين وقع تحت تأثير نزعاته الذاتية ، وحين وقع فى نفسه أن الأمر يتعلق بالخلافة وهيبتها ، وبالخليفة وسلطانه ..

فانظر كيف استبد الإحساس الذاتى بالمأمون، وكيف استولى على عقله، فخذله ذكاؤه ، وخانته حكمته .. وهو من هو ذكاءً ، وحكمة ، وحلما ، وعلما ؟

ولكن الهوى حين يغلب، والنفس حين تجمح : « إن النفس لأمَّارة بالسوء ».

ولو أن المأمون تخفف قليلا من محاباته لنفسه ، ونظر إلى الأمر فى حدوده الموضوعية ، بعيداً عن شخصه أو أشخاص مخالفيه — لو أنه فعل ذلك لما ركب رأسه على هذا الوجه ، ولما اشتط هذا الشطط البعيد ، الذى كاد يذهب بالخليفة ، والخلافة والدولة جميعا ..

فى سنة ٢١٨ هـ ، وكان المأمون غازياً فى أطراف الدولة على حدود الروم — بعث بكتاب إلى إسحق بن إبراهيم عامله على بغداد . .

وقد شرح فى هذا الكتاب أن واجب الخليفة ، بوصفه إماماً المسلمين أن يجتهد فى إقامة الدين ، ويتحرّى وجه الحق المسلمين . .

ثم ذكر ما عليه الجمهور — من حشو الرعية ، وسِفْلة العامة — من الجهالة بالله حتى ساووْا بينه وبين ما أُنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم ، مع النصوص الدالة على خلاف هذا . .

ثم يقول فى هذا الكتاب : « ثم هم — أى العلماء ومعهم الجمهور — الذين حاولوا بالباطل ، فَدَعَوْا إلى قولهم[1] ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة . وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل لقولهم ، ومكذِّب دعواهم ، يردّ عليهم قولهم ونحلتهم . . ثم أظهروا — مع ذلك — أنهم أهل الحقّ ، والدِّين ، والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل ، والكفر ، والفرقة . . فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السَّمت[2] الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين — إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزيناً بذلك عندهم ، وتصنعاً للعدالة والرياسة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دين الله وَلِيجةً إلى ضلالتهم » . .

هذا هو رأى المأمون فى مخالفيه الذين يقولون بأن القرآن قديم غير مخلوق . .

ولو أنصف لقال هذا القول نفسه فى أصحاب مذهبه القائلين بأن القرآن مخلوق . . لأنهم إنما أمسكوا بهذا القول ، وشدوا عليه بالخناصر حين رأوا خليفة المسلمين يتمذهب بمذهبهم ، ويستجيب لدعوتهم . . فتطاولوا على الناس بهذا ، وركبهم

(١) أى دعوا الناس إلى القول بأن القرآن قديم .

(٢) السمت . الطريق ، والمنهج .

الغرور . . فكان منهم هذا الدفاع المستميت فى سبيل هذا الوليد الذى وُلِدَ لهم، وتبناه الخليفة عنهم ، ووضع الدولة كلها لخدمته .. !

ثم يقول « المأمون » فى كتابه هذا إلى إسحق بن إبراهيم :

فاجْمَعْ من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خَلْق القرآن وإحداثه .

« وأعْلِمْهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يُوثَق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه » !

أرأيت إذن كيف سلط « المأمون » سيف سلطانه على رقاب رعيته ممن خالفه فى رأيه .. وكيف تجسد هذا الخاطر الأسود فى نفسه ، فصار يرى به كل مَن خالفه مارقاً عن الدين ، خارجاً على الشريعة ، غير أهل لأن يوثَق به ، وأن يقلّد للخليفة عملاً من أعمال الدولة ! ! ؟

وفى هذا يقول المأمون فى كتاب آخر كتب به إلى عامله فى بغداد :

«وليس يرى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه[1] المقالة حظًّا فى الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحِلّ أحداً منهم محلّ الثقة فى أمانة، ولا عدالة ولا شهادة، ولا صدق فى قول ، ولا حكاية ، ولا تولية شىء من أمر الرعية ..»

وماذا يلد اللجاج والعناد غير هذا الباطل ؟ وماذا يقيم بين يدى صاحبه غير البغى والعدوان ؟ لقد أهدر المأمون إنسانية كل إنسان لا يقول بقوله ، ولا ينزل عند رأيه .. فليس لإنسان يخرج عن هذا الرأى حق من الحقوق الاجتماعية ، أو السياسة ، أو المدنية .. فى المجتمع الذى يعيش فيه .. وهذا شر ما يعرف الناس من ظلم وعدوان فى مصادمة الرأى ومصادرته . !

(١) يريد من قال بأن القرآن قديم غير مخلوق .

الامتحان أولا :

وامتثالا لأمر أمير المؤمنين « المأمون » جمع إسحق نحو ثلاثين رجلًا من العلماء والفقهاء ..

وجعل يسألهم ، ويتلقى إجابتهم ، ويردّها عليهم مهدداً متوعداً ..

وهذه نماذج مما سجل التاريخ لهذه المحاورات ..

مع بشر بن الوليد :

دعا إسحق بن إبراهيم بشر بن الوليد .. وسأله :

— ما تقول فى القرآن ؟

قال : قد عرفتَ مقالتى لأمير المؤمنين ، غير مرة !

قال : فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى !

قال : لم أسأَلك عن هذا .. أمخلوق هو ؟

قال : لم أسألك عن هذا .. أمخلوق هو ؟

قال : الله خالقُ كلِّ شيء !

قال : أمَا القرآنُ شيء ؟

قال : هو شيء !

قال : فمخلوق هو ؟

قال : ليس بخالق !

قال : ليس أسألك عن هذا . . أمخلوق هو ؟

قال : ما أُحسنُ غير ما قلت لك، وقد استعهدت[1] أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندى غيرُ ماقلتُ لك !

(١) أى أعطيت عهداً .

مع على بن أبى مقاتل :

ودعا إسحق علىَّ بن أبى مقاتل . . وسأله :

ما تقول يا على ؟

فقال : قدأسمعتُ كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة،وماعندىغيرماسمع !

فقال له : القرآن مخلوق ؟

قال : القرآن كلام الله !

قال : لم أسألك عن هذا . .

قال : هو كلام الله ، وإن أمرَنَا أميرُ المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا !

مع أبى حسان الزيادى :

وسأل أبا حسان الزيادى :

القرآنُ مخلوق هو ؟

قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامّة العلم ، وقد سمع مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يقيم حَجّنا وصلاتَنا ، ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا ! !

قال : القرآن مخلوق هو ؟ !

فأعاد حسّان مقالته .

فقال إسحق : إن هذه مقالة أمير المؤمنين[1] !

قال : قد تكون مقالَة أمير المؤمنين ، ولا يأمر الناس بها ، ولا يدعوهم ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلتُ ما أمرتنى به ، فإنك الثقة

---

(١) أى إن أمير المؤمنين يقول : إن القرآن مخلوق .

المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شيء ، فإن أبلغتنى عنه بشيء صرت إليه !

قال : ما أمرنى أن أبلغك شيئاً !

قال : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا عليها الناس ! ! » .

وقد أَلِمَ المأمون لهذا الخلاف عليه أشدّ الألم ، ولم يشأ أن يرجع خطوة إلى الوراء ، بل لقد أمعن فى الشدة على مخالفيه ، وأخذهم من حلاقيمهم قَوْداً إليه . .

ومن جهة أخرى كان العامة يرصدون مواقف العلماء والفقهاء ، ويحصون عليهم الهفوات والعثرات . . فإذا لان واحد منهم فى قول ، أو تخاذل فى رد ، أو ضَعُفَ إزاء تهديد أو وعيد أسقطه العامة من مكانه فى نفوسهم ، ولهجوا بالتشنيع عليه ، وأطلقوا ألسنتهم بالسوء فيه . .

ولهذا فإن كثيراً من الفقهاء قد حملهم هذا الموقف من العامة على أن يصمُدُوا للمحنة ، وأن يلقوْا البلاء فى عزم وثبات . . بل إن ذلك قد جعل بعضهم يبالغ فى عناده ويشتط فى دفاعه . . ليكْبُرَ فى عين العامة،ويحسُنَ ذِكره على ألسنتهم .

ولقد كاد هذا الموقف يقضى على إمامين جليلين من أئمة المسلمين . .

أما أحدهما فهو الإمام البخارى ، شيخ المحدّثين . . إذ رأى منه العامة فتوراً فى موقفه من القول بخلق القرآن، وذلك أن الإمام البخارى رأى أن بعض العلماء يفصل بين لفظ القرآن ، ومعناه، ويقول : لَفْظِى[1] بالقرآن مخلوق،فقال البخارى بهذا القول — وما فيه من بأس — ليتقى به سعير الفتنة . ولهيبها . . ولكن العامة رأوه قد خان أمانة العلماء ، وتخلى عن الموقف الذى كان ينبغى أن يكون فيه من هذه الفتنة ، وألا يتزحزح عن موقفه ولو أخذته السيوف !

---

(١) أى أن التلفظ بكلمات القرآن هو الحادث ، وهو المخلوق .

وأما الإمام الآخر فهو « أحمد بن حنبل » فلقد وقف الموقف الذى دونه رسوخ الجبال وثباتها ، والذى هز مشاعر العامة ، وحرك أشواقها إلى الاستشهاد والتضحية . . ولو بلا ثمن ! !

يقول صاحب « حضارة الإسلام » : « وعندى أن الحيل الماهرة التى كان المعتزلة يظنون أنهم يدفعون بها عن كلام الله خطر « التجسيد[1] » ليست مقنعة تماماً ، ولكن لامراء أنهم هدوا بسجيتهم هداية حسنة ، وأنهم لكى يصونوا فكرة وحدانية الله لم يجدوا بداً من القول بخلق كلامه !

ثم يقول : « وكذلك لن يتطرق الريب إلى أن استدلال علماء السنة لم يكن ما فيه من تمويه وانحراف هو العامل فى انتصار وجهة نظرهم ، فإن متانة مركز السنة نشأت فى الواقع من أن المؤمنين عامة فى توقيرهم للقرآن كانوا يطالبون أو — على الأقل — يظاهرون أى تبرير عقلى لعواطفهم ، يصون هذا التوقير وإن بلغ ذروة السخافة التى لا يُحَد ، والتى ترضى النفوس من ناحية الدين . . . . على أن نجاحهم لا يعود الفضل فيه مع ذلك إلى رجحان فكرة على أخرى ، وإنما يعود إلى موافقة آرائهم لما كانت تصبو إليه نفس المؤمن الساذج[2] » .

وعلى ما فى هذا القول من تحامل على علماء السنة ، فإن فيه مسحة من الحق ، إذ كان علماء السنة فى الواقع واقعين تحت تأثير الرأى العام الذى لا يقبل قولا فى القرآن لم يقل به سلف هذه الأمة .

أحمد بن حنبل فى مواجهة المحنة :

وجاء دور « أحمد بن حنبل » فثبت فى وجه المحنة ثباتاً كاد يزلزل أركان الخلافة ويعصف بها .

---

(١) التجسيد : هو ما تقول به المسيحية من أن المسيح « وكلمة الله تجسدت فى هذا الجسد الذى ظهر به الناس .

(٢) حضارة الإسلام لجرونيباوم ص ١٣٥

استدعى إسحق بن إبراهيم وجوه العلماء والفقهاء ليأخذ إقرارهم جميعاً ويبعث به إلى المأمون . .

وقد أقروا جميعاً بما طلب إليهم أن يقروا به ، وهو أن « القرآن مخلوق » ، ما عدا أربعة منهم ، فإنهم أبوا أن ينزلوا عن رأيهم . فأمر بهم « إسحق » ، فشدوا فى الحديد .

وفى اليوم التالى أعاد عليهم السؤال فأجابه واحد منهم .. فأطلقه ، ثم جىء بهم فى اليوم الثالث ، وسئلوا فأجابه ثان . . وبقى اثنان صمما على رأيهما ، وأبيا التحول عنه بأى حال . . وهما : « أحمد بن حنبل » و « محمد بن نوح » . . فوجه بهما إلى المأمون فى « طرسوس » ليقيموا بها حتى يعود المأمون من غزوته فى بلاد الروم . ولما بلغا « الرقة » جاء الخبر بموت المأمون[1] ! !

وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم ، وهو ولى العهد من بعده أن يقوم لهذا الأمر ، وأن ينفذه على الوجه الذى رآه . .

وقد تلقى «المعتصم» هذه الوصية ، ودخل بها فى الفتنة مكرهاً ولكنه سرعان ما أنس لريحها ، واستطعم مرارتها .

فأمر بإحضار « أحمد بن حنبل » وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء ، فأبى أن يتحول عن رأيه ، ولم يثنه عن ذلك مالقيه من ضرب وتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه ، وفى سجنه مقيداً بالسلاسل والأغلال !

وبقى ابن حنبل فى هذا السجن والعذاب حتى مات « المعتصم[2] » وجاء بعده ابنه الواثق . . فسار سيرة أبيه فى هـذه المحنة ، وبقى « أحمد بن حنبل » فى محنته حتى مات الواثق[3] أيضاً ، وجاء بعده الخليفة « المتوكل » .

ولم يكن « الواثق » راضياً عن هذه « المهزلة » التى تمثل على المسرح الإسلامى

---

(١) مات المأمون سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) (٢) توفى المعتصم سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢م)
(٣) توفى الواثق سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) .

فأظهر أنه على عهد سَلَفه من هذه الفتنة ، ولـكنه لم يكن يضمر لها غير الاستخفاف والاستهزاء . .

ولقد كشف إحساس الناس عما فى صدر « الواثق » من ضيق بهذا الأمر، ومن كراهية له ، فجاءوا إليه فيه عن طريق المفاكهة والمداعبة ، ليكون ظاهرُ أمره وباطنه سواءً فيه ، وبهذا تنجلى هذه الفتنة عن المسلمين وتنقشع غيومها.

دخل عُبادة «الضحاك » على «الواثق» يوماً فقال:يا أمير المؤمنين..أعظم الله أجرك فى القرآن ! ! فقال « الواثق » :ويلك! القرآن يموت؟ قال:يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت ! ! بالله يا أمير المؤمنين ـ من يصلّى بالناس التراويح إذا مات القرآن ؟ فضحك « الواثق » وقال : قاتلك الله ! أمسِكْ ! » .

أرأيت كيف ينتهى الأمر بهذه الفتنة التى ذهب فيها كثير من خيرة العلماء والفقهاء ، والتى كادت تذهب بالإسلام وبالمسلمين جملة ؟ !

إنها مسألة ما كان ينبغى أن تثار أصلا،وإذا أثيرت فما كان ينبغى أن يكون فيها خلاف،ولو أثيرت ووقع فيها خلاف لما كان يجوز أن يذهب مذاهب الصراع الفكرى والدموى ، على هذا النحو الذى ذهب إليه !

ولـكن هكذا أراد الله أن يمتحن المسلمين بهذه البلوى ، ثم كان من فضله ورحمته بهم ما أراهم من السلامة والعافية بعد الشدة والمحنة .

فى أواخر خلافة « الواثق » جيء إليه بشيخ يرسف فى الأغلال ، فسأله أحمد بن أبى دؤاد[1] فى حضرة « الواثق » عن قوله فى القرآن ؟

فقال له الشيخ : لمْ تنصفنى المسألة . . أنا أسألك قبل الجواب . .

أهذا الذى تقوله يا بن أبى دؤاد ـ من خَلْق القرآن ـ شيء علمه رسول الله

(١) كان أحمد بن دؤاد الرأس المفكرة واليد العاملة فى هذه الفتنة .

صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، رضى الله عنهم أو جهلوه؟

قال : بل علموه !

قال الشيخ : فهل دَعوْا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا ؟

قال : بل سكتوا !

قال الشيخ : فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت ؟

فسكت ابن أبى دُؤَاد . . وأعجب «الواثقَ» كلامُه،وقام الواثق وهو يقول: هلا وَسِعَكَ ما وسعهم ؟ وجعل يكرر هذا القول مرارا ! !

وهكذا استخزت الفتنة ، ونامت فى صدور أصحابها . . فلما مات « الواثق » وجاء « المتوكل » كانت الأفواه مهيأَة للصمت ، فلا تنطق بشىء فى هذا الأمر أبدَ الدهر ! !

يقول الشيخ « محمد الخضرى » تعليقاً على هذه الفتنة : « وهذا الذى فعله « المأمون » أول تجربة وآخرها ، لأنه لم يفكر أحد من قبله فى مثل هذا ، ولما انتهت تجربته بالفشل ، لم يعد أحد من الخلفاء إلى مثله » .

ويقول الشيخ الخضرى أيضا فى التعليق على « القضية » ذاتها : « وقد كبر الخلاف فى مسألة من أهون المسائل ، وأيسرها حلا ، فإن « المأمون » قال : إن أصغر المسائل متى كان أساسا لِنحْلة ، أو سببا لرياسة ، فإن الخلاف يعظم سببه ، أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لايجد إليه سبيلا، إذا لم يكن أساسا لِنحْلة، أو سببا لرياسة . » وهذا يكاد يكون صحيحا ، ومع اعترافنا بأن الخلاف لامحل له فى هذه المسألة ، لانرى للمأمون حقاً — وهو سلطان الأمة — أن يصادرها فيما تعتقد ، على الشكل الذى سنّه »[1]

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى «الدولة العباسية» ص ١٢٥

الجاحظ فى المعركة :

وقد كان « الجاحظ » من المعاصرين لهذه الفتنة ، بل ومن المشاركين فيها . . وحسبك بمعركة يدخلها الجاحظ ، ويُجرى فيها قلمه ، ويستخدم لها أسلوبه ، ويعطيها بيانه !

لقد كان الجاحظ معتزلياً ، بل ورأساً فى المعتزلة ، وصاحب فرقة من فرقها . . ولهذا فإنه فى هذه المعركة فى الجبهة القائلة بخلق القرآن . .

وإذن فنحن مع الجاحظ هنا نتلقّى منه أقوى الحجج عند أصحاب هذا القول ، فهو خير من يُبين عنهم ، ويتحدث بما فى عقولهم وقلوبهم . .

ونحن هنا أيضا مع الجاحظ نتلقى منه نظرة من نظراته فى القرآن ، ومفهوما من مفاهيمه لكلام الله !

كتب « الجاحظ » رسالة فى « حجج النبوّة » . . وهو فى هذه الرسالة يعرض لإعجاز القرآن ، ثم يعرض لنظمه ، ثم يدخل فى موضوع «خلق القرآن» حين ينظر فى الكلام الذى نُظم منه القرآن .. أهو قديم أم حادث؟ ومخلوق هو أم غير مخلوق ؟

وهكذا نجد الجاحظ وجهاً لوجه مع هذه القضية ، وإذا هو محامى دُعاتها ، ومقيم الحجج والأسانيد لها .

والجاحظ إذ يكشف عن رأيه فى القول بخلق القرآن يدير الحديث بينه وبين صاحب له ، على عادته فى معظم رسائله فهو إذ يوجه القول إلى صاحبه هذا ، يضعه موضع السائل ، ويضع هو نفسه موضع المجيب على ما يسأل عنه .

يقول الجاحظ على لسان صاحبه هذا : وقلتَ ، وزعموا أنه يلزمك أن تزعم أن القرآن ليس بمخلوق إلا على المجاز ، كما ألزم ذلك نفسه مَعْمَر وأبو كلدة ،

وعبد الحميد وثمامة[١] . . وكل من ذهب مذهبهم ، وقاس قياسهم ! فتفهّمْ فهّمك الله ، ما أنا واصفه لك ، ومُوردِه عليك . »

يقرر الجاحظ هنا أن مذهب كثير من أصحابه المعتزلة — كعمر وغيره — فى القول بخلق القرآن مذهب متناقض ، إذ أنهـم إذ يقولون إن القرآن مخلوق ، يقولون فى الوقت نفسه ، إنه ليس بمخلوق ! ولـكن لا على سبيل الحقيقة ، بل على المجاز ، لأنه فى حقيقته مخلوق ! ولـكن لأنه كلام الله يمكن أن يقال — على سبيل التجوّز — إنه غير مخلوق !

وهنا يحاول الجاحظ أن يقيم لأصحابه رأياً مستقيما غير مضطرب ، ولا متناقض .

يقول الجاحظ :

« اعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم . . وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلص بحقهم ، وإلا لذهابهم[٢] عن قواعد قولهم ، وفروع أصولهم . . فليس لك أن تضيف العجز الذى كان منهم إلى أصل مقالتهم ، وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم . . ! »

إن أصحاب الجاحظ قد خرجوا على الأصل الذى كان لهم وهو القول بأن القرآن مخلوق ، وأنهم وقد عجزوا عن الدفاع عن هذا الأصل ، فلا يُحمَل عجزهم على أصل المذهب ، ولا يؤخذ به غيرهم من أصحاب هذا المذهب . .

ثم يقول « الجاحظ » :

« فربّ قول شريف الحسب ، جيد المركب ، وافر العرض ، برىء من العيوب ، سليم من الأفَن قد ضيعه أهله ، وهجّنه المقترون عليه ، فألزموه مالا يلزمه ، وأضافوا إليه ما لا يجوز عليه . .

(١) هؤلاء أصحاب مقالات فى خلق القرآن (٢) ابعدهم

ثم يقول مصوراً ما كان ينبغي أن يكون من مقالة أصحابه هؤلاء :

« ولو زعم القوم — على أصل مقالتهم — أن القرآن هو الجسم دون الصوت، والتقطيع ، والنظم ، والتأليف ، وأنه ليس بصوت ، ولا تقطيع ولا تأليف . . إذ كان الصوت عندهم لا يُخترع كاختراع الأجسام المصورة ، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة . . والصوت عَرَض لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه . . ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صَكّ أحدُهما صاحبه . . ولابدّ من مكانين : مكان زال عنه ، ومكان زال إليه . . ولابد من هواء بين المصطكين . . والجسم قد يحدث وحده ، ولا شيء غيره !

« والصوت على خلاف ذلك، والعرض لا يقوم بنفسه ، ولابد من أن يقوم بغيره ، والأعراض من أعمال الأجسام ، لا تكون إلا منها ، ولا توجد إلا بها وفيها . . والجسم لا يكون إلا من جسم ، ولا يكون إلا من مخترع الأجسام . .

« وليست لكون[1] الجسم علة توجبه ، ولا يحدث إذا حدث إلا اختياراً ، وإلاّ ابتداعاً ، واختراعاً . . والصوت لا يكون عن علة موجبة ، ولا يكون إلا توليداً ، ونتيجة ، ولا يحدث إلا من جرمين ، كاصطكاك الحجرين ، وكقرع اللسان باطنَ الأسنان ، وإلا من هواء يتضاغط ، وريح تختنق ، ونار تلتهب . .

« هكذا الأمر عندهم . . فلو قالوا : لا يكون الشيء مخلوقاً في الحقيقة دون المجاز على مجاري اللغة — إلا وقد بان[2] الله عزّ وجل باختراعه ، وتولاه بابتداعه، وكان منه على الاختيار والابتداع الذى يمكن تركه ، وإنشاء عَقِيبه بدلا منه ، على خلاف ما كان تولّده ونتيجته من أجسام يستحيل أن يخلق من أفعالها ، ويحله الله منها . .

ثم يقول .

(١) لكون الجسم : أى لوجوده . . من الكينونة وهى التكوين .
(٢) أى انفرد

« والقرآن على غير ذلك .. جسم وصوت . وذو تأليف . وذو نظم وتقطيع وخلق قائم بنفسه ، مستغن عن غيره ، ومسموع فى الهواء ، ومرئى فى الورق ، ومفصل وموصل ، وذا اجتماع وافتراق ، ويحتمل الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء وكل ما احتملته الأجسام ، ووصفت به الأجرام ـ كل ما كان كذلك فمخلوق فى الحقيقة دون المجاز ، وتوسع اللغة .

« فلو كانوا قالوا ذلك لـكانوا أصابوا فى القياس ، ووافقوا أهل الحق[1] وكانوا مع الجماعة ، ولم يضاهوا أهل الخلاف والفرقة . . »

وهذا الذى يقرره الجاحظ هنا يحتاج إلى شيء من البيان والتوضيح ، لا لأن بيان الرجل يقصر عن الوفاء بالمعنى ، بل لأن المعنى فى ذاته دقيق ، يقوم على تركيبات ومصطلحات علمية وكلامية . .

يريد « الجاحظ » أن يقرر أن القرآن « جسم » ، له خواص الأجسام كلها من تقطيع وتأليف ، وفصل ووصل !

وأصحابه ـ من المعتزلة ـ يقولون إن القرآن « جسم » ولـكنهم ينفون عن هذا الجسم ما به من صوت ، وتقطيع ونظم وتأليف .. إذ الصوت عندهم لا يخترع كاختراع الأجسام المصورة ، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة .

ويرد « الجاحظ » على هذا بأن القرآن جسم وصوت معاً .. فهو ذو تأليف ، وذو نظم وتقطيع ، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره ، ومسموع فى الهواء ، ومرئى فى الورق .

وأن الصوت المنبعث من كلمات القرآن هو دليل على أن القرآن « جسم » إذ أن الصوت لا يكون إلا من احتـكاك جسمين . .

---

(١) يريد بهم المعتزلة لأنهم كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والحق ، إذ قالوا إن أعمال العبد كلها مكتسبة ، وبها يثاب ويعاقب . . وبهذا يكون عدل الله .

وإذا كان القرآن جسما فينبغي أن يكون له ما للأجسام من احتمال الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء .. وما كان كذلك فهو مخلوق فى الحقيقة دون المجاز.

ثم يعرض « الجاحظ » لموقف الإمام « أحمد بن حنبل » من القول بخلق القرآن أمام « المعتصم » ويرى أن الإمام أحمد لم يجد جواباً مقنعاً لما سئل عنه !

يقول « الجاحظ » يخاطب القائلين بأن القرآن قديم غير مخلوق :

« وقد قال صاحبكم — أى ابن حنبل — للخليفة «المعتصم» يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاء والمحصلين — إعذاراًوإنذارا : امتحنتنى ، وأنت تعرف المحنة ومافيهامن الفتنة، لم امتحنتنى من بين جميع هذهالأمة ؟ قال المعتصم :أخطأت.. بل كذبت !! وجدت الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الإسلام ما عرض لك !! فسؤالى إياك عن نفسك ليس من المحنة، ولا من طريق الاعتساف، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل !

« وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ويعاينوا انقطاعه ، فينقض ذلك استنصارهم ، فلا يمكنهم جحد ما أقر به عندهم ! فأبى — المعتصم — أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم ، وقال : لا أريد أن أوتى بقوم إن اتهمتهم سرت فيهم سيرتى فيه ، وإن بان لى أمرهم أنفذت حكم الله فيهم وهم — مالم أوت بهم — كسائر الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة وما من شىء أحب إلى من الستر ، ولا شىء أولى بى من الأناة والرفق .! ومازال به[1] رقيقا ، وعليه رفيقاً ، ويقول : لأن أستحييك[2] بحق أحب إلى من أن أقتلك بحق .. حتى رآه يعاند الحجة ، ويكذب صراحا عند الجواب .. وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه .. أن أحمد بن أبى دؤاد قال له :

(١) أى ما زال المعتصم رقيقاً بابن حنبل — حسب قول الجاحظ .
(٢) أى أحفظ حياتك .

أليس لا شيء إلا قديم أو حديث ؟

قال : نعم !

قال : أو ليس لا قديم إلا الله ؟

قال : نعم ؟

قال : فالقرآن إذن حديث !

قال : ليس أنا متكلم !

وكذلك كان يصنع فى جميع مسائله حين كان يجيبه فى كل ما سأل عنه حتى إذا بلغ المخنق ، والموضع الذى إذا قال فيه كلمة واحدة برىء منه أصحابه قال : ليس أنا متكلم !

فلا هو قال فى أول الأمر لا علم لى بالكلام ، ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجة خضع للحق[1] ».

وواضح من هذا تحامل الجاحظ على هذا الإمام الجليل .. ابن حنبل فهو يقيم للخليفة المعتصم حجة قاهرة وعدلاً ظاهرا ، وأناة وحلماً ، على حين يرمى هذا الإمام المقيد بالأغلال ، المساق إلى ساحة الهوان والاستهزاء — يرميه بالعجز ، والقصور والكذب . وهذا لعمرك جور فى الحكومة ، وظلم مبين للحق والإنصاف !

ولماذا يحمل هذا الإمام على أمر لم يكن فى نظر المسلمين من أصحاب رسول الله وخلفائه ؟ وما هى جنايته إذا هو لم يقل به ، ولزم الحدود التى لزمها الصحابة والتابعون .. تأسياً بهم ، أو تحرجاً من الخروج عن طريقهم ؟ !

وماذا يضير المسلم لو لم يقل بهذا القول أو ذاك فى شأن القرآن . فلم يقل إنه قديم ، أو حديث ، غير مخلوق أو مخلوق .. ووقف عند القول بأنه : قرآن وكتاب مبين ، وأنه كلام رب العالمين .. كما قال الله تعالى فيه :

(١) من رسالة حجج النبوة للجاحظ ص ١٤٨ وما بعدها من « مجموعة رسائل الجاحظ » للسندوبى .

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ » ؟ [١]

ماذا على المسلم لو وقف عند هذه الحدود التي وقف عندها أصحاب الرسول وخلفاؤه ؟ أليس ذلك هو أعدل طريق وأقومه ؟

ولماذا يلقى المرء بنفسه فى هذا اللجاج من القول ، ويخوض فيما لا محصل له إلا الخلاف والفرقة ؟ .

كان السلف من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم لا يخوضون فى مثل هذه المهاترات التى لا تلد إلا شراً .

سئل جعفر بن محمد رضى الله عنه عن القرآن ! أخالق أم مخلوق ؟

فقال : ليس خالقاً ولا مخلوقا ، ولكنه كلام الله عز وجل !

وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول القرآن كلام الله عز وجل ويستفظع قول من يقول إن القرآن مخلوق . . قال مالك : « يوجع ضربا ، ويحبس حتى يموت[٢] » .

وهكذا . . كان شأن السلف رضوان الله تعالى عليهم . . لا يتجاوزون هذا القول فى القرآن . . إنه كلام الله . . وكفى . .

هذا ، ولابن قتيبة — وهو سنى — رأى فى هذه القضية ، نراه خير حكم وقع فيها . . يقول « ابن قتيبة » :

« أعدل القول فيما اختلفوا فيه من القراءة واللفظ — أن القراءة لفظ واحد يشتمل على معنيين : أحدهما عمل والآخر قرآن ، إلا أن العمل لا يتميز من القرآن كما يتميز الأكل من المأكول ، فيكون المأكول الممضوغ والمبلوع ، ويكون الأكل المضغ والبلع ! !

---

(١) سورة التوبة آية ٦

(٢) الشريعة للآجرى ص ٧٩

« والقرآن لا يقوم بنفسه وحده كما يقوم المأكول بنفسه وحده ، وإنما يقوم بواحدة من أربع : كتابة ، أو قراءة ، أو حفظ ، أو استماع .

فهو — أى القرآن — بالعمل فى الكتابة قائم .. والعمل خط ، وهو مخلوق والمكتوب قرآن ، وهو غير مخلوق .

« وهو — أى القرآن — بالعمل فى القراءة قائم ، والعمل تحريك اللسان واللهوات بالقرآن ، وهو مخلوق ، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق .

وهو — أى القرآن — بحفظ القلب قائم فى القلب ، والحفظ عمل ، وهو مخلوق ، والمحفوظ قرآن وهو غير مخلوق .

وهو — أى القرآن — بالاستماع قائم فى السمع ، والاستماع عمل ، وهو مخلوق ، والمسموع قرآن غير مخلوق » .

ثم يقول :

« وهذا مثل لون الإنسان ، لايقوم بجسمه ، ولا تقدر أن تقر اللون فى وهمك حتى يكون متميزاً من الجسم ، وكذلك القدرة ، لا تقدر أن تفردها عن الجسم ، وكذلك الاستطاعة والحركة ، كل واحدة منها لاتفرد ، وإنما تقوم بالجسم والجارحة ، ولاتنفرد عنهما . كذلك القرآن يقوم بتلك الخلال الأربع : الكتابة ، والقراءة ، والحفظ ، والاستماع — ولا يستطيع أحد أن يتوهمه منفرداً عنها .

فإذا قلت : قرأت ، أو تلوت ، أو لفظت — دل قولك على : فعل وقرآن ، كل واحد منهما قائم بالآخر غير متميز منه .

فإن قال قائل : ماتقول القراءة ؟ قلت : قرآن متصل بعمل .

فإن قال : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ قلت : سألت عن كلة واحدة تحتها معنيان : أحدها مخلوق ، وهو العمل ، والآخر غير مخلوق ، وهو القرآن[1] .. »

(١) ابن قتيبة للدكتور عبدالحميد سند الجندى (نقلا عن كتاب . « الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة » ص ٦٣ وما بعدها) .

وأنت ترى أن ابن قتيبة يفرق بين القرآن فى ذاته ، وبين الأعمال التى تتصل به . من كتابة ، أو قراءة ، أو حفظ ، أو استماع .. فالقرآن فى ذاته غير مخلوق ، لأنه كلام الله القديم .. وأما هذه الأعمال فهى مخلوقة لأنها من عمل البشر وإن لصقت بالقرآن ، ودارت فى فلكه . .

وهذا رأى إن رضيه أهـل السنة واطمأنوا له فلن يرضاه المعتزلة ، وإن يجدوا فيه تصنعا .

* * *

وبعد .. فماذا فى هذه المعركة من معطيات عن الإعجاز ؟ وهل فيها ما يكشف لنا عن وجه من وجوهه ؟

والحق أن « القرآن » فى ذاته لا يتأثر بشىء من هذا الخلاف الذى لاينقض شيئاً من أحكامه ، ولايغير لفظاً من ألفاظه ، ولايمس الجهة المنزل منها .. فهو عند المعتزلة ، كما عند المسلمين جميعاً .. مصدر التشريع ، وهو الـكلام الذى تلقاه الرسول الـكريم من ربه وحياً .. نزل به الروح الأمين على قلبه .

ولـكن شعور المسلم يختلف فى كل من النظرتين اللتين ينظر بهما إلى كتاب الله ، فهو إذا نظر إلى القرآن وتلقاه على أنه كلام قديم خالد ، وأنه إلهى .. وأنه روح من روح الله ، استشعر لهذا الـكلام جلالا ، وروعة ، وسطوة . . إنه بين يدى كلام . . لا كالـكلام . .

أما إذا نظر إلى القرآن بالعين التى ينظر بها المعتزلة ، ورآه خلقاً مما خلق الله ، وإن يكن قد سوى فى أروع صورة ، وأجمل نظام — فإنه مع هذا لايجد هـذه الروعة ، ولا يستشعر هذا الجلال الذى كان يتدسس إلى كيانه فى موقفه الأول .!

وعلى أى فإن أعدل نظر ينظر به إلى كتاب الله أن يتجرد من الإحساس بأنه مخلوق أو غير مخلوق .. حديث أو قديم .. وحسب الناظر فى كتاب الله أن يعلم أنه من عند الله ، وأنه كلام الله !

النسخ فى القرآن

ومسألة النسخ فى القرآن من الأمور التى كانت ولا تزال مدار جدل وخلاف بين علماء المسلمين ، كما أنها كانت ولا تزال داعية تخرص وتقول على القرآن الكريم . . من أعداء الإسلام .

وبكلمة واحدة نخرس بها أولئك الذين يتربصون بالقرآن وأهله .. ثم نتركهم فى غيظهم وكمدهم ، لننظر فى هذا الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ . .

والكلمة التى نقولها لأعداء هذا الدين هى قول الله تعالى فى الكتاب الكريم « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١) » .

فهذا التحدى القائم عليهم بحفظ الله تعالى للقرآن ، كما قام على آبائهم ، ويقوم على أبنائهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ هذا التحدى هو مقطع القول فيما بينهم وبين القرآن .. فإذا استطاعوا أن يبدلوا حرفاً أو يغيروا كلمة ، أو يزيلوا آية من كتاب الله ـ كان لهم أن يقولوا فى هذا الكتاب ما يحلو لهم من تشنيع عليه واستهزاء به . . وهيهات هيهات ! ! فلقد ذهبت سدى جميع تلك المحاولات التى بذلها أعداء الإسلام منذ قام الإسلام إلى اليوم ليشوهوا وجه هذا الدين ، بالتشويش على كتابه ، والتشكيك فى صحته .

أما الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ فإنه وقع نتيجة الاختلاف فى فهم الآية الكريمة :

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) » .

---

(١) سورة الحجر : آية ٩

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٦

فالذين قالوا بوجود النسخ فى القرآن وأخذوا بمنطوق الآية ، دارت أعينهم فى كتاب الله يلتمسون مصداق هذه الآية ويستخرجون الشواهد لآيات منسوخة بآيات ناسخة لها .. وقد وقعت أنظارهم على آيات يمكن أن تفسر عليها تلك الآية الكريمة .. فكان النسخ عندهم أمراً لابد من وقوعه فى القرآن .. إذ نطقت به آية من آياته .

والذين لم يفهموا الآية الكريمة على هذا الوجه فلم يروا فى القرآن الكريم ناسخاً ولا منسوخاً — هؤلاء جعلوا الآيات التى قيل إنها منسوخة وجهاً من التأويل بحيث يبقى حكمها ، كما بقيت تلاوتها .. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل .

فأولا : ما هو النسخ ؟

يجىء النسخ بمعنى المحو والإزالة وذلك كما فى قوله تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[1] » .

ويأتى بمعنى التبديل كما فى قوله تعالى :

« وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ »[2]

ويأتى بمعنى النقل من موضع إلى موضع ، ومنه نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه إلى كتاب آخر . . قالوا ولا يقع هذا المعنى من النسخ فى القرآن . . إذ نقل الآية أو الآيات من كتاب إلى كتاب لا يسمى نسخاً بالمعنى الذى يفهم منه إزالة حكم الآية أو تلاوتها . .

هذا هو النسخ فى لسان الشرع ، وهو فى اللغة قريب من هذا .. فيقال تناسخ الشيئان إذا حل أحدهما محل الآخر ، كما يتناسخ الليل والنهار ، ويقال : تناسخت

---

(١) سورة الحج آية ٥٢ (٢) سورة النحل . . آية ١٠١

الأزمنة أى تبع بعضها بعضاً ، ومنه تناسخ الأرواح ، بمعنى انتقال الروح من بدن إلى آخر ، عند من يعتقد هذا المذهب .

ثانياً : ما هو المنسوخ ؟

اختلف العلماء فى المنسوخ ، فقيل هو ما رفع تلاوة تنزيله كما رفع العمل به .. ورد هذا القول بأن الله نسخ التوراة والإنجيل بالقرآن ، وهما متلوان .

وقيل لايقع النسخ فى قرآن يتلى وينزل .

والقول بأن من القرآن مانزل وتلى ، ثم نسخ قول فيه تعسف شديد ، وفيه مدخل إلى الفتنة والتخرص . .

فإذا ساغ أن ينزل قرآن ويتلى على المسلمين ثم يرفع ، ساغ لكل مبطل أن يقول أى قول ، ثم يدعى له أنه كان قرآناً ثم نسخ ، وهكذا تتداعى على القرآن المفتريات ، والتلبيسات ، ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء !

ثم من جهة أخرى . . ما حكمة هذا القرآن الذى ينزل لأيام ، أو شهور ثم يرفع ؟ وكيف يكون رفعه أبقرآن يقول للناس إن آية كذا قد رفعت أو نسخت فلا تجعلوها قرآناً ، ولا تقرءوها ؟ أم أن هذا ـ النسخ يقع بمعجزة ترفع من صدور الناس ماقد حفظوا من القرآن المنسوخ ؟ وإذا رفع من الصدور بتلك المعجزة ، فهل تكون معجزة أخرى يرفع بها ما كتب بأيدى الكرام الكاتبين من كتاب الوحى بين يدى النبى ؟ وإذا رفع من الصدور أو من الصحف المكتوبة بمعجزة من المعجزات فما الذى يدل على أن قرآناً كان ثم رفع ؟ إن هذا قول مسرف فى البعد عن مجال المنطق والعقل !

هذا ، وليس فى القرآن ما يشير إلى آيات كانت قرآناً ثم رفعت .. ولو كان ذلك لكانت الإشارة إليها توكيداً لمكانها فى القرآن ، وتلاوتها فيما يتلى منه ، ولما أمكن بذلك رفعها أو نسخها على هذا المعنى .

أما أن يكون رفع هذه الآيات المنسوخة من صدور الناس بمعجزة حتى يمحى

محواً فلا يذكر أحد من أمرها شيئاً . فإن ذلك معناه ألا يكون هناك خبر عن هذه الآيات ، وألا يقوم فى الحياة شاهد — يشهد لها بأنها كانت ثم ذهبت . . ومن الذى يخبر عنها ويشهد لها ، وليس عند أحد علم بها أو ذكر لها ؟

والحديث الذى يروى عن أن رجلين كان الرسول الكريم قد أقرأهما سورة ثم أصبحا لا يذكران منها شيئاً ، وأنهما حين أخبرا النبى بذلك صرفهما عن الحديث عنها[1] — نقول : إن هذا الحديث ليس موثقاً ، ولا متواتراً ، حتى يقوم حجة على القرآن ، وإنما يبدو فيه التلفيق ، والتهافت والدس !

فلم يعرف من هما هذان الرجلان ؟

ولم اختُصا من دون صحابة الرسول بهذه السورة ؟

وأين كان كتاب الوحى الذين كانوا دائماً أبداً فى حضرة الرسول وبين يديه ؟

ولم تنزل هذه السورة فى مطلع شمس ثم تغرب عند مغربها ؟

إن ذلك منطق لا يقبله كتاب الله ، ولا يرضاه دين الله !

ثالثا : هل فى القرآن نسخ :

قلنا من قبل إن هناك رأيين بين علماء المسلمين : رأى يقول بأن النسخ موجود فى القرآن ولهم على هذا ، الاستدلال بالآية الكريمة :

« مَا نَنْسَخْ من آيةٍ أو نُنْسِهَا نأتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِهَا » .

---

(١) روى الطبرانى عن أبو سنبل عبيد الله بن عبدالرحمن بن واقد عن أبيه عن العباس عن ابن الأفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا يقرآن بها ، فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحنا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنها مما نسخ وأنسى ، فالهوا عنها » وسليمان بن أرقم — أحد رواة هذا الحديث . . ضعيف .

ثم الاستشهاد لها بآيات غير قليلة من القرآن يرون أنها قد نُسخت بغيرها . .
والرأى الآخر . . يقول بأن ليس فى القرآن منسوخ حكمه أو تلاوته ، بل
كل ما يتلى من القرآن هو قرآن ، له حكمه ، كما له تلاوته . .
وها نحن أولاء نعرض الرأيين ، ونقول برأينا فى كل منهما .

القول بالنسخ فى القرآن :

أكثرُ العلماء على أن فى القرآن نسخاً بدليل قوله تعالى :
« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قديرٌ »

ثم إن الذى ينظر فى كتاب الله يرى آياتٍ تعطى أحكاماً خاصة ، ثم تأتى بعد ذلك آيات تعطى أحكاماً تخالف هذه الأحكام . . ولا معنى لهذا التخالف بين الآيات فى أحكامها إلا أن اللاحق منها قد نسخ السابق وأزال الحكم الذى تضمنه . وإن بقيت قرآناً متلواً . .

ومن أمثلة هذا آية الوصية . وهى قوله تعالى :
« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموتُ إنْ تَرَكَ خَيراً ، الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ والأقْرَبِينَ ، بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ »[1]

هذه الآية قيل إنها منسوخة بآية المواريث ، وقيل بحديث « ألاَ لا وصية لوارث » عند من يقول بنسخ القرآن بالسنة ، وقيل بالإجماع .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى :
« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إلى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ »[2]

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٠

قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى :

« وَالَّذِين يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً »(١)

فقد كانت المرأة إذا مات زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا ونفقتها فى مال الزوج ، وهذا معنى قوله تعالى :

« متاعاً إلى الحولِ غَيْرَ إخراج » فَنُسخ ذلك بالآية المشار إليها . وصار تربصها أربعة أشهر وعشرة أيام . ولها نصيبها المعروف فى الميراث .

وهكذا يعدون الآيات المنسوخة والناسخة فى إحدى وسبعين سورة من القرآن الكريم(٢) .

أما الذين يقولون بأن لا نسخ فى القرآن فيتأولون هذه الآيات ، ويعطونها الحكم الذى تضمنته . وسنرى لذلك شواهد عند موقفنا مع الذين يذهبون هذا المذهب .

القول بأن لا نسخ فى القرآن

وكثير من العلماء أيضا يرى أن النسخ فى القرآن ليس نسخاً بمعنى الإزالة ، على نحو مافهم القائلون بالنسخ ، وإنما هو نَسْأ وتأخير ، أو مجمل أُخِّر بيانُه لوقت الحاجة ، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام لخاص ، أو لمداخلة معنى فى معنى . . وأنواع الخطاب كثيرة ، فظنوا ذلك نسخاً ، وليس به ، وإنه الكتاب المهيمن على غيره ، وهو نفسه متعاضد »

وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف . .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٤ (٢) الإتقان فى علوم القرآن جزء ٢ ص ٢١

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج ٢ : ص ٤٤

وليست كذلك . بل هى من المُنسأ .. بمعنى أن كل أمر يجب امتثاله فى وقت ما لعلّة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر .. وليس ينسخ .. إذن أن النسخ معناه الإزالة ، حتى لا يجوز امتثاله أبدا ..

وتطبيقاً لهذا الرأى نجد أن لا تعارض بين الآيات التى تختلف أحكامها فى الأمر الواحد ، إذ كل حكم له حال تخصه ، وعلة تدور معه ، وجوداً وعدما ..

فمثلا : قوله تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »

وقوله تعالى بعد هذا : « الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[1]

ليس بين الآيتين تعارض،وإن اختلف منطوق الحكم فيهما.. فالآية الأولى تفرض على المسلمين حكماً فى حال هم فيها أهل للوفاء بهذا الحكم ، لما فيهم من قوة إيمان وثبات يقين .. فإذا كانوا فى تلك الحالة كان واجبًا عليهم إذا التقوا فى ميدان الحرب بأعدائهم أن يثبت العشرون منهم لمئتين من أعدائهم، وأن تثبت المئة للألف.

فلما علم الله أن فى المسلمين ضعفاً حين كثر عددهم ، ودخل فيهم من دخل ، وليس فيهم مافى هؤلاء النفر القليل الكرام الذين سبقوا إلى الإسلام .. من كرم المعدن وصفاء الجوهر ، والتعرف على الحق ، والبدار إليه ـ لما علم الله هذا من أمر المسلمين خفف عنهم،وجعل أمرهم يسراً، ففرض عليهم ألا تفرّ المئة من المئتين ولا الألف من الألفين ؟

(١) سورة الأنفال . الآيتان ، ٦٥ ، ٦٦

وانظر كيف كانت أعداد المسلمين فى الآية الأولى : « عشرون » و « مئة » ثم أصبحت فى الآية الثانية هكذا « مئة » و « ألفاً » !

وإن ذلك ليكشف لك عن المعنى الذى أشرتُ إليه من قبل ، وهو أن الضعف الذى عرض للمسلمين فى هذا الوقت المبكر من الدعوة الإسلامية ، وفى عهد النبى ، لم يكن من جهة السابقين إلى الإسلام ، فهؤلاء كانوا كلما مرت الأيام بهم فى الإسلام وفى صحبة الرسول، ازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولكن الضعف وقع على مجموع المسلمين حين كثُر عدد الداخلين فى الإسلام ، ولا شك أن هذه الأعداد الكثيرة التى دخلت أفواجاً فى دين الله ليس فيها ما فى هذه الصفوة التى سبقت إلى الإسلام ، من كرم المعدن ، وصفاء الجوهر ، حيث هُدُوا إلى الإسلام بفطرتهم ، وجاءوا بما فى عقولهم من رَشَد ، وما فى قلوبهم من تجاوب مع الحق الذى يدعو إليه هذا الدين ، وليس الشأن كذلك فى كل من دخل فى الإسلا مع الأفواج الداخلة فيه .

وطبيعى أنه إذا عادت حال المسلمين إلى الحال الأولى التى كانوا عليها قبل هذا الضعف عاد الحكم الأول ، فإذا ضعفوا عادوا إلى حكم الآية الثانية ، الذى لاينبغى لهم أن ينزلوا عنه أبداً . . حتى فى أضعف أحوالهم . . المئة تغلب مئتين ، والألف يغلبون ألفين ! !

وفى هذا مافيه من تكريم للإسلام والمسلمين ، ورفع درجتهم بهذا الدين ، حتى فى أنزل منازلهم ، وأسوأ أحوالهم ! !

* * *

ومن هذا أيضاً قوله تعالى :

« يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ »[1] .

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٥

فقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف[1] وبقوله تعالى :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[2] » .

والحق أن هذه الآية وغيرها من الآيات الداعية إلى المهادنة ليست منسوخة ، وإنما حكمها باق . . يعمل به فى الحال التى تناسبه .

فقد نزلت هذه الآية والمسلمون لم يكونوا فى قوة ظاهرة ، إذ نزلت ـ وهى فى سورة المائدة ـ بعد سورة الفتح ، التى نزلت بعد صلح الحديبية . . وهذا يعنى أن قريشاً كانت لاتزال فى عداوتها وفى قوتها ، وأنها كانت تتربص بالنبى وبالمسلمين .. كذلك كان اليهود ، وكانت كذلك معظم قبائل العرب .. عداوات تحيط بالمسلمين من كل جهة ، فاقتضت هذه الحال أن يقف المسلمون موقفاً حكيما من أعدائهم : أن يصلحوا من أنفسهم أولا ، وأن يدعموها بالإيمان ، وبالإخلاص وأن يقيموها على البر والتقوى وأن يعدوها للصراع المتوقع بينهم وبين أولئك الأعداء المحيطين بهم من كل جهة ، ثم ليدعوا أعداءهم وشأنهم ، وألا يحملوا أنفسهم على المكروه منهم ، فهم قلة قليلة فى وجه قوى كثيرة مغيظة متربصة ! ولهذا كان توجيه الله سبحانه وتعالى لهم قائماً على هذا الوجه الذى تنطق به الآية الكريمة :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »

فهذا ما كان يلائم حال المسلمين وهم فى تلك الحال !

---

(١) وهى قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون»

(٢) سورة الأنفال /٣٩

فلما قوى أمر المسلمين ، وصارت إلى يدهم الغلبة على أعدائهم وجب عليهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . والمقاتلة عليهما .

« ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » — عاد الحكم .. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فإذا رأيت هوى متبعاً ، وشحاً مطاعا ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك » .

« وهو سبحانه وتعالى حكيم ، أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم حين ضعفه مايليق بتلك الحالة ، رأفة بمن اتبعه ، ورحمة .

إذ لو وجب القتال من أول الأمر لأورث حرجاً ومشقة . . فلما أعز الله الإسلام ، وأظهره ، ونصره ، أنزل عليه من الخطاب ما يكافىء تلك الحالة ، من المطالبة بالدخول فى الإسلام ، أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب — أو بالإسلام أو القتل إن لم يكونوا من أهل الكتاب . ويعود هذان الحكمان — أعنى المسالمة عند الضعف ، والمسايفة عند القوة — بعودة سببهما ، وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة ، بل كل منهما يجب امتثاله فى وقته[1] »

« ما ننسخ من آية . . . »

ونعود إلى هذه الآية الكريمة التى فتحت على المسلمين باباً فسيحاً للتأويل ، ثم الخلاف فى هذا التأويل ، والانتقال به إلى دائرة فسيحة فى القرآن ذاته .. حيث يقال عن آيات كثيرة إنها منسوخة حكماً ، وإن بقيت تلاوتها . .

ونحن إذ ننظر فى هذه الآية الكريمة نسأل أولا :

« هل إذا جاء فى القرآن الكريم شرط أيجب أن يقع هذا الشرط ، وأن يتحقق تبعا لذلك جوابه ؟

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن جزء ٢ ص ٤٣ .

وإذا تحقق هذا الشرط الواقع فى الآية الكريمة وتحقق معه جوابه ، فكان ما يقول به القائلون من وجود النسخ فى القرآن — أيكون هذا النسخ على ذلك المعنى الذى ذهب إليه القائلون به ؟

والجواب على هذا : أن ليس من الحتم اللازم أنه إذا ورد فى القرآن أسلوب شرطى أن يقع هذا الشرط ، وإنما الحتم اللازم هو أنه إذا وقع الشرط فلابد أن يتحقق الجواب المعلق على وقوع هذا الشرط . .

فما أكثر ما وردت أساليب شرطية فى القرآن غير منظور إلى وقوعها ، ولا إلى تحقيق جوابها ، ومن ذلك قوله تعالى لنبيه الكريم :

« وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » .

وقوله تعالى عن نبيه الكريم أيضا :

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ[1] » .

« وقوله تعالى فى خطابه له :

« لئن أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » .

« ولم يقع شرط أى آية من هذه الآيات الكريمة ، ولم يقع جوابها كذلك .

وعلى هذا يجوز فى الآية الكريمة : « ما ننسخ من آية أو ننسها » ألا يقع شرطها ولا جوابها . . وتكون من قبيل القضايا الفرضية التى يُراد بها العبرة والعظة .. ووجه العبرة فى هذه الآية الكشف عن قدرة الله وحكمته ، وإنه قادر على أن يبدل ويغير من آياته .. لحكمة يعلمها دون أن يكون هذا عن تناقض أو بداء

---

(١) سورة الحاقة آية ٤٤ — ٤٦

كما يقول اليهود[1] تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فهو سبحانه المالك لكل شىء ، القائم على كل شىء المدبر لكل شىء . . « قولُه الحقُّ ، وله المُلْك » .

والذى نأخذه من هذا ، أن النسخ الذى أشارت إليه الآية الكريمة ليس لازماً أن يقع ، وإنما وقوعه أمر احتمالى ، يشهد له الواقع أو لا يشهد . . فإن شهد له الواقع اعتُبر ، وإلا فلا .

وإذن فلا نستصحب معنا هذا الحكم الذى تقضى به الآية لو وقع شرطها وجوابها — لا نستصحب هذا الحكم ، ونحن ننظر فى الآيات التى يقال إنها ناسخة أو منسوخة . . بل ننظر فى تلك الآيات نظراً منقطعاً عن كل تأثير لهذا المفهوم الذى فُهمت عليه الآية الكريمة .

كذلك ينبغى أن ننظر فى آية النسخ ذاتها بهذا الاعتبار ، وهو أنها واقعة فى شرط يحتمل وقوعه وعدمه ، ودلالة الحال هى التى تشهد لهذا أو ذاك .

والآن ننظر فى آية النسخ :

« مَا نَنْسَخْ من آيةٍ أو نُنْسِهَا نأتِ بخير منها أو مِثْلِها ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كلِّ شَىْءٍ قديرٌ » .

هذه الآية الكريمة قد جاءت مع آيات كثيرة غيرها دفاعاً عن أمر أراده الله للمسلمين ، وهو تحويل قبلتهم التى كانوا عليها من بيت المقدس إلى البيت الحرام . وهذا التحول كان حَدَثاً كبيراً من أحداث الإسلام : كما كان فتنة وابتلاء لكثير من المسلمين ، ومدخلا كبيراً للطعن فى الدِّين ، والتخرص على الرسول الكريم .

---

(١) اليهود يرون أن القول بنسخ حكم أو بإبداله بغيره رحمة بالعباد ، أو امتحانا ؛ لا يجوز أن يقع من الله ، لأن ذلك بداء عليه ، بمعنى أن الله قد أبطل هذا الحكم أو غيره حين بدا له فيه مالم يكن قد بدا له من قبل . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكان من تدبير القرآن لهذا الأمر أن قدم له هذه الآيات الكريمة لتكون قوة للمسلمين يدفعون بها كيد اليهود ، ووسوسة الشيطان . .

واستمع لتلك الآيات ثم استمع للأمر الذى الذى جاء بعدها . .

يقول الله تعالى :

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ، أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ »

فهذا الاستفهام الإنكارى الذى يتجه به القرآن إلى المسلمين ــ فيه تحذير لهم من أن يكونوا مع النبى كما كان اليهود مع موسى ، كلما جاءهم بأمر ، لم يتلقوه بالامتثال والطاعة ، بل قابلوه بالحذر والريب ، وواجهوه بالأسئلة الكثيرة التى تنبىء عن خبث طوية ، وفساد سريرة .

وتحويل القبله أمر وشيك الوقوع ، وقد كان المسلمون يُصلّون إلى بيت المقدس ، سبعة عشر شهراً ، فإذا وقع هذا التحويل نزعت بهم نوازع كثيرة تدعوهم إلى التساؤل : فيم كنا ؟ ولم كان هذا ؟

ثم إن من وراء ذلك اليهود ، يُلقون إليهم بما يفتح للشيطان طرقاً كثيرة فى قلوب لم يتوثق فيها الإيمان بعد ، فكان هذا التحذير من قبل أن يقع الأمر الذى من شأنه أن يثير شكا وتساؤلا ــ كان تدبيراً حكيما ، ووقاية للمسلمين من داء أصيب به اليهود قبلهم فعزّ شفاؤهم منه .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى بعد هذا :

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً

حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا ، وَاصْفَحُوا ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ .. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وهذا تحذير آخر من الله سبحانه ، أن يستمع المسلمون إلى ما قد يلقاهم به اليهود عند وقوع هذا الأمر ، وهو تحويل القبلة إلى المسجد الحرام - من تلبيسات وتلفيقات ، ودسائس ، يشوشون بها على المسلمين ، ويثيرون فيهم غبار الشكوك والريب .

ثم يقول الله بعد هذا :

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .. تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[1] .

وهنا إشارة ثالثة إلى موقف اليهود والنصارى من هذا الحَدَث المرتقب ، وهو أنهم سيتخذون منه ذريعة للطعن فى الإسلام ، وبأن من لا يستقيم على وجهتهم التى يتجهون إليها فى الصلاة ، فليس على دين . وإذن فلا يدخل الجنة ! وأن الجنة لن يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ، حيث تذهب كل طائفة من هاتين الطائفتين إلى أن دينها هو الحق . . حيث لم تتحول عن قبلتها .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى بعد هذا :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ . كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ

---

(١) سورة البقرة : الآيات من ١٠٦ — ١١٢

قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » [١] .

فقد كشف الله سبحانه فى هذه الآية عن الافتراءات التى يرمى بها أهل الكتاب بعضهم بعضاً ، وأضاف إليهم غير أهل الكتاب ، وهم الذين لا يعلمون علماً من كتاب ، وهم العرب الذين يقولون : إن دينهم الذى هم عليه هو الدين الحق . . فاليهود ، والنصارى ، والعرب ، كل منهم يرى أن الدين الذى هو عليه هو الحق وأن ما وراءه هو الباطل ، وهم جميعاً يَلْقَوْن الرسول الكريم والكتاب الذى جاء به ــ بهذه العقيدة الفاسدة .

ويقول الله بعد هذا :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ، أُولَـٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » [٢] .

وهذا وعيد لليهود وغيرهم ممن يشوشون على المسلمين أمرهم فى التوجه إلى المسجد الحرام ، وبذلك فهم أهل لأن يوصفوا بأنهم يَسْعَون فى خراب مساجد الله وَصَدِّ الناس عنها .

وتدبر قول الحق سبحانه : « مساجدَ الله » وهو المسجد الحرام ، فإن هذا المسجد وإن كان قبلة المسلمين ، فإنه سيكون للمسلمين مساجد فى أقطار الأرض تعمر بالمصلين .. فهو ليس مسجداً ، بل هو سيكون مساجد فى كل مكان !

ثم يقول الله سبحانه : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ . . إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » [٣]

---

(١) سورة البقرة آية : ١١٣
(٢) سورة البقرة آية : ١١٤
(٣) سورة البقرة آية : ١١٥

وإنك لترى فى هذه الآية تمهيداً قوياً للأمر الذى سيدعو الله — سبحانه — المسلمين إليه ، بعد هذا ، وهو التحول إلى المسجد الحرام . . فإذا تحول المسلمون بقبلتهم من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، فإنما هم فى الحالين يتجهون إلى الله « ولله المشرق والمغرب » .

ويجىء بعد هذا قوله تعالى :

« وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً — سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّموات والأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ، بَدِيعُ السَّموات والأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ . كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ .. وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ »(١) .

والآية الأخيرة من هذه الآيات صريحة فيما تنطوى عليه نفوس أهل الكتاب من إصرار على مخالفة النبى وتربصهم به .. وفى هذا تحذير مما سيقع منهم من كيد حين يجىء أمر الله بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام .

ثم تجىء آيات بعد هذا تذكر بنى إسرائيل بما أنعم الله به عليهم ، وتحذرهم يوم الحساب ، يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً . ويدعوهم إلى أن يتقوا الله فيما يقولون من كذب وبهتان فى محمد وشريعته ، وهم يعلمون أنه نبى الله ، وأن شريعته شريعة الله .

ثم تجىء بعد ذلك هذه الآيات :

(٢) سورة البقرة : ١١٩ ، ١٢٠

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) .

فهذه الآيات ترفع للمسلمين صورة كريمة للبيت الكريم ، وتطلع عليهم بذكريات هذا الماضي الذي يفخر به العرب جميعا ، وهو اليوم الذي أقيم فيه هذا البيت بيد أبويهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما السلام . . في هذا ما يحرك في المسلمين مشاعر قوية من التعاطف والحنو على هذا البيت . . فإذا جاءهم بعد هذا كتاب الله يدعوهم إلى التوجه إليه ، وقع ذلك الأمر في قلوبهم موقع الغبطة والرضا .

ثم تتجه الآيات بعد هذا تسأل اليهود متحدية : أكانوا شهداء إذ حضر يعقوب الموتُ ، وهل سمعوا ما وصى به بنيه من بعده ؟ ثم تحكي قول اليهود والنصارى معا : « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » وترد عليهم قولهم هذا « بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ثم تدعو المسلمين إلى الإيمان بالله ، وما أنزل

(١) سورة البقرة الآيات : ١٢٥ ، ١٣١

إليهم وما أنزل إلى النبيين من قبل . إذ دين الأنبياء واحد ، هو الإسلام الذى يرجع إليه كل دين : « إن الدين عند الله الإسلام » .

ثم يجىء بعد هذا قوله سبحانه وتعالى :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ . . يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (1)

فانظر كيف كان دفاع القرآن عن هذا الأمر الذى جاء به ، ودعا المسلمين إليه . . إنه إلى الآن لم يجىء الأمر المرتقب ، وهو دعوة المسلمين إلى أن يحوّلوا قبلتهم إلى البيت الحرام . . ومع هذا كانت هذه المواقف التى كشف فيها القرآن عن طوايا النفوس ، وما يحمل أهل الكتاب فى نفوسهم — وخاصة اليهود — من ضغينة وحقد على الإسلام ، وفى الآية السابقة أول هجوم مباشر على أهل الكتاب الذين سيخوضون فى هذا الحادث ويشوشون فيه على المسلمين . . وقد وصفهم القرآن بأنهم « سفهاء » . . وهذا أنسب وصف يوصف به قوم يسترخصون عقولهم ، فيصرفونها عن الحق عمداً إلى الباطل قصداً . . !

وأنت ترى أن الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام لم يأت بعد ، ولهذا لم يكن لأهل الكتاب ولا لغيرهم حديث عنه ، وإنما سبق القرآن إلى الكشف عن المستقبل ، وأطلع المسلمين على ماسيلقى به أهلُ الكتاب هذا الأمر . « سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ . . » إنهم لم يقولوا بعد شيئا ، ولكنهم سيقولون ، ويقولون حين يجىء الأمر المرتقب . . وقد تولى القرآن الرد على هذا التساؤل السفيه من جماعة السفهاء . « قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم » .

---

(1) سورة البقرة آية : ١٤٢

ثم يلتفت بعد هذا إلى المسلمين ، أصحاب هذا الأمر . . فيقول لهم:
« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً »(١) .

ثم يلتفت إلى الرسول الكريم لفتة خاصة مع هذه اللفتة العامة فيقول له :
« وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ . . إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »(٢) .

فهذه الآية الكريمة فيها تطمين لقلوب المسلمين ، وتسكين لنوازع الفتنة التي قد يسوقها إليهم السفهاء من الناس ، يحاولون أن يشككوهم في دينهم، وأن يقيموهم منه على غير ثقة ولا طمأنينة !

ثم إنّ ما كان من توجه المسلمين بالصلاة إلى بيت المقدس أولا ، ثم تحوّلهم إلى البيت الحرام ثانياً ـ ما كان ذلك إلا ابتلاء من الله ، واختبارا لما عند المؤمنين من إيمان بالله وبرسوله ، واتباع لما يأمر به ، من غير توقف أو ارتياب . وإن كان احتمال هذا الموقف قاسياً ، ولكن الذين هداهم الله وثبتهم على الحق لا يجدون له في أنفسهم أثراً من ضيق ، وخاصة بعد أن وعدهم الله بأن صلاتهم التي صلوها إلى المسجد الأقصى ما كان الله ليضيعها . . « وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

لقد استكملت القضية وجوه دفاعها ، ومع هذا لم يظهر موضوع القضية بعد . . وهنا تجيء أول آية تكشف عن هذا الموضوع ، فتدعو النبي الكريم إلى التحول بالصلاة إلى البيت الحرام . . وفي هذا يقول الله سبحانه :

(١) سورة البقرة آية ١٤٢ (٢) سورة البقرة آية ١٤٣

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١) » .

فهذا هو الأمر المرتقب ، الذى أعدّ له القرآن هذا الدفاع من قبل ، ومهد له السبيل إلى قلوب المسلمين ، فأطلعهم على ما سيكون من أمر اليهود وغيرهم من تخرص ، وزور ، وبهتان !

ثم تجيء الآيات بعد هذا فَتَدْعَم هذا الأمر بوجوه أخرى من الدفاع ، بعضها يتجه إلى اليهود وأنهم مهما رأوا من آيات فلن يتبعوا قبلة النبى ، والنبى كذلك لن يتبع قبلتهم ، وأهل الكتاب مختلفون فيما بينهم ، لا يتّبع بعضهم قبلة بعض . . وهم يعرفون هذا الأمر الذى نزل على النبى كما يعرفون أبناءهم ، ولكن فريقاً منهم يكتمون الحق وهم يعلمون .

وبعض وجوه الدفاع يتجه إلى النبى فيدعوه إلى اليقين والاطمئنان إلى أمر ربه . .

« الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ من الْمُمْترين » .

وإنك لترى من هذا كلّه أن آية النسخ كانت مقدمة الدفاع فى قضية التحول بالقبلة إلى المسجد الحرام .. وكأنها تقول للمسلمين ولأهل الكتاب : إن الله سبحانه وتعالى إذا نسخ آية من آياته وبدل حكما من أحكامه بحكم آخر فذلك بمقتضى حكمته ورحمته بعباده . .

وقد نسخ الله سبحانه كثيراً من الشرائع التى تقدمت شريعة الإسلام . .

يقول ابن كثير فى تفسيره :

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٤ .

« والذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ هو الكفر والعناد ، فإنه ليس فى العقل مايدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل مايريد — كما أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرّم ذلك ، وكما أباح لنوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حِلّ بعضها . وكان نكاح الأختين مباحا لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها ، وأمَرَ إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بنى إسرائيل قتلَ من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كى لايستأصلهم القتل[1] » .

وعلى هذا فإن أقرب مفهوم إلى النسخ الذى تشير إليه الآية : « ماننسخ من آية » هو نسخ الأمر بالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس وجعله إلى المسجد الحرام . وكلا المسجدين آية من آيات الله ، إذ قاما بأمره ، وأفاض عليهما من فضله . . فإذا نَسَخَ المسجدُ الحرامُ المسجدَ الأقصى فإنما هو نسخ آية بآية وتبديل نعمة بنعمة . . « ألاَ لَهُ الْخَلْق والأمر ، . تبارك الله رب العالمين[2] » .

أما قوله تعالى « أو ننسها » ففيه قراءتان : نُنْسِها ، ونَنْسَأْها .

فعلى القراءة الأولى يكون من النسيان ، بمعنى أن الله سبحانه يعفّى آثار بعض شرائعه التى شرعها ، وأحكامه التى كان قد فرضها فى أجيال الماضين ، قال أبو بكر الرازى : « إنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ، ويرفعه من أوهامهم ، ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكَتْبه فى المصحف ، فيندرس على الأيام ، كسائر كتب الله القديمة ، التى ذكرها فى كتابه ، فى قوله :

« إنّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » وَلا يُعْرَف اليوم منها شىء[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير — الجزء الأول (٢) انظر أحكام القرآن لأبى بكر الرازى.
(٣) سورة الأعلى / آية ١٨ ، ١٩ .

وعلى القراءة الثانية يكون من النسْأ وهو التأخير ، ومعنى هذا أن الله سبحانه قد يؤخر نسخ آية إلى أجل معلوم ، كما أُخر نسخ التوجيه إلى بيت المقدس منذ وجه المسلمون وجوههم إليه في الصلاة إلى أن أمروا بالتحوّل إلى المسجد الحرام بعد سبعة عشر شهرا .

ونَخْلُص من هذا كله إلى القول بأن آية النسخ ليست متجهة إلى نسخ آيات القرآن الكريم وإنما إلى نسخ قبلة وإحلال أخرى مكانها .. وأن النسأ هو تأخير الحكم الذي دُعى به المسلمون إلى التحول إلى البيت مدة بلغت سبعة عشر شهرا كانوا يتجهون خلالها نحو بيت المقدس .. وذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى ، فيها امتحان وابتلاء لعباده :

« مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ »(١)

تأويل ما يبدو فيه النسخ :

من آيات الأحكام ما يبدو فيها النسخ ، إذ كانت القضية واحدة والأحكام فيها مختلفة . . وأوضح مثل لهذا ، الآيات التي جاءت في الخمر ، ومثلها الآيات التي وردت في الرِّبا . . فقد جاء في الخمر آيات في عدة مواضع من القرآن . . وفي كل موضع حديث عن الخمر يختلف عما تضمنته الآيات الأخرى ، وذلك في صدد تحريمها . . وكذلك جاء من الربا . .

ويرى العلماء أن ذلك كان لحكمة تربوية ، قُصد بها التلطف ، في الدخول على النفس دخولا مترفقاً ، في تحريم أمور ذات ارتباط وثيق بها ، وسلطان قاهر عليها . . وفي انخلاع النفس عنها جملة ليس مما يؤمن معه سلامة النفس أو تقبلها لهذه الأمور إذا هي حُملت عليها دفعة واحدة ، على هذا الوجه المفاجىء ، فقد

(١) سورة آل عمران : آية ١٧٩ .

تخور كثير من النفوس، وقد تتصدع وتنحل ، إذا هى واجهت الأمر مرةواحدة، دون تمهيد وإعداد .

ففى الخمر حين أراد الله ـ سبحانه ـ أن يحرمها ، سلك ذلك المسلك التربوى الحكيم ، الذى لايُرى ألطف ولا أحكم ولا أعدل مدخلا منه الى النفس . .

كان أول إشارة إلى الخمر تلك الإشارة التى تضعها وضعاً غير كريم بين النعم التى أنعم الله بها على عباده . . فقال تعالى :

« وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ منه سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً »[1]

فالرزق الحسن الذى يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب ليس منه هذا السَّكر الذى يتخذ من هـذه الثمرات ، وفى هذا مايفتح للكثير من ذوى البصائر سبيلا إلى العزوف عن هذا السكر وتجنبه ، إذ كان رزقاً غير حسن . . ثم تجىء الآية الثانية بعد هذا ، وفيها تشنيع على الخمر وتقبيح لها . . وذلك فى قوله تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فيهما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما »[2].

فقد قرن الخمرَ إلى الميسر ،وجعلهما فىمقود واحد ، إذ كانا من فصيلة الفساد والشر علىسواء ، ومن تدبيرالقرآن هنا أنه لميغفل الوجه الآخرلهذه المنكرات.. فكل شىء وإن بلغ مابلغ من السوء له جانب آخر غير سىء . . إذ ليس هناك شر خالص ، أو خير محض ، فيما يدور فى دنيا الناس ، وفيما يتقلبون فيه ..

لم ينكر القرآن هذه الحقيقة الواقعة وهى أن للخمر وللميسر منافع ، ولكن هذه المنافع ليست شيئاً إلى جانب الإثم والضرر الذى ينجم منهما .

(١) سورة النحل ٦٧ (٢) سورة البقرة ٢١٩

فإذا ربح إنسان من الميسر مرة فإن خسائره المحققة أضعاف ما يربح . وإذا كان للخمر عند شاربها لذة أو نشوة فى أول عهده بها فإنها تنتهى به إلى تدمير كامل لقواه العقلية ، والجسدية والنفسية .

فالخمر والميسر « فيهما إثم كبير . ومنافع للناس . . وإثمهما أكبر من نفعهما » ومن هذه الإشارة البليغة يتلقى كثير من العقلاء دعوة صريحة إلى ترك هذين الأمرين اللذين يحسب جانب الخسارة فيهما كبير إلى ما قد يقع لبعض الناس منهما من نفع .

ثم تجىء بعد هذا إشارة أصرح وأوضح من سابقتها ، وذلك فى قوله تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »(١)

« فقد حرمت هذه الآية على المؤمن أن يدخل فى الصلاة وهو فى حال سكر ، لا يعلم ما يقول .

والصلاة تتكرر فى اليوم خمس مرات .. فى أوقات متفاوتة تكاد تجعل الليل والنهار قسمة بينها .. وهيهات أن يشرب شارب الخمر عقب صلاة من الصلوات ثم تدركه الصلاة الثانية وقد صحا من خمارها ، أو أفاق من سكرها .. وهبه حرص مرة ومرة على ألا يشرب حتى السكر .. فمن له أن يمسك نفسه هكذا أبداً عند هذا الحد ؟ ومن يحميه من نزغة نفسه ونزغة شيطانه ، ووسوسة إخوان السوء الذين فى مجلس شرابه ؟ لقد دعت هذه الإشارة كثيرا من المسلمين إلى أن يمسكوا عن شرب الخمر .. وأن يحرموها على أنفسهم ، على حين ظل بعضهم يلقاها بين الحين والحين ، ولم يكن بعد هذا إلا إشارة أخيرة تقطع الأمر وتفصل فيه .. حتى لقد كان كثير من المسلمين يتوقعون أمر السماء فى هذا ، ليجدوا منه سلطاناً على أنفسهم

(١) سورة النساء آية ٤٣

إذا هي دعتهم إلى هذا الأمر الذي، لم تجىء الشريعة بتحريمه تحريماً قاطعاً ، وحتى ليروى عن عمر رضى الله عنه أنه كان يقول : « اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً » وكان أن نزل قوله تعالى :

« إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ والأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ،إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ . . فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »(١)

وبهذا يجىء الحكم القاطع فى تحريم الخمر . . فتصبح منذ اليوم محرّمة على المسلم ، بهذا الحكم القاطع .

والسؤال الوارد بعدهذا هو : ماذا يقال فى هذه الآيات التى سبقت آية التحريم القاطع للخمر ؟ أهى منسوخة بتلك الآية ؟ وهل هناك سلسلة من التناسخ بينها ، بحيث ينسخ اللاحقُ السابق منها ؟

والجواب على هذا ليس جواباً واحداً . . فإذا قلنا بوجود النسخ فى القرآن كان واضحاً أن هذه الآيات منسوخة بالآية الأخيرة ، وكانت مراحل النسخ متتابعة ، ينسخ بعضها بعضاً . . اللاحق منها ينسخ السابق .

أما إذا قلنا بأن لا نسخ فى القرآن كان الجواب بأن هذه الآيات جميعها عاملة . . تلاوةً وحكماً . . وأن اللاحق منها هو مُنْشأ ، تأخر نزوله ، ووجب امتثال كلٍّ فى وقته ، لحكمة توجب ذلك الحكم الذى تضمنه ! وهنا يلقانا هذا السؤال : كيف يمكن التوفيق بين هذه الأحكام المختلفة فى أمر واحد هو الخمر . . فهى رزق غير حسن ، وهى إثم ونفع ، وإثمها أكبر من نفعها ، وهى محرمة إذا دخل بها شاربها الصلاة وقد سكر منها ، ثم هى محرّمة حرمة مطلقة من كل قيد .

---

(١) سورة المائدة : ٩١

هذه سلسلة من الأحكام واقعة على أمر واحد هو الخمر . .

فأى الآيات ، أو بمعنى آخر أى أحكام هذه الآيات يلزم المسلمين العملُ به والوقوف عنده ؟

وقبل : الإجابة على هذا السؤال نسأل سؤالا آخر ونجيب عليه ، وهو: هل من شأن هذا النهى القاطع الملزم الذى جاءت به آخر آية فى تحريم الخمر ، هل من شأن هذا النهى أن يحول بين المسلمين وبين الخمر ؟ أو بمعنى آخر : هل فيه من القوة الذاتية ما يعصم المسلمين جميعاً عن الخمر ، أو يحميهم جميعاً ـ فرداً فرداً ـ من الضعف النفسى إزاءها ؟

والجواب على هذا إنما نأخذه من الواقع التطبيقى فى الحياة للأوامر والنواهى التى جاءت بها الأديان . وهى أن أى أمر أو نهى لن يستقيم الناس جميعاً عليه ، ولن يلزموه إلزاماً كاملا ، فما أكثر الذين يخرجون على تلك الأوامر والنواهى فلا يأتون منها ما أمر الله به ، ولا ينتهون عما نهى الله عنه .

فالأديان تنهى عن الكذب ، وكثير من أتباع هذه الأديان يكذبون والأديان تنهى عن الظلم ، وكثير من أتباع هذه الأديان يظلمون ، والأديان تنهى عن السرقة ، وكثير من أتباع هذه الأديان يسرقون ، وهكذا الشأن فى كل ما تأمر به الأديان أو تنهى عنه . لا يستقيم الناس جميعاً على أوامرها ونواهيها .

والأديان تعلم هذا مقدماً ، ولهذا تفرض عقوبات دنيوية وأخروية للمخالفات التى تقع من أتباعها . . والخمر التى نهى الإسلام المسلمين عنها ، قد رصد الشارع العقوبة المقابلة لمن يشربها ولا ينتهى عما نهى الله عنه منها . .

والسؤال هنا : إذا شرب مسلم الخمر فما موقف الإسلام منه وما موقفه هو من الإسلام ؟

أما الإسلام فإنه يراه آثماً يستحق العقوبة الرادعة فى الدنيا وهى الجلد .

وأما هو فهو ـ على ما به من إثم ـ مسلم ، آثم ، عاق .. ولا نلتفت هنا إلى

قول من يقول بتكفيره ، فقد شرب الخمر من شربها من المسلمين فى عهد النبى وفى عهد خلفائه الراشدين وقامت البينة الواضحة التى توجب الحد عليهم وحدوا .. ومع ذلك فقد بقى معهم إسلامهم .. وكانوا يشهدون مشاهد المسلمين فى الصلاة وغيرها ..

وإذن فقد يشرب المسلم الخمر ، يشربها ويدمغ بالإثم والعصيان ، ولكن على أى هو مسلم ، لا تسقط عنه الواجبات المفروضة على المسلم ، ومن بينها الصلاة . وليس هناك إلا حائل واحد يحول بينه وبين الصلاة فى هذا الحال ، وهو أن يكون فى حال سكر لايدرى معها ما يقول . . وهنا نجد الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . نجدها — عاملة غير معطلة ، فهى تفرض حكمها على من خالف مانهى الله عنه من أمر الخمر ، فشربها حتى سكر ، فهذا لا يقرب الصلاة حتى يفوق من سكرته ، ويعلم ما يقول .

بقيت بعد هذا الآيتان : الأولى والثانية ، وهى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » . وقوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » وهاتان الآيتان تعرضان بالخمر وتضعانها موضعاً غير كريم ، وتزنانها بميزان يقل فيه خيرها ويكثر شرها .

هى رزق . . ولكنها رزق غير حسن .

وهى نفع .. ولكن إثمها أكبر من نفعها .

وهى رجس ، ولكن بعض الناس يلطخ نفسه بهذا الرجس !

فجميع هذه الأوصاف هى للخمر ، وهى أوصاف خسيسة كلها ، ولكنها درجات فى الخسة ، من حيث النظرة التى ينظر بها إليها . . وهى على جميع جهات النظر موسومة بسمة القبح والإثم والرجس . .

وإذن فالآيات الأربع الواردة فى شأن الخمر لا تعارض بينها ، ولا ينسخ بعضها

بعضاً ، كلها عاملة تعطى الحكم المناسب كما تعطى الوصفة المناسب .

وماقيل فى آيات الخمر يقال أيضاً فى آيات الرّبا .

فالآيات التى نزلت فى شأن الربا . . جاءت على مراحل متدرجة على نحو ماجاء فى شأن الخمر . . فأول مانزل فى شأن الربا هو قوله تعالى :

« وَمَا آتَيْتُمْ من رِبًا ليرْبُوَا فى أموال الناس ، فلا يَرْبُو عند الله ، وَمَا آتَيْتُمْ من زكاةٍ تريدونَ وجْهَ الله فأُولئك هُمُ المُضْعِفُونَ »[1]

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى فى شأن اليهود :

« وَأَخْذِهِم الرِّبَا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، وَأَكْلِهِمْ أموالَ الناسِ بالباطل »[2].

وإذ كان الربا مما حرّمه الله على أهل الكتاب فهو أمر مذموم ، اقتضت حكمة الله تحريمه » .

وهذه الإشارة تدعو كثيراً من المسلمين إلى أن ينفروا من هذا الأمر ويحذروه ، وإن لم يكن قد حرّم عليهم بعد .

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى :

« يأَيُّها آمَنُوا لاَ تأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[3]

فالنهى هنا ليس نهياً قاطعاً فى تحريم الرّبا تحريماً مطلقاً ، وإنما وقع تحريمه فى صورة خاصة ، وهى أن يكون أضعافاً مضاعفة . . وهى تقابل فى تحريم الخمر قوله تعالى : « يأَيُّها الذينَ آمنوا لاتقربُوا الصلاةَ وأنتم سُكارى » .

---

(١) سورة الروم : ٣٩ .
(٢) سورة النساء : ١٦١ .
(٢) سورة آل عمران : ١٣٠ .

ثم كانت الكلمة الأخيرة فى الرِّبا . . فنزل قوله تعالى :

« يَـأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ ، وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَآ إنْ كُنتم مُؤمِنِينَ . . فإنْ لَمْ تفعلُوا فأذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وإن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، لاَ تَظلِمُونَ وَلاَ تُظلَمُونَ »[1]

هذا ، ويرى كثير من العلماء أن ماجاء فى الربا ، والخمر ليس من قبيل النسخ ، لأن النسخ عندهم إزالة حكم شرعى بحكم شرعى آخر . . والخمر والربا لم يكن قد جاء فيهما حكم شرعى بحلهما ، ثم بتحريمهما ، فيكون الحكم الثانى ناسخاً للأول ، وإنما هما مما كان مباحاً للعرب ، ثم المسلمين ، حيث وجدهما الإسلام ، ثم حرمهما بعد ذلك ، وقد ظلت الخمر غير محرمة إلى صلح الحديبية ، ثم جاء القرآن بتحريمها ، وكذلك الرّبا لم يحرّم تحريماً قاطعاً إلا قبيل وفاة النبىّ الكريم .

ولكن — إذا قيل فى القرآن نسخ — ألا تعتبر هذه المراحل التشريعية للأمر الواحد ، واختلاف الحكم فى كل مرحلة منها مايقيم للقائلين بالنسخ الشرط الذى يطلبونه له ، وهو إزالة حكم شرعى بحكم شرعى آخر ؟ ثم ألا تكون كل مرحلة من هذه المرحل مظروفة بحكم يخصها ، ثم تجىء المرحلة الثانية فتنسخ حكمها؟

وعلى أىّ فقد كان رأينا ، فى الآيات التى نزلت فى الخمر والرّبا أن لا تناسخ بينها وأنها جميعها مُحكَمَة ، تلاوة وحكماً . . وهذا مايستقيم مع القول بأن لا نسخ فى القرآن أصلاً . . أما إذا قيل بأن هناك نسخاً ، فإن هذه الآيات ، هى أقرب شاهد لدعوى النسخ !

* * *

وندع هذه الآيات التى يلتقى معنا فيها الذين يقولون بالنسخ ، وإن كان هذا اللقاء على وجه مختلف بيننا وبينهم .. وننظر فى آيات أخرى يقطعون القول بنسخها.

---

(١) البقرة : ٢٧٩

فمن ذلك قولهم فى قوله تعالى :

« وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ، والمساكينُ ، فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً »(١)

يقولون : إن هذه الآية منسوخة بآية المواريث . .

والقول بنسخ هذه الآية يَسُدُّ على الفقراء واليتامى باباً من أبواب الرحمة أراد الله سبحانه أن يفتحه عليهم ، كما أنه يقطع آصرة المودة بين ذوى القربى التى أمر الله بها أن توصل !

وماأعدل الإسلام ، وماأحكم أحكامه التى تتجلى فى كل آية من آياته . . وهنا فى هذه الآية الكريمة التى يريد بعض العلماء عزل المسلمين عنها . . إنها تدبير حكيم من الإسلام ، وآية من آيات خلود هذا الدين .

فالميراث الذى يتركه الميت لورثته هو خير غير مرتقَب ، قد شمل أعداداً من الناس بحكم قرابتهم لهذا المورث . . وهناك عيون كثيرة تتطلع إلى هذا الخير ، وتتبع مواقعه التى وقع فيها ، وخاصة ذوى القربى الذين لانصيب لهم فيه بين الورثة . . كذلك من يحضر قسمة الميراث من فقراء ومساكين . . إنهم يرون مائدة منصوبة حافلة بألوان الطعام ، وهم جياع يسيل لعابهم إلى لقمة أو لقيمات مما عليها . .

هذا هو الموقف ، كما يراه القرآن ، وكما تشهده الحياة ، فماذا لو ذهب الورثة بكل هذا الميراث . . فلم يكن لذوى قرباهم المحرومين منه شىء ، ولم يكن للفقراء والمساكين الذين تتملظ شفاههم إلى نفحة منه — شىء ؟

ماذا يكون ؟

---

(١) سورة النساء : ٨

أحقاد ، وأضغان ، وعداوات ، تثير السخط والنقمة ، وتذهب بالإخاء والمودة بين الناس والناس !

وتأمل قوله تعالى : « إذا حَضَر القسمة » أى إذا كانت قسمة الميراث بمحضر منهم وبمشهد . .

فهذا الحضور هو شرط فى أن يُرزَق هؤلاء الحاضرون من هذا الخير الذى شهدوه ، ورأوا الأيدى تمتد إليه ، وتنال منه !

وأنت ترى مافى هذا التوجيه السماوى ، من تلك السياسة الحكيمة التى تقوم عليه فى تربية الأمم ، ودعم بنائها ، وإقامته على أسس وطيدة من التضامن الاجتماعى ، والتجاوب الإنسانى بين الناس والناس ، وحراسة المجتمع من أن تدخل عليه آفات التباغض ، والتحاسد ، التى هى أفتك الأدواء فى تقويض بناء الجماعات ، وتفتيت وحدتها ! وإن فى هذه اللفتة السماوية لإعجازاً من إعجاز القرآن ، وشاهداً من شهود الحق لسلامة الدين الإسلامى ، وسلامة مبادئه التى قام عليها ، وعُمْق نظرته التى تنفذ إلى صميم النفس الإنسانية ، وتتعرف إلى مهابّ الخير والشر فيها !

إن « ضريبة » التركات التى تفرضها كثير من الدول ، وتحتجز بها جزءاً من ميراث الورثة ليست إلا تطبيقاً لهذا المبدأ الكريم ، وإلا وحياً من وحيه ، وإن كان البون شاسعاً ، والمدى بعيداً بينها وبين ماجاء به القرآن ، وشرعه الإسلام !

فالإسلام لم يجعل هذا الأمر على وجه ملزم ، بل جعله دعوة مطلقة للخير ، والبرّ ، فى مقام يحضره داعيان من دواعى الخير والبر . . وهما : الوجد ، والموت . . إذ المال موجود عتيد بين يدى من سيصير إليهم من الورثة ، وهو لم يقع فى أيديهم بعد . . ومن أجل هذا ، فإن النفس لا يغلبها الحرص عليه ، والضن به ، كما يكون لو وقع فى اليد ، وصار فى حوزة صاحبه .

والموت مشهود مذكور فى هذه الحالة ـ حالة قسمة المال الموروث ـ حيث كل شىء فى هذا المال يذكّر بالميت وبالموت معاً .. ومن أجل هذا فالنفس أيضا لايغلبها الشح ، ولايمسك بها عن الإنفاق فى سبيل الله داعى الحرص على الحياة ، فى هذا الوقت الذى يطل منه عليها شبح الموت !

ولايطلب الإسلام فى هذه الحال إلى الورثة أكثر من التصدّق على ذوى القربى ، والفقراء والمساكين ، الذين يشهدون هذا الخير ، ويحضرون قسمته . . وهذا أمر لو لم تقم له أية داعية أخرى غير داعية هذا الحضور ، وغير ماينبىء عنه حال الحاضرين — لكان التصدُّق فيه محمولا عليه بمشاعر المودة والرحمة ، التى لايُرى حال أكثر إثارة منها لدواعى المودّة والرحمة بين الناس والناس .. وبين الذين يملكون والذين لايملكون !!

فكيف وقد قام من بين يديه ومن خلفه داعيان قويان ، يهتفان بالبر والمودّة والإحسان . . وهما — كما عرفت — الوجد والموت !

ولو ذهبت تبحث عن أية داعية من تلك الدواعى فى « ضريبة » التركات لما وجدت لها أثراً ، ولما أحسست لها وجوداً ..

هذه الآية من الآيات الكثيرة التى قيل إنها منسوخة ، وهى ـ كما رأيت ـ دعوة كريمة من دعوات الإسلام إلى البر والإحسان ، وقوة من قواه العاملة فى حراسة المجتمع ، وحمايته من التفتت والانهيار !

* * *

وآية أخرى

هى قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً ، وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً

إلىَ الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فى أنفُسِهن مِنْ معروفٍ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حكيم »[1]

وقد أشرنا من قبل إلى القول بأنها منسوخة بقوله تعالى :

« والَّذينَ يُتَوَفَّونَ مِنكُمْ ويَذَرُونَ أزواجاً يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسِهِنَّ أربعةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً . . فإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيما فَعَلْنَ فى أنفُسِهِنَّ بالمعروفِ واللهُ بما تَعْمَلونَ خَبِيرٌ »[2]

وأنت ترى أن الآية التى يقال إنها منسوخة سابقة للآية التى قيل إنها ناسخة ، وهذا أمر لا يستقيم عليه مفهوم النسخ الذى ينبغى أن يكون فيه للنسوخ سابقاً للناسخ ، متقدماً عليه .. كما لايستقيم ذلك على الشرط الذى اشترطه القائلون بالنسخ وتواردت عليه أمثلتهم له ، بتقديم الآية المنسوخة على الآيات الناسخة !

هذه واحدة . . لانلتفت كثيراً إليها . .

والذى يهمنا أن نلتفت إليه هو الحكمة المستوحاة من نسخ الآية أو عدم نسخها . . وهل يمكن التوفيق بين الآيتين — الناسخة والمنسوخة — وإبقاء حكمها ، دون تعارض أم لا ؟ .

وننظر فى الآية الأولى ، التى قيل بنسخها .. فنجد أنها تدعو إلى أن يكون للمرأة المتوفى عنها زوجها حق متعلق بتركته — غير مالها من حق فى الميراث — وهذا الحق هو أن يُفرض لها فى مال زوجها المتوفى نفقة عام ، مع الاحتفاظ لها بمسكنها الذى كانت تأوى إليه فى حياته معها .

هذا ماتدعو إليه الآية إذا قلنا إنها غير منسوخة .

أما إذا قيل بأنها منسوخة فليس للمرأة شىء من هذا كله ، وإنما الذى لها

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٤ (٢) سورة البقرة آية : ٢٣٤

ميراثها المفروض لها ، وقد تقتسمه معها زوجة أخرى ، أو ثالثة ، أو رابعة !

هذان أمران يتوجهان إلى المرأة التي يُتوفى عنها زوجها . .

فأى الأمرين أقرب إلى الإسلام ، وأشبه بحكمة تعاليمه ، وسموّها ، وإنسانيتها ؟ امرأة كانت في كنف زوج وفى ظلّ من جناحه . . ثم يعرّيها الموت من هذا الجناح الذى كان يظلها ومن هذا الكنف الذى كانت تلوذ به . .

ثم إذا جاء الإسلام ليقيل عثرتها ، ويجفف دمعتها بتلك المواساة الكريمة ، فلا يهيجها أحد أن تخرج من هذا العشّ الذى ألفته وسكنت إليه ، وأنست به . . إلى أن تذهب الأيام ببعض حزنها ، وإلى أن تتفتح لها وجهات جديدة فى الحياة ، تتجه إليها ، وتقوى على السير فيها — إذا جاء الإسلام بهذه المواساة الكريمة أيكون ذلك مما يعْرض له الإسلام نفسه — بعد هذا — بالنقض ، فيقبض يداً كان قد بسطها للبر ، والإحسان ، فى حال هى أدعى دواعى البر والإحسان ؟ ولم هذا ؟ ألأنّ المرأة قد فرض لها نصيب بين ذوى الفروض من الورثة ؟

وماذا يمنع من هذا ؟ أهو الحديث الشريف الذى يقول: « ألاَ لاَوصية لوارث؟ » إن يكن ذلك عن مفهوم هذا الحديث ، فهو من مفهوم خاطىء ، إذ أن الوصية التى يشير إليها الحديث هى الوصية التى يوصى بها المورِّث حال حياته ، فيفضل بها بعض الورثة على بعض ، وبهذا يثير بينهم دواعى العداوة والفتنة ، فيقطع بينهم علائق المودة ، التى من شأنها أن تقوم بين ذوى القربى !

هذه هى الوصية التى عناها الرسول الكريم فى قوله : « ألا لاوصية لوارث » ولكن الوصية التى تشير إليها الآية هنا هى وَصاةٌ من الله سبحانه إلى ورثة الزوج أن يرعوْا هذا الحق لزوجه ، وأن يمتعوها متاعاً حسناً إلى الحول فى بيت زوجها من غير إخراج إلا أن تخرج هى بمحض إرادتها . . لزواج أو غيره ! أذلك . أم أن تُلقى هذه الأرملة فى عرض الطريق ، وتنبذ بالعراء ؟

وقد يقول قائل : إن فى ميراثها المفروض لها من زوجها مايحفظ عليها وجودها ويطيّب نفسها !

وهب أن الميراث الذى تناله يذهب بوحشتها . ويخفف من مصابها — وهيهات — أفكلُّ الأزواج يورّث زوجه من المال قدراً يفعل فى نفسها هذا الفعل ، فيكون فيه الدواء والعزاء ؟

وماذا يكون حالها ، إذا لم يكن فى تركة الزوج — وهو الغالب — مايملأ يدها وعينها ، ويذهب ببعض حزنها ؟

إن ماتدعو إليه الآية الكريمة هو وحده الدواء والعزاء معاً المتوفى عنها زوجها فى جميع أحوال المورثين ، فقراء كانوا أو أغنياء .. حتى ولو لم يترك الزوج مالا أصلا ، فإنه إذا حرمت المرأة فى هذه الحال مالها من حق المتعة حولا كاملا فلن تحرم القرار لمدة عام فى العشّ الذى عاشت فيه مع زوجها . أوفى ذلك مافيه من حكمة بالغة ، وتدبير حكيم .

هذا ، وكثير من العلماء على أن هذه الآية منسوخة — كما قلنا — وكثير منهم أيضاً يرى أنها غير منسوخة ، وأن لكل من الآيتين حكماً يخالف الأخرى .. فالآية :

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرُون أزواجاً يتربَّصْن بأنفُسِهِنّ أربعةَ أشهُرٍ وعشْراً»

— هذه الآية خاصة بتقرير العدّة ، وتحديد مدة التربص اللازمة لاستبراء الرحم .. فالتى يتوفى عنها زوجها ، ولم تكن حاملا فعدتها أربعة أشهر وعشر ليال ، وإن كانت حاملا فعدّتها وضع الحمل ، ولو وضعت بعد الوفاة بيوم أو ليلة ، وإن كان ابن عباس يرى أن تعتد بأبعد الأجلين ، وضع الحمل ، أو أربعة أشهر وعشر ليال .. وذلك للجمع بين هذه الآية والآية الكريمة :

« وأولاتُ الأحمال أجلُهُنّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنّ »[1]

(١) سورة الطلاق : آية ٤

أما قوله تعالى « والَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكم وَيَذَرُونَ أزواجًا وَصيةً لأَزْوَاجِهِم متاعًا إلى الحَوْل غيرَ إخراجٍ » .

فهو لتقرير حكم آخر لا شأن له بالعِدة ، وهو ماينبغى من الرعاية والنفقة والسكنى للمتوفى عنها زوجها ..

فهذه الآية تتجه إلى تقرير حكم ، والآية الأخرى تتجه إلى تقرير حكم غير هذا الحكم .

وقد قال كثير من العلماء بأن لا نسخ فى هذه الآية .

روَى البخارى ، قال : حدثنا إسحق بن منصور ، حدثنا رَوْحٌ ، حدثنا شبل عن ابن أبى نُجيح عن مجاهد . . قال :

« والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصْن بأنْفُسِهن أربعةَ أشهرٍ وعشراً » .

قال : كانت هذه العدة تعتدّ بها المرأة عند أهل زوجها على سبيل الوجوب ، فأنزل الله :

« والَّذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجاً وصِيَّةً لأزواجهم متاعا إلى الحَوْل غير إخراجٍ فإنْ خَرَجْنَ فلاَ جُناحَ عَلَيْكُمْ فيما فَعَلْنَ فى أنفسِهِنَّ من معروف »(١)

قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ، إن شاءت سكنت فى وصيتها ، وإن شاءت خرجت .. وهو قول الله :

« غير إخراج ، فإن خَرَجْنَ فَلاَ جناح عليكم »

---

(١) ومعنى لاجناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف أى لا حرج بعد هذا الأجل تأخذ به المرأة نفسها من التزين والتجميل بما لايخرج عن المألوف .

وقال ابن عباس : نَسَخَتْ هذه الآية عِدّتها عند أهلها ، فتعتد حيث شاءت ، ولا سكنى لها .. ثم أسند البخارى عن ابن عباس أن هذه الآية لم تدلّ على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر ، وإنما دلت على أن ذلك من الوصاة بالزوجات ، أن يمكّنّ من السكنى فى بيوت أزواجهن بعدوفاتهم حولا كاملا ، ان إخترن ذلك ، ولهذا قال : «وصيةلأزواجهم» أى يوصيكم الله بهنّ وصيةّ ، كقوله : « يوصيكم الله فى أولادكم » ، وقوله: «وصية من الله » . .

ونخلص من هذا كلّه إلى أن القول بالنسخ فى هذه الآية فيه خروج سافر على المعنى الظاهر منها ، كما فيه تفويت ظاهر لمصلحة أراد بها الإسلام تطبيب القلوب ، وتسكينها فى ساعة اليأس والضيق !

* * *

وهكذا لو تدبرنا الآيات التى قيل إنها منسوخة ، وفهمنا وجه الحكمة فيها — لو فعلنا لما وجدنا فى الكتاب الكريم آية واحدة لاتعطى حكما ، أو تضن بالخير الكثير الذى نزلت به من السماء ، هدى ورحمة ، ونوراً .

* * *

معارضة القرآن

ومن الشُّبه التي يثيرها — قديماً وحديثاً — أصحاب الأهواء وذوى الآراء المنحرفة الخرفة — القولُ بأن هناك من عارضوا القرآن ، وقابلوا التحدّى ، وصمدوا له ، ونجحوا فيه . . وأصحاب هذه الأقوال فريقان :

فريق لا يحسن اللغة العربية ، ولا يعرف مواقع البلاغة فى أساليبها ، وإنما تغلب على لسانه رطانة أجنبية ، وبعض كلمات عربية ، فيحسب أنه بهذا قد ملك موازين الحُكم فيما يحسن ومالا يحسن من كل شيء . . ومن هذا الفريق معظم المستشرقين الذين كتبوا فى القرآن وفى بلاغة القرآن . . ومن هذا الفريق أيضاً قوم يحسنون العربية ، ويعرفون الكثير من أسرارها ، ومع هـذا يلجُّ بهم الضلال والعناد .

هذا الفريق بطائفتيه أو طوائفه يمسك بين يديه تلك الرّقاعات والسخافات التى يقال عنها إنها مما عورض به القرآن ، ثم لا يردهم الحياء عن التلويح بهذه الحفنة من التراب فى وجه الشمس ، وفى وضح النهار ، وعلى مشهد من الناس !

وندع هؤلاء الآن إلى أن نلتقى بهم وبمعارضاتهم بعد أن نصفى حسابنا مع الفريق الآخر ، من هؤلاء المنازعين فى إعجاز القرآن . .

والفرقة الأخرى تضرب صفحاً عن هذه المعارضات أو السخافات التى احتفظ بها التاريخ ، إذ تراها ضروباً من السّخف الذى لا يشفع له شافع من التمويه والتلبيس ، ليدخل به على عقول الناس ، حتى العامة والدهماء ، لأنه كلام مفضوح ، عارٍ من كل ما يستر عُواره ، ويدارى سوءاته .

ولهذا فقد لجئوا إلى الكذب والادعاء ، فقالوا : إن هناك معارضات كثيرة

قد كانت فى عصر النبوة وبعد عصر النبوة ، وأنها كانت جديرة بأن تلتقى بالقرآن ، وتصمد له ، ولكن غلبة الإسلام ، وسطوة سيفه فى أيامه الأولى قد ذهبت بكل ما قيل ، ثم وَأَدَتْ كل ما كان مضمَراً فى الصدور ، أو متردداً فى الخواطر .

هذه هى دعوى القوم ! هى مجرد فروض وهمية ، لا يسندها دليل ولو ظنّىّ ، ولا تقوم لها حجة ولو داحضة . . وإنما هى الزور نصًّا ، والبهتان خالصاً . .

الداء قديم :

وهذا الداء — كما قلنا — قديم ، ظهر مع ظهور الخلافات المذهبية التى أجلبت بخيلها ورَجِلها على مقررات الشريعة ومقدساتها فخاضت فيها ، وأوغل كثير من أربابها فى خوضه حتى اجترفه التيار فكان من المغرقين . . وممن وسموا بالزندقة والإلحاد فى العصر العباسى الأول وما تلاه . .

وطبيعى ألا يكون لهذه الدعوى وجود فى صدر الإسلام ، ولا فى العصر الأموى ، لأنها إنما ادعيت لهؤلاء الذين عاصروا الدعوة الإسلامية ، ولا يصح أن ينسب إليهم شىء مكذوب عليهم إلا إذا كانوا غائبين ، ولا يُرجى لهم إياب . . ولو كان الأمر على غير هذا ، وادعى مدّعٍ أن هناك من المعاصرين من عارض القرآن ، ولم يكن بين يديه هذه المعارضة ، ولم يدلّ على صاحبها ، لما وجد لكلامه أذناً تسمع ، حتى ولو كانت أذنَ فتنة وسوء ، إذ لا شىء هناك تسمعه . .

ولهذا ساغ دائماً لكل مفترٍ أن يفترى على الأموات ، وأن ينسب إليهم أقوالا لم يقولوها . . وهذا وإن كان مما لا يحفِل الناس كثيراً به ، ولا يقيمون وزناً له ، إلا أنه يجد عند الأغرار والسذج من يسمع ويصيخ ! نقول — إن هذه الدعوى لم تظهر لأول ظهورها إلا بعد أن ذهب أصحاب الشأن فى هذه الدعوى . . فساغ أن ينسب إليهم أنهم عارضوا القرآن ، ولكن لسبب ، أولا كثر من

سبب اختفت معارضاتهم ، وعفىَّ عليها الزمن ! ! وهكذا يمكن أن يجىء فى كل زمن من يقول : إن أهل الزمن الذى قبله قد عارضوا القرآن ، ولكن لم يُقدَّر لهذه المعارضة أن تظهر لظروف وأسباب ، يقيمون لها وجوهاً مسوِّدة لهذا الكذب المفضوح !

وقد قام فى كل عصر كثير من علماء المسلمين يردّون على مفتريات المفترين ، ويأخذون عليهم الطريق الذى جاءوا منه لرمى الإسلام بهذه الأباطيل .. وكان القول بمعارضة القرآن الموهومة ، واحداً من آحادها .

وقد تصدّى للرد على هذه الدعوى أكثر الذين كتبوا فى إعجاز القرآن كالجاحظ ، والباقلانى ، وعبد الجبار ، والرمانى ، وغيرهم . .

ويكفى أن ننظر فى قول من هذه الأقوال . . وليكن ما يقوله « عبد الجبار » — إذ كان — فيما نرى — قد اهتم لهذا الأمر ، وأعطاه جانباً من النظر والعناية .

ماذا يقول « عبد الجبار » !

عقد « عبد الجبار » فى الجزء السادس عشر من كتابه « المغنى » فصلا خاصاً بالردّ على دعوى القائلين بأن هناك معارضات قد قامت فى وجه القرآن ، ولكن التاريخ لم يحتفظ بها .

وقد سلك فى هذا « الفصل » أسلوبه المنهجى فى كتابه كله ، وهو إيراد الاعتراضات على لسان من يصحّ منه الاعتراض فى الأمر ، أو غيره ، ثم يتولى دفعَ هذا الاعتراض ، بما يقيم له من حجج وأسانيد . .

« وعبد الجبار » فى إيراد الاعتراض أمين أمانة تامة على الدعوى التى بين يديه .. يشرح وجهة نظر خصومه فيها ، ويقيم لهم حججهم عليها ؛ بالقوة وبالروح التى يقيم بها حججه هو لدفع هذه الدعوى ..

وهذا – كما ترى – أسلوب بارع من أساليب البحث عن الحقيقة، وتجليتها، وذلك يجلب كل الفروض الممكنة لبنائها.. حتى إذا استكملت حظها وبلغت غايتها.. سلط عليها ما بيده من حجج فنقضها حجراً حجراً.. ولا تنس أن عبد الجبار «معتزلي» أي أنه من علماء الكلام..

وذلك هو أسلوب المعتزلة، وتلك هي طريقة المتكلمين في لقاء خصومهم، وفي دفع ما يوردون عليهم من اعتراضات على آرائهم.

ولا نستطيع أن نأتي على جميع «الدفوع» التي جاء بها «عبد الجبار» لإسقاط هذه الدعوى..

ولكنا نتخير بعضاً منها.. إذ قليلها يغني عن الكثير في دفع هذا «الإفك» المزيل!

١ – لا يجوز أن تتفق الأسباب وتختلف النتائج:

يقول «عبدالجبار»: لو كان القوم أتوا بالمعارضة، لكان حالها كحال القرآن، فيما يقتضي وجوبَ نقله، لأن قرب العهد واحد، والحاجة والدواعي فيهما [1] تتفق، فكان يجب أن ينقلا، على حد واحد.. فإذا لم يحصل نقل المعارضة علمنا أنه لا أصل لها!

«بل لو قيل: إن الدواعي إلى نقل المعارضة – لو كانت [2] – أقوى منها إلى نقل القرآن، لصح ذلك.. لأن التنافس في المعارضة أقوى منها في الابتداء، وهذا متعالَم في أحوال الأمور: المبتدىء بالشيء لا تكون دواعيه كدواعي من ينافس في المعارضة، وكذلك يكون نقله أقوى من نقل المبتدأ.. لأن العادة – جاريةً – في نقل الشيء، أنه [3] في قوة الدواعي بحسب قوته في حصوله ووجوده.

ومتعالم من حال القوم أنهم بلغوا النهاية فيما يتصل بإبطال أمر رسول الله

(١) أي في القرآن وفي المعارضة. (٢) أي لو وجدت .. وكان هنا فعل تام.
(٣) خبر لأن العادة.

صلى الله عليه وسلم ، حتى لم يبق ضرب من ضروب الدواعى إلا وحصلت فيهم .. فلا بد من أن تكون حالهم فى المعارضة، وحرصهم عليها ، أقوى من حال القرآن، وكما لابد من ذلك فيها ، فكذلك فى النقل ، لأنه يختص بحصول الظفر به فى الطِّلبَة ، والملتمس فى التخلص به من العادة ، والأنفة ، وحفظ الأموال والرياسات.

ثم يقول فكيف يصح مع قوة هذه الدواعى أن يظفروا بالمعارضة التى فيها إبطال أمره ــ صلى الله عليه وسلم ــ من كل وجه ، وقلب حاله ومراده فيما ادعاه ، أو عكسها إلى خلافه — ولا تنقل ، وهذه حالها ؟ .، وقد علمنا أن هذه الطريقة ، كما قويت فى الأصل ؛ فإنها تقوى على الأيام . .

ثم يقول : «ويجب فى هذا وجه آخر.. لأن الحاجة فيما يرجع إلى الدِّين تقتضى قوة النقل ، فما هو حجة أولى من نقل الشبهة (1) .. ولو صحت المعارضة لكانت كالحجة ، وكان القرآن كالشبهة ، لأن المعارضة تُعْلِمُ مِن حاله أنه ليس بمعجزة ، وتكون المعارضة — وهى التى كشفت ذلك من حال القرآن ، ودلت عليه — حجةً ، فكان يجب أن تكون بالنقل أولى من القرآن » .

هذا دفع من تلك « الدفوع » التى يردّ بها « عبد الجبار » دعوى المدّعين بوجود معارضات للقرآن لم يقدّر لها أن تظهر ، وتحيا فى الحياة ..

وهو ــ كما ترى ــ دفع لا يُردّ ، إذا كان القرآن قائماً على رءوس القوم يَقْرَعهم بالتحدى . . فكيف إذ قاموا له وتحدوه ، وانتصروا ــ لم يسجل لهم هذا الانتصار ، على حين سُجِّل القرآن ، وظل محفوظاً فى الصدور ، وفى المصاحف المطهرة ، أذلك مما يعقله عاقل ؟ حرب تدور . . وتلتقى فيها قوتان . . وتنتصر إحداها ، وتنهزم الأخرى . ثم يتولى التاريخ تسجيل أسماء المنهزمين ، ومواقفهم فى الحرب ، دون أن يحتفظ بشاهد واحد يشهد للمنتصرين بأنه كانت لهم جبهة ، وكان لهم لقاء مع الجبهة الأخرى .. أهذا مما يعقله عاقل ؟ كلا .. ثم كلا ..

(1) يريد أن يقول : إن الأمور المتعلقة بالدين ــ أى دين ــ تقتضى قوة النقل .

٢ – ما نقل من المعارضة وما لم ينقل :

ويقدم « عبد الجبار » دفعاً آخر .. فيقول :

« على أنه قد نقل مالافائدة فيه من المعارضة الركيكة المحكية عن « مسيلمة » فكيف يصح ألا تنقل المعارضة الصحيحة ، مع مايحصل به[1] من الفائدة ؟ . .

« وإنما ضعف نقل هذه المعارضة لركاكتها ، وخروجها عن أن يعتدّ بها ، فلذلك ضعف نقلها ، فليس لأحد أن يقدح بذلك فيما قدمناه من وجوب نقل المعارضة على وجه يظهر !

« ولنا أن نقدح بذلك فى قولهم : لأنها لو كانت[2] لكان نقلها أظهر من هذا الأمر السخيف الركيك .. يبين ذلك أنه : لا يجوز أن يعظم حال واحد من العلماء بكتاب ألفّه حتى وقع فيه التنافس العظيم ، فينقضه بعض العلماء بنقض صحيح ظاهر الحال فى الصحة ، فلا ينقل ذلك ، وينقل النقض الركيك ، الذى تعاطاه بعض أهل زمانه . لأن ذلك يوجب قلب العقول والعادات . . فكيف يصح — والحال ماذكرناه — أن يقال : إن المعارضة قد وقعت ولم تنقل؟ »

٣ – العقل والعادة يكذبان هذه الدعوى :

ثم ينتقل عبد الجبار بعد هذا إلى دفع آخر يدفع بههذه الدعوى ، وهوأنها فى عرضها هذا المعرض قدجاءت غيرجارية مع سنة الحياة ، ومع مألوف العادات التى عاش فيها الناس . . حيث تبدو هذه الدعوى بمعزل عن كل معلوم ومشهود . . يقول :

« فلو جاز أن يقال : إن المعارضة قد وقعت ولم تنقل ، ويجوز مع ذلك مافيه من قلب العقول والعادات — ليجوزنّ أن يقال : إنه قد كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآن أعظم من هذا القرآن ، حتى صار لعظم حاله بحيث

(١) أى بالنقل (٢) أى لو كانت هناك معارضة ذات وجه ينظر إليه

لا يشك أحد من الفصحاء أنه مما لا تمكن فيه معارضة ومساواة ، ولم ينقل ، وإن كان قد نقل هذا القرآن ! ! بل كان يجب أن يجوز فى زمانه من ادّعى النبوة ، وظهرت عليه المعجزات الباهرة ، ونسخ شريعته ، ودلّ على بطلان أمره ، ولم ينقل شيء من أمره ! ! . . . وإنما يَسْتحسن ارتكابَ مثل ذلك من يستهزىء بنفسه ، ودينه ، ويستعمل المباهتة ، فأما من صَدّق[1] نفسه ، ونصحها ، وأنصف منها فسينزه نفسه عن ارتكاب هذه الجهالات ! » .

٤ — لماذا تنفرد المعارضة بعدم النقل دون غيرها مما رموا به النبى؟

ودفع آخر يقدمه « عبدالجبار » لنقض هذه الدعوى ، وهو أن الذين حاربوا الدعوة الإسلامية قد حفظ التاريخ كل وسائل حربهم لها ، بل سجل القرآن كثيراً منها . . فكيف لا يبقى دليل أو شاهد على أعظم وأهم ضربة كانت تصيب صميم الإسلام لو أنها وقعت ؟ . . يقول :

« وبعد فقد نُقل سائر ما كانوا يتعاطونَ مما لا يؤثر فى حاله صلى الله عليه وسلم وحال القرآن : كالهَجْو والوقعية ، وكنسبته إلى السحر .. وغير ذلك .. فكيف يجوز ألا تنقل المعارضة ، مع ما فيها من الفوائد[2] ، لو كانت وقعت ؟

« على أننا نعلم بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم — عصراً بعد عصر — أن فيها من يعادى النبىّ ، ممن يرجع إلى فصاحة ومعرفة بهذا الشأن ، فقد كان يجب إن لم تُنقَل المعارضة أن يبتدئها من يَحْدث فى هذه الأعصار . . ! !

٥ - الغلبة والقهر من دواعى الإذاعة والانتشار ، مع الكتم والاستتار :

يقول « عبد الجبار » :

---

(١) فى الأصل « صدق » بتشديد الدال ، والصحيح بفتحها . . لأن النفس متهمة ، فكيف يصدقها ويقبل ما تدعو إليه ؟

(٢) أى الفوائد التى تعود على المعارضين المعاندين .

فإن قال ـ أى المعترض . هلا جوّزتم القول بأنه إنما لم ينقل لغلبة مستجيبيه، وتخوفهم منهم ؟

قيل له : لا تسل عن هذا من يعرف أحوال العرب ، وأحوال الأخبار . . لأن المتعالم من حال الأخبار : أنه لا ينقطع بهذا الجنس من الخوف ، بل لا ينقطع بشيء من الخوف ، لأن الخوف إنما يقتضى ترك الإظهار ، لا ترك النقل ، وربما دعا المنع إلى الإكثار من النقل ، وهذه طريقة معروفة فيما يقع المنع فيه ـ من سلطان وغيره ـ أنه يكون أقربَ إلى الانتشار ، من حيث تقوى الدواعى ، وتزداد بحصول المنع ، وإنما لا يقع الإظهار فى أحوال مخصوصة ، وذلك لا يمنع من النقل ، لأن المقتضِى لظهوره ، ووقوع العلم به ليس الإعلان ، وإنما هو الخبر ، أفلا فرق بين أن يُجْهَر به ، أو يسرّ به ، فى وقوع المعرفة ! . . فكيف يصح ـ والحال هذه ـ أن يُدَّعى للأمر الذى يجب نقله أن الخوف يمنع من ذلك ؟

« على أن الخوف إنما يقدح فيما لم يتقدم ظهوره ، فأما إذا تقدم ذلك فيه فلا يقع المنع به [1] . . وقد كان يجب فى المعارضة ـ لو وقعت ـ أن تظهر حالها فيمن يعاديه صلى الله عليه وسلم ، وقد علمنا أنهم كانوا كثرة عظيمة . . قد كانوا أكثر من المستجيبين عدداً . . فكيف يقال : إن الخوف منع من ذلك ؟ وكيف يصح فى الخوف الذى لا يجرى مجرى المواطأة أن يمنع من نقل الأخبار ؟ وإنما يجرى هذا المجرى بأن يكون صادراً عن سلطان ، فتجمعهم المخافة فى حال أو أحوال ، أما إذا لم يكن كذلك ، فلابد من أن يخاف البعض دون البعض ، أو تختلف الاعتقادات فيه ، فلا يجوز فى مثله [2] أن يكون مانعاً من الأخبار الظاهرة . . يبيِّن ذلك أنه :

---

(١) يريد أن يقول : إن الخوف كان هو الصفة الغالبة على الجانب الذى فيه الدعوة الإسلامية فى أول أمرها ، وكان يجب لهذا أن تظهر المعارضات التى عورض بها القرآن ، وأن تذاع : وأن تسد الطريق على الإسلام إذ كان أصحابها هم أصحاب الغلبة والقوة ، على حين كان المسلمون فى ضعف ظاهر (٢) الضمير يعود إلى الخوف .

فقد نُقلت المعارضةُ الركيكة ، ولم تَمنع المخافةُ منها ، فكيف تَمنعُ من المعارضة الصحيحة ؟

« وبعد .. فإن المعارضة ـ لو صحت ـ لقويت أحوال الكفار بها ، وظهرت لأجلها أحوالهم ، فكان يصير سبباً للقوة ، وزوال أسباب الخوف . . والمتعاَلم من حال الخائف ، أن يبذل جهده فى التوصل إلى زوال خوفه ، فكان يجب ـ على هذه الطريقة ـ نقلُ المعارضة من وجهين أحدها التخلص من الشريعة ، وإبطال أمره صلى الله عليه وسلم . . والثانى زوال الخوف من مستجيبيه ! »[1] .

* * *

وأحسب أن فى هذا القدر كفاية فى الردّ على هذه الدعوى التى تتصيّد المفتريات وتبنى منها أعشاشاً تسكن إليها القلوب المريضة ، حيث يبيض فيها الإلحاد وتفرخ الزندقة !

ولم تكن بنا حاجة إلى الوقوف عند هذه الفرية المفضوحة ، إذ لا وجه لها تظهر به فى الحياة . . ولكن الردّ عليها فى الواقع رد على مفتريات كثيرة مثلها ، تجىء من هنا ومن هناك ، لتثير فى جو الإسلام أدخنة وسحباً ، تغشى بها كثير من العيون ، وتمرض بها كثير من القلوب . .

هذا ، وقد كنا تركنا من قبل أصحابَ القول الذين يحتجون بتلك المعارضات التى احتفظ بها التاريخ لمن قيل عنهم إنهم عارضوا القرآن ، كمُسيلمة ، وابن المقفع ، والمعرّى ، وغيرهم . .

وها نحن أولاء نعود إليهم لنرى ما فى أيديهم من هذه المعارضات ، وما لهم فيها من ركن يُؤوون إليه !

---

(١) المغنى لعبد الجبار ـ الجزء السادس عشر ، طبعة وزارة الثقافة ص ٢٥٠ وما بعدها.

المعارضة والمعارضون :

إن المرويّ من هذه المعارضات يُشعر الناظر فيه أنه كلام موضوع ، أُريد به السخرية والاستهزاء بمن نُسب إليهم أنهم عارضوا القرآن ، أو حاولوا أن يعارضوه.

فما ينسب إلى «مسيلمة» وقد كان ادّعى النبوّة أيضاً فى حياة النبيّ ـ لا يمكن أن يكون كلام عربيّ يعرف لسان قومه سليقة وطبعا . . إذ هو كلام ركيك سخيف ، لا يصدر عن عربيّ لم تفسد لسانه العُجمة .. كمسيلمة ، وقومه !

وإنما الذى يُرد إليه هذا الكلام هو الإمعان فى الهزء والسخرية بهذا «النبيّ» بنسبة هذا السخف إليه ، وجعله « قرآنه » الذى أُوحى إليه من شيطانه أو شياطينه !

وقد يكون « لمسيلمة » معارضة للقرآن ، غير هـذا « الهذْر » السمج .. ولكنها مع هذا كلام لا يقوم للقرآن ، فأسقطها مسيلمة نفسه ، قبل أن تسقط هى من حساب التاريخ !

إن للعرب خطباً مُفْحِمة ، وحِكَماً رائعة معجبة ، يترقرق عليها ماء الحسن والملاحة . . فيها روعة آسرة ، وجمال أخاذ . . ولو ادّعى مدّع من هؤلاء الخطباء النبوّة ، وأراد أن يعارض القرآن لكان له قول غير هذا القول السخيف الساقط ، وإن كان فى أعلى مراتبه لا يجاوز هضبة على أرض تطاول سماء القرآن !

استمعْ إلى كلمات لقُسّ بن ساعدة[1] فى بعض خطبه: «أيها الناس : اجتمعوا فاسمعوا ، وعُوا . . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . فى هذه آيات محكَمَات . . مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، . . نجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات

---

(١) هو قس بن ساعدة الإيادى ، يضرب به المثل فى مواقف الخطابة ، فيقال : «أخطب من قسى بن ساعدة » . . وقد شهده النبى صلى الله عليه وسلم ، واستمع إليه وهو يخطب فى عكاظ على جمل أورق ، فحمد له قوله وما يحمل من كريم المعانى ..

أبراج .. مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ؟ .. أَرَضُوا فأقاموا ، أم حُبِسوا هناك فناموا ! يامعشر إياد . . أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ : أين المعروف الذى لم يشكر ، والظلم الذى لم ينكر ؟ أَقْسَمَ قُسٌّ قسما بالله : إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا .. »[1]

أهذا كلام تُشَمّ من ريحه نفحة نبوة ، وريح نبى ! .. إنه ثمرة من ثمار البلاغة العربية الطيبة الناضجة .. أما هـذا السخف الذى ينسب لمسيلمة ، فما هو من هذا الـكلام فى شىء .. إنه عبث عابث ، وهذيان مجنون !

يروى عن عمرو بن العاص أنه كان بالبحرين مبعوثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وارتد بعض العرب ، ومنهم مسيلمة وقومه ، أقبل عمرو يريد المدينة ، فمر بمسيلمة ، وكان قد أخذ منه الأمان ، فقال مسيلمة لعمرو : إن «محمداً» أرسل فى جسيم الأمور وأرسلت فى المحقرات !! فقال عمرو . أعرض على ما تقول : فقال ياضفدع نقى فإنك نعم ماتنقين ، لا وارداً تنفرين ، ولا ماء تـكدرين .. ياوبر ياوبر[2] ، يدان وصدر .. حضر نفر ! »[3] ، قال عمرو : ثم أتى أناس يختصمون إليه فى نخل قطعها بعضهم لبعض ، فتسجى بقطيفة ، ثم كشف رأسه فقال : « والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ماجاء بنو أبى أسلم من محرم ! » ، ثم تسجى الثانيه فقال : « والليل الدامس والذئب الهامس ، ما حرمته رطباً إلا كحرمته يابس[4] .. قوموا ، فما أرى عليـكم فيما صنعتم شيئاً »

قال عمرو : أما تعلم ؟ وإنا لنعلم إنك لمن الـكاذبين »[5].

والصنعة ، والتعمل ، والعبث كلها واضحة فى هذا الخبر وأنه كذب وتلفيق ..

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ : جزء ١ ص ٢٤٧ (٢) الوبر دويبة كالسنور .

(٣) الحضر : عدو الفرس ، والنفر : نفاره وجوحه .

(٤) هكذا « يابس » والذى عليه الأعراب : يابساً !

(٥) من إعجاز القرآن للخطابى ص ٥١

فلم يكن مسيلمة بالذى يرى نفسه أنه دون محمد شأناً ، وقد بَعَثَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته كتاباً قال فيه : أنا شريكك فى الأمر ، فلنا نصف الأرض ولكم نصفها ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون ! » وهذا خبر ثابت موثق فكيف يرضى « مسيلمة » لنفسه أن يكون نبياً إلى الضفادع ، والسحالى ، والسنانير؟ثم لقد أبى واضع هذه القصة إلا أن ينسب إلى مسيلمة الجهل بلغة قومه ، فيخطىء فى إعرابها ، كما فى كلمة « يابس » وهى واقعة حالا ، يجب نصبها !

ولا تحسب أن « مسيلمة » وهو عربى صميم ، له ما للعرب من بلاغة وفصاحة يرضى لذوقه العربى أن يهرف بمثل هذا الساقط المرذول من الكلام ، بل نحسب أنه لم يحاول أبداً أن يكون له قرآن ، وأن الذى أفحم قريشاً وأعجزها ، وأخذ على لسانها فى معارضة القرآن هو الذى أفحم مسيلمة وأعجزه ، وأخذ على لسانه . . فلم يقل شيئاً يجعله قرآناً له .

والذى نظنه ، بل ونكاد نستيقنه أن الذين أرادو أن يهزءوا بمسيلمة ويسخروا منه ، ويشوهوا وجهه ، ويلطخوه بالسواد ، على ماشوهه الكذب ، ولطخه الادعاء — هؤلاء قد عمدوا إلى هذا العبث من القول ، فنسبوه إليه ، وعلقوه برقبته ، ليزداد به خزياً ، وسخرية ، على الدهر وليكون حديثاً يسمر به السمار فى معرض السخرية والاستهزاء ، بكل ذى صفة تجره إلى مجالس الساخرين المستهزئين !

ولا نقول هذا فى مسيلمة وحده ، بل ذلك هو رأينا فى كل معارضة للقرآن نسبت إلى غيره ، وجىء لها بشاهد من مثل هذا الكلام المرذول المعطوب !

وإذا كان التاريخ لم يحتفظ لمسيلمة بغير هذا الكلام الساقط الذى يمكن أن يُتحكك به ، وأن يقال : إن الرجل سخيف ممسوس بالهلوسة والوسوسة،لا يصدر عنه إلا مثل هذا الهذْر والهذيان ، فماذا يقال فى المعرّى ، وهو مالك زمام البلاغة والبيان ، منظوماً ومنثوراً ؟ أتُراه حين يَلْقَى القرآن معارضاً ينسى كل ما كان

فى قلبه وعلى لسانه من فصاحة وبيان ؟ وكيف يُعقل هذا ؟ وقد كان المقام يقتضيه أن يُديم التفكير ، ويطاول التأمل، حتى يجىء بأحسن ماعنده فى مواجهة أحسن الكلام وأبلغه ؟ روى ياقوت الحموىّ فى كتابه: « معجم الأدباء » عن معارضة أبى العلاء للقرآن . . فقال :

« ومما ظهر منه — أى من أبى العلاء — فى بعض كلامه : « أقسم بخالق الخيل ، والريح الهابّة بليل ، مابين الأشراط ومطالع سهيل — إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف[1] الذيل . . اتّقِ مدارجَ السبل ، وطالع التوبة من قُبَيْل ، تنج ، وما إخالك بناج !! . . »وقوله — أى قول أبى العلاء — : « أذلّت العائذة[2] أباها ، وأصاب الوحدة ورباها ، والله بكرمه اجتباها ، أولاها الشرف بما حباها ، أرسل الشّمال وصَباها ولا يخاف عقباها . . »[3]

إن يكن هذا من كلام أبى العلاء، فلن يكون إلا عن معابثة أرادها وقعد لها، وإلا، فإن أبا العلاء لا يرضى لنفسه أن تنزله إلى هذا السخف فى مقام الجد أبداً . . وأنه إذا كان لأحد أن يتهم أبا العلاء فى دينه ، فإنه لاسبيل لأحد أن يتهمه فى أدبه ، فإن ذوقه للكلام،وبصره بمواقع الحسن والروعة فيه ـ يحميه من أن يزلّ وينزلق فيتصدّى لمعارضة القرآن، ويأتى بنفسه فى هذا البحر ليكون من المغرَقين . . إن المعرّى لأعقل من هذا ، وأعرف الناس بمكانة القرآن ، ومكان الناس منه . . وقد عُرف عنه أنه كان دائماً يزيّن أدبه بما يَقْبِس من كلمات القرآن ، وآياته . . فهل من يفعل هذا يتصدى للقرآن معارضاً أو يلقاه منازلا ؟

استشفع لقوم عند أمير « المعرّة . أسد الدولة . . فقال له فيما قال : مولانا السيد الأجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها — كالنهار المانع[4] ، اشتد هبيره[5]

(١) مكفوف : أى قصير (٢) العائذة : الطفلة الصغيرة

(٣) معجم الأدباء / جزء / ٣ ص ١١٠ (طبعة دار المأمون)

(٤) النهار المانع : يقال منع النهار إذا ارتفعت شمسه ، وبلغت غاية ارتفاعها.

(٥) الهبير : لفح الحر .

وطاب إبراده[1] وكالسيف القاطع ، لان صفحه ، وخشن حداده : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »[2] .. أهذا شأن من يعارض القرآن، ويتصدى له ؟ وهو يغرف من بحره ، وينظم من درره ؟

ويسجل أبو العلاء فى « رسالة الغفران » رأيه صريحاً قاطعا فى إعجاز القرآن .. فيقول : « وأجمع ملحد ومهتدٍ أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالإعجاز ، ولقى عدوّه بالإرجاز ، ماحُذِى على مِثال ، ولا أشبه غريب الأمثال .. ماهو من القصيد الموزون ولا الرجز ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس، لو فهمه الهَضْب لتصدّع ، وإن الآية منه أو بعض الآية لتَعْرِض فى أفصح كَلِم يَقْدِر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جُنح غسق ، والزهرة البادية فى جَدُوب .. «فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين»[3] .

وكفى بهذا حجراً يَرْمى به أبو العلاء فى فم المتخرصين عليه ، والمتقدمين به فى معركة لم يخضها ، ولم تنزع به نفسه إلى الدخول فيها أبداً ..

وإذ بطل مايدعيه المدّعون للنبى الكاذب « مسيلمة » ، وبطل ما يدّعيه المدّعون للأديب الصادق : « المعرى » فقد بطل كل قول يقال فى معارضة القرآن من أدعياء نبوّة ، أو أرباب بيان !

[تم بحمد الله]

---

(١) الإبراد : البرد الذى يعقب الحر ، وذلك فى الغداة والعشى (الأبرداق) .

(٢) معجم الأدباء جزء ٣ .

(٣) رسالة الغفران ص ٢٦٣ .

فهرس

الصفحة

الباب الأول

الباب الثانى

الباب الثالث

الصفحة

الصفحة

الباب الرابع

شبهات ... ودعاوى ... ومفتريات

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢١٥/١٩٧٣